

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي مرسلې عبد الله - تيبازة



وفاء البحث العلمي

مجلة علمية محكمة يصدرها
المركز الجامعي مرسلې عبد الله - تيبازة

العدد التاسع

ديسمبر 2016

قواعد النشر

- 1- تنشر المجلة الأبحاث والدراسات العلمية والفكرية والأدبية في تخصصات العلوم الإنسانية، الاقتصادية، الاجتماعية، الحقوق والعلوم السياسية مكتوبة باللغة العربية، الفرنسية، والانجليزية.
- 2- أن يكون المقال أصليا وجديدا، لم يسبق نشره من قبل، ويجب أن لا يكون مقدما للنشر لآية مجلة أو مؤتمر، او لم يسبق رفض نشره في أية مجلة أو مؤتمر وعلى الباحث تقديم تعهد مستقل بذلك.
- 3- يقدم الأصل مطبوعا على ورق (A4) بنسخة واحدة مع قرص مدمج (CD) على أن لا يقل عدد صفحاته عن 10 ولا يزيد عن 20 صفحة بخط SimpeliedArabic حجم 14 على صيغة (Word)، على أن ترقم الصفحات ترقيما متسلسلا.
- 4- تقديم ملخص للبحث باللغة العربية، وآخر اختياري باللغة الفرنسية أو الانجليزية، كل في صفحة مستقلة على أن يحتوي ذلك عنوان البحث، ويكون الملخص بحدود 350 كلمة.
- 5- يكتب عنوان البحث واسم المؤلف، ورتبه العلمية، والمؤسسة التي يعمل فيها على صفحة منفصلة، ثم يكتب عنوان البحث مرة أخرى على الصفحة الأولى من البحث دون ذكر الاسم.
- 6- أن توضع المراجع في نهاية المقال مع ذكر أرقامها. حيث إذا كان المرجع مقالا يذكر اسم المؤلفين، اسم المجلة، ورقمها، وسنة نشرها، أما بالنسبة للكتب يذكر فيها اسم المؤلف، عنوان الكتاب، اسم الناشر، مكان النشر، سنة الطبع، ورقم الصفحة.
- 7- التأكد من ضبط الآيات القرآنية الكريمة والحديث النبوي. الشعر، والألفاظ غير المألوفة والتي هي بحاجة إلى الضبط.
- 8- الاهتمام بسلامة اللغة، وقوة العبارة مع جمع التوثيقات والإحالات في نهاية الدراسة.
- 9- كل مقال لا يحترم المقاييس التقنية والمنهجية والقيم لا ينشر.
- 10- تخضع البحوث المقدمة للتحكيم العلمي، لا ترد البحوث التي تلقتها المجلة إلى أصحابها، نشرت أم لم تنشر.
- 11- يمكن أن يسلم للباحث وعد بالنشر إذا تم الموافقة على بحثه، كما يمكن تسليم شهادة النشر قبل صدور العدد من المجلة.

الهيئة العلمية للمجلة

- د/ رابح فضيلالمركز الجامعي تيبازة - الجزائر
- د/ عبد الحميد بورايوالمركز الجامعي تيبازة - الجزائر
د/زهير بوعمامةالمركز الجامعي تيبازة-الجزائر
- د/ عيسى قادريجامعة باريس 8 -فرنسا
- د/ عمار جفالجامعة الجزائر -3 -الجزائر
- د/ فضيلة جنوحاتالمركز الجامعي تيبازة -الجزائر
- د/ محمد آيت ميهوبجامعة تونس -تونس
- د/ علي بزيالجامعة اللبنانية -لبنان
- د/ مسيكةبوقامة المركز الجامعي -تيبازة
- د/ صخري عمرالمركز الجامعي تيبازة
- د/ يزيد بن شعبانجامعة العين الإمارات العربية المتحدة
- د/ مراد محموديالمركز الجامعي تيبازة الجزائر
- د/ عبد النور بن عنترجامعة باريس 8 فرنسا
- د/ توفيق يچ بچجامعة مالايا -ماليزيا
- د/ بثينة شريطالمركز الجامعي تيبازة
- د/ محمد محمدو ايمانجامعة نواكشوط موريتانيا
- د/ الشريف مريعيجامعة الجزائر -1 الجزائر
- د/ حسن البهراويجامعة الرباط -المغرب
- د/ جمال محمد السيد الصلحجامعة القاهرة مصر
- د/ بن بوزيانمحمد جامعة تلمسان
- د/ العياشي عنصرجامعة قطر-قطر
- د/ سعيد بن كرادجامعة الرباط-المغرب
- د/ عمار بوضيافجامعة تبسة- الجزائر
- د/ عطيل أحمدجامعة ران- فرنسا
- د/ نعيمة نصيبالمركز الجامعي
- د/ عمر فرحانيجامعة بسكرة-الجزائر
- د/ جلال عبد القادر
- د/ مانع عمارجامعة الجزائر تيبازة الجزائر
- د/ جمال الدين سحنون
- د/ بن لكل نوالجامعة الجزائر تيبازة الجزائر
- د/ يونس محمد
- د/ كمال ديب
- د/ سعيد عموري

مجلة علمية محكمة يصدرها المركز الجامعي مرسلني عبد الله -تيبازة

العدد التاسع
ديسمبر 2016

المدير المسؤول

الأستاذ الدكتور رابح فضيل
مدير المركز الجامعي

رئيس التحرير

د/زهير بوعمامة

مساعدة رئيس التحرير

عدة آسية

الإخراج و الجرافيك

ج . حمادي

م . زواوي

الإشراف الفني

MEDINFOTRACE communication

ان المقالات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

عنوان المراسلات

دفاقر البجور العلمية

المركز الجامعي

مرسلني عبد الله _ تيبازة

وادي مرزوق 42022 تيبازة

majalatipaza@gmail.com

فهرس المحتويات

1 - اثر برنامج تدريبي باستخدام * الأنترنت * على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الاردن 7	د. عدنان محمود عودة الطوباسي
2 - دور جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا في فكرة الوحدة بين بلدان المغرب العربي 36	د. كرليل عبد القادر
3 - تباين الاتجاهات نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية وحظوظ التوافق الزوجي في الأسرة الجزائرية 58	د. ايت عيسى حسين
4 - تاريخ الدراسات حول الآثار الغارقة في منطقة شرشال 81	د. خلاف رفيق
5 - صراع الثقافات من خلال رواية «رحلة بالداसार» لامين معلوف 93	د. بوخالفة ابراهيم
6 - أبعاد المشروطة القانونية في إطار «سياسة الاروبية للجوار» 113	د. خطاب فؤاد
7 - تنظيم العمل وانعكاساته على إنتاجية المؤسسة دراسة ميدانية على مستوى المؤسسة الوطنية للدهن بالشرافة- الجزائر 125	د. لادي بديعة
8 - توحيد المصطلح العلمي في الوطن العربي - جهود وعوائق 139	أ. مصطفى زماش
9 - البرامج التلفزيونية الموجهة إلى الطفل العربي وأثارها على القيم والسلوكيات 153	أ. لوييزة درار
10 - الائتمان الايجاري كتقنية لتمويل المؤسسة الاقتصادية في الجزائر 173	د. بلڪحل نوال / د. الاغا تغريد / أ. الاغاسعاد
11 - المحددات الشخصية والبيئية للطموح عند الشباب 188	د. بكير مليكة
12 - الدافعية للانجاز وعلاقتها بمستوى الطموح ودرجة التفاؤل وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي 213	أ. شنون خالد
13 - ابن حجلة التلمساني وما بقي من مقاماته 231	أ. قهلوز عبد القادر
14 - حق المجتمع الدولي في العقاب على ضوء النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية 247	أ. ولد يوسف مولود
15 - الحلقي القضية للمرأة الريفية والصحراوية - ارث وهوية 266	أ. فائزة طهراوي.
16 - المرفق العام وإشكالية إصلاح الخدمة العمومية في الجزائر 283	أ. شرفي بن يوسف
17 - المداخل الاجتماعية لدراسة الصحة العامة والسلوك الصحي 300	د. مانع عمار
18- Récente évolution du droit Algérien ; Adaptation des droits d'auteur et du domaine de la santé aux TIC 1	M. LERARI NAWAL
19- L'efficacité du traitement familial dans le redressement des relations et son impact sur le comportement agité chez l'enfant handicapé 29	M.Touhami Soufyne, D.Houti Souaad

الافتتاحية

كلمة السيد مدير المركز الجامعي

هاهي مجلة دفاتر البحوث العلمية تشق طريقها بثبات وهي تصدر العدد التاسع بحسدة بذلك عزم إدارة المركز الجامعي مرسلي عبد الله — تيبازة — على متابعة سعيه الدؤوب لأجل وضع الأسرة الجامعية داخل المؤسسة وخارجها في سياق حركية علمية مستدامة ضمن رؤية دعامتها ترقية وتحفيز البحث العلمي الجاد والمفيد، وبذل الجهد لأجل التمتع في الفضاء العلمي الرصين، والمضي قدما بمرکزنا لجعله في مصاف المؤسسات الجامعية المتميزة.

واني ألاحظ بكل ارتياح قدرة المجلة في كل مرة على تجديد نفسها وتقديم الجديد بما يرد إليها من أبحاث ودراسات لأساتذة وباحثين، يزداد التفاهم حول المجلة يوما بعد يوم، محققة بذلك خطوات كبيرة باتجاه أن تكسب رهان التحول إلى فضاء علمي محترم، يساهم في إثراء الساحة العلمية والثقافية داخل الجزائر وخارجها.

أتمنى أن يجد الأساتذة والباحثون والطلبة وعموم القراء في العدد الجديد ما يفيدهم ويلبي شغفهم وفضولهم المعرفي الدائم.

ولا بد لي من وقفة شكر وامتنان، أتوجه بها إلى الفريق المشرف على المجلة لجهودهم ولثابرتهم التي أثمرت تميز هذا المنبر واستمراريته وإلى كل من ساهم في هذا العدد وبالله التوفيق.

مدير المركز

الأستاذ الدكتور رابع فضيل

كلمة العدد

أعزائي القراء.....

بضع سنوات مضت منذ صدور العدد الأول من مجلة -دفاتر البحوث العلمية- في مارس 2013، استطاعت من خلالها مجلتنا أن ترسم ملامحها وتحدد طموحها وتعطي مؤشرات أولية لتوجهها الذي يتوخى الجدية والانفتاح على مشارب الإبداع المعرفي والعمل البحثي الرصين. وبين العدد الأول والعدد التاسع الذي نعتز بوضعه بين أيدي قرائنا الأوفياء، اتسعت دائرة علاقات المجلة وزادت أفاق رؤيتها الطموحة لان ترسخ نفسها نافذة معرفية محترمة تسهم في النهوض بالبحث العلمي في مؤسستنا الفتية وهي تقطع أشواطاً جديدة في سيرتها العامة بالإنجازات، رغم حداثة العهد والتباعد بين أفق الطموح والمتوفر من الإمكانيات. إن النشر العلمي يعد تحدياً حقيقياً لكثير من الأساتذة والباحثين، وقد حاولت -دفاتر البحوث العلمية- أن تشكل منبراً مفتوحاً يمنح الفرصة لجميع الباحثين من مختلف المؤسسات والتوجهات والتخصصات في العلوم الإنسانية والاجتماعية لتقديم بحوثهم بعد التحكيم العلمي الجاد قبل إجازة نشرها، ديدنها الوحيد في ذلك حرصها على انتقاء أعمال متميزة وذات قيمة علمية عالية.

إننا نهدف إلى الارتقاء بدوريتها إلى مصاف الدوريات الأكاديمية التي تقوم بدور جوهري في حركة البحث العلمي بمؤسساتنا الجامعية، من خلال إنتاج المعرفة وتدويرها ونشرها على أوسع نطاق ممكن.

ومرة أخرى، انتهز هذه السانحة للترحيب بكل الأقلام الجادة والمتخصصة للإسهام معنا في تكريس حضور متميز لمجلتنا وإثرائها بدراساتهم الأكاديمية الرصينة والمفيدة.

كما أوجه تحية تقدير إلى الزملاء الأساتذة المحكمين الذين تستعين بهم المجلة للنظر في الأبحاث المقترحة وتحكيمها وتقييمها، ونحن نجد منهم في كل مرة كامل الاستعداد للتعاون والإسهام في الارتقاء بمضامين الأعمال المنشورة.

كلنا رجاء أن نوفق في أن نحقق لقرائنا الأعزاء الفائدة التي ينشدونها بما نقدمه لهم من خلال هذه الفسحة العلمية من أبحاث ودراسات جديدة ومتنوعة.

والله الموفق لنا جميعاً.

رئيس التحرير
د/ بوعمامة زهير

« أثر برنامج تدريبي باستخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن ».

الدكتور: عدنان محمود عوده الطوباسي

قسم الارشاد النفسي - كلية الاداب والفنون - جامعة فيلادلفيا

ملخص الدراسة :

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أثر برنامج تدريبي باستخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن وذلك من خلال الإجابة عن سؤال الدراسة :

ما أثر استخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن ؟
وتحقيقاً لهدف هذه الدراسة قام الباحث بتطبيق برنامج تدريبي للتعرف على أثر استخدام الإنترنت على أساليب التعلم لدى أفراد الدراسة. وقد تكون البرنامج من (15) حصة صفية تناولت موضوعات تناسب مستويات الطالبات ودرجات اهتمامهن بتلك الموضوعات المدرسية المقررة في المنهاج المدرسي المخصص لهن، وقد تم تطبيق البرنامج على عينة الدراسة التجريبية من خلال اختبار قبلي وبعدي.
وقد تكونت عينة الدراسة من (70) طالبة من طالبات مدرسة عين جالوت الثانوية في مدينة عمان وتم تقسيمهن بالتساوي إلى مجموعتين : المجموعة الضابطة وتكونت من (35) طالبة، والمجموعة التجريبية وتكونت من (35) طالبة.

وأظهرت نتائج البرنامج التدريبي تفوق أفراد المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة في أساليب تعلمهن بدرجة واضحة، حيث وصل مستوى التعلم عند أفراد المجموعة التجريبية المرتبة الرابعة بينما ظل على ما هو عليه في حالة العينة الضابطة وهو المستوى الثاني، وهذا يدل على أن البرنامج كان ذا تأثير فعال على تطوير مستوى التعلم عند الطالبات، بحيث انتقلن من المستوى الثاني وهو المشاهدة التأملية إلى المستوى الرابع وهو المفاهيم المجردة، بالإضافة إلى التحسن الواضح بالنسبة لأفراد العينة التجريبية في نهاية التجربة مقارنة ببدايتها.

Abstract :

The effect of a training program using (internet) on the learning Styles of Jordanian secondary school students

This study aimed to determine the effect of a training program using (internet) on learning styles of Jordanian secondary school students. To achieve the objective of this study, the researcher developed a training program to determine the effect of using internet on the learning styles of the study members. The program consisted of (15) teaching sessions and covered various topics that fit the level of schooling of the members of the sample used and their interest in the various subjects of their school curriculum.

The study sample consisted of (70) female students, and was selected from Ain-Jalout Secondary School in Amman, and they were divided equally into two groups, mainly the experimental and the controlled.

Before applying the training program, the researcher gave a pre-test to the experimental and controlled groups to compare their initial learning styles. On completion of the program, a post test was given to both groups to compare their learning styles and to determine the effect of the program used.

Results of the training program showed superiority of members of the experimental group compared to individuals of the controlled group. In addition, it showed substantial improvement regarding the learning styles in the case of the experimental group as compared to the level of their learning styles at the beginning of the study, which reached level four, while the level of the controlled group remained at level two. This indicated that the training program had a marked effect on changing the level of the learning styles of the train

تمهيد :

تعد شبكة الانترنت احد اهم مصادر المعرفة في هذه الايام خاصة وانها من السهولة بمكان استخدامها بما تحويه من جميع فروع المعرفة الانسانية وبما توفره من وقت وجهد للباحثين عن المعرفة والطلبة ومستخدمي هذه الشبكة وما تقدمه من خدمات عن طريق الويب والمحادثة الالكترونية واتاحة اكبر تلاقي بين الشعوب عن طريق المؤتمرات والاجتماعات ووسائل الفيديو والبريد الالكتروني وتطبيقات الهواتف الخلوية الذكية وغيرها (الشاعر 2015)

وتعد ثورة التكنولوجيا والاتصال والمعلومات انعطافاً هائلاً في الحياة البشرية، حيث شهدت ظهور تقنيات جديدة ومتعددة الاستخدامات، كان من بينها الهاتف النقال الذي يقدم خدمات كثيرة لمستخدميه. (طاهات وآخرون، 2014)

ومنذ أن عرف الإنسان الحاسوب وهو يعيش حالة متجددة تصاحب العملية التعليمية، فقد أصبح الحاسوب وتطبيقاته جزءاً لا يتجزأ من حياة المجتمعات العصرية، ثم ولدت شبكة الإنترنت من رحم هذه التقنية فأحدثت طوفاناً معلوماتياً، وأصبح لزاماً على كل مجتمع يريد اللحاق بالعصر المعلوماتي أن ينشئ أجياله على تعلم الحاسوب وتقنياته ويؤهلهم لمواجهة التغيرات المتسارعة في هذا العصر، وقامت بعض الدول بوضع خطط معلوماتية استراتيجية لجعل الحاسوب وشبكة الإنترنت عنصراً أساسياً في المنهج التعليمي، وتختلف خطط إدخال المعلوماتية في التعليم تبعاً لاختلاف الدول (الفتوخ وعبد العزيز، 2003).

وتعتبر شبكة الإنترنت من أبرز ما توصل إليه العلم الحديث من تكنولوجيا متقدمة لها الأهمية الكبرى في الوقت الحالي في مجال التعليم والتعلم. فهذه التقنية الحديثة فرضت واقعاً جديداً على المفاهيم التربوية بصفة عامة وعلى عمليتي التعليم والتعلم بصفة خاصة، وأحدثت تغيرات جذرية في طرائق التدريس.

إن الاعتماد المكثف على الحاسوب وشبكاته في التعليم، قد جعل من الإنترنت ضعفاً لا يستأذن للدخول إلى الجامعات والمدارس، فضلاً عن دورها في إعادة تنظيم العملية التعليمية، فظهر بذلك التوجيه التعليمي الجديد في ضوء فلسفة عملية عامة غير محدودة بزمان أو مكان (الفار، 2002).

ويتوقع أن يكون نموذج التعلم عن بعد باستخدام الإنترنت النموذج المفضل للتعلم في مجتمع المعلومات المقبل وهو التعلم الإلكتروني سيؤدي إلى استخدام أقل للمواد الأرضية من أوراق وأقلام وبترول، حيث أن كلفة الاتصال بالجامعة ستكون أقل من سعر البترول الذي يحتاجه الطالب للذهاب إلى الجامعة. وسيوفر كذلك الوقت والجهد البشري ويسهم في تطوير الإنسان الذي سيحتاج للتعليم مدى الحياة.

إن الدور التربوي للإنترنت دور واسع وغني، ولعل أهم العوامل التربوية التي ترسخها الإنترنت هي تنمية مهارات الاستطلاع والتعلم الذاتي. وفي التطبيق العملي لهذا الدور على الحالة التعليمية نجد أن الإنترنت بدأت في صياغة شكل جديد للتعليم والتعلم الاستكشافي المفتوح، وبشكل يتجاوز من ناحية وظيفية المفاهيم العامة لكل من

التعلم عن بعد، إلى التعلم الاستقلالي الذاتي المرتبط في الوقت نفسه بجماعية التعلم. وهذا الدور أخذ في البروز مع ظهور العديد من الجامعات الإلكترونية وبشكل يتداخل معرفيا مع سهولة الحصول على المعلومات ذات الناتج التعليمي بشكل أيسر وأسهل وأسرع (عبد الله، 2001).

لقد بدأ تطبيق الشبكة العالمية (الإنترنت) في المدارس والجامعات منذ عام 1994 وسرعان ما ازداد استخدامها وتوظيفها في شتى مجالات الحياة، واليوم نلاحظ أن جميع المدارس والجامعات والمكتبات العامة في أمريكا وبريطانيا مرتبطة بالإنترنت، وقد فتحت الإنترنت فرصا واسعة للمستخدمين في شتى مجالات الحياة التجارية والاجتماعية والعلمية، حيث أنها تصل إلى المستخدم حيثما كان وتربطه بشتى أصناف المعرفة (الرئية والمسموعة) وتربط جميع عناصر المجتمع في بيئة شبه واقعية بكل ما يعنيه ذلك من متغيرات حسية ومعنوية (العريني، 2002).

إن توصيل المدارس مع شبكة الإنترنت من شأنه أن يقدم العديد من الفوائد التي من أبرزها: الوصول إلى مصادر المعلومات والحصول على الأخبار وأوراق البحث والإحصائيات والمساعدة في كتابة الواجبات من خلال المراجع الغزيرة المتوفرة على الشبكة واستشارة الخبراء في حل المسائل عبر الإنترنت.

ومن خلال الشبكة يتوفر للطالب وأهله وسيلة متابعة برامج الحصص والنشاطات اليومية ونتائج الامتحانات وتحسن مهارات المطالعة. ومن خلال المواقع المتعددة يتم تحسين المهارات التكنولوجية للاتصال والبحث عن المعلومات وتحقيق الاتصال مع الآخرين والحوار بين الآباء والمدرسين مما يعزز تفاعلية العملية التعليمية والتربوية (بسيوني، 2002).

وترجع أهمية إنشاء شبكات الإنترنت بمدارسنا لكونها تعمل على حصول الطلاب والمعلمين وإدارة المدرسة على قدر هائل من المعلومات العلمية المتخصصة التي تعرض بأشكالها المتنوعة ومنها النصوص المكتوبة والرسومات والصور والحركة والمؤثرات الصوتية ولقطات الفيديو، كما أنها تعمل على تيسير اتصال الطلاب بمعلميهم في أوقات غير أوقات العمل الرسمي لمناقشتهم في المادة التعليمية والواجبات المنزلية، كما أنها تعمل على تدريب التلاميذ على استخدام تكنولوجيا الاتصال والمعلومات الحديثة منذ الصغر حتى يكونوا قادرين على التفاعل معها والمشاركة فيها عندما يكبرون (الفار، 2002).

إن التعليم عن طريق الإنترنت يتيح للطلاب إدارة جيدة للوقت، ودافعية علمية للتعلم والتعرف على التطور المستمر في عالم التكنولوجيا. وهذا يتطلب من الطلبة

مهارات جيدة لاستخدام الإنترنت حتى يستطيعوا التنقل بسهولة ويسر بين العديد من المواقع التعليمية. ومقارنة بالتعليم التقليدي فإن التعلم عن طريق الإنترنت لا يتيح للطالب التفاعل الاجتماعي فهو يتعامل مع شاشة جامدة، ويقضي فترات طويلة من الوقت أمامها بعيداً عن المشاركة الصفية والحوار الذي يوفره التعليم التقليدي (Lazars, 2002).

ولذلك من الممكن أن تستخدم المدارس طرق عدة للمواد والمواضيع على الإنترنت بحيث تقوم بتخزين هذه المواد على الموقع الخاص بالمدرسة وجعلها متوفرة لدى الطلبة وتزويدهم بها عن طريق البريد الإلكتروني أو وسائل التكنولوجيا الأخرى مما يتيح للطلبة كافة الوصول إلى هذه المعلومات بسهولة ويسر ودون تكليف (Sydney, 2001).

إن الإنترنت يقدم للطلبة مداخل غير محددة للمعلومات الرسمية وغير الرسمية عن أي مركز علمي أينما كان، فالمعلومات التي يحصل عليها الطالب من الإنترنت وهو في بيته وإطلاعها على الصحف والأخبار اليومية من على الشاشة تشكل مصادر مختلفة له، لكن عليه أن يتأكد من دقتها والرجوع إلى مصادرها الرئيسية (Hartman, 2003).

ونتيجة لاستخدام الإنترنت في المدارس فقد وجد المعلمون أن الأطفال حققوا تطوراً متميزاً في مهاراتهم الأكاديمية الأساسية، واهتماماً بالقراءة وانتباهاً وتركيزاً أكثر، وتنسيقاً حركياً أكثر بين اليد والعين، واستقلالية وتعاوناً، وتطويراً في مهارات الذاكرة، وأن استخدام الإنترنت في المدارس قد جعل الأباء والمعلمين يهتمون اهتماماً كبيراً بتعليم التكنولوجيا مما أعطى بعداً جديداً لاستخدامها (Privera & Judy, 2000).

ولقد بدأت تجربة وزارة التربية والتعليم في استخدام الحواسيب منذ عام 1985 حيث تم توزيع (5000) جهاز حاسوب على مدارس المملكة لتدريس مادة الحاسوب للصف العاشر فقط، وفي 2000 قامت الوزارة بوضع خطة حوسبة التعليم في الأردن وبناء على هذه الخطة فقد تم البدء بتوزيع (40000) جهاز على 200 مدرسة أساسية وثانوية في كافة مناطق المملكة وتم ذلك بهدف إنشاء مختبرات للحواسيب في هذه المدارس ليكتمل توزيع هذه الأجهزة بحلول عام 2003 وليستفيد من هذه المختبرات حوالي نصف مليون طالب على مقاعد الدراسة.

أولا :

1- مشكلة الدراسة

إن لتكنولوجيا الاتصال الحديثة اثر في العديد من المظاهر المجتمعية بما أفرزته من تقنيات ووسائل مستحدثة، وبما أثارته من قيم وعادات وممارسات وطرائق جديدة وغير مألوفة، واهتم الباحثون بدراسة ذلك، فمنهم من درس العلاقة بين خصائص تكنولوجيا الاتصال وخصائص الأفراد الذين يستخدمونها، وعني باحثون آخرون بدراسة المقومات الإنسانية لعمليات الاتصال التي تتم باستخدام هذه الوسائل الجديدة، وقاموا بتحليل العوامل النفسية والاجتماعية والعوامل المتعلقة بالسياق المجتمعي الذي تتم فيه هذه العمليات الاتصالية، واهتم باحثون آخرون بدراسة طرق نشر وتبني الوسائل التكنولوجية الحديثة. كما عني آخرون بدراسة أثر هذه الوسائل التكنولوجية المتطورة على أساليب تعلم الطلبة داخل القاعة الصفية وامكانية الاستفادة منها في زيادة وعي هؤلاء الطلبة لما يدرسوه، وكيف يمكنهم الاحتفاظ به مدة أطول والاستفادة منه بالشكل الصحيح.

فمن الملاحظ أن استخدام الطلبة للحاسوب والإنترنت في حواراتهم ونقاشاتهم بالإضافة إلى الحوارات المباشرة يساعد على رفع قدرات هؤلاء الطلبة ودرجاتهم التعليمية بدرجة أكبر من الاقتصار على التعلم المباشر فقط. ومن المتوقع أن ما توفره تكنولوجيا الاتصال الحديثة للطلّاب من معلومات وبيانات إضافية عن المعلومات التي يتناولها وكيفية تناولها، أن يؤثر على طريقة دراسته لها وتفكيره فيها بحيث يخرج في كل ذلك من النطاق الضيق المعتاد إلى آفاق أكثر اتساعاً وأكثر فاعلية مما يؤدي إلى زيادة قدرته على التعلم والتحصيل.

وقد لفت انتشار استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة بما في ذلك الإنترنت في مجال التعلم الصفي اهتمام الباحث مما جعله يفكر في إجراء دراسة على المجتمع الأردني لمعرفة مدى فاعلية استخدام مثل هذه الأساليب التكنولوجية الحديثة على إمكانية تطوير الأساليب الدارجة التي يستخدمها الطلبة وفي طرق تناولهم للموضوعات الدراسية التي تعرض عليهم.

وبذلك فإن هذه الدراسة تهدف إلى معرفة :

«أثر برنامج تدريبي باستخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن»

وبشكل أكثر تحديدا ستحاول الدراسة الحالية وضع برنامج تدريبي لأفراد العينة يمكنهم من استخدام الإنترنت للبحث عن معلومات معينة في المناهج ويزودهم باستراتيجيات للبحث عن المعلومات، ويكسبهم مهارات تقييم المعلومات ويديرهم على طرق الاستفادة

منها، للوقوف على تأثير كل ذلك على أساليب تعلمهم، وبذلك يمكن تحديد سؤال الدراسة على النحو التالي :

ما أثر استخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن ؟

2- فرضية الدراسة

لا يوجد أثر ذو دلالة احصائية للبرنامج التدريبي القائم على استخدام وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن.

3- أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تعالج موضوعاً حيوياً في الأيام الحاضرة له صلة بتأثير وسائل الاتصال المختلفة على طرق تعلم الطلبة بوجه عام، ويمكن إيجاز هذه الأهمية بما يلي :

التعرف على أثر وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس.

قلة الدراسات الأردنية التي تناولت بالبحث والتحليل موضوع وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة (الإنترنت) وأثارها على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن.

تزويد الباحث العربي بمقياس لأساليب التعلم عند الطلبة لغايات البحث والدراسة في هذا المجال.

وترجع أهمية هذه الدراسة لكونها تعالج مشكلة حيوية في المجال التربوي المعاصر من حيث تركيزها على استخدام التكنولوجيا الحديثة كوسيلة مساعدة لعمليات التعلم والتعليم التي يقوم بها الطلبة، إضافة إلى أنها ستفسح المجال أمام دراسات ذات صلة بالموضوع في المستقبل في إطار العالم العربي.

4- محددات الدراسة :

لما كان تطبيق البرنامج المقترح يتطلب وجود مجموعات طلابية قادرة على استخدام كل من الحاسوب وشبكة الإنترنت بكفاءة وفاعلية، ولما كان مثل هذا الأمر غير متوفر في جميع المدارس إذ أن مثل هذه التقنيات المتطورة غير موجودة في هذه المدارس بالشكل المنشود، وقد وجد الباحث أن تقتصر دراسته على مجموعة من الأفراد لديهم مثل هذه المهارات المطلوبة، ويوجد في مدارسهم التجهيزات الفنية المطلوبة لهذا الغرض، ومن هنا تم اختيار طالبات مدرسة عين جالوت الثانوية للبنات لهذا الغرض.

كما تتحدد نتائج الدراسة بدرجة الاتقان والشمولية التي تم بموجبها بناء البرنامج المقترح من حيث درجة صلتها بتطوير أساليب التعلم عند الطلبة، علماً بأن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع عالمياً محدودة نوعاً ما.

ثانياً : التعريف بالمصطلحات

أ. وسائل الاتصال :

الأدوات التي تنقل بواسطتها الرسالة إلى أعداد كبيرة من الأفراد المنتشرين في أماكن متفرقة، وقد تكون الوسيلة إما سمعية أو بصرية أو سمعية بصرية معاً، وتختلف كل وسيلة عن الأخرى في نوع الجمهور الذي تتصل به، وفي نوع الرسالة التي تحملها، وفي التأثيرات التي تحدثها.

ب. الإنترنت : Internet

هي المنظومة العالمية التي تربط مجموعة من الحواسيب بشبكة واحدة. وهي في هذه الدراسة مجموعة من البرامج المتوافرة على شاشات الحواسيب كمصادر لتعلم الطلبة وتواصلهم.

ج. التكنولوجيا : Technology

توفير أجهزة الحاسوب ومستلزماته وغيرها من أجهزة حديثة تناسب العملية التعليمية.

د. أسلوب التعلم :

يقصد به الطريقة التي يستخدمها الفرد في معالجة ما يواجهه وما يعرض عليه من مواقف ومثيرات وخبرات تعليمية. وقسمه كولب إلى أربع أساليب متدرجة في الصعوبة وتنتقل تدريجياً من المحسوس إلى المجرد وهي:

الخبرة المباشرة، الملاحظة التأملية، التجريب النشط، المفاهيم المجردة.

و. البرنامج التدريبي :

مجموعة من الأنشطة واللقاءات التي تهدف إلى إكساب الطلبة المتدربين مهارات الإنترنت بهدف تطوير معارفهم وخبراتهم ولرفع كفاءاتهم وتحسين أدائهم.

ثالثا : الإطار النظري والدراسات السابقة :

إن تدريب الطلاب على أساليب التعلم من الأمور الأساسية التي تهتم بها عملية التعلم ويؤدي هذا التدريب إلى تمكينهم من المشاركة الفعالة في الأنشطة المختلفة بحيث تصبح المعرفة مجالا واسعا يوظف خلالها التلاميذ أفكارهم في حل المشكلات وفي التحليل والمقارنة والاستنتاج وعقد المقارنات. وإذا ما أتيحت للطلاب الفرص لتجريب ما يدرسون وتشجيعهم على ذلك نما تفكيرهم وتولدت لديهم القدرة على مواجهة المشكلات، ويساعد في ذلك تدريب الطلاب على جمع وتنظيم وتقويم المعلومات، ومقارنة الأشياء والأفكار وبيان أوجه الشبه والاختلاف بينها، والوصول إلى خلاصات واستنتاجات وعمل تنبؤات منها، واتخاذ القرارات والتحقق منها والتصرف على أساسها والعمل بفاعلية مع الآخرين وتحمل المسؤولية وتقبل الرأي الآخر (أبو سر حان، 2000).

1- أساليب التعلم عند كولب

يرى كولب أن أساليب التعلم تنقسم إلى أربع مستويات متدرجة في الصعوبة، وتنتقل تدريجيا من المحسوس إلى المجرد، وقد وصف هذه الأساليب الأربعة على النحو الآتي :

♦ الأسلوب الأول : وهو أسلوب الخبرة المباشرة : الذي يعتمد على الحدس أكثر من المنطق وفيه يعتمد الفرد على التحليلات التي يقوم بها غيره بدلا من قيامه بها شخصيا، وبعبارة أخرى فالتعلم في هذا المستوى يحاول أن يربط تعلمه بمواقف حياتية حقيقية، وهذا يعني أن المتعلم في هذا المستوى يميل إلى الاعتماد على الخبرة المباشرة والحسية أكثر من ميله إلى الاعتماد على الخبرات المجردة وغير المباشرة في حياته.

♦ أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب المشاهدة التأملية : وفي هذا المقام يحاول المتعلم أن ينظر إلى الشيء الواحد من عدة زوايا وهو يميل إلى عمليات الملاحظة أكثر من ميله إلى عمليات التجريب الحسي، أنه يميل إلى جمع المعلومات وإيجاد تصنيفات متعددة لها وهو يستخدم خيالاته الذاتية في حل المشكلات التي تعترضه ويكون في حالة هذا المستوى حساساً جداً إلى المشاعر المحيطة به عندما يباشر عمليات التعلم.

♦ أسلوب التجريب النشط : وفي هذه الحالة يحاول المتعلم أن يقوم بحل المشكلات التي أمامه وإيجاد حلول عملية لها يستخدمها في تعلمه وهو يحاول ما أمكنه الابتعاد عن المواقف الاجتماعية والشخصية، ويفضل الانخراط في المهام التقنية والعملية.

♦ أما الأسلوب الرابع وهو الأسلوب القائم على التعلم المجرد : فيكون المتعلم في حالته دقيقاً ومنطقياً، وتكون الأفكار والمفاهيم المجردة أهم إليه من المشكلات التي يأتي بها الآخرون، ويتميز التعلم في هذه الحالة باللجوء إلى التفسير المنطقي للأشياء أكثر من التفسير العملي لها.

وفي هذا العصر حيث الطلبة أمام ثراء المعرفة ووفرة المعلومات فإن هذا يتطلب من الطالب توسيع مداركه وآفاقه، وليس مجرد القراءة فقط وإنما البحث عن المعلومات وتنظيمها ومحاكمتها واستخلاص المفيد منها بما يطور قدراته وأساليب تعلمه وتفكيره، ومن هنا استندت هذه الدراسة في إطارها التنفيذي على نظرية معالجة المعلومات التي سيتم التعريف بها وبأساسياتها في الحديث التالي.

2- نظرية معالجة المعلومات

يستند البرنامج التدريبي الذي ستستخدمه الدراسة الحالية إلى نظرية معالجة المعلومات، هذه النظرية التي تولي التعلم أهمية كبيرة، حيث تعنى في بحث وتوضيح الطرق التي يسلكها الأفراد في عملية جمع المعلومات وتنظيمها ومعالجتها وتخزينها ومن ثم استذكارها (Atkinson 2003).

إن أساليب التعلم المستندة إلى نظرية معالجة المعلومات تبين الطرائق التي يتأثر فيها الناس بما يحيط بهم من مشيرات بيئية، وكيف ينظمون البيانات والمعلومات التي تصل إليهم وكيف يتحسسون المشكلات التي تواجههم، وكيف يستخدمون الرموز اللفظية وغير اللفظية في التعبير عن ذلك. ومجال أنماط معالجة المعلومات واسع جداً، ويقدم للمعلم عدة وجهات نظر حول طرائق وتفكير الطلاب إضافة إلى مجموعة من تقنيات تحسين القدرة على التفكير وأساليبه الفعالة (بني جابر وعبد العزيز والمعاينة، 2002).

افتراضات نظرية معالجة المعلومات

وهذه النظرية تعتبر أن التعلم عملية نشطة وأن المعرفة السابقة والمهارات المعرفية تؤثر على التعلم، وهذه النظرية تشبه طريقة عمل التفكير البشري بعمل الحاسوب، ولذلك

فهي تستخدم اصطلاحات مثل المدخلات، وطرق المعالجة، والمخرجات، وأكثر ما تهتم به نظرية معالجة المعلومات هو شرح بناء التفكير وتوضيح العوامل الداخلة فيه ودراسة العوامل التي تؤثر على الذاكرة مع التقدم في العمر وبعض الأساليب التي تعين في سرعة استرجاع المعلومات المخزونة من مثل المراجعة والتنظيم ومعرفة ما وراء المعرفة (عدس، 1999).

وتقدم نظرية معالجة المعلومات افتراضيين مهمين عن التعلم هما (قطامي وعدس، 2002) :

إن التعلم عملية نشطة ولذلك يجب أن نقوم نحن بالبحث عنها واستخلاص ما نراه مناسباً منها.

إن المعرفة السابقة تؤثر على التعلم وتسهل من أمره.

وتركز نظرية معالجة المعلومات تركز اهتماماتها على المدخلات وطرق الاختزان وطرق الاسترجاع وأن المعلومات التي تأتي إلينا تمر بثلاث مراحل حيث تتم معالجتها وهذه المراحل هي : المسجل الحسي في المرحلة الأولى، وفيها يتم تسلم المعلومات والاحتفاظ بها لجزء من الثانية، والمرحلة الثانية هي الذاكرة قصيرة المدى حيث تتم المعالجة المطلوبة، ثم المرحلة الأخيرة وهي الذاكرة طويلة المدى حيث يتم فيها تخزين المعلومات (2003).

رابعاً: الدراسات السابقة :

قام الباحث بالبحث عن الدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع هذه الدراسة من خلال شبكة الإنترنت والدوريات العلمية المتوفرة ورسائل الماجستير والدكتوراه، وقد وجد أن الدراسات الخاصة بأساليب التعلم محدودة العدد بشكل كبير وذلك لحدثة الاهتمام بهذا النوع من الدراسات.

وبناء على ماسبق سيقوم الباحث باستعراض الدراسات التي توفرت لديه والتي دارت حول أساليب التعلم بشكل أو بآخر ومن ثم سيقوم بعرض النتائج ذات الصلة باستخدام الحاسوب والإنترنت بجوانب العملية التعليمية المختلفة والتي يرى الباحث أنها ذات صلة بشكل أو بآخر بموضوع دراسته.

وفيما يلي استعراض لهذه الدراسات وأهم النتائج التي توصلت إليها :

1- الدراسات التي تناولت أساليب التعلم

وأجرت البوسعيدى (1999) دراسة حول أساليب التعلم المفضلة لدى عينة من طلبة المراحل الثانوية بمحافظة مسقط وعلاقتها بكل من الجنس والمستوى التحصيلي والتخصص الدراسي، هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أساليب التعلم المفضلة لدى عينة من طلبة المراحل الثانوية بمحافظة مسقط وعلاقتها بكل من جنس الطالب وتخصصه الدراسي ومستواه التحصيلي. وقد تألفت عينة الدراسة من (866) طالبا وطالبة من طلبة الصف الثالث الثانوي تم اختيارهم من المدارس الحكومية التابعة لمحافظة مسقط للعام الدراسي 98 / 99، والتي وجد بها صفوف الثالث الثانوي، وقد تم اختيار صف علمي وصف أدبي بطريقة عشوائية من كل مدرسة، وتوصلت الدراسة إلى أن الأسلوب المفضل للتعلم لدى الصف الثالث الثانوي بمحافظة مسقط هو الأسلوب التنافسي يليه الأسلوب التعاوني وأخيرا الأسلوب الفردي، وتوصلت أيضا إلى عدم وجود أثر للتفاعل بين كل من الجنس والتخصص الدراسي والمستوى التحصيلي في تفضيل أفراد عينة الدراسة للأساليب الثلاثة.

وأجرى ويلكه (Wilke, 2001) دراسة من أجل تفصي أثر استراتيجيات التعلم النشط وتقنياته في طلبة إحدى جامعات ولاية تكساس الأمريكية من حيث التحصيل، والدافعية والفعالية الذاتية في مقرر (علم وظائف أعضاء جسم الإنسان) للطلبة الملتحقين به دون تخصص دقيق، وقد تم تطبيق نموذج للتعلم النشط يقوم على الاستمرارية طيلة الفصل الدراسي مع ربط ذلك بكل من جنس الطالب، ومعدله التراكمي وتخصصه، والدافعية، والفعالية الذاتية، والتحصيل وطبق الباحث دراسته على (171) طالبا وطالبة في جامعة غرب ولاية تكساس الأمريكية، وقد تم تدريس المجموعة التجريبية بواسطة نموذج التعلم النشط، في حين تم تدريس المجموعات الضابطة باستخدام طريقة المحاضرة التقليدية، وبعد ذلك قدم للطلبة اختبار في المقرر وأجابوا عن فقرات استبانة حول استراتيجيات تعزيز التعلم، واستبانة حول الاتجاهات، لتقدير أثر استراتيجيات التعلم النشط. وقد أشارت النتائج إلى أن المجموعة التجريبية من الطلبة قد اكتسبت معلومات أكثر وأفضل، وبدلالة إحصائية من المجموعات الضابطة وأنها كانت أكثر فاعلية منها، وأشارت نتائج استبانة الاتجاهات إلى أن الطلبة في المجموعات التجريبية والضابطة أظهروا اتجاهات إيجابية نحو التعلم النشط، معتقدين أنه يساعدهم على تعلم المواد التعليمية المختلفة، وأنهم سوف يختارون مساقا في المستقبل القريب عن التعلم النشط إذا اتاحت لهم الفرصة لذلك.

أجرى شرودر (2002) دراسة حول اساليب التعلم عند الطلبة الجدد في ولاية فلوريدا الأمريكية وأظهرت نتائج الدراسة أن 75% من الطلبة يفضلون نمط التعلم الحديسي، وأشارت الدراسة إلى أن الطلبة الجدد مقارنة بالطلبة القدماء مازالوا بحاجة إلى مزيد من الثقة ويريدون الكثير من الملاحظات من مدرسيهم. وبينت نتائج الدراسة أن الطلبة الجدد بحاجة إلى الكثير من البرامج والأنشطة المفتوحة وإثراء البيئة التعليمية بما يسد حاجاتهم ويشركهم في الواجبات التي تثير دافعهم وتنمي فيهم الثقة وتحفزهم على المبادرة وتقديم الأفكار الرائدة.

وأجرى سعادة وأبو زيادة وزامل (2002) دراسة حول أثر تدريب المعلمات الفلسطينيات على أسلوب التعلم النشط في التحصيل الآني والمؤجل لديهن في ضوء عدد من المتغيرات، وهدفت الدراسة إلى التعرف على أثر تدريب المعلمات الفلسطينيات على أسلوب التعلم النشط في التحصيل الآني والمؤجل لديهن في ضوء ثلاث متغيرات هي : التخصص الأكاديمي الدقيق، والمؤهل العلمي، وعدد الدورات التدريبية، وأظهرت نتائج الدراسة وجود فروق دالة إحصائية لصالح التدريب على التعلم النشط، مع عدم وجود فروق دالة إحصائية بين المعلمات الفلسطينيات، عينة الدراسة في أثر التدريب على أسلوب التعلم النشط، تبعاً لمتغيرات التخصص الأكاديمي الدقيق، والمؤهل العلمي، والدورات التدريبية التي تم حضورها من جانب المعلمات.

2- الدراسات التي تناولت الجوانب المختلفة للعملية التعليمية وتأثير الحاسوب والإنترنت عليها

وفي دراسة أجرتها رواند (Rowand, 2000) حول استخدام المدرس للحاسوب والإنترنت في المدارس الداخلية الأمريكية، أشارت الدراسة إلى أن 39% من المعلمين أشاروا إلى أنهم يستخدمون الحاسوب والإنترنت من أجل إنتاج المواد التعليمية، و10% من المدرسين من أجل البحث، وأظهرت الدراسة أن المدرسين الجدد لديهم قابلية أفضل لاستخدام الحاسوب والإنترنت لإنجاز أهداف التدريس المتنوعة يليهم المدرسون الذين لديهم خبرة تسع سنوات وأقل ثم الذين لديهم خبرة عشرين سنة وأكثر.

وفي دراسة سكاردماليا وبريتر (Scardamalia & Bereiter, 2000) عن استعمال الحاسوب كمادة مدعمة للمعرفة والثقافة، تم تطبيقها وتقييم فعاليتها من خلال ثلاث سنوات للتعرف على الاتجاه نحو الاستعمال ومدى نجاحه على طلاب المدارس الابتدائية والثانوية بمدينة (سيول) بكوريا الجنوبية، واختار الباحثان (1110) طالب وطالبة من المرحلتين السابقتين بالتساوي وقد توصلا إلى ما يأتي :

- ◆ بلغ اهتمام الطلاب بالمعرفة بنسبة تساوي 76٪.
 - ◆ أثبت طلاب المرحلة الابتدائية تفوقاً في حفظ المعلومات واسترجاعها سريعاً.
 - ◆ لا يمكن الاعتماد على طلاب المرحلة الابتدائية في مرحلة التقويم الذاتي لأهمية استعمالات الحاسوب.
 - ◆ كان طلاب المرحلة الابتدائية أكثر استعمالاً للحاسوب خاصة فيما يختص بالألعاب التعليمية المعرفية.
- وأجرى الهابس والكندري (2000) دراسة حول الأسس العلمية لتصميم وحدة تعليمية عبر الإنترنت وهدفت إلى معرفة الأسس العلمية لبناء وحدة تعليمية عبر الإنترنت، وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أبرزها :
- إن استخدام الإنترنت في مجال التربية والتعليم يسير بدرجة سريعة، وتزداد التطبيقات يوماً بعد يوم في عناصر كثيرة من العملية التعليمية
- استخدام الإنترنت كوسيلة مساعدة في بناء وحدة تعليمية يساعد على إيجاد منهج مميز يستخدم الصوت والحركة والصورة والنص معاً.
- إن أهم العوائق التي تقف أمام استخدام هذه الشبكة في المناهج هي إما مالية وتتمثل في توفير الأجهزة أو فنية وتتمثل في الوقت والانقطاع عن الخدمة، أو بشرية وتتمثل في عدم إعداد المعلمين أو الطلاب لاستخدام هذه الخدمة، وأخيراً العائق الإداري وهو عدم التخطيط لاستخدام هذه الخدمة.
- وفي دراسة ديورا وليزا (Deborah & Lisa, 2000) تم تقويم دمج استخدام تقنيات الحاسوب في مختلف التخصصات داخل الصف الدراسي بالمرحلة الثانوية، اختارت الباحثان 220 معلماً ومعلمة من 8 مدارس ثانوية في نيويورك لمعرفة كيفية تطبيق مرحلة التقدم لاستخدام تقنيات الحاسوب في العملية التعليمية في مختلف التخصصات العلمية والأدبية، واتضح أن هناك تفاعلاً كبيراً في اهتمام المعلمين والمعلمات لاستعمال التقنيات عبر الحاسوب الذي يتمشى مع التقدم الفعلي لمجال التعلم بالولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من أن الدراسة طبقت عن طريق المعلمين والمعلمات فقد ارتبطت عملية التقدم بالجدية لما لها من مهارات سابقة ومستمرة.

وقام كيتاو (Kitao, 2001) بإجراء دراسة حول استخدام الإنترنت في المدارس الثانوية في اليابان من أجل تعلم اللغة الإنجليزية والتواصل العلمي، حيث توصلت هذه الدراسة

إلى أن الإنترنت تعتبر أداة داعمة لتعليم اللغة الإنجليزية، كما توصلت الدراسة إلى أن المعلمين ينبغي عليهم أن يضعوا هدفا لكل درس تعليمي على أن يتم استخدام الإنترنت لتحقيق هذا الهدف، وإلى ضرورة تبسيط التعليمات المعطاة للطلبة باللغة الإنجليزية للوصول إلى الهدف، وإلى أن يقوم المعلم بنفسه بتطبيق الإجراءات لاستخدام الإنترنت أمام الطلبة لتوضيح ذلك أمامهم كما أشارت الدراسة إلى ضرورة أن يكون لدى المعلم مواقع ذات علاقة بالدرس للاستفادة منها.

وأجرى شيراتودين (Shiratudin, 2001) دراسة حول الإنترنت كطريقة للتدريس على مجموعتين من الطلبة المميزين الذين يدرسون نظم المعلومات، وهدفت الدراسة إلى معرفة أهمية الإنترنت كاستراتيجية تعليمية، وخضعت المجموعة التجريبية إلى تعلم مساقات عبر الإنترنت فيما كانت المجموعة الضابطة تستخدم الكتاب المقرر وأسلوب المحاضرة. وتوصلت الدراسة إلى أن إدخال الإنترنت كطريقة للتدريس أثر على أداء التلاميذ بصورة إيجابية وزاد من معلوماتهم ودعت الدراسة إلى إدخال الإنترنت كاستراتيجية وكمطلب إجباري وكمصدر أساسي يسهم في إثراء العملية التعليمية واكتساب المهارات.

وأجرى العجلوني وصبح (2003) دراسة كان من أهدافها معرفة أثر استخدام الحاسوب في تدريس الرياضيات لطلبة الصف الأول الثانوي العلمي على تحصيلهم واتجاهاتهم نحو الحاسوب، استهدفت هذه الدراسة استقصاء أثر استخدام طريقة تدريس الرياضيات على تحصيل طلبة الصف الأول الثانوي العلمي مقارنة بالطريقة التقليدية في التدريس. وقد تكونت عينة الدراسة من (60) طالبا وطالبة منهم (36) طالبا و(24) طالبة من مدرستي دار الأرقم الإسلاميتين الثانويتين للبنين والبنات التابعتين لمديرية التعليم الخاص في محافظة العاصمة للعام الدراسي 1999 / 2000 م، وقد وزع أفراد عينة الدراسة إلى أربع مجموعات : مجموعتي الذكور (ضابطة وتجريبية) ومجموعتي الإناث (ضابطة وتجريبية)، وقد دلت نتائج الدراسة على وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($= 0.05$) في تحصيل الطلبة في الرياضيات تعزى إلى طريقة التدريس ولصالح المجموعة التجريبية، كما دلت على وجود أثر ذي دلالة إحصائية في التحصيل يعزى إلى جنس الطالب ولصالح الذكور، ولم يوجد أثر دال إحصائي في تحصيل الطلبة في وحدة المتجهات يعزى إلى التفاعل بين طريقة التدريس والجنس.

وبوجه عام يمكن القول أن عدداً من الدراسات التي تم استعراضها أظهرت أن الطلبة الذين يستخدمون الإنترنت ووسائل الاتصال المختلفة يؤدي ذلك إلى تحسين في أساليب تعلمهم، كما أن الطلبة الذين يستخدمون الحاسوب أكدوا أهمية إدخال هذه

التقنية في المدارس حيث تزداد الإنتاجية ويؤدي ذلك إلى تأثير إيجابي على عملهم ويسهل من مهامهم التعليمية. كما أشارت الدراسات إلى أن استخدام الحاسوب والإنترنت يعمل على تشجيع البحث والابتكار ويتيح فرصة التفكير وتبادل الرأي، كما أن إدخال الإنترنت كطريقة للتدريس يعمل على زيادة معلومات الطلبة ويسهم في إثراء العملية التعليمية واكتساب المهارات، كما أن استخدام الحاسوب يمكن الطلبة من الاتصال بمواقع المعرفة أينما كان مصدرها ويشجع التعلم الذاتي والنشط وتثير الدافعية وتحفز الممارسات الجيدة في التعلم وتقلل الوقت والجهد وتنمي مهارات البحث العلمي والاتجاهات الإيجابية نحو العملية التربوية.

والدراسة الحالية تأتي لتعالج موضوعا مهما وحيويا في المدارس الأردنية من خلال التعرف على أثر برنامج تدريبي باستخدام وسائل الاتصال والتكنولوجيا الحديثة (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن، حيث أن وزارة التربية والتعليم الأردنية جادة في الوقت الحاضر على إدخال تكنولوجيا التعليم وأدواتها الحديثة إلى قاعة الصف في مدارسها المختلفة في أنحاء المملكة.

خامسا: الطريقة والإجراءات:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أثر برنامج تدريبي باستخدام وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن. ويتضمن هذا الفصل وصفا للطريقة والإجراءات التي تم استخدامها لتحقيق أهداف هذه الدراسة، حيث يشتمل على وصف لأفراد الدراسة واختيارهم، والإجراءات المختلفة التي أتبع في تنفيذ الدراسة والأداة المستخدمة وتطويرها وطريقة التأكد من صدقها وثباتها، وتوزيع أداة الدراسة، وإجراءات تنفيذها، والطرق الإحصائية التي استخدمت لتحليل البيانات واستخراج النتائج.

أفراد الدراسة

تم اختيار أفراد الدراسة من طالبات الصف الأول الثانوي من مدرسة عين جالوت الثانوية للبنات نظرا لتوافر وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة المتمثلة في الحاسوب والإنترنت فيها من ناحية وكون الطالبات في هذه المدرسة لديهن قدرة على استخدام هذه التقنيات من ناحية ثانية.

وتكونت المجموعة التي طبق عليها البرنامج التدريبي من (70) طالبة من طالبات الصف

الأول الثانوي الأدبي في مدرسة عين جالوت الثانوية للبنات، حيث تم اختيار شعبتين أحدهما تجريبية والأخرى ضابطة، وجاء اختيار هذه المدرسة نظرا لما تتمتع به من توفر تقنيات الحاسوب والإنترنت فيها، ووجود أكثر من مختبر لهذه التقنيات في هذه المدرسة.

أدوات الدراسة

استخدم الباحث لتحقيق أهداف هذه الدراسة البرنامج التدريبي الذي قام بإعداده شخصيا ومقياس أساليب التعلم، والذي قام الباحث بتطويره بناء على ما توفر لديه من أدبيات في هذا الموضوع.

البرنامج التدريبي

قام الباحث بإعداد البرنامج التدريبي لأغراض هذه الدراسة بعد الاطلاع على مجموعة من الكتب المقررة لطلبة الصف الأول الثانوي الأدبي، ومن خلال الحوار وآراء عدد من المدرسين والمدرسات، وقام بوضع عناوين مجموعة من الموضوعات التي لها مواقع على شبكة المعلومات (الإنترنت) باللغة العربية، حيث قام الباحث بزيارة العديد من المواقع العربية للاطلاع على معلومات تتعلق بهذه المواضيع، واطلع على معظم المواقع في مركز المعلومات الوطني حيث تم تحضير هذه الموضوعات من مصادر رئيسية موثقة ورسمية واختار الباحث الموضوعات التي تثير اهتمام الطالبات، حتى يتسنى لهن البحث عنها بشكل جيد، وحتى تتيح لهن القدرة على اختيار معلومات جديدة، والتفاعل مع البرنامج من خلال البحث عبر الإنترنت والحوار والنقاش والتفكير والتعلم الذاتي بصورة أفضل عن الطريقة التقليدية.

لقد قام الباحث باختيار الموضوعات التالية :

مرض السكري.؛ الإحصاءات العامة. المرأة. وزارة التربية والتعليم. المجلس الأعلى للشباب. مشروع الأوزون. المدن الصناعية. وزارة الثقافة. مؤسسة الإسكان والتطوير الحضري. المسرح في الأردن. متحف الحياة السياسية. وزارة الخارجية. مؤسسة الإقراض الزراعي. المهرجانات الثقافية. نوعية المياه.

وكان الباحث يقوم في البداية بزيارة العديد من المواقع التي تتحدث عن الموضوع، ثم يتعرف على ما تحتويه هذه المواقع ويسجل الملاحظات التي يحتاجها واعتمد على موقع مركز المعلومات الوطني كونه يعتبر من المواقع الرسمية الأردنية، وكان من خلال هذا

الموقع يقوم بدراسة شاملة لما يحتويه الموقع حيث يتصفحه ويختار ما يتناسب والمادة العلمية لكل موضوع من الموضوعات.

واختصارا للوقت والجهد وسهولة البحث قام الباحث بنسخ كافة المواد المطلوبة على (CD) وتم وضعه على كافة أجهزة الحواسيب الموجودة داخل المختبر، كما تم الاستعانة بجهاز (Power Point) من اجل المزيد من الفائدة والنجاح. وفي حالة كل موضوع من الموضوعات المختارة كان يتم تحديد الأهداف التعليمية المراد تحقيقها من خلال البحث عبر الإنترنت حيث كان تبدأ الحصّة بوضع الأهداف على السبورة ومناقشتها ثم البدء بتحقيق كل هدف من هذه الأهداف من خلال عملية البحث وإجراء النقاش والحوار والعصف الذهني وتبادل الآراء وإجراء تلخيص وتقييم للحصّة الدراسية وتقديم مجموعة من الأنشطة والتطبيقات، وتظهر في ملاحق هذه الدراسة الخاصة بعناوين الدروس صورة تفصيلية عن كل درس منها والخطوات الإجرائية للبحث عبر الإنترنت والمناقشة والتطبيق.

المجموعة التجريبية

تكونت هذه المجموعة من طالبات الصف الأول الثانوي الأدبي في مدرسة عين جالوت الثانوية للبنات وبلغ عددهن (35) طالبة، وقام الباحث بتنفيذ البرنامج التدريبي بعد أن حصل على الكتب الرسمية من وزارة التربية والتعليم وموافقة مديرة المدرسة وتشجيعها للباحث وتوفير كل سبل النجاح لإجراء البرنامج التدريبي وكان تعاون مدرسة الحاسوب في المدرسة تعاوننا كبيرا حيث تم إجراء البرنامج في مختبر الحاسوب في المدرسة.

المجموعة الضابطة

تكونت هذه المجموعة من طالبات الصف الأول الثانوي الأدبي في مدرسة عين جالوت الثانوية للبنات وبلغ عددهن (35) طالبة، وقد تم تعليم هذه المجموعة المادة الدراسية بالطريقة الاعتيادية التقليدية.

مقياس أساليب التعلم

قام الباحث من أجل بناء مقياس أساليب التعلم بمراجعة شاملة للأدب التربوي والنظريات والدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع الدراسة، وبحث عبر الإنترنت عن العديد من المقاييس والبرامج والأساليب والمقالات والأبحاث من خلال العديد

من المواقع ومنها :

- ◆ Kolb's theory of learning styles, 2000
- ◆ www.cyg.net/styl-d.html
- ◆ www.pss.uvm/pss_162/learning-styles.html
- ◆ www.ohiou.edu/edstudies/tech/karluki.html
- ◆ www.idpride.net/learning-style.html
- ◆ Learning styles: preferences.
- ◆ www.ccc.commnet.edu/styles.html
- ◆ What your learning style?
- ◆ solo man, and felder (2003), Index of Learning Styles Questionnaire.

وقد تم إعداد (80) فقرة تغطي أساليب التعلم الأربعة لكولب وهي : الخبرة المباشرة، والمشاهدة التأملية، والتجريب النشط، والمفاهيم المجردة، معتمدا في ذلك على مقياس كولب من ناحية ومقياس فيلدر المطور عام 1999 من ناحية أخرى.

وبعد عرض هذه الفقرات على المحكمين تم اختصارها لتصبح ستين فقرة تناولت أساليب التعلم الأربعة، حيث تم بناء المقياس والذي تكون من أربعة أساليب للتعلم هي : الخبرة المباشرة، والمشاهدة التأملية، والتجريب النشط، والمفاهيم المجردة، وقد وضع لكل أسلوب خمس عشرة فقرة بحيث أصبح المقياس يشتمل على ستين فقرة من نوع الاختيار من متعدد (4 بدائل).

إجراءات الصدق

قام الباحث بالتأكد من إجراءات الصدق وهي :

صدق البرنامج المعد.

صدق المقياس الخاص بأساليب التعلم.

وفي ما يلي توضيح للطريقة التي اتبعت في الوقوف على درجة الصدق في كل حالة من هذه الحالات الثلاث :

◆ أولا : بالنسبة للبرنامج : وهو الذي يقوم حول تدريب الطالبات على الوصول إلى المعرفة من خلال استخدامهن للحاسوب وشبكة الإنترنت فقد تم اختيار الموضوعات ذات الصلة لتناسب مستويات الطالبات ودرجات اهتمامهن وعلاقتها بالموضوعات المدرسية الموجودة في المنهاج المدرسي المخصص لهن.

وقد عرض البرنامج بمحتواه وطريقة تقديمه على ثمانية من المختصين في التعليم من خلال الحاسوب في الجامعات الأردنية ليحكموا على مدى صلاحيته للغرض المقصود منه، وأبدوا بعض الملاحظات الخاصة بطبيعة المادة المقدمة وطريقة عرضها، حيث أخذ الباحث بملاحظاتهم وحاول الاستفادة منها بالشكل المناسب.

♦ أما بالنسبة لمقياس أساليب التعلم : فقد استرشد الباحث بمقياس أسلوب التعلم المعتمد على نظرية كولب المعد لهذه الغاية وإدخال بعض التعديلات عليه لتناسب البيئة الأردنية، كما استعان من خلال الإنترنت بعدد من المقاييس والبرامج والدراسات والأبحاث واختار ما يناسب هذه الدراسة من فقرات، ومن ثم تم عرض هذا المقياس بصورته النهائية على مجموعة من أساتذة الجامعات الأردنية الذين لهم خبرة ودراية بأساليب التعلم والتفكير وبمبادئ علم النفس التربوي وأخذ الباحث بالملاحظات التي أوردها معظم هؤلاء المحكمون.

النتائج

تم التأكد من ثبات مقياس أساليب التعلم بطريقة إعادة التطبيق حيث أخذت عينة من أحد صفوف المدرسة المناظرة بلغ عدد أفرادها (40) طالبة وأعطيت الطالبات الاختبار في المرة الأولى وبعد أسبوعين تم تطبيق الاختبار مرة أخرى عليهن، وبلغ معامل الارتباط 0.88 بين النتائج في الحالتين مما يؤكد تمتع المقياس بدرجة عالية من الثبات.

إجراءات الدراسة

استخدم الباحث الإجراءات التالية من أجل تنفيذ هذه الدراسة :

- قام الباحث بإجراء الاختبار القبلي على طالبات الصف الأول الثانوي الأدبي في مدرسة عين جالوت الثانوية للمجموعتين التجريبية والضابطة.
- قام الباحث بإجراء وتطبيق البرنامج التدريبي المتضمن خمسة عشر درساً خلال الفصل الدراسي الثاني 2003 في مختبر الحاسوب الموجود في المدرسة وبوجود مدرسة الحاسوب، وفي كل درس كان يتم وضع أهداف الدرس ثم يجري البحث عبر الإنترنت عن معلومات، حول الدرس ويجري حواراً ونقاشاً وعصفاً ذهنياً حول هذه المعلومات، وتبدي الطالبات وجهات النظر حول هذه المعلومات ويطلب من الطالبات في كل حصة من حصص البرنامج أنشطة وتطبيقات حول موضوع الدرس.

- بعد الانتهاء من تطبيق البرنامج التدريبي الذي استغرق ثلاثة أشهر قام الباحث بإجراء الاختبار البعدي على المجموعتين التجريبية والضابطة.

تحليل البيانات

من أجل تحليل البيانات الخاصة بالدراسة فقد عمد الباحث إلى ربط أساليب التعلم ومستوياتها المختلفة بالقيم الرقمية التالية، وذلك بناء على اقتراح مجموعة من المحكمين الذين عرضت عليهم أداة الدراسة :

من (0 أقل من 1.5) من فئة الخبرة المباشرة.

من (1.5 أقل من 2.5) من فئة المشاهدة التأملية.

من (2.5 أقل من 3.5) من فئة التجريب النشط.

من (3.5 أقل من 4) من فئة المفاهيم المجردة.

وبناء على ذلك تم إيجاد المتوسطات الحسابية للإجابات وهي التي اخضعت للتحليلات الاحصائية المناسبة من أجل اتمام عمليات المقارنة المطلوبة.

هذا وقام الباحث بعمليات المقارنة المطلوبة باستخدام اختبار (t) في حالة الاختبار القبلي للوقوف على مدى تجانس العينة في أساليب تعلمهن قبل البدء بالتجربة وكذلك استخدام اختبار تحليل التباين المشترك لمقارنة فعاليات البرنامج بالنسبة للعينتين الضابطة والتجريبية.

نتائج الدراسة :

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى فاعلية برنامج تدريبي باستخدام وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن.

وللتأكد من تجانس أفراد العينة الضابطة مع أفراد العينة التجريبية من حيث مستويات أساليب تعلمهم، فقد تم إعطاء مقياس أساليب التعلم للعينتين قبل إجراء التجربة وكانت النتائج كالتالي :

الجدول (1)

مقارنة نتائج القياس القبلي للعينتين الضابطة والتجريبية

القياس القبلي						
مستوى الدلالة	قيمة ت الجدولية	قيمة ت المحسوبة	الضابطة		التجريبية	
0.01	1.99	1.11	ع	م	ع	م
			0.36	2.35	0.40	2.45

وواضح من البيانات الواردة في هذا الجدول مدى قرب المتوسط في حالة أفراد العينة التجريبية من

مستوى تعلم الأفراد الداخلين في الدراسة هو في المتوسط في حالة العينة الضابطة مما يدل على أن حدود المستوى الثاني وهو المشاهدة التأملية، ومع ذلك فقد استخدم اختبار (||) لإيجاد درجة معنوية الفروق بين الحالتين، وتبين أن هذه الفروق ليست دالة إحصائياً حيث كانت قيمة (ت) المحسوبة = 1.11. وقيمة ت الجدولية هي : 1.99.

وهذا يدل على أن مستوى أسلوب التعلم في حالة العينتين كان متقارباً قبل بداية التجربة، مما يدل على أن هذه الفروق ليست ذات دلالة.

ولمعرفة مدى فعالية البرنامج المقترح في تطوير أساليب التعلم فقد تم استخراج العلامات البعدية لأفراد العينتين التجريبية والضابطة وكانت النتائج لهما كما يظهر في الجدول (2) :

الجدول (2)

متوسط العلامات البعدية والانحراف المعياري لأساليب التعلم للمجموعة التجريبية والضابطة على القياس البعدي

القياس البعدي			
الضابطة		التجريبية	
ع	م	ع	م
0.44	2.47	0.46	3.56

ويتضح من هذا الجدول أن مستوى التعلم عند أفراد العينة التجريبية قد ارتفع إلى المستوى الرابع وهو المفاهيم المجردة، بينما بقي في حالة العينة الضابطة على ما كان عليه سابقاً وهو مستوى المشاهدة التأملية، ولإيجاد مستوى دلالة الفروق بين الحالتين طبق أسلوب تحليل التباين المشترك على النتائج المتحصلة وكانت المقارنات كما يظهر في الجدول رقم (3) التالي :

جدول (3)

نتائج تحليل التباين المشترك لدرجات مقياس أساليب التعلم لأفراد المجموعة التجريبية والضابطة على القياس البعدي

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	ف المحسوبة	ف الجدولية	مستوى الدلالة
المجموعات	13.08	1	13.08	62.99	7.08	0.01
الباقى	14.22	67	0.20	--	--	--
الكلي	27.30	68	--	--	--	--

الفروق دالة عند مستوى 0.05 فأقل

ويتضح من البيانات السابقة تفوق أفراد المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة في أساليب تعلمهن بدرجة واضحة ومعنوية، حيث بلغ مستوى هذا التعلم عند أفراد المجموعة التجريبية المرتبة الرابعة بينما ظل على ما هو عليه في حالة العينة الضابطة وهو المستوى الثاني، وهذا يدل على أن البرنامج كان ذا تأثير مباشر على تطوير مستوى التعلم عند الطالبات، بحيث انتقلن من المستوى الثاني وهو المشاهدة التأملية إلى المستوى الرابع وهو المفاهيم المجردة.

مناقشة النتائج

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أثر برنامج تدريبي باستخدام (الإنترنت) على أساليب التعلم عند طلبة المدارس الثانوية في الأردن.

وقام بتطبيق برنامج تدريبي للتعرف على أثر استخدام الإنترنت على أساليب التعلم لدى أفراد الدراسة، وأظهرت نتائج البرنامج التدريبي تفوق أفراد المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة في أساليب تعلمهن بدرجة واضحة ومعنوية، حيث بلغ مستوى

هذا التعلم عند أفراد المجموعة التجريبية المرتبة الرابعة بينما ظل على ما هو عليه في حالة العينة الضابطة وهو المستوى الثاني، وهذا يدل على أن البرنامج كان ذا تأثير فعال على الارتقاء بمستوى التعلم عند الطالبات، بحيث انتقلن من المستوى الثاني وهو المشاهدة التأملية إلى المستوى الرابع وهو المفاهيم المجردة، بالإضافة إلى التحسن الواضح بالنسبة لأفراد العينة التجريبية في نهاية التجربة مقارنة ببدايتها، وهذا يدل على استخدام الإنترنت قد وسع مدارك الطالبات وأثرى طريقة تعاملهن في الحصول على نوع المعلومة المطلوبة.

ومع أن الدراسات التي تناولت أساليب التعلم عند الطلبة بوجه خاص كانت قليلة ومحدودة، إلا أن هنالك العديد من الدراسات التي تناولت تأثير استخدام الكمبيوتر والإنترنت كوسائل مساعدة في عمليات التعلم في تحسين الجوانب المختلفة لها، وكذلك سيتم مناقشة النتيجة العامة لهذه الدراسة مع نتائج الدراسات التي استخدمت الكمبيوتر والإنترنت كوسائل لتحسين الجوانب المختلفة لعمليات التعلم والتعليم.

وبناء على ذلك يمكن القول بأن نتائج هذه الدراسة تتفق مع دراسة شوفورد (Shuford, 2001) التي هدفت إلى فحص أنماط التعلم واستراتيجياته لدى طلبة السنة الأولى الجامعية، وعلاقة ذلك بكل من التعلم النشط والنجاح الأكاديمي والأصل العرقي والجنس، والتي أظهرت وجود علاقة دالة إحصائية مع تدريبات التعلم النشط، مع وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين التحصيل العلمي الأكاديمي وبين الاستراتيجية المستخدمة، فالطلبة الذين استخدموا مستويات عليا من المعرفة المعقدة في كتاباتهم قد حصلوا على تحصيل أكاديمي أعلى.

وتتفق نتائج هذه الدراسة مع دراسة ويلكه (Wilke, 2001) التي دارت حول تقصي أثر استراتيجيات التعلم النشط وتقنياته في طلبة إحدى جامعات ولاية تكساس الأمريكية من حيث التحصيل، والدافعية والفعالية الذاتية في مقرر (علم وظائف أعضاء جسم الإنسان) للطلبة الملتحقين به دون تخصص دقيق، والتي أشارت إلى أن المجموعة التجريبية من الطلبة قد اكتسبت معلومات أكثر وأفضل، وبدلالة إحصائية من المجموعات الضابطة وأنها كانت أكثر فاعلية منها، وأشارت نتائج استبانة الاتجاهات إلى أن الطلبة في المجموعات التجريبية والضابطة أظهروا اتجاهات إيجابية نحو التعلم النشط، معتقدين أنه يساعدهم على تعلم المواد التعليمية المختلفة، وأنهم سوف يختارون مساقا في المستقبل القريب عن التعلم النشط إذا اتاحت لهم الفرصة لذلك

وبالمثل فقد اتفقت نتائج هذه الدراسة مع نتائج دراسة كيتاو (Kitao, 2001) حول استخدام الإنترنت في المدارس الثانوية في اليابان من أجل تعلم اللغة الإنجليزية والتواصل

العلمي، والتي توصلت إلى أن الإنترنت تعتبر أداة داعمة لتعليم اللغة الإنجليزية، وأن المعلمين ينبغي عليهم أن يضعوا هدفا لكل درس تعليمي على أن يتم استخدام الإنترنت لتحقيق هذا الهدف.

وتتفق أيضا مع دراسة ريتز (Ritter, 2000) التي هدفت إلى تقويم استخدام الإنترنت لتعزيز التعلم وتحفيز الممارسات الجيدة في التعليم الجامعي والتي أظهرت أن الإنترنت يمكن أن تسهل الممارسات التربوية الجيدة، كما أن الطلبة يعتقدون أن الاستخدام الإلكتروني يشجع الاتصال بينهم وبين الهيئة التدريسية ويشجع على التعلم النشط، وأن مواد الإنترنت تسمح بالاستخدام الأكثر كفاءة وتعزز تعلمهم.

وتتفق أيضا مع دراسة (Shiratudin, 2001) حول أثر الإنترنت كطريقة للتدريس، والتي توصلت إلى أن إدخال الإنترنت كطريقة للتدريس أثر على أداء التلاميذ بصورة إيجابية وزاد من معلوماتهم ودعت الدراسة إلى إدخال الإنترنت كاستراتيجية وكمطلب إجباري وكمصدر أساسي يساهم في إثراء العملية التعليمية واكتساب المهارات.

وتتفق أيضا مع دراسة (Rowand, 2000) حول استخدام المدرس للحاسوب والإنترنت في المدارس الداخلية الأمريكية، والتي أشارت إلى أن 39% من المعلمين أشاروا إلى أنهم يستخدمون الحاسوب والإنترنت من أجل إيجاد المواد التعليمية، و10% من المدرسين من أجل البحث والمناهج المثالية.

وكذلك مع دراسة فيكتور (Victor, 2001) حول أهمية استخدام الحاسوب لدعم عمل المجموعات الطلابية وتسهيل مهمة المعلمين، والتي أظهرت نتائجها أن 93% من الطلاب أيدوا العمل الجماعي عن طريق استخدام الحاسوب، وأن 88% من الطلاب ذكروا أن استخدام الحاسوب عن طريق العمل الجماعي زاد من تعاونهم، كما زاد من نسبة التفوق في الإنتاج لديهم.

وتتفق أيضا مع دراسة العجلوني وصبح (2003) حول أثر استخدام الحاسوب في تدريس الرياضيات لطلبة الصف الأول الثانوي العلمي على تحصيلهم واتجاهاتهم نحو الحاسوب، ووجد أن هناك فرقا دالا إحصائيا في اتجاهات الطلبة نحو الحاسوب في مجموعتي الدراسة ولصالح المجموعة التجريبية.

ومن خلال اتفاق هذه الدراسة مع عدد من الدراسات السابقة والنتائج الإيجابية التي حققها هذا البرنامج، حيث أن نتائج البرنامج أظهرت تفوق المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة في أساليب تعلمهن بدرجة واضحة فإن ذلك يدل على أن

البرنامج كان ذا تأثير فعال على الارتقاء بمستوى التعلم عند الطالبات، وقد لاحظ الباحث خلال تطبيق البرنامج مدى حماس الطالبات وحضورهن كافة الدروس التي تم تخصيصها ومشاركتهن الفعالة في البحث والسؤال وإجراء الحوار ما بين الباحث وبينهن، والتفرع في البحث عن أشياء جديدة في كل موضوع من المواضيع التي كانت موضع التطبيق، وكان واضحاً مدى التفاعل بين الطالبات والمواضيع التي تم البحث عنها ومناقشتها بحيث كان هناك نتائج جديدة لكل عملية بحث من خلال الإنترنت، وكشف ذلك عن رغبة وحماس الطالبات لإجراء مزيد من البحث عن كل موضوع من المواضيع والاستزادة من استخدام الإنترنت، وذلك لكونه يوسع من مدارك الطالبات ويجعل عملية التعلم محبة لهن ويمكنهن من الإطلاع على أشياء جديدة مقارنة بالمنهج الموجود لديهن، وكان واضحاً سعادة الطالبات عند اكتشاف شيء جديد عن المواضيع ومناقشة ذلك بشكل جماعي، كما أن الطالبات كن يواصلن البحث عن أشياء تهم كل موضوع فمن بتطبيقه في بيوتهن وهذا يدل على مدى اهتمام الطالبات بالبرامج وتفاعلهن الكبير معه.

التوصيات :

في ضوء نتائج هذه الدراسات، فإن الباحث يوصي بما يلي :

تزويد طلبة المدارس في المراحل الدراسية جميعها بالمهارات والمعارف والتقنيات الحديثة لمواجهة عصر المعلومات للوصول للتعلم الذاتي وتجهيز المدارس بالبنية التحتية لتقنيات المعلومات (الحاسوب والإنترنت) قبل البدء بالتدريس الفعلي حتى لا يكون هناك أية ثغرات تواجهه العملية التعليمية المبنية على هذه التقنيات.

تدريب المعلمين والمعلمات وإعدادهم إعداداً جيداً من أجل استخدام تقنيات تكنولوجيا المعلومات وبخاصة شبكة الإنترنت، وضرورة إدخالها في المناهج المدرسية بكل سهولة ويسر.

التوسع في إدخال مواقع اللغة العربية على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) والعمل على ترجمة العديد من المواقع التعليمية التي تهم الطلبة من أجل الاستفادة منها. إجراء المزيد من البحوث والدراسات حول الاستفادة من الحاسوب والإنترنت، وتقنيات التكنولوجيا الحديثة وافاقها الواسعة وبخاصة فيما يتعلق بتنمية المهارات الذهنية وتطويرها من استنتاج واستقراء واستنباط وغيرها.

المراجع العربية

- الشاعر، عبد الرحمن بن ابراهيم (2015). مواقع التواصل الاجتماعي والسلوك الانساني، عمان : دار صفاء للنشر والتوزيع.
- طاهات، زهير ياسين، وعبد الكريم الديبسي، ومحمد القضاة (2014). استخدامات طلبة جامعة البترا للرسائل القصيرة، مجلة الباحث الإعلامي // كلية الإعلام / جامعة بغداد، العدد 32.
- العجلوني، خالد، ويوسف صبيح (2003)، أثر استخدام الحاسوب في تدريس الرياضيات لطلبة الصف الأول الثانوي العلمي على تحصيلهم واتجاهاتهم نحو الحاسوب، مجلة دراسات (العلوم التربوية) المجلد 30، العدد 1، مطبعة الجامعة الأردنية : عمان، ص : (166).
- العريني، عبد الرحمن (2002)، من التعليم المبرمج إلى التعليم الإلكتروني، المعرفة، العدد 91، الرياض، الوطنية للتوزيع، ص : (27).
- الفار، إبراهيم (2002)، استخدام الحاسوب في التعليم، عمان // دار الفكر، ص : (28)، (184 // 191)، (203 // 204).
- الفتوخ، عبد القادر بن عبد الله، (1998)، الإنترنت تقنيات وخدمات، كتيب المجلة العربية (10) // العدد العاشر، الرياض، ص : (7 - 9)، (20).
- الكندري، عبد الله عبد الرحمن (1999)، تكنولوجيا التعليم وتفعيل العملية التربوية : دراسات عربية، القاهرة // مركز الكتاب.
- الهابس، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، وعبد الله عبد الرحمن الكندري (2000)، الأسس العلمية لتصميم وحده تعليمية عبر الإنترنت، المجلة التربوية، العدد 57، المجلد الخامس عشر، الكويت : شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع.
- ابو سعيدي، أميمة (1999)، أساليب التعلم المفضلة لدى عينة من طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة مسقط وعلاقتها بكل من الجنس والمستوى التحصيلي والتخصص الدراسي، رسالة ماجستير غير منشورة // جامعة السلطان قابوس // عمان.
- بسيوني، عبد الحميد (2002)، استخدام شبكة الإنترنت في المدارس ودعم التكنولوجيا، القاهرة // مكتبة ابن سينا، ص : (19 - 20)، (59 - 60)، (92 - 93)، (138 - 151).
- أبو سرحان، عطية عوده، (2000) دراسات في أساليب تدريس التربية الاجتماعية والوطنية، دار الخليج : عمان، ص : (61).
- سعادة، جودت، وإسماعيل أبو زيادة، ومجدي زامل (2003)، أثر تدريب المعلمات الفلسطينيات على أسلوب التعلم النشط في التحصيل الآني والمؤجل لديهن في ضوء عدد من

المتغيرات، مجلة العلوم التربوية والنفسية، جامعة البحرين، المجلد الرابع، العدد الثاني، ص : (112 | 122).

- عبد الله، جهاد (2001)، الدور الحضاري للإنترنت، كتاب العربي : حضارة الحاسوب والإنترنت، الكتاب الأربعون، مجلة العربي الكويت، ص : (158).

- عدس، عبد الرحمن، ومحي الدين توك (1998)، المدخل إلى علم النفس، ط5، دار الفكر : عمان، ص : (150)

- عدس، عبد الرحمن، (1999)، علم النفس التربوي (نظرة معاصرة)، ط2، دار الفكر : عمان، ص : (313)، (278 - 279).

- قطامي، يوسف، وعبد الرحمن عدس (2002)، علم النفس العام، دار الفكر : عمان، ص : (153).

المراجع الأجنبية :

1. Atkinson & Shiffrin, Kintsch, (2003) information process theory of learning.
www.tiger.coe.missouri.edu/1p_theorists.html
www.tiger.coe.missouri.edu/t377/b_theorists.
2. Deborah, L.& Lisa, D. (2000). Integrating computer technology into the classroom ERT& D, 51⁽³⁾, 918-.
3. Hartman, Kenneth E, (2003) College Selection and The Internet.
<http://www.eric.ed.gov/resources/ericreview/vol15no3/select.html>
4. Huitt, (2003), The Information Processing Approach.
www.educationpsychologyinteractive.com
<http://chiron.valdosta.edu/whuitt/col/cogsys/infoproc.html>
5. Kito Kenji, Doshisho University, Kyoto, Japan (2001), A study of Research on Computing in Education, Journal Research on computing in education volume 31, Issue p.78.
6. Lazars, Elizabeth, (2002), Distance Learning Via the Internet.
www.wellesley.edu/ITS/porr/cs100/pathways/rpl.p13-.html
<http://www.wellesley.edu/ITS/Porr/cs100/Pathways/Sample/rp1.html>
7. Rowand Cassandra, (2000), Teacher Use of Computers& the Internet in Public Schools. www.Nces.ed.gov/pubs_2000.html.
www.nces.ed.gov/pubsearch/pubsinfo.asp.
8. Scardamalia M.& Bereiter, A. (2000). Computer support for knowledge building Communities. Journal of the Learning Science, 4⁽²⁾, 311- 325.
9. Shiratuddin, Norshada, (2001), Internet Instructional Method: Effect on Student's Performance. www.ifets.ieee.org/periodical/vol_3_2001/shiratuddin.pdf.

10. What your learning style?, [www.att.com/learning net work](http://www.att.com/learning%20net%20work).
11. www.aln.org.
12. [www.thinking.co.uk /thinking-styles/using.html](http://www.thinking.co.uk/thinking-styles/using.html).
13. www.ohiou.edu/edstudies/tech/karluki.html.
14. www.idpride.net/learning_style.html.
15. www.vark-learn.com.
16. www.ammericanconnect.net -(privera, Judy, 2000)
17. www.amazon.net. Book about Internet.
18. www.resources.com about the Internet.
19. www.infoseef.com, Articles about the internet.

دور جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في ترسيخ فكره الوحدة بين بلدان المغرب العربي

ASSOCIATION DES ÉTUDIANTS MUSULMANS NORD
AFRICAINS (A.E.M.N.A)

الدكتور: عبد القادر كرليل

جامعة الجزائر2

قسم التاريخ

الملخص:

الغرض من هذه الدراسة، وهو إظهار مدى تعلق طلبة دول شمال إفريقيا (تونس، الجزائر، المغرب) بفرنسا، بترسيخ قواعد الوحدة عندما جعلوا من جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا منبرا للمطالبة بتحسين ظروفهم المادية والاجتماعية، حتى يتسنى لهم مزاولة دراساتهم في ظروف عادية وملائمة كبقية الطلبة الفرنسيين، إلا أن مطالب هؤلاء لم تتوقف عند هذا الحد، بل توسعت لتشمل شعوبهم في أقطارهم الأصلية، باعتبار أنها هي الأخرى تعاني من ويلات الاحتلال الفرنسي.

Résumé:

Le but de cette étude, est de démontrer comment les étudiants des pays d'Afrique du Nord (Tunisie, Algérie, Maroc) en France, étaient attachés, à la consolidation des règles de l'unité, quand ils ont fait de l'Association des étudiants musulmans de l'Afrique du Nord une plate-forme pour exiger de meilleures conditions matériels et sociales, afin qu'ils puissent mener à bien leurs études dans des conditions normales et favorables, identiques à celles des étudiants français, cependant, que ces exigences ne sont pas arrêtés à ce stade, étaient élargi pour inclure les peuples autochtones dans leurs pays, car ils souffrent aussi de l'occupation française.

مقدمة :

تأسست جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في شهر ديسمبر 1927⁽¹⁾، على يد طلبة الأقطار المغاربية الثلاثة الذين يدرسون بفرنسا، إثر الجهود التي بذلتها الجمعيات الطلابية التي كانت تشط في بلدان المغرب العربي بشكل انفرادي.

اهتمت الجمعية في بداية نشأتها بأمور الطلبة البيداغوجية منها والمادية والمعنوية، دفاعا عن حقوق الطلبة وتحسين ظروفهم الدراسية، لكنها مع مرور الأيام ومن خلال التوصيات التي خرجت بها مؤتمراتها اللاحقة، يتبين بأن الجمعية الطلابية أرادت أن تذهب بفكرة الوحدة إلى أبعد حد ممكن وذلك بعد انتقالها من فكرة توحيد صفوف الطلبة إلى فكرة تحقيق الوحدة والتوحيد بين شعوب منطقة المغرب العربي بغرض الاستقلال والتخلص من الوجود الاستعماري⁽²⁾.

عقدت الجمعية مؤتمرها التأسيسي بقصر التعااضدية بباريس بحضور ممثلي طلبة أقطار المغرب العربي الثلاثة منهم السادة: فرحات عباس ممثل طلبة الجزائر، وصالح بن يوسف، ممثل طلبة تونس، وعلال الفاسي⁽³⁾، ممثل طلبة المغرب الأقصى.

كان لفرحات عباس مساهمة كبيرة في وضع أواصر التعاون بين الودادية بجامعة الجزائر والجمعية بجامعة فرنسا، ولعل هذا ما يبرر تأثير الجمعية بالإستراتيجية التي رسمتها الودادية، إذ سارت على نهجها، ولم تكشف في قانونها الأساسي عن نواياها السياسية، اكتفت فقط بتحديد الأهداف التي تصبو لتحقيقها مستقبلا، منها العمل على جمع شمل طلبة شمال إفريقيا والدفاع عن حقوقهم المادية والبيداغوجية وكذا تحسين ظروفهم الاجتماعية من إقامة ومنحة، حتى يتسنى لهم مواصلة دراساتهم بفرنسا في ظروف حسنة⁽⁴⁾.

لقد تداولت على رئاسة الجمعية أسماء عديدة من الطلبة الجامعيين للمغرب العربي، هذا ما يدل على جو الحوار الذي كان يسود بين الطلبة المغاربة، لقد كان في كل مرة يعين رئيسا من أحد البلدان الثلاثة ونائبيه من البلدين المتبقين.

أما عن اهتمامات جمعية الطلبة كانت في بداية مشوارها منصبة على قضايا الفكر والثقافة، بما في ذلك تلك التي لها الطابع الاجتماعي إذ اهتمت بشؤون المرأة التي ظلت مهمشة في القوانين الفرنسية المعمول بها في أقطار المغرب العربي، هذه القضايا وغيرها وضعتها الجمعية نصب عينها وظلت تذكر بها في كل مناسبة تتيح لها، خاصة في توصيات مؤتمراتها التي كانت تعقد سنويا وبطريقة دورية في مدن المغرب العربي.

ولمعرفة حيثيات هذا الموضوع محل الدراسة اعتمدنا على الإشكالية التالية:

ما مدى تبني جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، للفكر الوجودي، والعمل على ترسيخه ميدانياً ؟

لعل المرجعية الأساسية التي من خلالها يتمكن الباحث من معرفة مدى تبني الجمعية لفكرة ترسيخ الوحدة بين طلبة أقطار شمال إفريقيا الثلاثة، بغرض تحسين ظروفهم المادية والاجتماعية، وإقامة أواصر الوحدة والتعاون مع شعوب أقطارهم الأصلية، هي مجريات جلسات مؤتمرات الجمعية وما أفرزته من توصيات وقرارات في هذا الشأن.

مؤتمرات جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا : (A.E.M.N.A)

إن الحاجة الماسة لتنسيق الجهود والتعاون بين طلبة أقطار المغرب العربي الذين يزاولون دراساتهم في الجامعة بفرنسا، هي التي كانت وراء جمع شمل طلبة بلدان شمال إفريقيا في تنظيم طلابي مشترك عرف باسم، «جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا»، وبمجرد تأسيسه أخذ مسير التنظيم الطلابي على عاتقهم تولي مهمة حماية حقوق طلبة مسلمي شمال إفريقيا، وكذا الدفاع عن مطالبهم المشروعة الاجتماعية منها والمادية والبيداغوجية، إذ يقول في هذا الشأن السيد الطاهر الزاوش بصفته رئيس الجمعية ما يلي: «لقد أسست هذه الجمعية لسد حاجة أحس بها طلبة شمال إفريقية المسلمون في ذلك العهد، فبرغم عددهم، الكثير يجهلون بعضهم بعضاً، ولا يلتقي الواحد منهم بأخيه إلا بفضل الصدفة على أنه نرى الطلبة من كافة الأقطار لهم جمعيات يلتفون حولها فتلم شملهم وتؤازر الضعفاء منهم، فكيف يتسنى لنا نحن أبناء بلاد واحدة أن نبقي متفرقين وجمع كافة طلبة شمال إفريقيا المسلمين وسط جمعية واحدة بفضلها يتعارفون ويتبادلون عواطف المودة والإخاء وإعانة المعوزين مادياً وتحسين إقامة الطلبة بفرنسا حتى يزداد عددهم بالكليات ...»⁽⁵⁾.

كان للطلبة الجزائريين دور فعال في تحضير وإعداد وتنشيط مؤتمرات جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، خاصة في ميدان الإعلام وإصدار اللوائح وكتابة البيانات الختامية التي تتضمن التوصيات التي يخرج بها كل مؤتمر جمعية الطلبة، هذا فضلاً عن اللقاءات التنسيقية التي ينظمونها بين الحين والآخر مع أشقاءهم من طلبة المغرب العربي (المغرب الأقصى، تونس) للنظر في انشغالات طلبة المغرب العربي وحصرها في لوائح مشتركة ورفعها إلى جهات الإدارة الفرنسية المعنية للنظر والفصل فيها، دون أن ننسى نضالهم الدؤوب والمستمر من أجل تفعيل القضية الجزائرية على المستوى الخارجي

بكسب تأييد زملائهم طلاب المغرب العربي، تعد حقا هذه المؤتمرات من أهم الفضاءات التي استغلها طلبة الجمعية لطرح انشغالاتهم على ذوي الحل والفصل لغرض تحسين ظروفهم الاجتماعية والمادية والبيداغوجية، لضمان دراسة أفضل ونجاح أوفر.

إن دور الطلبة الجزائريين الذي كان فعالا في جمعية الطلبة، لا يتناقض مع فكرة تأسيس الجمعية التي هي من وحي الطلبة التونسيين حسب ما جاء في أحد تقارير السيد الطاهر صفر، أحد مؤسسي الجمعية الذي قال بأن فكرة تأسيس الجمعية كانت بمبادرة من الطلبة التونسيين، لكن سرعان ما تبين لهم بأن نجاح وقوة هذه الجمعية لا تكتملтан إلا بإشراك إخوانهم الطلبة في الجزائر والمغرب الأقصى، إذ جاء في تقريره ما يلي: «في الفترة المتمدرسة الفارطة 1927، عقدت قلة من الشباب التونسي بباريس اجتماعات عديدة لتأسيس جمعية الطلبة، تضم شتاتهم وترتبط بينهم المودة ... وبعد إمعان النظر ... قرر أغلبية الجماعة أن يكون في المؤسسة الجديدة حظ لإخواننا طلبة الجزائر والمغرب الأقصى»⁽⁶⁾.

وبإعطاء التونسيين لهذه الجمعية البعد المغربي، عقدوا اجتماعا يوم 15 ديسمبر 1927، وخرجوا في نهاية أشغاله بلائحة ختامية تتضمن المبادئ الأساسية للجمعية، وكذا إعادة النظر في قانونها الأساسي الذي أصبح ذو بعد مغربي، وبمرور السداسي الأول من سنة 1928، عقدت الجمعية مؤتمرها الأول الذي اجتمع فيه طلبة أقطار المغرب العربي الثلاثة (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى) الذين يدرسون في فرنسا، وانهاوا اجتماعهم هذا بالمصادقة وبالإجماع على الصيغة الجديدة للقانون الأساسي للجمعية التي تضيفي البعد المغربي على جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا.

يذكر أن جمعية الطلبة هذه كان لها نشاطات منذ سنة 1928 على مستوى أقطار المغرب العربي، عملا بمبدأ تحسيس أهالي سكان المغرب العربي، وفي طليعتهم الطلبة بغرض تقبل الفكرة والإقبال الواسع على الجمعية، لأن الجميع كان يدرك بأن مطالب دول سكان المغرب العربي لا تأخذ بجدية من طرف السلطات الفرنسية إلا في إطارها الجماعي وبعدها المغربي، هذا ما نستشفه مما قاله السيد الشاذلي بن رمضان الذي كان يشغل منصب أمين المال في الجمعية يوم 20 جويلية 1929 بقوله: «... وان تمتد هذه الحركة المباركة التي لم تلح جليا إلا في الديار التونسية إلى كافة شمال إفريقيا، وسيرنا اليوم أن نعلم قراءنا أن إخواننا من المغاربة والجزائريين بصدد عمل متواصل لبت الدعوة بين أهالي بلادهم»⁽⁷⁾.

المؤتمر الأول بين 20 و 22 أوت 1931 بالخلدونية (تونس) :

إن الضرورة الملحة للعمل في إطار مغاربي مشترك، دفع بطلبة أقطار المغرب العربي الثلاثة إلى التفكير في عقد مؤتمر يشترك فيه طلبة المغرب العربي وأشقائهم في الجامعات بفرنسا، وحتى وإن يبدو بأن مبادرة انعقاد المؤتمر كانت من الطلبة الجزائريين، والتي تعود إلى سنة 1930 عندما كلف الطالب أحمد بن ميلاد بزيارة جامعة الجزائر للباحث والتنسيق مع طلبة جامعة الجزائر، نظرا لأهمية الفكرة وصددها المستقبلي في أوساط طلبة أقطار المغرب العربي، رحب بها طلبة جامعة الجزائر، وتم تكليف رئيس فرع طلبة جامعة الجزائر السيد فرحات عباس للسفر إلى باريس في حدود جانفي 1931، لضبط مسألة انعقاد المؤتمر بصفة نهائية ورسمية، وهي المهمة التي وفق فيها بإحرازه على موافقة انعقاد المؤتمر الأول للجمعية.

حضر المؤتمر ممثلين من مختلف أسلاك التعليم، المدرسين منهم والمعلمين وطلبة ثانويات بلدان المغرب العربي، وكذا طلبة الجامعات بفرنسا والجزائر، هذا فضلا عن طلبة الزيتونة والمدارس الإسلامية الحرة بالجزائر، وطلبة القرويين.

كان التمثيل الطلابي في المؤتمر يختلف من بلد إلى آخر، إذ احتلت تونس المرتبة الأولى من حيث العدد، وقد يعود هذا إلى كون تونس البلد المنظم للمؤتمر، وبالتالي ليس في حاجة إلى التنقل، هذا عكس الجزائر التي جاءت في المرتبة الثانية وأخيرا المغرب الأقصى، ولعل ذلك يعود إلى صعوبة تنقل الطلبة من الجزائر والمغرب، بسبب العراقيل التي وضعتها الإدارة الفرنسية في وجههم.

يذكر أن الجزائر شاركت بوفد يتكون من 7 طلبة جامعيين يرأسهم فرحات عباس⁽⁸⁾.

احتضنت قاعة الاحتفالات بالخلدونية أشغال مؤتمر الطلبة، تداول خلالها على المنصة ممثلين عن الطلبة للأقطار الثلاثة بدءا بتونس ثم الجزائر وأخيرا المغرب الأقصى، بالنسبة للطلبة الجزائريين، أخذ الكلمة في بداية الأمر عبد الرشيد مصطفىاوي، وهو من كلية الآداب، مستهلا كلمته بالشكر على حسن التنظيم والتحضير والاستقبال الجيد، ثم واصل كلمته في شكل دعوة موجهة للحاضرين حث فيها بمواصلة الدرب على أساس توحيد الصفوف بين طلبة أقطار المغرب العربي للوقوف في وجه السياسة الاستعمارية المنتهجة في المنطقة والتي مفادها محو قيم وأصالة وثقافة شعوب المنطقة، مؤكدا في نهاية كلمته من خلال قصيدة شعرية ألقاها على مسامع الحاضرين، أن لشعوب المنطقة قواسم مشتركة تتوفر فيها، ينقصها إلا الاتحاد، والذي به تأتي الحرية والاستقلال لا محال، مما

جاء في قصيدته :

ترى فيه التعاضد والتآخي ترى فيه المحبة والوئام.

ترى الحرية الحمراء فيه تحبي رفقة الشهيد ابتسام⁽⁹⁾.

في الجلسة الختامية قدمت اللجان الأربعة⁽¹⁰⁾، تقاريرها المبدئية حول ما اتفق عليه في جدول الأعمال، استمع الحاضرون بداية للتقرير الذي قدمته لجنة التعليم العالي المتفرع إلى ثلاثة تقارير بحسب كل دولة، بالنسبة للتقرير الذي قدمه الطلبة الجزائريون على لسان محي الدين الشرقي الذي حاول فيه إعطاء حوصلة عامة على مجمل المشاكل والمعاناة التي كان يعاني منها الطلبة المسلمين سواء أثناء الدراسة لقلة الإمكانيات المادية والبيداغوجية وسوء المعاملة مقارنة بالطلبة المعمرين أو ما بعد الدراسة من حيث حفظ العمل والاندماج في المحيط المهني، تحديدًا خريجي كلية الحقوق الذين يجدون الصعوبة في التوظيف بسبب الحصار المفروض عليهم في تقلد المناصب الإدارية العالية وكذا سلك القضاء وفي مقدمتها المحاكم التي تشترط في موظفيها الجنسية الفرنسية.

أما الشرط الثاني من التقرير الذي رفعه ممثلو الطلبة الجزائريين، قد ألقى على مسامع الحضور على لسان رئيس الوفد الجزائري الطالب فرحات عباس، الذي استعرض فيه الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطلبة الجزائريين وكذا المعاناة التي يتخبطون فيها من جراء السياسة الاستعمارية المفروضة عليهم وعلى ذويهم.

بعد الانتهاء من قراءة التقارير المبدئية التي قدمها ممثلو الطلبة الجامعين لبلدان المغرب العربي، دائمًا في الجلسة الختامية، تولى مقرر الجلسة لقراءة التقرير النهائي الذي أعدته لجنة التعليم العالي والذي يتضمن اقتراحات وتوصيات طلبة أقطار المغرب العربي الثلاثة، ومما جاء فيه:

الحد من العراقيل التي يصطدم بها طلبة المغرب العربي لالتهاق بمقاعد الجامعات.

توفير القروض للطلبة.

تقديم الإعانات للطلبة دون تمييز.

المساواة بين الطلبة في الحقوق وفرص العمل بغض النظر عن التخصص المتبع.

تقديم التسهيلات للطلبة الجزائريين لالتهاق بالجامعة بفرنسا.

توسيع الإعانات لطلبة التعليم الثانوي بالجزائر⁽¹¹⁾.

أما اللجنة الثانية، خصصت للتعليم العربي في شمال إفريقيا، تولى رئاستها فرحات عباس الذي عمل على تنشيط فعاليات هذه اللجنة بهدف إبراز الصورة الحقيقية للتعليم العربي في أقطار المغرب العربي وما يعاني طلبته والقائمين عليه من مشاكل، يذكر بأنه رفعت ثلاثة تقارير في هذا الشأن، تقرير رفعه ممثل الطلبة الفرنسيين على لسان محمد الفاضل بن عاشور الذي أطلع الحاضرين بوضع حال عن الحياة الدراسية للطلبة في جامع الزيتونة، ثم خلص حديثه بالقول أنه أضحى الأمر ضروري على إدخال إصلاحات فورية على المنظومة التربوية بالزيتونة لتحسين ظروف الطلبة، أما ممثل طلبة المغرب الأقصى محمد بن عبد الله تلى على مسامع الحضور التقرير المعد من قبل علال الفاسي والذي يتطرق إلى أوضاع جامعة القرويين والمعانات اليومية التي يعيشها طلبة المغرب الأقصى، مشيراً إلى أن حلها يكون عن طريق الإصلاحات.

أما التقرير الذي أعده الطلبة الجزائريين، قرأه ممثلهم بوعلام علواش نيابة عن عبد الحق الناصري الجزائري، حيث قدم فيه عرضاً مفصلاً عن الأوضاع السيئة التي يعاني منها الطلبة الجزائريين في المدارس الرسمية، وخاصة المضايقة الشديدة المفروضة على تعليم اللغة العربية من خلال القوانين الجائرة الصادرة في حقها من جهة، وضعف مستوى المؤطرين من جهة أخرى، كما أشار التقرير أيضاً إلى وضعية المدارس الشرعية الثلاث الموجودة في كل من الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان، وألح على ضرورة رفع مستوى التعليم في هذه المدارس⁽¹²⁾.

أما اللجنة الثالثة المخصصة للتعليم الصناعي، فإن معظم التقارير التي أعدها ممثلو طلبة الأقطار المغاربية الثلاثة، تجتمع في مجموعة من المسائل منها أن هذا التخصص ليس في متناول الجميع وإنما تكون فيه الأولوية إلى أبناء المعمرين وأبناء العائلات الثرية، هذا ما حاول فرحات عباس إبرازه في مداخلة أمام لجنة التعليم الصناعي، عندما كشف عن سياسة التمييز التي تمارسها السلطات الفرنسية بما في ذلك ميدان التعليم.

في حين اللجنة الرابعة خصصت لدراسة موضوع تعليم المرأة في بلدان المغرب العربي، إذ ركزت التقارير التي رفعها ممثلو طلبة الأقطار الثلاثة على ضرورة تعليم المرأة وتحسين مستواها الثقافي، بالنظر إلى الأهمية والدور الأساسي اللذين تلعبهما في المجتمع، بالموازاة تعليمها اللغة العربية بدلاً من اللغة الفرنسية، وكذا تعليمها شؤون الطبخ والبيت على الطريقة المحلية حفاظاً على تقاليدها، وتلقينها دروس في تربية الأطفال والمحافظة على تماسك الأسرة، وحتى يتحقق هذا، يجب توسيع دائرة المدارس الحرة لتعليم البنات المسلمات⁽¹³⁾.

خلاصة لما جاء في جلسات المؤتمر الأول لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، يمكن استخلاص مجموعة من الأفكار التي صيغت في شكل توصيات، تقدم إلى جمعية الطلبة لتصنيفها ضمن أهدافها المستقبلية الواجب تحقيقها، منها:

عدم الإفراط في الهوية العربية الإسلامية لشعوب المغرب العربي.

اعتبار اللغة العربية، لغة رسمية لتعليم أبناء وبنات المغرب العربي.

إدخال إصلاحات على المنظومة التعليمية، بغرض تعميم التعليم وكذا تحديث برامجها حتى تكون مسيرة للواقع الاجتماعي.

إدماج المرأة في الحياة العامة، وفتح لها آفاق التعليم.

المؤتمر الثاني بين 25 و 29 أوت 1932 بنادي الترقى (الجزائر):

انعقد المؤتمر الثاني لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، كما كان منتظرا بناء على توصيات المؤتمر الأول السالف الذكر، بالجزائر العاصمة على مدار خمسة أيام من 25 إلى 29 أوت 1932 بنادي الترقى⁽¹⁴⁾.

انطلقت أشغال الجلسة الأولى للمؤتمر الثاني للطلبة يوم 25 أوت 1932 برئاسة فرحات عباس⁽¹⁵⁾، الذي فسح المجال للسيد قدور ساطور⁽¹⁶⁾، بصفته الكاتب العام للجمعية بإعطاء إشارة الانطلاقة في كلمة افتتاحية أشاد في بدايتها بالحضور، ثم عرج للحديث عن مسار جمعية الطلبة بالجزائر، وكذا أهم الإنجازات التي حققتها بمساعدة الشعب لها، الذي خلص حديثه بالقول: «فليحي شعبنا في ظل العزة والكرامة»⁽¹⁷⁾.

للتذكير فإن جمعية علماء المسلمين لعبت دورا كبيرا في توجيه خطاب جمعية الطلبة في المؤتمر الثاني للجمعية بدءا باحتضان أشغال المؤتمر في مقر جمعية العلماء وتداول خطباءها على منصة المؤتمر من بينهم الشيخ الطيب العقبي⁽¹⁸⁾، الذي أشاد بدور الهيئة الطلابية في خدمة قضايا الفكر والثقافة، ودعا إلى تلاحم الصفوف وتعزيز التضامن والوحدة بين الطلبة خدمة لقضايا شعوب المغرب العربي، بغرض استعادة مقومات الشخصية العربية الإسلامية التي طمسها الوجود الاستعماري طيلة تواجده في المنطقة، وبهذا تكون جمعية العلماء قد بلغت رسالتها المتمثلة في نشر الحس الوطني والديني من خلال مشروع العمل الطلابي المغربي الذي اعتبرته مكملًا لمبادئها وأهدافها.

لعل الصلة التي كانت قائمة بين هذا التنظيم الطلابي وجمعية العلماء والتي بدت واضحة من خلال مجريات المؤتمر الثاني للطلبة، جعلت من فرنسا أن تكون أكثر حذر من أي وقت مضى من تحركات ونشاطات جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا⁽¹⁹⁾.

زيادة عن تواجد الإصلاحيين في جلسات المؤتمر الثاني لهذا التنظيم الطلابي لقد كان للنخبة الليبرالية تواجد واسع هي الأخرى، بل امتد هذا التواجد ليشمل التمثيل المغربي المعتبر لحضور وجوه طلابية بارزة تدافع على قضايا مغربية.

بالنسبة للوفد التونسي تشكل من السادة محمد الصالح النيفر، أحمد بن ميلاد، حسن داود، علي البلهوان، الصالح المهدي، الحبيب تامر، التهامي البناي، الصادق الملو، محمد الملو، كان لعلي البلهوان التونسي مداخلة، قدم من خلالها عرضا مفصلا عن حالة التعليم في تونس، مبديا عن عدم رضاه لطريقة التعليم المنتهجة في جامع الزيتونة، وخلص في النهاية إلى القول بأنه لا بد من إدخال إصلاحات على طريقة التعليم في تونس في إطار العصرية وتثبيت القيم الوطنية الناشئة.

أما الوفد المغربي تشكل من السادة: عبد الخالق الطوريس، عبد الحفيظ الشرايبي، ألقى بالمناسبة عبد الخالق الطوريس مداخلة قدم فيها هو الآخر عرضا شاملا عن وضعية التعليم العربي في المدارس بالمغرب الأقصى موضحا عكس ما ذهب إليه الوفد التونسي بأن التعليم في المغرب الأقصى، اتخذ منعرجا جديدا في إطار إصلاحات مستوحاة من تطور مناهج التعليم المعمول بها في مصر وسوريا.

في حين الوفد الجزائري الذي شارك بعدد هائل من ممثلي الطلبة، نذكر أبرزهم السادة فرحات عباس، عبد الرشيد مصطفى، مفدي زكرياء، توفيق المدني، سعد الدين بن أبي شنب، مصطفى باشا، علي الزاوش، وتولى قراءة المداخلة ممثل الطلبة الجزائريين السيد عبد الرشيد مصطفى، انصب عرضه في معظمه على وصف الأوضاع المزرية التي يعاني منها الطالب الجزائري في سلك التعليم العربي في كل مراحل في الزوايا والمدارس الابتدائية والثانوية، مبديا في النهاية رأيه للخروج من هذا المأزق الذي يتخبط فيه التعليم بالجزائر، قائلا بأن الحل الوحيد هو إدخال إصلاحات جذرية على المنظومة التعليمية سواء تعلق الأمر بالمواد المقررة أو الطرق البيداغوجية المنتهجة، لكونها لا تتلاءم مع طموحات شعوب المغرب العربي، بل ذهب في مداخلته إلى حد إعطاء بعض الحلول التي يراها مناسبة في هذه الإصلاحات منها:

جعل من التعليم الابتدائي إجباري في المدارس.

إلزامية تدريس تاريخ المغرب العربي.

إجبارية تعلم اللغة العربية في المدارس الابتدائية.

على أن يتلقى الطلبة الجزائريين دروس اللغة العربية من الجزائريين الحاملين للشهادات في اللغة العربية.

فتح المجال للطلبة للالتحاق بالمدارس الثلاثة (الجزائر العاصمة، قسنطينة، تلمسان)⁽²⁰⁾.

وهكذا يستشف من خلال مداخلات ممثلي الطلبة الجزائريين والتونسيين والمغرب الأقصى بأن المطالب التي طرحوها في المؤتمر الثاني تشبه كثيرا تلك التي طرحت في المؤتمر الأول المنعقد بالخلدونية بتونس منها الأوضاع السيئة التي يعيش فيها طلبة أقطار المغرب العربي لانعدام الإمكانيات المادية والنقص البيداغوجي وغيرها من المشاكل التي ظل طالب المغرب العربي يتخبط فيها، لعل إعادة التذكير بهذه المطالب في المؤتمر الثاني للطلبة يدل على أن السلطات الفرنسية لم تأخذ في الحسبان هذه المطالب ولم تعالجها بعد.

إذا كانت الجلسة في المؤتمر الثاني التي ترأسها السيد المنجي سليم التونسي والتي خلصت إلى مجموعة من الاقتراحات منها:

جعل من اللغة العربية، لغة رسمية في مؤسسات التعليم، وكذا توحيد البرامج في الدول المغاربية الثلاث، مع إجبارية تدريس اللغة العربية في سائر أطوار التعليم في الأقطار المغاربية الثلاثة وغيرها من المطالب، فإن الجلسة الثانية التي ترأسها ممثل الجزائر علي الزاوش، كانت هذه الجلسة عبارة عن أبواب مفتوحة ناقش فيها الطلبة العديد من القضايا، ولعل من بين القضايا التي نالت القسط الأوفر في عمر هذه الجلسة هي تلك التي جاءت في التقرير الذي تلاه على مسامع الحضور الممثل التونسي أحمد بن ميلاد، الذي تضمن الفوارق في الحظوظ الموجودة بين طلبة المغرب العربي سواء في الدراسة أو في التوظيف مقارنة مع الطلبة الأوروبيين وأبناء الفرنسيين⁽²¹⁾.

أما النقطة الثانية التي تستحق الذكر بدورها في أشغال الجلسة الثانية هي الاهتمام بموضوع التاريخ باعتباره مرجعية أساسية في بناء قيم شعوب المغرب العربي وهو المطلب الذي أيده كل المتدخلين، التونسيين أحمد بن ميلاد وحسن داود، والمغربي عبد الخالق الطوريس والجزائريين سعد الدين بن أبي شنب ومفدي زكرياء، كلهم أجمعوا على أهمية تدريس مادة التاريخ العربي والإسلامي وجعله مرجعا هاما في عملية تلقين الثوابت الوطنية، والتصدي لظاهرة الإدماج والتجنس ورفضه لقابلية الاستعمار.

إن الشيء الملفت للنظر في نهاية أشغال المؤتمر الثاني هو عندما صعد المنصة كل من ممثل الطلبة التونسيين المنجي سليم ونظيره الجزائري علي الزاوش والمغربي عبد الخالق الطوريس، وتماسكوا اليد في اليد ينادون جميعا لتحى وحدة شمال إفريقيا⁽²²⁾.

ومن عادات المؤتمرات أنه في نهاية الجلسة الختامية تقرأ على مسامع الحضور التوصيات التي خرج بها المؤتمر، بناء على هذه التقاليد رفعت على الحاضرين مجموعة من التوصيات التي كانت بمثابة تحصيل حاصل للمطالب التي طرحها ممثلي الطلبة للأقطار المغاربية الثلاثة منها:

تكوين لجنة دائمة للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا.

انعقاد المؤتمر القادم بالمغرب الأقصى.

العمل على تحسين ظروف الطلبة في كل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى ماديا ومعنويا وييداغوجيا.

لم تفترق جموع الطلبة الجزائريين بعد نهاية أشغال المؤتمر الثاني دون أن يتفق ممثلي الطلبة على صياغة مذكرة يقدمون فيها جزيل الشكر للقائمين على نادي الترقى، مكان انعقاد المؤتمر، وسكان الجزائر على السواء لحسن الاستضافة لهم ومما جاء فيها: « إن التجمع العام للمؤتمر يقدم جزيل تشكراته لأعضاء نادي الترقى وإلى جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، وإلى سكان الجزائر، وإلى الصحافة الناطقة بالعربية وبالفرنسية للمجهودات التي قدمتها من أجل إنجاح فعاليات المؤتمر »⁽²³⁾.

المؤتمر الثالث بين 26 و29 ديسمبر 1933 بباريس.

لم يعقد المؤتمر الثالث لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بالمغرب الأقصى تحديدا بمدينة فاس، كما كان متفقا عليه في توصيات المؤتمر الثاني المنعقد بالجزائر، والسبب في ذلك يعود إلى الإدارة الاستعمارية التي فضلت بأن تعقد أشغال المؤتمر الثالث في العاصمة الفرنسية باريس، بدلا من مدينة فاس المغربية، ربما الغاية التي تريد فرنسا أن تصل إليها من خلال نقل المؤتمر إلى فرنسا، هي من أجل التحكم ومواكبة كل ما يجري من تفاصيل في أشغال المؤتمر، للعمل دون حيلولة كل ما يضر وجودها في منطقة المغرب العربي، بعد ما تبين لها نمو النزعة الوحودية بين طلبة أقطار المغرب العربي التي أخذت تتجسد فعليا على أرض الواقع من خلال ما أسفرت عنه من نتائج أشغال المؤتمرين الأول والثاني المنصرمين للطلبة⁽²⁴⁾، قبل أن يغير رسميا مكان انعقاد المؤتمر الثالث للطلبة،

شرعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر برئاسة علال الفاسي في وضع الترتيبات الأولية تحسبا لانعقاد المؤتمر في وقته المحدد في جدول الأعمال ما بين 19 و 23 سبتمبر 1933 بمدينة فاس الذي سيناقش فيه الطلبة مجموعة من القضايا التي طرحت في المؤتمرات السابقة ولم تجد الحل، وهي ضمن الانشغالات الأساسية لجمعية الطلبة منها:

1 تحسين ظروف الطلبة في مختلف المراحل التعليمية وخاصة التعليم الجامعي.

2 إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج، نحو المشرق العربي وأوروبا.

3 تكوين المؤطرين في ميدان التدريس.

4 ترسيم تعليم اللغة العربية.

5 إدخال إصلاحات على المناهج وطرق التدريس في كل من جامع الزيتونة والقرويين.

6 تعميم التعليم الابتدائي بالمغرب الأقصى⁽²⁵⁾.

ولإنجاح المؤتمر أسس له لجنة الدعاية تنشط على مستوى بلدان المغرب العربي بما في ذلك باريس تحت وتدعو الطلبة لحرص الصفوف من أجل تجسيد فكرة توحيد النشاط الطلابي في هذه الأقطار بغرض إنشاء قطب يدافع على حقوق الطلبة في بلدان المغرب العربي وشعوبها على السواء في ظل التواجد الاستعماري.

لعل نزعة الوحدة بين طلبة أقطار المغرب العربي التي أخذت تنمو باستمرار، وتخوف السلطات الاستعمارية من تجسيدها على أرض الواقع، هي التي دفعت بالإدارة الفرنسية أن تأمر رئيس بلدية فاس إلى إصدار قرار إداري الموافق ليوم 18 سبتمبر 1933 أي يوم واحد قبل انطلاق أشغال المؤتمر الطلابي الثالث، يمنع عقد المؤتمر الثالث بمدينة فاس المغربية ويرخص له للانعقاد في العاصمة الفرنسية باريس.

مضمون هذا القرار التعسفي استغله طلبة المغرب العربي وجعلوا منه أرضية للمزيد من تعبئة وتجنيد الطلبة، على حد قولهم بأن ذلك يعد فرصة لنشر دعوة التوحيد بين طلبة المغرب العربي في أوروبا، إذ جاء في نشرة أعمال المؤتمر الثالث: «لهذا المؤتمر صبغة خاصة لم تستلفت إليها أنظارنا في المؤتمرات السابقة وهي أن تنشر الدعوة لطلابنا في البلاد الأوروبية»⁽²⁶⁾.

فعلا لقد انعقد المؤتمر الطلابي الثالث بفرنسا، كما أردته السلطات الفرنسية، احتضن أشغاله قصر التعااضدية (Palais de la Mutualité) بباريس، الذي عُلقت في أعلى واجهته لافتة ملونة بثلاثة ألوان وهي الأخضر يرمز إلى تونس والأبيض يرمز إلى الجزائر والأحمر

يرمز إلى مراكش، كتبت عليها بالخط العربي عبارة: «المؤتمر الثالث للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا»، انعقد إذن بين 26 و 29 ديسمبر 1933 برئاسة السيد محمد الفاسي وساعده في ذلك الحبيب تامر بصفته كاتباً عاماً وكل من فرحات عباس وعلال الفاسي وصالح بن يوسف، وأحمد بلافريج وعبد الرحمن ياسين بصفته مسؤولين على الهيئة النظامية للمؤتمر.

وكانت الكلمة الافتتاحية على لسان محمد الفاسي ثم فسح المجال للمتدخلين، بالنسبة للجزائريين تدخل فرحات عباس الذي ثمن الصلة القائمة بين الطلبة وشعوب المنطقة، طالباً بقاء هذه الوحدة ودوامها بقوله: «كنت من العاملين في المؤتمر الأول بتونس والثاني بالجزائر، ومن أهم قواعد المؤتمرات ربط الصلة والتواصل بين الطلبة والشعب»⁽²⁷⁾.

في الواقع أن مساهمة الطلبة الجزائريين في جلسات المؤتمر كانت فعالة وقوية على جميع المستويات التنظيمية كانت أو رئاسة الجلسات وحتى تحرير التقارير وتقديم الاقتراحات. وإذا كان المؤتمر لم يخرج في خطوطه العريضة عن مطالب اللغة العربية والثقافة وإصلاح القضايا البيداغوجية والمادية والمعنوية للطلبة، لكنه توصل إلى تبليغ رسالة ذات بعد سياسي المتمثلة في ترسيخ ثقافة الوحدة بين طلبة بلدان المغرب العربي من جهة وبين شعوبهم من جهة أخرى، وبذلك تولدت ثقة كبيرة بين الطلبة وشعوبهم بسبب سياسة الإدارة الاستعمارية المنتهجة في المنطقة والتي تعمل على تحطيم آمال سكان هذه الأقطار. خصصت الجلسة الأولى من المؤتمر لموضوع المؤطرين لتدريس اللغة العربية، حيث وجه بالمناسبة نداء إلى شعوب دول المغرب العربي بعدم السماح لأبنائهم بالذهاب إلى مدارس التبشير لخطورتها على الهوية العربية الإسلامية، خلافاً لذلك يجب تعزيز البعثات العلمية إلى دول المشرق العربي من أجل التحصيل اللغوي ودوام الربط الحضاري. كما طرح الطلبة المتدخلين سياسة الحرمان والإقصاء التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في حق طلبة شمال إفريقيا الذين يزاولون دراستهم في بلدان المشرق العربي⁽²⁸⁾.

في حين الجلسة الأخيرة الموافقة ليوم 29 ديسمبر 1933 خصصت لتعليم اللغة العربية في الجزائر في مختلف أطوار التعليم من الابتدائي إلى الثانوي وإلى الجامعي، وحسب تقرير عبد الرحمن ياسين فإن أساليب التعليم المنتهجة في المدارس الجزائرية كانت سبباً في تدني المستوى مما أدى إلى الضعف في التحصيل العلمي واللغوي، لهذه الأسباب انتقد المؤتمر بشدة السياسة الفرنسية المنتهجة في الجزائر بعد أن أقدمت الإدارة الفرنسية في الجزائر

على غلق المدارس القرآنية. في مداخلته تأسف فرحات عباس عما تقوم به فرنسا من أعمال تعسفية في حق الجزائريين الذين حرمتهم حتى من تعليم دينهم من خلال غلقها للعديد من المدارس القرآنية إذ يقول: «وقد أردنا نحن المسلمون أن نسعى في تحسين العلم الديني عندنا بالجزائر، فأسسنا المدارس القرآنية العصرية، ولكن الحكومة أبت ذلك وأخذت تعارضنا في كل خطواتنا»⁽²⁹⁾.

مهما يكون الأمر فإن المؤتمر الثالث الذي عقدته جمعية الطلبة بباريس قد حقق نسبة كبيرة من النجاح ليس كما كانت تعتقد فرنسا إذ تمكن من مواصلة تبليغ الرسالة التي دعت إليها المؤتمرات السابقة، وهي تثبيت الفكر الوحدوي في النضال فيما بين الطلبة وشعوبها في أقطار المغرب العربي من أجل نيل حقوقها واسترجاع كرامتها وحريتها.

المؤتمر الرابع 2 أكتوبر 1934 بالخلدونية بتونس:

انعقد المؤتمر الرابع لجمعية طلبة مسلمين شمال إفريقيا في المدرسة الخلدونية بتونس⁽³⁰⁾ يوم 2 أكتوبر 1934، على عكس سابقه من المؤتمرات لقد وجد القائمين على تحضيره صعوبة في عقده من جراء العراقيل التي وضعتها الإدارة الفرنسية التي كانت سببا في تأجيل انعقاد المؤتمر الذي كان من المقرر عقده يوم 18 سبتمبر 1934.

والميز أيضا في هذا المؤتمر هو حضور الهيئات الرسمية التونسية وغياب ممثلي طلبة المغرب الأقصى، هذا الغياب أرجعه القادري إلى أسباب سياسية ومادية لم يدخل في تفصيلها.

للعلم فإن مهمة التحضير للمؤتمر أسندت للسيد المنجي سليم، الذي كان أيضا رئيسا له، كما تولى افتتاح أشغال المؤتمر من خلال مداخلة ركز فيها على أهمية الوحدة والتوحيد بين الأقطار الأشقاء الثلاثة، باعتبار أن هذه الوحدة سندها الإسلام والعروبة إذ يقول في هذا الصدد: «يا معشر قوم آمنوا بالوحدة والتوحيد، إن مبدأ هذا المؤتمر هو توحيد الآراء» وإن الغاية السامية التي ترمي إليها وحدة أبناء الأقطار الشقيقة الثلاثة، وحدة بين طلبة المعاهد العصرية والمعاهد القومية الإسلامية، وهي وحدة أسسها الإسلام والعربية

||. (31)

يذكر أن مداخلات الوفد الجزائري هي الأخرى كانت كلها تصب في بوتقة الوحدة بين شعوب المغرب العربي، وإن هذا الخيار يعد مكسب شرعي لا يحق التخلي عنه، لعل

مداخلة مفدي زكرياء، المناضل في حزب الشعب خير دليل على ذلك، التي أسماها الباحثون بعقيدة التوحيد والتي وصف فيها وحدة شعوب المغرب العربي في أجل صور بلاغية لخصها في عشرة نقاط دعا إليها كل طالب من المغرب العربي إلى اعتناقها كما اعتنق الإسلام عقيدة ودينا، والتي يمكن ذكر البعض منها:

آمنت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبشمال إفريقيا وطناً واحداً لا يتجزأ.

أقسم بوحدانية الله إنني أو من بوحدانية شمال إفريقيا وأعمل لها.

الإسلام ديننا فشمال إفريقيا وطننا والعربية لغتنا.

لست مسلماً ولا عربياً ولا مؤمناً إذا لم أقدم نفسي ومالي وأمي في سبيل تحرير وطني العزيز شمال إفريقيا.

كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله فهو أخي وقسيم روحي فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي.

كل من عمل للتفرقة بين أجزاء وحدة وطن شمال إفريقيا اعتبره أكبر عدوي ولوطني وأحاربه⁽³²⁾.

هذا فضلاً عن قصائد شعرية ألهاها في سياق خطبته أهم فيها مشاعر الطلبة، التي تجاوب معها العديد من الطلبة نظراً لما تدعو إليه بكل إخلاص وحرارة إيمان صادق إلى التوحيد بين شعوب المغرب العربي⁽³³⁾.

على الرغم من أن جلسات المؤتمر الرابع للطلبة كانت مبتورة من حضور وفد ممثلي طلبة المغرب الأقصى الذي تعذر له الحضور والمساهمة في أشغال المؤتمر، إلا أنه خرج بقرارات وتوصيات جد هامة، كانت تعكس مدى تأثير المؤتمرين بحرارة وشدة الإيمان بالوحدة والتوحيد بين شعوب المغرب العربي التي دعت إليها جل المداخلات خاصة تلك التي ألهاها مفدي زكرياء والمنجي سليم، وبذلك افترق الحضور مؤمناً وآملاً بأن يرى يوماً الأقطار الثلاثة حرة ومستقلة عن الوجود الفرنسي الذي يعمل دوماً على استغلال شعوب المنطقة ونهب خيراتها الطبيعية.

المؤتمر الخامس من 06 إلى 10 سبتمبر 1935 بتلمسان (الجزائر)

انعقد المؤتمر الخامس لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بمدينة تلمسان الجزائرية على مدار خمسة أيام، عاد شرف الاحتضان إلى كل من النادي الإسلامي ونادي السعادة

التابعين لفرع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمدينة تلمسان اللذين احتضنا معظم جلسات المؤتمر⁽³⁴⁾.

مادام المؤتمر انعقد على أرض الجزائر فإنه من الطبيعي أن تلقى الكلمة الافتتاحية من قبل جزائري طبقا لأعراف المؤتمرات الدولية، فوقع الخيار على الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أعطى إشارة انطلاق أشغال المؤتمر الخامس للطلبة، ودعا في ذات المناسبة طلبة الأقطار الثلاثة إلى النضال في إطار وحدة شمال إفريقيا دفاعا عن حقوقهم وحقوق شعوبهم المسلوقة من الاستعمار الفرنسي المتواجد في المنطقة مستدلا كلامه بلمحات تاريخية لهذه الوحدة عبر العصور.

وسانده في ذلك الحبيب تامر ممثل الطلبة التونسيين، الذي تحدث طويلا في تدخله على موضوع الوحدة بين شعوب المغرب العربي مؤكدا بأن هذه الوحدة ليست وليدة ظرف ما، وإنما تعود إلى عصور غابرة بحكم الامتداد الطبيعي والمناخي وقواسم مشتركة من لغة ودين وعادات وتقاليد، حيث قال: «إن وحدة الشمال الإفريقي قد أبدىها التاريخ وشهدت بها العصور الغابرة، فغفلنا عنها حينما من الزمن، فلنرجعها اليوم أقوى وأمتن من ذي قبل، وهانحن إلا أبناء بلد واحد، ووطن واحد، طباعنا واحدة وعوائدنا واحدة وأمزجتنا مستمدة من تراب واحد وطقس واحد، جمعتنا راية العروبة وعلم الدين الإسلامي، وتجمعنا اليوم آمال واحدة، وإيمان راسخ في مستقبل زاهر لبلادنا، وسنجتمع غدا في وطن واحد ووطننا الشمال الإفريقي»⁽³⁵⁾.

إن مثل هذه الدعوات التي تحث على ضرورة تحقيق الوحدة والتوحيد بين شعوب بلدان شمال إفريقيا، والتي لا تعود بدون شك بالفائدة على الوجود الفرنسي في المنطقة، جعلت السلطات الفرنسية في حالة استنفار.

ولم تتأخر عن الرد عليها على لسان رئيس بلدية تلمسان السيد (فلور) باعتباره المسؤول الأول الذي يحمي القوانين والمصالح الفرنسية في مدينة تلمسان التي تحتضن مجريات المؤتمر الخامس للطلبة، حيث قال إن الحديث عن وحدة الشمال الإفريقي، فالفضل وكل الفضل في هذا يعود إلى فرنسا وبذلك لا يحق أن يكون خارج قوانين الجمهورية الفرنسية، ومما جاء في حديثه ما يلي: «إن وحدة الشمال الإفريقي يشهد بها التاريخ، وأن فرنسا هي التي وحدت الشمال الإفريقي، وأن توحيد الشمال الإفريقي يكون تحت راية الجمهورية الفرنسية»⁽³⁶⁾.

إلا أن هذا لم يزعزع ولو بصيص من الشعور بالوحدة لدى أوساط الشريحة الطلابية

لبلدان شمال إفريقيا المتشعبة بالوعي الوحدوي الذي أخذ يزداد ترسيخا وباستمرار في أذهان طلبة المغرب العربي بسبب الارتباط المتين الذي يربط العديد من الطلبة بتيارات الحركة الوطنية التي تعرفها منطقة شمال إفريقيا على وجه التحديد الاتجاه الاستقلالي.

حتى تتجسد هذه المطالب على أرض الواقع، انتبعت لجنة المؤتمر إلى العراقيل المحتملة التي قد تضعها الإدارة الفرنسية بغرض إفشال هذه المطالب، ولذا سعت لجنة المؤتمر إلى توجيه نداء إلى الحاكم العام في الجزائر جول قاسطون هنري كارد (Jules Gaston Henri Carde) الذي كان على رأس الإدارة الفرنسية في الجزائر بين سنوات 1930-1935 تدعوه إلى عدم اللجوء إلى الأساليب القمعية والإجراءات التعسفية التي قد تعيق تحقيق هذه المطالب على أرض الواقع، كما هو الشأن بالنسبة للقانون الذي أصدرته الإدارة الفرنسية سنة 1898 الذي يمنع التعليم العربي ويدعو إلى متابعة رجالاته.

للعلم فإن محتوى جدول الأعمال الذي أعدته لجنة التحضير للمؤتمر فإنه لم يخرج عن مضمون جداول الأعمال التي عرفتها المؤتمرات السابقة، إذ كانت تدور أشغال الجلسات حول تحسين أوضاع الطلبة البيداغوجية منها والمادية والاجتماعية وكذا الدعوى إلى الرفع من مستوى التحصيل العلمي بغرض محاربة الأمية المنتشرة في أوساط شعوب المغرب العربي للرفع من درجة الوعي الذي يمكن استعماله كسلاح لتحقيق الوحدة في المنطقة للتخلص من الوجود الاستعماري على أراضي بلدان شمال إفريقيا.

المؤتمر السادس من 21 إلى 27 أكتوبر 1936 بتيطوان (المغرب الأقصى)

انعقد المؤتمر السادس لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بالمغرب الأقصى طبقا لتوصيات المؤتمر الخامس المنعقد بعاصمة الزيانين، مدينة تلمسان الجزائرية، وهذا ما بين أيام 21 و 27 أكتوبر 1936⁽³⁷⁾.

غير أن التوصيات التي خرج بها مؤتمر تلمسان، خاصة تلك التي تدعو صراحة إلى رص الصفوف بين طلبة الأقطار المغاربية من جهة وبين شعوب بلدان المغرب العربي من جهة أخرى، للنضال من أجل وحدة أقطار المنطقة، هذه التوصيات ترجمتها الإدارة الاستعمارية بالأمر الخطير الذي يهدد كيان الاستعمار الفرنسي في بلدان المغرب العربي.

ولذا جندت مسؤوليها الإداريين في المنطقة وجعلتهم في حالة استنفار، ودعتهم لتولي الإشراف على جلسات المؤتمر السادس حتى يتسنى لهم التحكم في توجيه مجريات المؤتمر

حسب أهواء الإدارة الفرنسية وخدمة المصالح الاستعمارية وليس العكس، كما حدث في باقي المؤتمرات الطلابية السابقة.

تجسيدا لهذه الفكرة، شرع المقيم العام الفرنسي في المغرب الأقصى المدعو (بيروتون) في اتصالات مع الطلبة من خلال مراسلة مؤرخة بتاريخ 4 أكتوبر 1936، اقترح فيها المكان الذي سينعقد فيه المؤتمر وهو مدينة الرباط بدل مدينة فاس، وكذا التاريخ المحدد بيوم 12 أكتوبر 1936، كما أبدى لهم في ذات المراسلة دائما على استعداده في تولي إدارة جلسات المؤتمر⁽³⁸⁾.

غير أن هذه الاقتراحات لم تتلق استجابة من جمعية الطلبة، بحيث أن القائمين على التحضير للمؤتمر رفضوا مقترحات المقيم العام الفرنسي بالمغرب الأقصى السيد بيروتون، بل اعتبروها تدخلا مباشرا في شؤون الطلبة المغاربة، وتحديد من نشاط الحركة الطلابية، يتجلى هذا واضحا من خلال الرسالة التي بعث بها رئيس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا السيد المنجي سليم إلى السيد بيروتون يرفض فيها مقترح المقيم العام الداعي إلى ترأس جلسات المؤتمر السادس للطلبة، وكذا الرسالة التي نشرتها لجنة المؤتمر في جريدة الأمة تستنكر فيها للجنة تدخل المقيم العامة بالمغرب الأقصى معتبرة ذلك مساسا بطبيعة المؤتمرات التي تعقدها جمعية الطلبة والتي هي ذات مدلول علمي لا غير، ومما جاء في مضمون الرسالة المنشورة في الجريدة ما يلي: «إننا نحتج بشدة ضد المنع الملبس لمؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين الذي أصدره المقيم العام بالرباط بعدما منح لنا الرخصة المطلقة، وكذلك لمجرد امتناع لجنة المؤتمر من تحويل وضعية المؤتمر التي يجب أن تبقى دراسة علمية محضة»⁽³⁹⁾.

ولضمان انعقاد المؤتمر السادس والإفلات من يدي الإدارة الفرنسية التي أخذت تنسق تحركاتها في الأقطار الثلاثة لمنع الرخص للطلبة للالتحاق بالمغرب الأقصى بغرض إفشال المؤتمر، سعى عبد الحق الطوريس لدى الإدارة الإسبانية وتحصل على موافقة انعقاد المؤتمر السادس في مدينة تيطوان المغربية التابعة لإداريا للحكومة الإسبانية، وبناء على هذه الموافقة حدد تاريخ انطلاق أشغال المؤتمر المتمثل في يوم 21 أكتوبر 1936.

إلا أن هذا المؤتمر لم يكن كسابقه من حيث نسبة حضور الطلبة بسبب العراقيل التي وضعتها الإدارة الفرنسية في بلدان المغرب العربي الثلاثة إذ غاب الطلبة الجزائريين عن المؤتمر بعد أن تأخرت الولاية العامة منحهم جوازات السفر في الوقت المناسب، وحضور عدد قليل من الطلبة التونسيين.

على الرغم من الحضور المتواضع للطلبة في غياب الوفد الجزائري، وعدد قليل من التونسيين إلا أن أشغال المؤتمر انطلقت في التاريخ والمكان المحدد بن وتدارس فيه الحاضرون وضعية التعليم في منطقة المغرب العربي والمناهج المستعملة، مؤكدين في توصيات المؤتمر على ضرورة الرفع من التحصيل العلمي في المدارس التعليمية للرفع من مستوى الوعي الذي يعد اللبنة الأساسية لبناء صرح مغاربي مشترك في إطار الوحدة والتوحيد فيما بين شعوب بلدان شمال إفريقيا.

خاتمة :

وبانتهاء المؤتمر السادس، تنتهي المؤتمرات الرسمية التي كانت تعقدها جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، إلا أن هذا لا يعني توقف الجمعية الطلابية عن نشاطها وتحليلها عن البعد الوجداني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين وشعوبها، التي سطرته لنفسها كمبدأ أساسي لا رجعة فيه، بل واصلت نضالها في خدمة الشريحة الطلابية تجاوبا مع الظروف والأوضاع السياسية.

حيث عرف نشاطها نوع من الفتور خلال الحرب العالمية الثانية وإلى بداية الخمسينيات مرور بأحداث 8 ماي 1945، ففي 1950 رفع عليها التجميد، وشرعت من جديد في نشاطاتها، وتجسد ذلك اجتماع مشترك في تونس، وهو اللقاء الذي توصل فيه الطلبة إلى وضع برنامج جديد لجمع شمل طلبة شمال إفريقيا وإبقاءها على فكرة الوحدة.

إلا أن النضال الطلابي في بداية الخمسينيات، لم يكن على نفس وتيرة النضال في العشرينيات والثلاثينيات، فإنه بعد تبلور الاتجاه التحرري للطلبة، أصبح النضال الطلابي جزء لا يتجزأ من عمل الأحزاب السياسية في بلدان المغرب العربي، إن مثل هذا الخيار لم يكن سهلا على الطلبة المغاربة، إذ كلفهم بمتابعة الإدارة الاستعمارية لنشاطات الجمعية الطلابية، هذا ما يؤكد إقدام الإدارة الفرنسية على منع الجمعية من عقد مؤتمرها المقرر عقده في تونس سنة 1952.

غير أن المستجدات السياسية التي عرفت المنطقة في بداية الخمسينيات حالت دون إبقاء هذا التنظيم الطلابي، وكانت البداية من الطلبة التونسيين الذين انساقوا وراء قادتهم السياسيين الذين رفعوا لواء النضال من أجل الاستقلال وأسسوا لوحدهم تنظيم يدعى «اتحاد العام للطلبة التونسيين» في شهر جويلية 1952، وحذا حذوهم في ذلك الطلبة الجزائريين الذين أسسوا «الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين» سنة 1956، في خضم

الثورة التحريرية بعد أن تبين لهم بأن لا الطلبة التونسيين ولا المراكشيون الذين سبق لهم بدورهم وأن أسسوا «الاتحاد الوطني للطلبة المغاربة» (المراكشيون) في سنة 1955، يرغبون في مواصلة النضال الموحد.

مهما يكن من أمر فإن جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا قد ساهمت في تعبيد طريق الوحدة بين شعوب بلدان المغرب العربي من أجل الاستقلال، إذ كانت مؤتمرات الجمعية الطلابية التي تعقد سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى فرصة لتبادل وجهات النظر في قضية الوجود الاستعماري في المنطقة من جهة، وتوحيد الخطاب المتضمن لمفاهيم الوحدة والتضامن من أجل استقلال بلدان المغرب العربي من جهة أخرى.

الهوامش:

1. - جريدة المجاهد، الصادر بتاريخ 8 / 08 / 1960، العدد 74.
2. - محمد بلقاسم، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910 1954، رسالة الماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1994، ص 191.
- يعد صالح بن يوسف أحد أقطاب الحزب الدستوري في تونس وهو من المقربين للحبيب بورقيبة.
3. - كان له دورا فعالا في الحياة السياسية للمغرب الأقصى، وهو من حماة فكرة توحيد بلدان المغرب العربي، وهو أيضا أحد صانعي مؤتمر طنجة المنعقد بالمغرب الأقصى سنة 1958 بصفتة رئيس حزب الاستقلال المغربي.
4. - CATRICE (Paul), Étudiants musulmans en France in : en terre d'islam, Mai – Juin 1932, N°54, p. 178.
5. - أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصرة 1881 1956، تعريب حمادي الساحلي، قرطاج تونس، 1986، ص 500.
6. - جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، النشرة السنوية 1928 / 1929، المطبعة التونسية سوق البلاط، تونس 1929، ص 15.
7. - جمعية الطلبة، النشرة السنوية 1928 / 1929، المرجع السابق، ص 14.
8. - وهم على التوالي: فرحات عباس طالب في كلية الطب، محي الدين الشرقي طالب في كلية الحقوق، الشريف بن الحاج سعيد طالب في كلية الحقوق، عباس القلي طالب في كلية الحقوق، عبد الرشيد مصطفىاوي طالب في كلية الآداب، بوعلام علواش طالب في كلية الآداب، الهادي مصطفىاوي طالب في كلية الحقوق.

9. - جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا، نشرة محاضر جلسات المؤتمر الأول، المطبعة الأهلية، تونس، 1931، ص 11.
10. - وهي لجنة التعليم العالي، لجنة التعليم العربي، لجنة التعليم الصناعي، لجنة تعليم المرأة.
11. - جمعية الطلبة، نشرة محاضر جلسات المؤتمر الأول، المرجع السابق، ص 31.
12. - جمعية الطلبة، نشرة محاضر جلسات المؤتمر الأول، المرجع السابق، ص 85.
13. - نفس المرجع والصفحة.
14. - تأسس نادي الترقى سنة 1927، الواقع بالجزائر العاصمة، وهو أحد النوادي التي لعبت الدور الأساسي في الحياة الفكرية والدينية والسياسية التي عرفتها الجزائر في هذه الفترة، وفيه تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، اشتهر باحتضانه لعدة مؤتمرات منها مؤتمر جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، والمؤتمرات التمهيدية للمؤتمر الإسلامي 1936.
- للمزيد أنظر: عمر عيشون، نادي الترقى قلعة الإصلاح الأولى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الطبعة الأولى، الجزائر، 1987، ص 03.
15. - Le 2eme Congrès des étudiants musulmans nord Africains in en terre d'islam, septembre / octobre 1932, N°56, p.331.
16. - يعد من أبرز شخصيات جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، الذي واصل نضاله بكل حزم وثبات خلال الثورة التحريرية، وشاءت الأقدار أن يعيش بزوغ أشعة شمس الحرية والاستقلال على الجزائر، وظل مسائرا للأحداث إلى أن توفي يوم 19 نوفمبر 1997، بعد مرض عضال ألزمه الفراش في فرنسا.
17. - جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، نشرة أعمال المؤتمر الثاني، مطبعة الاتحاد تونس، الطبعة الأولى، 1932، ص 10.
18. - الطيب العقبي (1888-1960) من مواليد منطقة سيدي عقبة (بسكرة)، سافر إلى المدينة المنورة رفقة أفراد عائلته وهو لا يتجاوز ستة سنوات، وهناك حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية والفقه، عشية الحرب العالمية الأولى اقتحم ميدان الكتابة حيث كتب في قضايا الدين والسياسة، وأن موافقه المؤيد للشريف الحسين في المشرق العربي كلفه بدخول السجن من قبل السلطات العثمانية، وفي سنة 1920 عاد إلى الجزائر وكان أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي واصل فيها نضاله بصفته مصلحا وأديبا.
- للمزيد أنظر: أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، رسالة الماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993.

19. - Guy, PERVILLE, Les étudiants algériens de l'université française 1880-1962, Ed, du CNRS, Paris, 1984, p.96.

20. - جمعية الطلبة، نشرة محاضر جلسات المؤتمر الثاني، المرجع السابق، ص32.
21. - Le 2eme Congrès, op. cit, p.333.
22. - محمد بلقاسم، رسالة الماجستير، المرجع السابق، ص198.
23. - Le 2eme Congrès, op. cit, p.335.
24. - أحمد مريوش، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير 1954، رسالة دكتوراه دولة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ص 126.
25. - جمعية الطلبة، نشرة أعمال المؤتمر الثالث، باريس، مطبعة الاتحاد، تونس، 1933، ص 06.
26. - جمعية الطلبة، نفس المرجع والصفحة.
27. - المصدر نفسه، ص 19.
28. - يذكر محمد الفاسي أن الحكومة الفرنسية قد منعت في سنة 1932 ما يقارب 50 طالب من مدينة فاس بالالتحاق بالمؤسسات التعليمية بدول المشرق العربي.
29. - جمعية الطلبة، نشرة أعمال المؤتمر الثالث، المرجع السابق، ص140.
30. - يذكر أن الخلدونية سبق لها وأن احتضنت أشغال المؤتمر الأول لجمعية الطلبة المنعقد سنة 1932.
31. - جريدة الأمة، الصادرة بتاريخ 19 / 10 / 1934، العدد 04.
32. - تونس الفتاة، الصادرة بتاريخ 19 / 08 / 1939، العدد 18.
33. - محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الطبعة الثانية، الجزائر، 1989، ص 14.
34. - DESPARMET, (J), le 5eme Congrès des étudiants musulmans nord Africains, in : A.F, décembre 1935, N°12, p. 716.
35. - أبوبكر القادري، مذكراتي، في الحركة الوطنية المغربية بين 1930 و1940، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992، ص 282.
36. - DESPARMET, (J), le 5eme Congrès, op. cit, p. 718.
37. - في حين أوصى مؤتمر تلمسان عقده بين 7 إلى 12 سبتمبر 1936. أنظر جريدة الأمة، الصادرة بتاريخ 2 أفريل 1935، العدد 26.
38. - MOHANDIS, (L) La situation dans l'Afrique du Nord, in : A.F, Septembre / Octobre 1936, N°08, p. 456.
39. - جريدة الأمة، الصادرة بتاريخ 15 سبتمبر 1936، العدد 20.

تباين الاتجاهات نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية وحظوظ التوافق الزوجي في الأسرة الجزائرية.

Divergence d'attitudes concernant le modèle traditionnel de l'autorité marital et les chances de convergence conjugale dans la famille algérienne.

د. ايت عيسى حسين

أستاذ محاضر (ب) قسم علم الاجتماع

المركز الجامعي مرسلي عبد الله - تيبازة -

الملخص :

النساء الجزائريات يتغيرن.. فما هو حال الرجال؟، أكيد أنهم يتغيرون أيضا، لكن مع اختلاف جوهري في الوتيرة والوجهة، وإذا اقتصرنا على التغيرات الحاصلة على مستوى الاتجاهات الزوجية والأسرية، فإننا نلاحظ بوضوح تغيرا بسرعتين وبوجهتين متباينتين، إذ بينما تتجه المرأة نحو إحداث قطيعة مع النموذج الأسري التقليدي، فإن الرجل لا يزال مستمسكا بمكانة وامتيازات تقليدية جد مغرية. إن هذا التباين يكتسي كل خطورته حينما يتعلق بالموقف من السلطة الزوجية تحديدا، باعتباره المبدأ الجوهري المنظم للعلاقة الزوجية وتسيير الأسرة، وأيضا حينما يتعلق الأمر بطرفي العلاقة الزوجية ونواة المؤسسة الأسرية بأكملها. وبغض النظر عن عوامل تشكل هذا التباين، فإن انعكاساته على حظوظ التوافق الزوجي تتطلب الفحص العلمي المعمق، في سبيل استكشاف أرضية بحث جديدة في سوسيولوجيا الأسرة، من خلال اقتراح مقاربة تفسيرية جديدة لظاهرة تنامي الطلاق، بتوظيف عامل ثقيل، لم تنفطن إليه الدراسات السابقة، هو عامل أزمة السلطة الزوجية. فعلا إن الطلاق هو أدق مؤشرات التفكك الأسري، لكنه ليس سوى المظهر الخارجي لظاهرة أعمق وأخطر هي ظاهرة هشاشة وتوتر العلاقة الزوجية وبما أن تكافؤ القرينين هو أبرز عوامل الاستقرار الأسري، فإن خلق زوجة جديدة يتطلب، بالضرورة، خلق زوج جديد.

هذه الدراسة هي محاولة لفحص مدى تباين اتجاهات النساء والرجال نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، وانعكاساته على حظوظ التوافق أو التوتر الزوجي في الأسرة الجزائرية.

Résumé

Au regard des profondes mutations sociales qui affectent la société algérienne, la femme comme l'homme algérien tendent inexorablement vers un changement qui instaure subrepticement une redéfinition de leur interrelation. Mais si l'on ne se penche que sur les changements relatifs aux orientations conjugales et familiales, nous constaterons deux rythmes et deux orientations distinctes. Pour les femmes, c'est vouloir rompre avec le modèle traditionnel, alors que les hommes y restent attachés avec tout ce que ce modèle leur offre comme privilèges.

En l'espèce, la gent féminine se pose comme actrice du changement et impose son rythme à un « mâle » désemparé, retranché sur des positions statutaires forcément « conservatrices », mais néanmoins convaincu que le temps des vaches grasses étant révolu, il y a nécessité de faire preuve d'adaptation. Mais son attachement - sursaut existentiel s'il en est - au maintien du statu quo ante ne le prédispose pas à suivre le rythme imposé par les mutations en cours. De ce fait, la femme d'un côté et l'homme de l'autre, indépendamment l'un de l'autre, évoluent selon un rythme duel asynchrone. Ce hiatus constitue le point nodal de la crise qui affecte le couple et partant la famille en tant qu'institution sociale. Cette démarcation en positions, tant liée à l'autorité maritale, incarne un danger imminent car elle ressort du leadership familial et de la relation conjugale ainsi que toute l'institution familiale.

C'est à partir de là que nous nous proposons d'axer notre travail d'explication du phénomène du divorce sur un facteur que les études précédentes ont éludé, à savoir *la crise de l'autorité maritale*. Le divorce reste un indicateur fiable de la décomposition de l'institution familiale et renseigne sur la fragilité avérée de la relation conjugale. Et comme il est admis que l'égalité dans le couple serait le meilleur garant pour sa stabilité, cela suppose la redéfinition de la relation mari/femme dans ce sens.

Cette étude se propose d'analyser la divergence dans la représentation que se font les hommes et les femmes du modèle traditionnel de l'autorité maritale et son impact sur la relation conjugale dans la société Algérienne.

تمهيد :

هذا المقال هو عرض للملخص وخلاصة دراسة سوسيولوجية إمبريقية أكاديمية، قمت بإنجازها في إطار التحضير لنيل شهادة الدكتوراه علم الاجتماع بجامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله، وتحت إشراف أستاذ التعليم العالي د. مغربي عبد الغني.

وتتعلق الدراسة بموضوع بالغ الأهمية، جد معقد ومتشعب سواء على المستوى المعرفي أو الاجتماعي، فقد كان منطلق هذه المغامرة العلمية الشيقة متمثلا في تقديم تفسير سوسيولوجي لتنامي ظاهرة الطلاق في المجتمع الجزائري، لكن مسار القطيعة وبناء الموضوع قد قادنا إلى تجاوز مظهر الطلاق إلى الغوص في جذوره من جهة، كما قادنا إلى اكتشاف مدخل تفسيري جديد نسبيا متمثلا في أزمة السلطة الزوجية من جهة أخرى.

لقد اعتبرنا الطلاق مجرد انعكاس لهشاشة وتوتر العلاقة الزوجية، فكان ذلك بمثابة تأكيد على مبدأ بحثي إلترمنا به، هو دراسة المرض بدل الأعراض. وبما أن الثنائي الزوجي لا يعدوا صورة من الصور المتفرعة عن العلاقة بين الجنسين في المجتمع ككل، فإنه لا مناص من الشروع بتحليل باثولوجيا تلك العلاقة على المستوى الماكرو-اجتماعي للعودة إلى المستوى الميكرو-اجتماعي (الأسرة) بعناصر تحليلية أكثر نجاعة، فمثلا أن التاريخ هو عصب علم الإجماع فإن مبدأ الكل المتضامن هو بوصلته التي لا تخطأ. من هذا المنطلق اعتبرنا أزمة السلطة الزوجية نتاجا لتغير تاريخي اجتماعي، لكن بسرعتين متفاوتتين ووجهتين متباينتين، قطيعة نسائية من جهة وارتداد رجالي من أخرى... قطيعة وارتداد حيال نموذج تقليدي لا يقدم نفس الامتيازات ولا فرض نفس التضحيات على أزواج وزوجات. الأزواج والزوجات.

1- موضوع الدراسة وخلفيته المعرفية :

تتسم الأسرة الجزائرية حاليا بوضعية انتقالية بين نموذج تقليدي سائر في طريق الزوال، مخلفا وراءه روااسب هنا وهناك ضمن عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء، ونموذج جديد لم تكتمل صورته وتتضح بعد خصائصه المكتملة بدقة. لكن أليس الأخطر يكمن تحديدا في هذه الوضعية؟، فالمخبر المفتوح للتاريخ الاجتماعي يعلمنا أن المراحل الانتقالية في عمر أي مجتمع تشكل بالضرورة الفترات الزمنية الأكثر حساسية وتعقيدا في آن واحد، وأنها حبل يارهاصات الصراع والتوتر وصعوبات التكيف التي تجعلها أرضية خصبة لبروز وتراكم وتضافر عديد الظواهر المرضية، إذ تتفاعل خلالها،

إلى حد الصراع، رواسب الماضي المدبر الذي يتشبث به نصف المجتمع بينما يتجرد منه النصف الآخر، مع إرهابات المستقبل المقبل الذي ينقسم المجتمع بشأن تبنيه أو رفضه إلى جبهتين يسود بينهما التنافس والصراع الإيديولوجي والقيمي والمصلحي.

لقد اخترنا أن نقرأ سوسيولوجيا عوامل ودلالات وانعكاسات هذا الواقع الاجتماعي في الجزائر ضمن ومن خلال المؤسسة الأسرية، التي لا تعدو مشكلاتها في نظرنا سوى مرآة تعكس الصراع الجوهرى الذي تتمخض عنه طبيعة المرحلة الانتقالية ومعضلة التغير بسرعتين. فالنموذج التقليدي للأسرة الجزائرية قد بدا منذ مدة يترك المجال تدريجيا، لكن بتسارع متزايد، لنموذج جديد لم تتضح معالمه بوضوح، ولم تنسجم الاتجاهات حيال تبنيه أو رفضه بعد. بل إن منحى تحولاته يشكل اليوم بؤرة نقاش وصراع قيمي وإيديولوجي يخفي من ورائه تناقض المصالح والامتيازات، بين عديد الفاعلين والأطراف، لكن بين الرجال والنساء على وجه خاص.

وهي محاولة لتقديم تشخيص لأبعاد ودلالات التغيرات الحاصلة في الأسرة الجزائرية، مع التركيز على ما يتعلق ببعد العلاقة الزوجية. وهي أيضا محاولة لتنظير وتقديم مدخل، يبدو لنا جديدا نسبيا، لتفسير الاختلالات الأسرية الحاصلة في مجتمعنا، حيث تصاعد معدلات الطلاق كميًا وتغير أنماطه نوعيًا هو أبرز مؤشرات التفكك الأسري. لكننا لأسباب موضوعية قد فضلنا التركيز على جذر الطلاق وهو في نظرنا توتر أو هشاشة العلاقة الزوجية، من خلال رؤية كلية للشأن الاجتماعي وفي إطار سياق التغير الاجتماعي والثقافي، فقد قررنا البحث عن العوامل الكامنة وراء ذلك التوتر والهشاشة في أرضية يبدو لنا أنها لم تغزى بعد من طرف الدراسات السابقة، تتمثل هذه الأرضية في أزمتي الرجولة والسلطة الزوجية، المرتبطتين بتغيرات أحوال النساء والرجال في المجتمع، هذه الأرضية الجديدة هي التي تبرر مساهمة المختص في علم اجتماع التربية في التحليل السوسيولوجي لظاهرة الطلاق التي تنتمي أصالة لمجال علم اجتماع الأسرة.

نظرا لتعدد وتشعب المتغيرات الداخلة في الشبكة التحليلية لهذه المقاربة، فقد قمنا بضبط وتحديد وتركيز المجال الذي ينصب عليه الجهد في مسألة انعكاسات منحى تغير اتجاهات القرنين حيال النموذج التقليدي للسلطة الزوجية على حظوظ التوافق الزواجي في الأسرة.

فالنساء الجزائريات يتغيرن.. فما هو حال الرجال؟، أكيد أنهم يتغيرون أيضا، لكن مع اختلاف جوهرى في الوتيرة والوجهة، وإذا اقتصرنا على التغيرات الحاصلة على مستوى الاتجاهات الزوجية والأسرية، فإننا نلاحظ بوضوح تغيرا بسرعتين وبوجهتين متباينتين،

إذ بينما تتجه المرأة نحو إحداث قطيعة مع النموذج الأسري التقليدي، فإن الرجل لا يزال مستمسكا بمكانة وامتيازات تقليدية جد مغرية.

إن هذا التباين يكتسي كل خطورته حينما يتعلق بالموقف من السلطة الزوجية تحديداً، باعتباره المبدأ الجوهرى المنظم للعلاقة الزوجية وتسيير الأسرة، وأيضاً حينما يتعلق الأمر بطرفي العلاقة الزوجية ونواة المؤسسة الأسرية بأكملها. وبغض النظر عن عوامل تشكل هذا التباين، فإن انعكاساته على حظوظ التوافق الزوجي تتطلب الفحص العلمي المعمق، في سبيل استكشاف أرضية بحث جديدة في سوسيولوجيا الأسرة، من خلال اقتراح مقارنة تفسيرية جديدة لظاهرة تنامي الطلاق، بتوظيف عامل ثقيل، لم تنفطن إليه الدراسات السابقة، هو عامل أزمة السلطة الزوجية.

فعلا إن الطلاق هو أدق مؤشرات التفكك الأسري، لكنه ليس سوى المظهر الخارجى لظاهرة أعمق وأخطر هي ظاهرة هشاشة وتوتر العلاقة الزوجية وبما أن تكافؤ القرنين هو أبرز عوامل الاستقرار الأسري، فإن خلق زوجة جديدة يتطلب، بالضرورة، خلق زوج جديد.

هذه الدراسة هي محاولة لفحص مدى تباين اتجاهات النساء والرجال نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، وانعكاساته على حظوظ التوافق أو التوتر الزوجي في الأسرة الجزائرية.

2 - محتوى نص الدراسة :

نظمتنا نص هذه الدراسة في إطار ثلاثية متكاملة، منهجية ونظرية وميدانية، وقد تضمنت ثمانية فصول:

تطرقنا ضمن الفصل الأول إلى عرض الإطار المنهجي للبحث، فقدمنا أسباب اختيار الموضوع وأهدافه وأهميته، وعرضنا إشكالية وفرضيات البحث، وقمنا بتحديد المفاهيم الأساسية، كما عرضنا المنهجية المتبعة في المقاربة الميدانية، حيث ابرزنا منهج وتقنيات البحث، كما عرضنا مجال أو مجتمع البحث الميداني وكذا ونوع وحجم العينة، وختمناه بذكر أبرز الصعوبات التي اعترضتنا.

أما في الفصل الثاني فقد تطرقنا إلى عرض نماذج مختارة من الدراسات العلمية السابقة التي تطرقت إلى بعض الجوانب الأساسية لهذه الدراسة، وأما الثالث فقد استعرضنا ضمنه بالتحليل تطور وخصائص الأسرة الجزائرية في ظل التغير الاجتماعي الذي يعرفه مجتمعنا، وقد قسمناه إلى مبحثين، الأول حول مفهوم وأنماط ووظائف الأسرة، أما الثاني فعقدنا فيه مقارنة تحليلية لأبرز

التغيرات التي تعرفها الأسرة الجزائرية، ودلالاتها بالنسبة لمآلها. وأما الرابع فقد تطرقنا فيه إلى العلاقة الارتباطية بين ظاهرتي الزواج والطلاق، وعنوانه ب الزواج من التلاقي إلى الطلاق، قسمناه إلى مبحثين، الأول حول الزواج بين النماذج المثالية والتغيرات الحاصلة، أما الثاني فعن مخاطر وعوامل الطلاق والتفكك الأسري. وأما الخامس فقد خصصناه إلى تحليل الترابطات الموجودة بين العلاقة الزوجية ضمن الاطار الاسري من جهة والعلاقة بين الجنسين خارج ذلك الاطار، بحيث خصصنا مبحثا لكل منهما. وأما السادس فقد بحثنا خلاله سلطة الزوج في الأسرة، وقد قسمناه إلى مبحثين، الأول حول مفهوم سلطة الزوج في الأسرة ونموذجها التقليدي في الأسرة الجزائرية، أما الثاني فخصصناه لعرض وتحليل عوامل وانعكاسات أزمة السلطة الزوجية على الأسرة.

اختتمنا هذه الفصول بملخص وجيز، وتوجنا بمجمل فصول الجانب النظري بخلاصة عامة لإبراز الارتباط بين المقاربتين النظرية والميدانية ضمن هذه الدراسة.

أما الجانب الميداني فقد قسمناه إلى فصلين متكاملين، خصصنا الاول لعرض وتحليل خصائص عينة البحث وإبراز النمط المثالي للمبحوثات، وكذا توضيح البناء الاجرائي لمفهوم النموذج التقليدي للسلطة الزوجية واتجاهات المبحوثات حياله. بينما أفردنا الثاني لعرض وتحليل المعطيات المتحصل عليها ميدانيا، وكذا تحليل ومناقشة الفرضيات في ضوء هذه المعطيات. وقد قسمناه إلى خمسة مباحث، حيث تطرقنا في كل مبحث منها إلى تحليل الفرضيات الأربع للدراسة، وقد ختمنا كل مبحث منها باستنتاجات مركزة.

وقد اختتمنا هذه الدراسة بخلاصة مفصلة وشاملة في آن واحد.

3 - أسباب اختيار الموضوع:

1 تجربة الطلاق الشخصية جعلتني أدرك جيدا الأهمية القصوى للدراسة العلمية المعمقة لهذه الظاهرة.

2 الارتفاع المستمر والمتزايد لحجم ظاهرة الطلاق في مجتمعنا، خاصة منذ بداية العشرينتين الأخيرتين، بالإضافة إلى الانعكاسات الخطيرة لهذه الظاهرة على المطلقين والأبناء من جهة ومؤسسة الأسرة والمجتمع.

3. غياب احصائيات عن تطور نسب الطلاق في المجتمع الجزائري لدى المؤسسات المعنية، أو تكتمها المنهجى عنها، قد فرض علينا البحث عن بديل منهجي للاقتراب من ظاهرة الطلاق بطريقة غير مباشرة.

4. بما أن الطلاق هو، في أحد أكثر أنماطه دلالة على التفكك الأسري في أي مجتمع، النتيجة الحتمية لتوتر العلاقة الزوجية، فإن دراسة العوامل المحددة لحظوظ توافق أو توتر تلك العلاقة هي مدخل أكثر نجاعة.

5 التحولات العميقة الملاحظة على مستوى مختلف القيم والاتجاهات الاجتماعية لدى المرأة الجزائرية، بسبب تغير وضعيتها ومكانتها في المجتمع، بالإضافة لخطاب ونشاط الحركة النسوية والانفتاح الثقافي.

6. مرحلة البحث الاستطلاعي لفتت انتباهنا إلى مركزية مبدأ السلطة الزوجية، خاصة من خلال الاطلاع على الدراسات السابقة حول الطلاق وتوتر العلاقة الزوجية، وكذا معطيات المقابلات مع المعنيين والمختصين.

2 - أهمية البحث:

1 يندرج موضوع هذه الدراسة في إطار الجهود العلمية التي تنتظم أمام عتبة إشكالية التفكك الأسري الذي تعاني منه بشدة متزايدة مجتمعات العالم ككل، ومنها المجتمع الجزائري.

2 الأهمية الوظيفية الحاسمة والحيوية للمؤسسة الأسرية ضمن النسق الاجتماعي يضيفي على دراسة الظواهر المرضية المتعلقة بها أهمية علمية وعملية في آن واحد.

3 إذا كانت الأسرة هي الخلية الأساسية للمجتمع، فإن العلاقة الزوجية هي نواة شبكة العلاقات داخل الأسرة، كما أن مبدأ السلطة الزوجية هو المبدأ الأساسي المنظم لهذه العلاقة.

3 - أهداف البحث:

قصدينا من خلال هذه الدراسة تحقيق أهداف طموحة، نرجو أن نكون قد وفقنا لتحقيق البعض منها.

1 إثراء المعرفة العلمية السوسولوجية، حول الوضعية الاجتماعية الحالية للمرأة الجزائرية، بالتركيز على مؤشرات التعليم والعمل والوعي بالحقوق والواجبات.

2 إثراء المعرفة العلمية السوسولوجية، حول التصورات والممارسات الزوجية والاسرية للمرأة الجزائرية المعاصرة، خاصة فيما يتعلق بالموقف من النموذج التقليدي للسلطة الزوجية.

3 الفحص الكمي للعلاقة الارتباطية بين تغير الوضعية الاجتماعية للمرأة وتغير التصورات الزوجية والأسرية النسائية في مجتمعنا، وكذا التأثير المحتمل لهذه التغيرات على حظوظ التوافق الزوجي.

4 إثراء الدراسات المتعلقة بمشكلات الأسرة والمرأة في الجزائر، خاصة ما تعلق منها بتفشي ظواهر توتر العلاقات الزوجية والعنف الزوجي والطلاق، وهذا من خلال تقديم نموذج تحليلي ومقاربة تفسيرية متميزين نسبيا.

5 المساهمة في جهد الفهم والتفسير العلميين للواقع والظواهر الاسرية واستشراف مستقبلها واقتراح حلول عملية للهيئات الرسمية المعنية بقضايا ومشكلات الأسرة والمرأة في الجزائر، انطلاقا من رؤية علمية كلية.

4 - تساؤلات الإشكالية :

1. ما هي عوامل وانعكاسات تباين اتجاهات النساء والرجال نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، في ظل تغير وضعية ومكانة المرأة، على حظوظ التوافق الزوجي في الأسرة الجزائرية؟

2 ما هي اتجاهات المرأة الجزائرية المعاصرة نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية؟

3. ما هي العوامل المحددة لطبيعة وشدة هذه الاتجاهات؟

4. ما مدى التجانس أو التباين بين القرناء ضمن الزيجات الجديدة بالنسبة لاتجاهاتهم حيال النموذج التقليدي للسلطة الزوجية؟

4 ما هو تأثير نوعية تفاعل تصورات القرينين لمبدأ السلطة الزوجية على حظوظ التوافق الزوجي والاستقرار الأسري؟

5 - فرضيات البحث:

ف1. يتحدد اتجاه المرأة نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية من خلال طبيعة تنشئتها الاجتماعية الأسرية الجنوسية، فكلما قل التمييز بين الجنسين وانخفضت شدة السلطة الأبوية ضمن أسرتها التوجيهية كانت أشد رفضا لذلك النموذج.

ف2 يتحدد اتجاه المرأة نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية من خلال متغيري المستوى التعليمي والوضعية المهنية، فكلما تحسن المستوى التعليمي والاقتصادي- المهني

للمرأة كانت أشد رفضا لذلك النموذج، وانتقل هذا الرفض من التصور النظري إلى الممارسة الفعلية.

ف3. الاتجاه النسائي الرفض للنموذج التقليدي للسلطة الزوجية لم يواكبه تنازل رجالي مكافئ عن هذا النموذج، لتناقض مصالح وقناعات هتين الفئتين حيال استمراريته أو اندثاره، مما يؤدي إلى تباين متزايد لتصورات السلطة الزوجية لدى القرينين ضمن الزيجات الحديثة.

ف4. كلما كانت اتجاهات الزوجين أشد تباينا حيال مبدأ السلطة الزوجية، انخفضت حظوظ التوافق الزواجي والاستقرار الأسري.

6 - البراديجم:

من أجل بناء الموضوع بناءا سوسيولوجيا فقد وظفنا ترسانة من النظريات والدراسات السابقة والمفاهيم النسقية، لعل ابرزها: النظرية الصراع، نظرية تفاعل الثنائي الزوجي، سوسيولوجيا الرجولة، أنماط وشرعية السلطة، الدراسات الكلاسيكية حول السلطة، نظرية السلطة والقهر الخلدونية، التغير الاجتماعي بسرعتين.

7 - منهج، وتقنيات البحث:

أجرينا هذا البحث وفق أسس وخطوات منهج البحث الميداني، من خلال مقارنة مزدوجة تكاملية، كمية أساسا وكيفية ثانويا. فقد وظفنا تقنية الاستمارة كتقنية أساسية لجمع المعطيات، لكن وظفنا أيضا تقنية المقابلة كدعامة طيلة مراحل البحث، بالإضافة إلى تحليل مضمون الأمثال الشعبية المتعلقة بصورة المرأة وتمثلات الرجولة والسلطة الزوجية في الموروث الجزائري.

8 - المفاهيم التي تم تحديدها:

السلطة الزوجية، شرعية السلطة الزوجية، النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، البطورية، تباين الاتجاهات، أزمة السلطة الزوجية، أزمة الرجولة، الشخصية التسلطية، الجنوسة (الجندر)، النمط الجنسي، التنشئة الأسرية الجنسية، الطلاق وتفكك الأسرة، حظوظ التوافق الزواجي، التغير الاجتماعي، تغير أحوال النساء، التمييز بين الجنسين، مكانة وقوة المرأة، خطاب ونشاط الحركة النسوية، المنحى المطليبي الشكائي.

9 - نموذج من المفاهيم المبنية إجرائيا (كميا) :

قمنا ببناء إجرائي لتكميمي لثلاثة مفاهيم (متغيرات) محورية في الدراسة الميدانية، وهي تتمثل في كل من: النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، نمط التنشئة الأسرية الجنوسية (أو الجندرية)، مستوى التوافق الزوجي.

نكتفي هنا بعرض المفهوم الاول والأكثر أهمية.

سلم الاتجاهات والتكميم المعتمد					مكونات النموذج
5	4	3	2	1	
معارض بشدة	معارض نسبيا	غير متأكد	موافق نسبيا	موافق بشدة	
نقطة واحدة	نقطتين	03 نقاط	04 نقاط	05 نقاط	
					1/ طاعة الزوج واجب على الزوجة.
					2/ في حالة اختلاف الرأي بين الزوجين، يحق للزوج أن يفرض رأيه على زوجته.
					3/ لا يجوز للزوجة أن تتخذ أي قرار بدون استشارة و موافقة زوجها.
					4/ على الزوجة أن تتبع عقلية زوجها و عادات أسرته.
					5/ يجب على الزوجة خدمة زوجها والديه مهما كانت رغباتهم صعبة أو محرجة.

					6/ إن مساعدة الزوج لزوجته في الأعمال المنزلية يتنافى مع رجولته ومكانته في الأسرة.
					7/ يحق للزوج أن يضرب زوجته إذا وجد أن ذلك ضروري لفرض طاعتها و الانضباط في أسرته .
					8/ لا يليق بالمرأة أن ترفع صوتها فوق صوت زوجها.
					9/ ينبغي للزوجة مراعات مزاج زوجها، فلا تفعل ما قد يغضبه، وإلا تحملت مسؤولية أي رد فعل من طرفه.
					10/ لا يحق للزوجة أن تخرج من البيت أو تذهب إلى أي مكان بدون موافقة زوجها.

10 - نوع وإجراءات الفرز وحجم العينة :

اعتمدنا، اضطرارا، على عينة (غير احتمالية)، بحجم نهائي عملي يساوي 219 مبحوثة. وهي عينة (نمطية)، أي بخصائص محددة مسبقا تتمثل في ما يلي: زوجات مقيمات في حدود ولاية الجزائر العاصمة، باعتباره وسطا حضريا. عمر الزواج ما بين 2 و10 سنوات. عمر المبحوثات أقل من 35 سنة. أول زواج بالنسبة للزوجين. السكن مستقل عن أهل الزوج وأهل الزوجة، أو على الأقل لديهم مطبخ مستقل. لديهم طفل واحد على الأقل. الزوج يعمل وله دخل مستقر. قدرة المبحوثات على القراءة والكتابة، على الأقل باللغة العربية، وذلك للتمكن من ملء الاستمارة شخصيا. لقد سعينا لاستهداف

الزيجات الحديثة التي عايشَت التغيرات الإجتقافية المعاصرة، وكذا عزل المتغيرات الثقيلة التي قد تأثر سلبيا على توافق واستقرار العلاقة الزوجية. أما بالنسبة لإجراء الفرز، فقد قمنا بتطبيق إجراء يجمع بين الفرز الموجه والتراكمي أو ما يعرف ب(الكرة الثلجية).

11 - النمط المثالي للينة:

تتكون العينة من 219 زوجة-أم مقيمة في وسط حضري، تتراوح أعمارهن ما بين 25 و35 عام، بفارق عمر بين الزوجين متقارب أو متوسط على الأكثر، تتراوح مدة انعقاد زواجهن الحالي ما بين عامين وعشر أعوام، ذوات مستوى تعليمي متوسط على الأقل، أغلبية الزيجات تتسم بمستوى تعليمي متعادل ومتكافئ عند المقارنة بين الزوجين، تتوزع المبحوثات بالتساوي تقريبا بالنسبة للوضعية المهنية، وتنتمي غالبية العاملات إلى الفئة الاجتماعية المهنية الوسطى عموما (موظفة أو عاملة مؤهلة)، رغم أن العينة مأخوذة من وسط حضري فإن الأغلبية الساحقة من المبحوثات ينحدرن من الريف، تكونت غالبيتها الساحقة في إطار نمط الزواج الخارجي، لكن من خلال النمطين العائلي والشخصي لاختيار القرين، كل زيجات العينة تقريبا يقطنون في سكن ملك للزوج يبدو لائق على الأقل، عموما شقة في عمارة أو طابق من فيلا.

12 - الصعوبات التي واجهتنا خلال انجاز البحث:

1 - التعقيد الشديد الذي يتسم به موضوع بحثنا، فكل ما يتعلق بالحياة الزوجية في مجتمعنا يواجه الباحث بمشكلة السرية والتكتم والحشمة وصعوبة الاتصال بالمبحوثين، وكذا درجة مصداقية المعلومات.

2 - تعقيد البناء المعرفي والتنظيري للموضوع، فدراسة العلاقة بين أزمة السلطة الزوجية وحظوظ التوافق الزوجي والطلاق والتنشئة الجنوسية وأزمة الرجولة، تطرح تحدي التحكم في مجالات معرفية معقدة ومتشعبة.

3 - لم نعر على أي دراسة معمقة حول علاقة أزمة السلطة الزوجية بتوتر الثنائي الزوجي.

4 - كل محاولتنا الرسمية والشخصانية للحصول على إحصائيات الطلاق الرسمية باءت بالفشل.

13 - أهم الاستنتاجات التي تمخض عنها هذا الجهد :

1 - أغلبية المبحوثات يعارضن مجمل النموذج التقليدي للسلطة الزوجية، وهذا بنسبة 56.2٪، سواء نسبيا أو بشدة، في حين لم تتجاوز نسبة المؤيدات لهذا النموذج 43.8٪، وهي نسبة معتبرة على كل حال، فالفارق بين نسبيتي المعارضة والتأييد لا تتعدى 12.4٪.

2 - الكل يبدو كما لو أن فرضيات البحث قد تحققت نسبيا، وذلك نظرا للتطابق الكبير الملاحظ إحصائيا بينها وبين المعطيات الميدانية، فمن خلال المعالجة الوصفية والتحليلية لأجوبة المبحوثات والعلاقة بين المتغيرات، يتأكد صدق النموذج التحليلي ككل. فاتجاه المرأة نحو النموذج التقليدي للسلطة الزوجية يتحدد من خلال كل من طبيعة تنشئتها الاجتماعية الأسرية الجنوسية وكذا مستواها التعليمي ووضعتها المهنية ومستواها الاقتصادي، فكلما قل التمييز بين الجنسين وانخفضت شدة السلطة الأبوية ضمن أسرتها التوجيهية كانت أشد رفضا لذلك النموذج، وبالمثل فكلما تحسن مستواها التعليمي والاقتصادي، خاصة مقارنة بالزوج، كانت أشد رفضا لذلك النموذج المبني أساسا على خضوع الزوجة وسيادة الزوج. إن ما يعقد الأمر هو أن الاتجاه النسائي الرفض للنموذج التقليدي للسلطة الزوجية لم يواكبه تنازل رجالي مكافئ عن هذا النموذج، لتناقض مصالح وقناعات هاتين الفئتين حيال استمراريته أو اندثاره، مما يؤدي، كما أظهرت الدراسة الميدانية، إلى تباين متزايد لتصورات السلطة الزوجية لدى القريين ضمن الزيجات الحديثة. ولعل خطورة ذلك تتمثل خاصة في أن تباين تصورات السلطة الزوجية لدى القريين يؤثر طرديا على درجة توتر العلاقة بين الزوجين، حيث يؤدي إلى زيادة احتمالات هذا التوتر، وكلما كانت اتجاهات أو مواقف الزوجين أشد تباينا نحو مبدأ السلطة الزوجية، انخفضت حظوظ التوافق الزوجي والاستقرار الأسري.

6 - إن شقائقنا النساء، في سن الزواج، لسن مستعدات من الآن فصاعدا لتقديم التنازلات التي لطالما قدمتها أمهاتهن ضمن نموذج الأسرة التقليدية، غير أن بواذر هذه القطيعة المتصاعدة لم يواكبها وعي أو تقبل مكافئ من طرف الرجال. فحينما يقبل أي شاب جزائري معاصر على الزواج فإنه يرتد، بوعي أو بدون وعي، إلى النموذج التقليدي لمعايير اختيار القريين، فيضع على رأسها مباشرة السمات التي تضمن الطاعة والخضوع. فالمرأة المثالية المناسبة للزواج وبناء الأسرة لدى عامة الشباب، على اختلاف انتماءاتهم الثقافية والجغرافية والطبقية وكذا مستوياتهم التعليمية..

7 - لكن، إلى جانب تلك السمات المرغوبة، الكاشفة للذكورة الأزلية المخبوءة، فإن الشاب المقبل على الزواج يفضل ويلح على أن تكون زوجته المستقبلية جذابة جماليا

وجنسيا ومتعلمة وصاحبة دخل، بينما المفارقة تكمن في أن الزيادة المتضافرة لرأس مال المرأة الجمالي والتعليمي والمالي هو بالذات ما يجعل قطيعتها مع النموذج التقليدي للمرأة والزوجة أشد حظوظا على مستوى كلا طرفي معادلة الإرادة والإمكان. هل يمكن غض الطرف عن هذه المفارقات عند محاولة فهم وتفسير الواقع والظواهر الأسرية في مجتمعنا، بما في ذلك تأخر سن الزواج والعنف الزوجي والطلاق وتوتر العلاقات ضمن الثنائي الزوجي؟. وعند هذا الحد نفهم بعمق لماذا اعتبرنا الفشل في التخطيط للمستقبل تخطيطا للفشل، فمشكلتنا الجوهرية في الجزائر أننا لم نتصور ولم نطبق مشروع مجتمع وفق رؤية كلية للشأن الاجتماعي باعتباره نسق.

8 - كيف يمكن أن نأمل في أسرة مستقرة ضمن مجتمع متوتر، أليس الزوجين قبل أن ينتميا إلى علاقة زوجية أو مؤسسة أسرية، ينتميان إلى المجتمع ككل؟، وقد يبدو في الظاهر أن الفرد حينما يدخل إلى بيته الأسري ويغلق الباب وراءه فإنه يفصل عن المجتمع الخارجي ويتخلص من رواسب ضغوطات يومه الاجتماعي خارج البيت، بينما هو في الواقع يحمل معه كل ذلك إلى داخل بيته حيث يستأنف تراكماته.

9 - إن المرأة في المجتمع الجزائري تتعرض لمركب معقد من القهر، فإلى جانب القهر الواقع عليها مباشرة، تتعرض لانعكاسات القهر الواقع على الرجل أيضا. ولهذا فإن تحرير المرأة يتطلب تحرير الرجل أيضا، أو بتعبير أصح وأعظم: تحرير الإنسان والمواطن، لأن القهر الذي تتعرض له المرأة له منبعان، الأول أساسي ومشترك بين الجنسين، وهو نتاج التخلف الحضاري والتفاوت الاجتماعي والاستبداد السياسي والفساد الاقتصادي والتفسخ القيمي، أما الثاني فهو ثانوي وخاص بالمرأة باعتبارها بنت زوجة وأم وربة بيت، تتعرض للأثر المتعدي للأوضاع الاجتماعية، تلك الأوضاع التي تحول الرجل إلى متعصب وعنيف ومتوتر باستمرار.

10 - إن مشكلة المرأة في بلادنا ليست سوى أحد أعراض مشكلة المجتمع ككل، المرض الحقيقي الذي ينبغي التركيز على مواجهته ومعالجته هو التخلف في كل أبعاده، ففي بعده الاقتصادي هو الفقر والتبعية، وفي بعده السياسي هو الاستبداد والظلم، وفي بعده الاجتماعي هو التفكك والانحلال القيمي أو (الأنوميا). ولا شك في أحقية وأولوية محاربة كل أشكال الظلم التي يمكن أن تتعرض لها المرأة، مهما كان مركزها الاجتماعي، لكن فيما يخص المساواة بين الجنسين فإن المساواة النسبية هي إلى العدل أقرب، تلك المساواة التي تراعي الفروق التكوينية وتحقق تكامل الأدوار وتحافظ على الخصوصيات.

11 - فالرجل في المجتمع الجزائري ليس في كل الأحوال مصدر حرمان وبؤس

المرأة، لكنه كغيره من الرجال المنتمين إلى المجتمعات العربية المتخلفة، المبنية أساساً على الاستبداد والقهر والاقصاء المتبادل في كل مجالات ومستويات العلاقات الاجتماعية، قد يتحول فعلاً إلى وحش آدمي يسعى، بدوافع لا واعية، إلى التنفيس عن قهره النفسي وانسحاقه الاجتماعي ويعوض عقدة مهنته في المجال العام ضمن المجال الخاص لأسرته وعلى زوجته تحديداً، من خلال لعب دور السيد المسيطر الذي يخضع الجميع لإرادته، الزوجة والأبناء.

12 - إن سيادة المنطق الفردي على العلاقات الاجتماعية من العوامل الخفية التي يجدر توظيفها ضمن التفسير الكلي لارتفاع ظاهرة الطلاق في مجتمعنا، فلا شك أن الانتقال من التوتر إلى الطلاق يكون أسهل حينما يتعلق الأمر بمسألة شخصية أي بعلاقة بين شخصين وليس بمسألة عائلية أي بعلاقة بين عائلتين، فكلما تحول الزواج إلى مسألة شخصية تحول الطلاق هو الآخر إلى مسألة شخصية وفردية.

13 - لا شك في أن تعويض الوسيط العائلي بالوسيط القانوني، له إيجابياته وسلبياته، وقبل هذا وذاك فإن الوسيط القانوني هو شبه حتمية بالنظر إلى تفكك الروابط الاجتماعية والعلاقات القرابية التي تمخض عنها تلاشي السلطة القرابية التقليدية. إنه بديل وظيفي ضروري لا مفر منه في ظل ذلك التفكك الحتمي الحاصل والمستمر، بالإضافة إلى نمط عمله المبني على التوثيق الرسمي والحيادية النسبية، أما وجهه السلبي فيتمثل خاصة في السطحية أو الشكلية وفقدان السلطة الرمزية والعجز عن استثمار وتوظيف المخزون القيمي سواء الديني أو العرفي في حل المشكلات الأسرية بالتراضي والتنازلات المتبادلة. هذا بالإضافة إلى أننا، سواء في المجتمع الجزائري أو التونسي أو المغربي، لم نطبق الوساطة القانونية إلا شكلياً فقط، فجلسة الصلح المحكمة التي (عوضنا) بها الدور الغابر للعائلة والأقارب، تطبق بشكل يستحيل معه أن تحقق فعاليتها المرجوة، بينما نجد المجتمعات الغربية قد تمكنت إلى حد بعيد في أن تجد بدائل نوعية.

14 - إن السلطة عملة ذات وجهين أو سلاح ذو حدين، فقد تكون عاملاً لبناء للشخصية كما يمكن أن تتحول إلى معول لتحطيمها. يجدر بنا التفكير في صياغة واقتراح نموذج وسطي متوازن للسلطة عامة والسلطة الزوجية تحديداً يضمن توجيهه وتأطير متناسق وفعال للعلاقات والوظائف الأسرية، خاصة حيال تنشئة الأبناء الذين تتطلب تربيتهم قدراً من التأثير والإلزام لتوجيه سلوكياتهم وبناء شخصيتهم وفق قيم ثقافية معينة، بدون قهرهم أو إلغاء حريتهم واستقلاليتهم. لكن الإشكال يكمن في أن قيمة السلطة تصبح مثار جدل شديد وحساسية مفرطة بمجرد أن يتعلق الأمر بالعلاقة بين

الزوجين، مما يفرض إعادة مناقشة المسألة من أساسها بالإجابة على أسئلة أولية، من قبيل: هل يمكن الاستغناء عن سلطة الزوج في الأسرة عامة والعلاقة الزوجية خاصة؟، ما هي المخاطر الممكنة التي قد تنجم عن إلغاء سلطة الزوج؟، سواء على استقرار الأسرة وتوافق العلاقة الزوجية أو على تربية الأبناء.

15 - من الإجحاف القيام بتشبيه تبسيطي لأوضاع المرأة في الغرب والعالم العربي الإسلامي، ورغم بعض التشابهات الجزئية والشكلية، فإن ما ينبغي التنبيه إليه هو الفروق الجوهرية ذات الدلالة العميقة في كلا المجتمعين، فالنظرة الدونية للمرأة كانت متجذرة في الثقافة الدينية والفلسفة الغربية، ولهذا لم تتحرر المرأة إلا بفضل القطيعة مع الكنسية والدين ككل من خلال العلمانية وفصل الدين عن السياسة، أما حينما نرجع إلى الجذور التاريخية لأوضاع المرأة في العالم العربي الإسلامي فسنجد بكل موضوعية، وفي إطار احترام السياق والنسبية التاريخية، أن الإسلام هو الذي حرر المرأة من الإخضاع المطلق الذي مارسه عليها المجتمع العربي خلال الفترة الجاهلية، تحرير منضبط ومؤطر بكل من المبادئ الأخلاقية المترتبة على سلم القيم الثقافية الجديد، والمصلحة العامة المقدمة على مصلحة الفرد، وهو تحرير مرن وقابل للتطوير وفق الحاجات المتجددة للمرأة والمجتمع، فالشريعة الإسلامية تتسم بخاصية المرونة، وفق الرؤية المقاصدية، تلك الخاصية الجوهرية التي عطلها غلق باب الاجتهاد وطمسها منطق الفقه السلفي النصي. وينبغي على هذا أن ترقية أوضاع المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية لا يحتاج إلى القطيعة مع الدين وإنما يحتاج إلى إعادة تفعيل الاجتهاد لمراجعة الموروث الفقهي وتجديده المستمر، كما يحتاج أيضا إلى ترشيد وتكييف الحركة النسائية في مجتمعاتنا مع خصوصياتنا وأولوياتنا ومرجعياتنا أيضا، في إطار رؤية كلية للتقدم الاجتماعي تجمع بين بعدي الرجل والمرأة والفرد والجماعة والحق والواجب والأصالة والمعاصرة.

16 - كما أنه من المبالغة والتحيز التصوير التعميمي لتاريخ البشرية باعتباره جنة الرجال وجحيم النساء؟، ودون أن ننكر ما عانت به المرأة وما تعانيه إلى حد اليوم، فإن العرض الموضوعي والمنصف لا يمكن إلا أن يكون في خدمة الجميع، المرأة والرجل والأسرة والمجتمع ككل.

17 - إن الاستغلال والتوظيف السياسي لقضية المرأة في مجتمعاتنا المغاربية ككل هو نوع من التدارك السياسي لعديد الاخفاقات، أمكن معه الحديث عن قضية الحرية وحقوق الإنسان مختزلة في حرية المرأة، تماما مثلما أن الترويج لحقوق المرأة والتركيز على التمييز بين الجنسين واضطهاد المرأة في الغرب لا يعدو كونه عملية إخفاء (camouflage)

منهجي لواقع التفاوت الاجتماعي والاستغلال الطبقي الأعمق والأشمل والأخطر. إن المرأة بدون الرجل لا شيء والرجل بدون المرأة لا شيء، هذا هو الاطار الذي ينبغي أن تطرح ضمنه مشكلة المرأة، وليس أن نفصل المرأة عن بيئتها من خلال نظرة ضيقة ونزعة نسوية شبه عنصرية بدورها.

18 - تحرير المرأة يقتضي بالضرورة تحرير الرجل، لكن يتم للأسف تجاهل هذه الحقيقة. فليست مشكلة المرأة مسألة يمكن بحثها معزولة عن مشكلة الرجل، فهما يشكلان في حقيقتهما، أي في عمقهما الإجتقافي، مشكلة واحدة هي مشكلة الفرد في المجتمع، إن إعطاء حقوق المرأة على حساب المجتمع يؤدي إلى تدهور المجتمع، وبالتالي تدهورها، أليست هي عضو ينتمي إليه ويعيش ضمنه.

19 - إن عالم الاجتماع لا يدرس الظواهر في راهنيتها فحسب، أو يكتفي بوصف ما هي عليه اليوم، فبالإضافة إلى ضرورة وضع الظواهر الاجتماعية ضمن سياق التغير الاجتماعي والتاريخي برؤية ديناميكية، فإنه يجدر به إدراكها في ضوء رؤية تنبئية لما يمكن أو يحتمل أن تؤول إليه. من هنا فإننا حينما نلاحظ الأسرة الجزائرية تسير متطورة في شكلها ووظائفها وعلاقاتها، نتساءل، إلى أي وجهة تسير؟.

20 - يبدو لنا، بناء على توقع أكيد لزيادة نسبة التحضر في المجتمع الجزائري وانفتاحه الانبھاري على النموذج الاجتقافي الحضاري الغربي، في ظل تنامي ثقل العولمة الثقافية، والتقدم الكمي والنوعي المتسارع لتعليم المرأة وانخراطها في عالم الشغل وكذا تطور أداء وفعالية خطاب ونشاط الحركة النسوية، والتطور التحرري للتشريعات والقوانين المتعلقة بحقوق المرأة وتنظيم الاسرة وظهور أول مؤشرات التبنى الرسمي لنظرية (الجندر)، أن المرأة الجزائرية سوف تسير في اتجاه القطيعة مع النموذج التقليدي للأسرة، وبخاصة مبدئها الجوهري المتعلق بالسلطة شبه المطلقة للزوج، وأن هذا الموقف الرفض والمعارض سيتم التعبير عنه بأشكال أكثر صراحة وعملية، بل إن مفعول البيئة الاجتماعية وعدوى الأفكار والاتجاهات يجعلنا نتوقع تبني نفس الموقف الرفض لذلك النموذج التقليدي حتى لدى النساء الريفيات أو غير المتعلّمات أو الماكثات بالبيت، بل والمحافظات أيضا، فحتى الخطاب الديني قد دق آخر مسمار في نعش النموذج التقليدي للسلطة الزوجية حينما راح يدافع عن الاسلام ضد شبهة احتقار وتهميش المرأة، فقدم لحركة تحرير المرأة، على طبق من ذهب، كل المبررات (الشرعية) للتمرد والقطيعة النسائية.

21- نتوقع أيضا أن الموقف النسائي الرفض للنموذج التقليدي للسلطة الزوجية لن يواكبه تنازل رجالي مكافئ عن تبني وممارسة هذا النموذج، فالرجل الجزائري سيستمر

نسبيا في التمسك بالنموذج التقليدي للسلطة الزوجية، ولو في أشكال مرضية، خاصة إن كان ريفيا أو قليل التعليم أو محافظا، لكن حتى ولو كان متعلما وحضريا لكن بأقل شدة، وتحديدا بالنسبة لمبدئه الجوهرى المتعلق بالطاعة. فإذا استمر الوضع على هذا الحال فإننا نتنبأ بأن زيجات المستقبل المنظور سوف تواجه صعوبة كبيرة في الانسجام الفكري وتسيير الشؤون الأسرية، وأن حظوظ والتوافق الزوجي والاستقرار الأسري سوف تتضاءل تدريجيا، هذا العامل سوف يساهم، إلى جانب عوامل أخرى تؤثر في نفس الاتجاه، في ارتفاع متزايد لمؤشر الطلاق، خاصة الطلاق الصراعي.

22- نتوقع أن يؤدي تصاعد المطالب النسوية إلى ظهور حالة من الشعور بالخطر لدى فئة الرجال، هذا الوعي سوف يعزز الموقف الرجالي الرافض للمطالب النسوية، ويحتمل أن يؤدي إلى ظهور ردود فعل رجالية منظمة ومنهجية وراديكالية. إن بوادر هذه الحركة المعاكسة قد ظهرت في عديد المجتمعات الغربية، التي تنتقد في الحركة النسوية تعصبها للفئة النسائية واستهتارها بمصير الرجال والأسرة والأطفال واستقرار المجتمع. وقد يرتبط رد الفعل الرجالي بدوافع مهنية بحتة، حيث قد يعزى ارتفاع بطالة الرجال إلى العمل النسائي، وكذا تدني الاجور وتراجع قوة النقابات العمالية. هذا إضافة إلى الانعكاسات السلبية لتأنيث بعض المهن كالتعليم، فالأطفال الذين يعيشون مع الأم فقط، بسبب الطلاق وحق الحضانة أو بسبب ظاهرة الأمهات العازبات، لا يتكون في طفولتهم ومراهقتهم سوى بالنساء في البيت والروضة والمدرسة، وهذا يؤثر بالضرورة على تكوين شخصيتهم.

خاتمة:

هو حال الباحثين والباحثات في السوسيولوجيا ومختلف العلوم الاجتماعية، نجتهد كثيرا لنحصل على القليل، ويبقى القليل في دائرة الاحتمال.

لكننا نختم هذا العمل بأفاق جديدة، بدعوة نوجهها للباحثين المهتمين بالشأن الأسري لإنجاز دراسات أخرى تكون أعمق وأشمل وأدق مما تمكنا من تحقيقه في هذا الجهد المتواضع، فهذا الموضوع ما يزال في نظرنا مجالا خصبا للتساؤلات والمقاربات لشدة تعقيدة وميز موقعه في ملتقى مجالات معرفية عديدة ومتنوعة، تكون انطلاقتها مبنية على تقييم نقدي للاقتراب الذي قمنا به أمام عتبة هذه الإشكالية، وإن كنا عازمين بدورنا على اتمام هذا المشروع في إطار مسارنا العلمي المستقبلي، فإشكالية هذه الدراسة هي إشكالية ما تزال بكرا علميا، وهي لذلك تتسم بالخصوصية والثراء.

فعلا إن الإنسان كما قال الإمام (الشافعي) كلما ازداد علما ازداد علما بجهله، والبحث العلمي على حد قول فيلسوف المعرفة العلمية (غاستون باشلار) يسلط الضوء على المبهات ولكنه في نفس الوقت يصنع ظلالا جديدة، ونحن نجد أنفسنا بعد إتمام هذا العمل أمام تساؤلات أشد تعقيدا من تلك التي انطلقنا منها، وعزاؤنا في ذلك أن إنتاج التساؤلات ليس أبدا أقل شأنًا من إنتاج الأجوبة، خاصة في العلوم الاجتماعية. حتى إن كانت فرضياتنا قد تحققت، فإن العديد من المعطيات الميدانية تبين أن صحتها ليست سوى نسبية وجزئية، فالواقع الاجتماعي الفعلي هو دائما أشد تعقيدا من الواقع السوسيولوجي المبني، ولو بفضل أنجع النظريات السوسيولوجية وأدق المناهج البحثية. ولا يسعني إلا أن أردد ما قاله إسحاق نيوتن، وهو يعترف بالفضل للعلماء الذين سبقوه:

« Si j'ai pu voir un peu plus loin que d'autres,
c'est que je me suis hissé sur les épaules d'un géant ».

هذا العملاق ليس سوى رائد السوسيولوجيا في الجزائر الأستاذ المميز والملمهم د. عبد الغني مغربي.

أهم المراجع التي استخدمت في إنجاز الدراسة :

11. ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، الجزء الأول (مقدمة ابن خلدون)، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988.
- 21 ابن نبي مالك: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 4، 1987.
30. الأحرر أحمد سالم: علم اجتماع الأسرة (بين التنظير والواقع المتغير)، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2004.
- 13 بركات حلیم : المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000.
31. بن فرج صلاح الدين: مسارات تحديث الأسرة في تونس (التوجهات والأبعاد)، شركة أوربيس للطباعة، تونس، 2009.
58. بن سلامة رجاء: بنیان الفحولة (أبحاث في المذكر والمؤنث)، دار بتر للنشر والتوزيع، سوريا، 2005.

86. بن سعد ثريا: آثار الطلاق بين التشريع والواقع المجتمعي (تونس أنموذجا)، المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 2009.
92. بودون ريمون، بوريكو فرانسوا: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
59. بوردو بيير: السيطرة الذكورية، ترجمة: أحمد حسان، دار العالم الثالث، القاهرة، 2001.
85. البوطي محمد سعيد رمضان: المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1996.
60. بيضون عزة شرارة: الرجولة وتغير أحوال النساء (دراسة ميدانية)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2007.
61. بيضون عزة شرارة: الجندر (ماذا نقول؟)، الشائع والواقع في أحوال النساء)، دار الساقى، بيروت، 2012.
73. حجازي مصطفى: التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 9، 2005.
34. الخولي سناء: الأسرة والحياة العائلية، دار المعرفة الجامعية مصر، 2000.
62. ديامي عبد الصمد: سوسيولوجيا الجنسانية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2009.
94. دينكن ميتشل: معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 1986.
56. زيبائي نجاد محمد رضا، النجفي حسين بستان، سوند فريبا علا: المرأة (هويتها الجنسية وأدوارها الاجتماعية)، ترجمة رعد الحجاج، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، 2013.
87. سعد عبد العزيز: الزواج و الطلاق في قانون الاسرة الجزائري، دار هومة، الجزائر، ط 3، 1996.
55. سليم مريم وآخرون: المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
40. السمالوطي، نبيل محمد توفيق، الدين والبناء العائلي (دراسة في علم الاجتماع العائلي)، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، جدة، 1981.
27. السويدي محمد: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991.

88. شحرور محمد: نحو أصول جديدة للفقهاء الاسلامي (فقه المرأة)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2000.
- 63 شرابي هشام: النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، ترجمة محمود شريح، دار الغرب، الجزائر، ط4، 2002.
15. غيدنز أنتوني: علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت، 2005.
16. فيبر ماكس: المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، ترجمة صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، مصر، 2011.
- 39 ماري فارمر: «مشكلات الأسرة وسياسة مواجهتها في ضوء نظرية علم الاجتماع»، فصل مترجم ضمن كتاب غريب سيد أحمد وآخرون، دراسات في علم الاجتماع العائلي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1995.
100. مان ميشال: موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز مصلوح، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 1994.
- 17 محمد علي محمد: الشباب العربي والتغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.
- 102 معتوق فريدريك: معجم العلوم الاجتماعية، مراجعة وإشراف د. محمد دبس، أكاديميا، بيروت، 1998.
- 38 معن خليل عمر: علم اجتماع الأسرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1994.
65. المريني فاطمة: ما وراء الحجاب (الجنس كهندسة اجتماعية)، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005.
52. المسيري عبد الوهاب: قضية المرأة (بين التحرير والتمركز حول الانثى)، نهضة مصر، مصر، ط2، 2010.
89. عمارة محمد: التحرير الاسلامي للمرأة (الرد على شبهات الغلاة)، دار الشروق، مصر، 2002.
57. غارودي روجي: مستقبل المرأة، ترجمة محمود هاشم الوديني، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2012.
70. لعبي شاكراً: العمارة الذكورية (فن البناء والمعايير الاجتماعية والاخلاقية في العالم العربي)، رياض الريس للكتب والمنشورات، بيروت، 2007.
103. نورير سيلاسي، بمشاركة مئة وثلاثة وثلاثين اختصاصياً: المعجم الموسوعي في علم النفس، ترجمة وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2001.
49. الهراس المختار: المرأة وصنع القرار في المغرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، بيروت، 2008.

66 وطفة علي أسعد، بنية السلطة وإشكالية التسلط في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.

105. عياشي صباح: الاستقرار الأسري وعلاقته بمقاييس التكافؤ والتكامل بين الزوجين في ظل مختلف التغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري، أطروحة دكتوراه الدولة في علم الاجتماع الثقافي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2، إشراف أ. د مغربي عبد الغني، 2007-2008.

106. كيري غنية: القوامة ومبدأ المساواة بين الجنسين (الواقع الجزائري نموذجاً)، أطروحة دكتوراه الدولة في العلوم الإسلامية تخصص شريعة وقانون، إشراف أ د عزوز علي، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006.

107. العود البهلول هادية: الطلاق والتغير الاجتماعي في تونس (ولاية صفاقس نموذجاً)، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، إشراف أ د خميس طعم الله، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، السنة الجامعية 2010 || 2011.

108. معادي زينب: الاسرة المغربية بين الخطاب الشرعي والخطاب الشعبي (حالة الدار البيضاء)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، إشراف أ د فاطمة المرنيسي، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية 1985-1986.

111. بن الهذيلي يسرى: العنف الزوجي في تونس (الخطاب والممارسة)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، إشراف أ د عبد اللطيف الهرماسي، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، السنة الجامعية 2012.

114. بوقطاية مراد: «مؤشرات التوافق الزواجي ومعوقاته في الحياة الزوجية»، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الثالث عشر، مارس 2008.

126. وطفة علي: «مظاهر التسلط في الثقافة والتربية العربية المعاصرة»، مجلة المستقبل العربي، العدد 247، سبتمبر 1999.

130 أعمال ملتقى «التغيرات الأسرية والتغيرات الاجتماعية» الملتقى الوطني الثالث، معهد علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2، ايام 20 و 21 جانفي 2004، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2005.

133. Addi Lahouari : *Les Mutations de la société Algérienne (famille et lien social dans l'Algérie contemporaine)*, Ed. La découverte, Paris, 1999

134. André Michel : *Sociologie de la famille et du mariage*, PUF, 3^{ème} Ed, 1986, Paris

135. -----: *Le Féminisme*, PUF, 3^{ème} Ed, Paris, 1986

139. Balandier George : *Sociologie des mutations*, éditions Anthropos, Paris, 1970

142. Bawin-Legros Bernadette : *Famille, Mariage, Divorce*, Éditions Pierre Mardaga, Liège, 1988
143. Ben Cheneb Mohammed : *Proverbes de l'Algérie et du Maghreb*, Editions Maisonneuve et Larose, Paris, 2003
145. Berini Laure et al : *Introduction aux Gender Studies (Manuel des études sur le genre)*, Editions De Boeck, Bruxelles, 2008
146. Bennoune Mahfoud : *Les Algériennes, victimes de la société patriarcale (Une étude socio-anthropologique)*, Editions marinoor, Algérie, 1999
147. Bihr Alain et Pfefferkorn Roland : *Hommes/Femmes, l'introuvable Egalité (Ecole, Travail, Couples, Espace public)*, Editions l'Atelier, Paris, 2002
149. Bouteffouchet Moustafa : *La Famille Algérienne (évolution et caractéristique récentes)*, SNED, Alger, 1980
152. Calendreau Louis : *Pouvoir et Autorité en éducation*, l'Harmattan, Paris, 2009
157. Dagnais Daniel : *La Fin de la Famille Moderne*, PUF, France, 2000
158. Durand Jean Pierre et Weil Robert (sous la direction de) : *Sociologie Contemporaine*, 2^{ème} édition revue et augmentée, France, VIGOT, 1997
159. Dialimy Abdessamad : *Critique de la Masculinité au Maroc*, Editions Saad Warzazi, Rabat, 2009
160. De Singly Francois : *Sociologie de la Famille contemporaine*, Armand Colin, 4^{ème} édition, Paris, 2012
162. Delième, Robert : *Anthropologie de la famille et de la parenté*, Armand Colin, Paris, 2^{ème} édition, 2005
164. Gaillard Tom Michel : *La Famille en miettes (Essai sur le nouveau désordre familial)*, éditions SAND, 2001
165. Guionnet Christine et Neveu Erik : *Féminin, Masculin (Sociologie du genre)*, éditions Armand Colin, France, 2004
169. Kaufmann Jean-Claude : *Sociologie du couple*, PUF, 2^{ème} édition, Paris, 1995
170. Lacoste Dujardin – Camille : *Des Mères contre les femmes (Maternité et Patriarcat au Maghreb)*, Bouchène, Alger 1990
174. Megherbi Abdelghani : *Culture et personnalité dans la société Algérienne (de Massinissa à nos jours)*, ENAL – OPU, Alger, 1986
176. Megherbi Abdelghani, : *Le Miroir apprivoisé (Sociologie du cinéma Algérien)*, ENAL/ OPU, Alger, 1985
178. Nadjar Sihem et Kerrou Mohamed : *La Décision sur scène (Un regard sociologique sur le pouvoir décisionnel des femmes tunisiennes)*, éditions Majd, Beyrouth, 2007
182. Segalen Martine : *Sociologie de la famille*, Armand Colin, paris, 6^{ème} édition, 2006
183. Toulbi Radia : *Les Attitudes et les représentations du mariage chez la jeune fille Algérienne*, ENAL, Alger, 1984
184. Renault Alain : *La fin de l'Autorité*, Flammarion, Paris, 2004
185. Walzer - Lang Daniel : *Nous les Mecs (essai sur le trouble actuel des hommes)*, éditions Payot et Rivages, Paris, 2009
186. Zerdoumi Nefissa : *Enfants d'hier (l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel Algérien)*, Paris, éditions Ma

تاريخ الدراسات حول الآثار الغارقة في منطقة شرشال

د. خلاف رفيق

علم الآثار صيانة وترميم

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله تيبازة

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى سرد مختلف الدراسات، التي أنجزت في السنوات السابقة، على الآثار الغارقة جزئياً أو كلياً في منطقة شرشال «القيصرية»، عاصمة المقاطعة الرومانية ومن أهم المدن الساحلية في الفترة الإسلامية. ستسمح لنا هذه الدراسة بتحديد الثراء الأثري الغارق للمنطقة من جهة وتبيان امكانية توسيع الأبحاث في هذا الميدان من جهة أخرى.

Résumé :

Cet article a pour but de revenir sur les études effectuées ces dernières années sur les sites archéologiques sous-marins de la région de Cherchell « Césarée de Maurétanie », capitale d'une province Romaine et l'une des plus importante cité du littoral Algérien dans la période Islamique. Cette étude nous permettra, d'une part, de déterminer le potentiel archéologique sous-marin de cette région, et d'autre part, de démontrer la possibilité d'étendre le champ de recherche dans ce domaine d'étude.

كلمات مفتاحية :

علم الآثار الغارقة، المغمورة، شرشال، قيصرية.

مقدمة :

تطل الجزائر بواجهتها الساحلية الكبيرة على أحد أهم البحار التجارية في العالم، ومهد العديد من الحضارات، ألا وهو البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت السفن التجارية والحربية تجوب هذا البحر منذ فجر التاريخ، هذا الأخير لا بد أن يضم العديد من أثار العصور التاريخية المختلفة، والتي تمثل مرآة عاكسة لحضارات هاته الحقبات، بالإضافة إلى المستوطنات والمدن الساحلية المهمة التي عرفها التاريخ، والتي أصبحت العديد من أثارها غارقة تحت مياه البحر. ربّما تعد منطقة شرشال، التي كانت عاصمة لمقاطعة رومانية «القيصرية»، تصل حدودها إلى المحيط الأطلسي، أفضل مثال لذلك.

I. تاريخ الدراسات :

1. الدكتور شاو :

الدكتور شاو هو كاهن ورحالة بريطاني، ولد ببريطانيا في عام 1692م، عمل كقسيس في الجزائر لمدة 12 سنة. تعد رواياته حول رحلاته في افريقيا الشمالية (الجزائر وتونس) من بين المصادر النادرة للأوروبيين الذي عاشوا هذه المناطق¹. في كتابه « Voyage dans la régence d' Alger »²

يقوم شاو بوصف المدن التي يمر بها وصفا سياسيا، اجتماعيا وخاصة جغرافيا، بالإضافة إلى أنه كان يهتم بالأثار الرومانية، فكان يفصل في وصف هذه الأخيرة مع رسمها وانجاز رفع لها، هذه الخاصية ميزت روايات شاو عن باقي الرحالة، جعلت من هذه الأخيرة مصدرا أساسيا رجع إليه كل الباحثين الأثريين فيما بعد.

قام شاو في كتابه بوصف المدن المتواجدة على الساحل الجزائري ابتداء من تنس، وذلك بإتباع المسار القديم لأنتونان لتعيين المدن القديمة، ورحلات الادريسي لتعيين مدن الفترات الإسلامية، وفيما يخص حالة دراستنا، ذكر شاو المدن الساحلية التي تحتوي على آثار رومانية، مع تحديد التسمية من الغرب إلى الشرق كالتالي: داموس «كاستراجير مانوم»، برشق «قورايافونونو»، ثم شرشال «يوليا القيصرية»³. في المدينتين الأولين، لم يقيم شاو إلا بذكر تواجد بقايا أثرية بالموقعين، لكن في شرشال قام شاو قدم وصفا دقيقا للبقايا الأثرية خاصة للميناء، حيث يعد وصفه هذا أول مصدر رجع إليه الباحثون الذين قاموا بدراسة الميناء القديم لمدينة شرشال، خاصة وأنه بعد مجيء

الاستعمار الفرنسي، وابتداء من 1844م خلال أشغال تهيئة الميناء تم تخريب الكثير من الأدلة التي توضح حدود وتنظيم الميناء.⁴

وصف شاو في كتابه أنه حدث زلزال عنيف، على إثره تدمرت منشآت الميناء، وأن آثار هذا الزلزال لا تزال واضحة في أحواض الميناء⁵، وقد وضع شاو من خلال ملاحظاته، أول نظرية لتواجد حوضين يتصلان بينهما بفتحة صغيرة، الحوض الأول والأصغر هو حوض اصطناعي «كوتون»، عمقه قليل نظرا لكمية الهائلة من البقايا الأثرية والعناصر المعمارية الغارقة به كالأعمدة والتيجان وكتل الجدران، بالإضافة إلى خزانات المياه المتواجد في أعاليه.⁶

يوضح شاو أن هذا الحوض المذكور سابقا هو مغلق نظرا لتراكم الرمال بين الساحل والجزيرة المسماة حاليا «جوانفيل». غير أن هذا الواصل بين الساحل والجزيرة هو ربما بمثابة كاسرة أو رصيف قام بإنجازه الأتراك عند دخولهم المدينة لتحصين الميناء ضد الرياح الغربية بطريقة سهلة وسريعة لاستعمال الميناء في ظرف زمني قصير. نستطيع ملاحظة شكل هذه الكاسرة التي يتبين لنا أنها اصطناعية من خلال الخريطة التي أنجزها هاندريك دولاث في 1700م.⁷

2. الأطلس الأثري للجزائر من اعداد ستيفان قزال:

قام ستيفان قزال، المؤرخ الأثري المعروف بعدة أبحاث عن مختلف أنحاء الجزائر، ولعل من أهم منشوراته، الأطلس الأثري للجزائر⁸، الذي يحتوي على عدد هائل من المواقع الأثرية المعينة فوق خريطة طوبوغرافية، يمثل كل موقع أثري برقم، يسجل هذا الأخير في مجلد مكتوب حيث يقوم قزال بوصف الموقع والمعالم الأثرية المتواجدة بمكان تعيين هذا الرقم. يأخذ هذا الوصف بعض الأسطر في حالة ما إذا كان الموقع الأثري لا يحتوي على آثار كثيرة أو مهمة، ويأخذ عدة أسطر أو عدة صفحات في حالة ما إذا كان الموقع الأثري المذكور ذو أهمية كبيرة، فيتعمق قزال في دراسته، ويقدم حوله رسومات ومخططات لبقاياه الأثرية، والبحث في تاريخه وتاريخ الأبحاث التي أنجزت حوله... الخ.

يعد أطلس قزال مرجعا أساسيا في كل الأبحاث الأثرية المنجزة في الجزائر لثراء المعلومات المتواجدة به، خاصة أن العديد من الآثار لم تصبح موجودة أو تعرضت إلى التخريب والاندثار الجزئي أو الكلي، وفي حالة دراستنا هذه، يساعدنا أطلس قزال في دراسة المواقع الأثرية الساحلية والموانئ القديمة.

3. دراسات للاكوست، كانيا و مونيي حول ميناء شرشال العتيق:

إن أكثر المواضيع المتعلقة بالآثار البحرية في منطقتنا هو ميناء شرشال القديم، الذي كان محل اهتمام الكثير من الباحثين الذين استغربوا نقص الآثار المادية التي تؤكد وجود ميناء عظيم بعظامة عاصمة موريطانيا القيصرية. اعتمد أغلب الباحثين على وصف الدكتور شاو للميناء خلال رحلاته في القرن 17م، حيث يعد هذا المصدر من أهم مصادر شهود العيان لما كان ماثلا من مخلفات وبقايا الميناء المنهار.

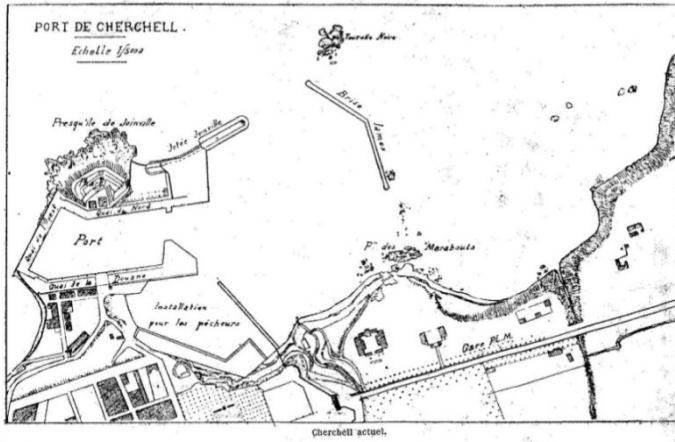
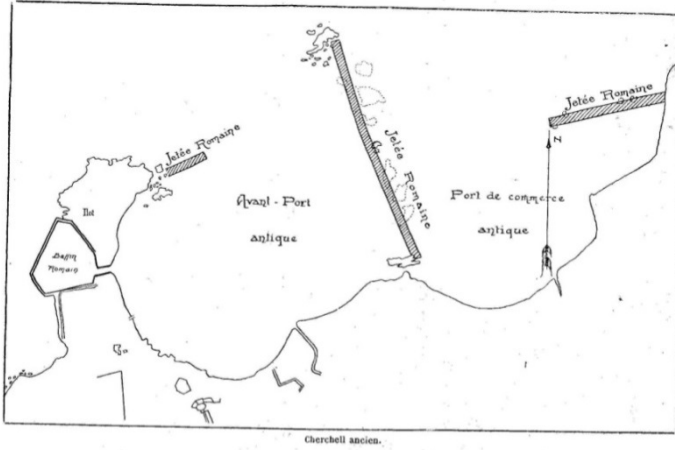
في سنة 1890م، قام مهندس الطرقات والجسور مونيي، بنشر كتاب حول ميناء شرشال وتيبازة⁹، وفيه تطرق إلى تاريخ المنطقة والميناء والتغيرات التي طرأت عليه. اعتمد مونيي هو كذلك على وصف الدكتور شاو، غير أنه بالإضافة إلى ذلك، يصف لنا حالة الميناء أثناء أشغال التهيئة التي طرأت عليه في سنة 1846، وملاحظاته أثناء عملية حفر حوض الميناء الجديد.

في سنة 1892، قام الباحث روني كانيا في كتابه ¹⁰ «L'armée romaine d'Afrique» بوضع أول نظرية كاملة الدراسة حول تصورات مخطط الميناء ووظائفه في الفترة الرومانية.

تمحورت إشكالية كانيا حول ميناء شرشال كونه الموقع الوحيد في موريطانيا القيصرية الذي بإمكانه استقبال سرب من أسطول البحرية الرومانية، بحيث أن هذه الأخيرة يمكنها اللجوء إليه للاستراحة والتموين، ولحراسة جزء كبير من ساحل شمال إفريقيا¹¹. اعتمد كانيا هو كذلك على وصف شاو، وعلى تقارير خلية الخدمات الهيدروغرافية للبحرية الفرنسية التي أعادت تهيئة ميناء شرشال. يحدد كانيا من خلال دراسته، تواجد قسمين أو ميناء ينفي مدينة شرشال، الأول غربي خاص بالبحرية، والآخر شرقي خاص بميناء التجارة¹².

في سنة 1933م، قام لاكوست وكيهار بإنجاز دراسة قيّمة حول الموانئ القديمة في الجزائر عامة وميناء شرشال العسكري خاصة¹³. فتطرق الباحثان إلى كل الموانئ والمحطات التجارية المتواجدة على الساحل الجزائري من الغرب إلى الشرق، ومنها تم ذكر ميناء شرشال، وسيدي غيلاس، وقوراية والداموس. تطرق الباحثان إلى دراسة ميناء شرشال دراسة معمّقة ودقيقة، هدفها التأكيد على المساحة الكبيرة التي كان يشغلها الميناء وأهميته خلال الفترة الرومانية، وقد تطرقا بهذا إلى كل الأدلة التاريخية والأثرية، كمصادر الرحالة وأدلة وجود أسطول بحري في شمال إفريقيا تابع لميناء شرشال، بالإضافة إلى النصوص التاريخية والناقشات اللاتينية التي تذكر تواجد ضباط وجنود للبحرية مقيمين بمدينة شرشال¹⁴.

استنتج لاكوست وكيهار أن ميناء شرشال كان ينقسم إلى 3 أقسام: الأول عسكري، الثاني تجاري، والثالث خاص بزوارق الصيد الصغيرة.



مخطط: ميناء شرشال القديم والحديث عن (C 1933 Quémard, L. Lacoste).

4. أبحاث ديولي وأفرسانغ،

في سنة 1951، قام فيليب ديولي بإنجاز تحريات تحت بحرية على سواحل مدينة شرشال، وقد وضح في بداية الفقرة المخصصة لمدينة شرشال من كتابه «Promenade d'archéologie sous-marine»¹⁵، أنه لا يجب اعتبار تحرياته كأبحاث أثرية، بل استطلاعات لما يتواجد بأعماق البحر على سواحل المدينة، كذلك يوضح أن أفرسانغ، الذي يعد من رواد علم الآثار الجوي، هو من بادر بهذه التحريات¹⁶.

كان هدف تحريات فيليب ديولي تعيين حدود الميناء القديم، وقد اعتمدت تحرياته على الأبحاث والنظريات التي قام بها «كانيا» في دراسته للجيش الروماني الإفريقي والأسطول البحري الموريطاني، حيث يعود هذا الأخير إلى وصف الميناء الذي كان بإمكانه استقبال هذا الأسطول المشكل على الأقل من 13 سفينة حربية¹⁷. اعتمد كذلك ديولي على الأبحاث التي قام بها لاکوست وكيهار المدونة في كتاب «Les ports antiques de l'Algérie»، حيث يوضح في هذا الأخير تقسيم افتراضي للميناء، وتعيين دقيق لمكان تواجد الأرصفة، الكاسرات ومختلف المداخل¹⁸. قام ديولي بإنجاز تحريات تحت بحرية لتفحص صحة مختلف هاته النظريات، وبدأ تحرياته من الشرق بتفحص أصغر كاسرة افترض لاکوست وكيهار وجودها للحماية، حيث تسمى هذه الأخيرة بكاسرة كيهار. يناقش الكثير من الأثرين وجود حوض بهذا المكان، ومنه وجود هذه الكاسرة، وذلك لنقص العمق وتعرض الحوض إلى الرياح الغربية. غير أن ديولي بعد تفحصه لأعماق البحر في هذه الناحية، لاحظ أن نقص العمق راجع إلى اكتظاظ البقايا الأثرية للمباني التي انهارت من اليابسة إلى الماء وذلك للانحدار الشديد لخط الساحل، كما أن التحريات التحت بحرية سمحت بتأكيد تواجد الكاسرة المذكورة من طرف لاکوست وكيهار في 1932م¹⁹.

الكاسرة الثانية والمؤكدة من طرف جميع الأثرين آثارها بقيت واضحة إلى غاية العصور الحديثة، هي الكاسرة التي تنطلق من رأس ضريح سيدي براهيم الغبريني والتي تتجه شمالا نحو الجزيرة الصغيرة المدعوة حاليا «الحمام». يذكر ديولي كذلك وجود خزانات مياه تعود للفترة الرومانية بالقرب من الضريح المذكور، تمثل هذه الأخيرة الدليل الواضح لوجود منشآت الميناء بهذا الفضاء.

عند الاتجاه نحو الغرب، وبالصُّبْط على ضفاف جزيرة جوان فيل، تصبح ملاحظة البقايا الأثرية وتحليلها جد صعب، وذلك للتغيرات العميقة التي طرأت بعد إعادة تهيئة من طرف الفرنسيين خلال القرن 19م²⁰. لكن يذكر ديولي تواجد عناصر معمارية ضخمة كالحجارة المصقولة والأعمدة في عمق البحر وبالقرب من المدخل الحالي.

عند الاتجاه غرب حوض الميناء العسكري القديم الموافق للميناء الحالي، يشير ديولي إلى اكتشافه لآثار تواجد كاسرة أخرى، نستطيع من خلالها القول بتواجد حوض رابع للميناء، ويحاول البرهنة على هذه النظرية من خلال وصف بعض التقنيات المستعملة في بناء الكاسرات في الفترة القديمة، وكذلك الاستعانة بالمخططات التي أنجزت من طرف الدائرة الهيدروغرافية للبحرية الفرنسية، والمقارنة مع موانئ أخرى للفترة الرومانية.

5. أبحاث ادورد ستاوسكي:

في سنة 1965م وبالتحديد خلال الفترة الممتدة بين 12 و26 جويلية، قام فريق من الغواصين الهواة بإنجاز تحريات أثرية تحت بحرية بشر شال، تحت إشراف ادوارد ستاوسكي، تشكّل فريق البحث من 10 غواصين، منهم «5» تابعين إلى نادي غوص فوكة البحرية، و4 غواصين من دار الشباب لقسنطينة²¹.

تمثلت أهداف هذه الأبحاث، تبعا لتعليقات مدير الآثار القديمة للجزائر في:

- تعيين حدود ساحل الفترة القديمة.
- البحث عن البقايا الأثرية المهمة القديمة.
- تعيين حدود المنشآت التابعة للميناء القديم.
- تحديد كل البيانات الأثرية المجموعة فوق مخطط.

نظرا للطقس الرديء لم يشرع للغوص إلا ابتداء من 15 جويلية، بمعدل عمليتين في اليوم، وتمت عملية المسح طول ساحل المدينة لاتخاذ أسوار هذه الأخيرة شرقا وغربا كحدود العملية، تمّ المسح على عرض 200م ابتداء من الساحل الحالي²².

كانت النتائج غير مرضية بحيث أن فضاء المسح مغطس بالأوحال والنباتات البحرية، ورغم ذلك، قام فريق البحث بملاحظة العديد من البقايا الأثرية المتناثرة هنا وهناك، كالأعمدة والحجارة المنقوشة، وكتل من الخرسانة وغيرها. تمّ تعيين مكان تواجدها ورسمها²³، غير أننا لم نجد أثر للتقرير النهائي المفصل الذي يسمح لنا بالتعرف على هذه الاكتشافات.

6. الأبحاث الأثرية تحت بحرية لمشروع مغرب 1968م ليورك ودافيدسون:

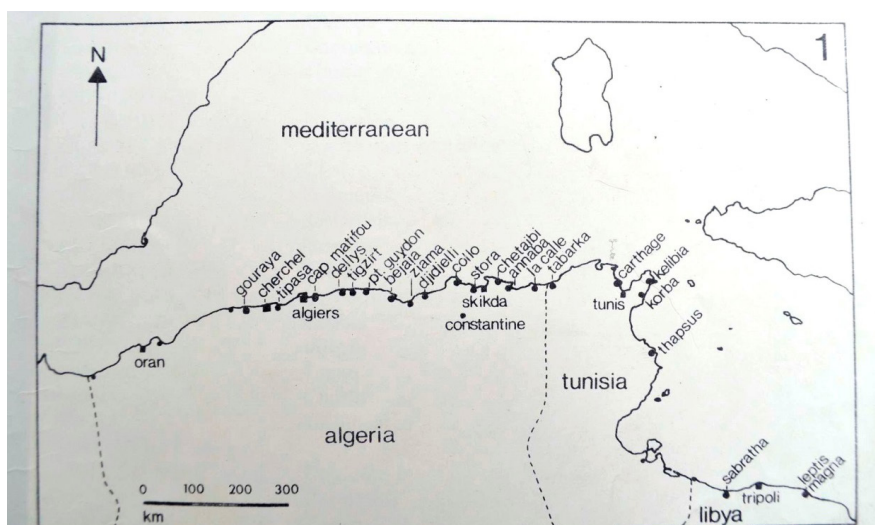
في سنة 1968م، قام فريق من الباحثين الانجليزين لجامعة كامبريج بإنجاز مشروع بحث أثري تحت بحري للسواحل الجزائرية في إطار برنامج خاص لدراسة الموانئ القديمة بشمال افريقيا، والذي بدأ في ليبيا وتونس في سنة 1966م²⁴، وقد كان هذا المشروع الأول من نوعه من

حيث استعمال أجهزة خاصة للغوص والتحري الجيوفيزيائي من طرف أثنين مختصين. قام الأثريون بتهيئة شاحنة صغيرة مجهزة بكل الأدوات اللازمة لدراسة اللقى الأثرية، بالإضافة إلى تجهيزات الغوص والتحري الأثري المتطورة آنذاك، كجهاز إلكترومغناطيسي لمسح قاع البحر، وجهاز كشف الأدوات الفولاذية²⁵.

بعد عملية التّحقيق والبحث البيسليو غرافي، تم اختيار 30 موقعا لإنجاز عمليات التحري التحت بحري، بهدف تعيين وجود بقايا أثرية للموانئ القديمة، والمنشآت البحرية، وحطام السفن.

اتَّجه الفريق من الغرب إلى الشرق كالتالي: قورايا، شرشال، تيبازة، سيدي فرج، تامنغوست، زموري، جينات، تيقزيرت، تاقسبت، أزفون، بجاية، أوقاس، زيامة منصورية، جيجل، القل، سطورا، جبل فليفا، سيدي مروان، راس الحديد، سيدي عكاش، شطايب، عنابة و القالة (أنظر الخريطة 4). استغرق المشروع 3 أشهر²⁶ من جويلية إلى أكتوبر، وكانت النتائج جد مهمة، حيث قام الفريق الانجليزي باكتشاف بقايا أثرية جديدة، وتأكيد نظريات سابقة، بالإضافة إلى التوثيق الشري الذي أنجزوه من رفع أثرى وصور تحت بحرية.

يمثل مشروع يورك ودافيدسون أول مشروع أبحاث أثرية تحت بحرية حقيقية أنجزت على منطقة شرشال والجزائر كلياً، ومنذ تلك التجربة لم تعرف الجزائر أبحاث أو تحريات أثرية تحت بحرية فعلية إلى يومنا هذا.



خريطة 4: المشروع المغربي للموانئ القديمة في الجزائر عن 1968

York (R.), Davidson (D.)

7. أبحاث فيليب لوفو حول المواقع الأثرية لمنطقة شرشال :

فيليب لوفو مؤرخ وباحث أثري قام بالتدريس بجامعة الجزائر من 1966م إلى 1971م²⁷، وساهم في عدة تنقيبات أثرية بمنطقة شرشال، القيصرية القديمة. جمع لوفو العديد من البيانات الأثرية، من خلال زيارة المواقع الأثرية المتواجدة بمدينة شرشال وضواحيها في مساحة تزيد عن 500 كلم². أعاد النظر في كل المعالم والمواقع المتواجدة في منطقة شرشال بالاعتماد على الدراسات السابقة لبحثه ومعطيات أحدث، كما أنه كان يقوم بأخذ عينات للفخار المتواجد على سطح الأرض بالقرب من المواقع لتأكيد نظرياته²⁸. قام فيليب لوفو بالتعمق في دراسة المواقع الأثرية المذكورة من طرف قزال وسابقه، والربط بين المعالم الأثرية المتواجدة بالريف مع تلك المتواجدة بالمدينة. وقام بنشر العديد من الكتب والمقالات حول مدينة شرشال القديمة وريفها، المنشآت المادية لمدينة شرشال، مدافن مدينة شرشال، وغيرها من المواضيع، ولعل أحدث بحث منشور له حول المنطقة هو موضوع يتحدث فيه عن تعيين أحد قصور يوبا الثاني، وقد تم نشره في ماي 2014م²⁹

ما يميز أبحاث فيليب لوفو أنه اهتم في دراسته بالمواقع الأثرية المتواجدة في ريف مدينة القيصرية العريقة، بالإضافة إلى العودة إلى كل المعالم المتواجدة داخل أسوار المدينة. فيما يخص هذه الأخيرة، قام لوفو بإعطاء حوصلة حول كل النظريات التي تخص شكل ومساحة الميناء القديم، بالإضافة إلى ذكر احتمالات وجود محطات بحرية أخرى مع وصفها، كمحطة قورايا³⁰. قام كذلك لوفو بالتطرق إلى المنشآت البحرية الأخرى، كأحواض السمك المتواجدة بشاطئ تيزيرين، والتي أعاد وصفها ورفعها اعتمادا على دراسة يورك ودافيدسون المذكورة سابقا³¹.

أمّا في الريف، فقد قام لوفو بدراسة الفيلات المتواجدة خارج المدينة، نذكر من أهمها المتواجدة على الساحل والمتصلة بالبحر كموقع الجزر الثلاثة، والصخرة البيضاء، بالإضافة إلى المحطات التجارية الساحلية كقورايا والداموس³².

يمثل عمل لوفو في كتابه « Caesarea de Maurétanie, une ville et ses compagnes »، مجردا فعليا دقيقا لمختلف المواقع الأثرية المتواجد في منطقة شرشال الساحلية، النصف مغمورة منها.

8. أبحاث بيار سلاما حول المواقع التجارية القديمة على السواحل الجزائرية :

بيار سلاما، مؤرخ وأثري ولد بالجزائر في سنة 1917م وقضى بها حياته إلى سنة 1989م. قام بعدة أبحاث، حيث تخصص في شبكة الطرقات الرومانية، شغل عدة مناصب في

إدارة الآثار، نذكر منها مدير الدائرة الأثرية لشرق الجزائر في سنة 1953م، خلال هذه الفترة، قام بيار سلاما بتشجيع نوادي الغوص، وحتى مؤسسات البحرية العسكرية في انجاز تحريات أثرية تحت بحرية، خاصة على السواحل القريبة من المحطات التجارية القديمة³³.

في سنة 2006م، قام بتدوين مقال حول المواقع التجارية القديمة على السواحل الجزائرية من شرشال القيصرية غربا إلى جنات شرقا³⁴، وذلك بالاعتماد على المكتشفات التي جمعها خلال سنوات عمله بالجزائر، اعتمد سلاما في دراسته على عدة مصادر قديمة لتعيين موقع المحطات، وكذلك على الدراسات المتعلقة بالرياح والتيارات البحرية، وشروط ملاحية السفن الشراعية في القرن 19م، ليطبقها على الملاحية في الفترة القديمة. استطاع بذلك سلاما تحديد موقع 10 محطات تجارية على سواحل الجزائر³⁵.

9. كاتالوج الموانئ القديمة لأرتور قراو :

أرتور قراو مهندس مختص في المنشآت الساحلية والموانئ، قام بعدة أعمال متعلقة بالتعرية الساحلية، وبناء الموانئ عبر مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط³⁶. شارك في أول أبحاثه الأثرية باستشاراته لتفسير نتائج الحفريات تحت بحرية للإسكندرية في سنة 1998م، ومن ثم اهتم بدراسة الموانئ القديمة عبر البحر الأبيض المتوسط، ليقوم في النهاية بنشر الطبعة الأولى لكتالوج الموانئ القديمة في سنة 2011، والطبعة الثانية في 2012، والثالثة في 2013³⁷.

تمثل هدف دراسة قراو في جمع المصادر القديمة التي تذكر وجود موانئ بتلك أو هاته المنطقة، بالإضافة إلى الاستعانة بالمراجع الحديثة والدراسات المتشابهة لتعيين تموضع كل ميناء³⁸. كانت نتيجة هذه الدراسة ما يقارب 2750 مرفأ-ملجأ- أو ميناء، تم تعيينها بالرجوع إلى 66 مصدر قديم، وبعض المراجع الحديثة، يقدم قراو عمله في عدة أجزاء:

الجزء الأول عبارة عن قائمة موانئ معروضة في جدول مشكل من عدة أعمدة محتوياتها كالتالي: الإحداثيات، البلد، التسمية القديمة، التسمية الحديثة، المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

الجزء الثاني يمثل النصوص القديمة التي تذكر أو تعين ميناء أو ملجأ.

الجزء الثالث يتطرق إلى هياكل الموانئ القديمة بشرح طريقة بنائها، وعرض بعض الأمثلة والدراسات المنجزة.

بالإضافة إلى هذه الأجزاء، يعرض قراوو في مقالات مختلفة، مواضيع متعلقة بالموانئ القديمة كروايات البحارة القدماء، وترجمة لكتاب فتروف لما يتعلق ببناء الموانئ أو دراسات باحثين انجزت على الموانئ القديمة وغيرها.

تعد دراسة قراو هذه مرجعا أساسيا لكل أثري يرغب في دراسة الموانئ القديمة أو المبادلات التجارية في الفترة القديمة وغيرها من المواضيع، حيث يجمع فيها وينظم كل البيانات الواجب استعمالها في مثل هذه الدراسات، ويسمح لنا بربح الوقت الذي قد نستعمله في البحث البيليوغرافي.

خاتمة :

يتضح لنا من خلال هذه اللّوحة أنّ منطقة شرشال ثريّة بمختلف الآثار الغارقة، غير أنّ أغلب الدراسات حولها اهتمّت بالآثار السّاحليّة، كالموانئ والمنشآت البحريّة. أمّا عن بقايا السّفن المغمورة فلا توجد إلى يومنا هذا دراسة أثريّة كاملة لهذا النّوع من المواقع الأثريّة. لذا، يجب مضاعفة الجهود والتشجيع على البحث والتحرّي عن الآثار المتواجدة في أعماق البحر لما تحتويه من كنوز علميّة قد تساعدنا في كتابة تاريخ المنطقة.

الهامش

1. Zizi (Z.), Thomas Shawa (1692- 175) à Tunis et à Alger, missionnaire de la curiosité européenne, these de doctorat De la curiosité européenne, thèse de doctorat en études Anglaise, Université de Can 1966, P.28.
2. Dr Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, Ed Marlin, Paris 1830.
3. Ibid, P. 269.
4. Meunier (M.), Ports Maritimes de la France, Notice sur les ports de Cherchell et Tipaza, Imprimerie Nationale, Paris, 1890, P.6.
5. Dr Shaw, Op.Cit, P. 270.
6. Ibid, P.271.
7. De Leth (H.), Costes de Barbarie depuis le cap Falcon jusqu'à la baie d'Alger, S.N, Amsterdam, 1700.
8. Gsell(St.), Atlas archéologique de l'Algérie (publié en sept fascicules, de 1902 à 1911), Alger et Paris, 50 cartes et 510 pages.
9. Meunier (M.), Op.Cit.P.8.
10. Cagnat (R.), Op.Cit, P.333.
11. Ibid, P.344.
12. Cagnat (R.), Op.Cit, P. 345.

13. Lacoste (L.), Quémard (C.), Les Ports antiques de l'Algérie la division navale de Maurétanie, le port militaire romain de Césarée Cherchell, esquisse archéologique et historique, S.Ed, 1933.
14. Ibid, P. 7.
15. Diolé (Ph.), Promenade d'archéologie sous-marine, Ed Albin Michel, Paris, 1953, Pp. 149-172.
16. Averseng (P.), « Un archéologue en avion. A la recherche des villes cachées », in Revue du Ministère de l'Air, 1936, Pp. 862-871.
17. Cagnat (R.), Op.Cit, P. 344.
18. Lacoste (L.), Quémard (C.), Op.Cit, P.6.
19. Ibid, P.8.
20. Meunier (M.), Op.Cit. P.8.
21. Stawski (E.), Rapport de mission de recherches sous-marine à Cherchell du 12 au 26 juillet 1961, P.2.
22. Ibid, P.3.
23. Ibid, P.4.
24. York (R.), Davidson (D.), Roman harbours of Algeria, Maghreb project, 1968. P. 11.
25. Bouchnaki (M.), « A propos du port antique de Tipasa », in Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, N°8, 1970, P.26.
26. York (R.), Davidson (D.), Op.Cit, P.4.
27. Camps (G.), « Analyse bibliographique, Ph. Leveau : Caesarea de Maurétanie, une ville romaine et ses campagnes », in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 1984, vol. 38, n° 1, pp. 189-190.
28. Leveau (P.), Caesarea de Maurétanie. Une ville romaine et ses campagnes, Rome : École Française de Rome, 1984.
29. Leveau (Ph.), « Le bâtiment d'Ennabod, redoute Amabar » à Cherchell. Un pavillon royal à Caesarea », in Les séminaires du CNRA, Alger, Juin 2014.
30. Leveau (Ph.), Caesarea..., Op.Cit, P.233.
31. Ibid, P. 50.
32. Ibid, P. 215.
33. La porte (J.P), Bio, Bibliographie de Pierre Salama (1977-2007), Bibliographie du Maghreb antique et médiéval www.tabbourt.com, document texte téléchargé le 13/02/2014
34. Salama (P.) « Sites commerciaux aquatiques sur le littoral de l'Algérois », in Melange de l'Ecole Francaise de Rome, 2006. Pp.527-547.
35. Salama (P.), Op.Cit, P.530.
36. Graaw (A.), anciens ports, ports antique, <http://www.ancientportsantiques.com/contact/author/>, consulté le 15/10/2014.
37. Voir Graaw (A.), Catalogue des ports antiques, Volume 1, 3eme édition 2012.
38. Ibid, P.20.

صراع الثقافات من خلال رواية «رحلة بالداسار» لأمين معلوف

«Conflit de culture dans le roman (périple de Baldassar),»
d'Amin Maalouf

د. بوخالفة إبراهيم أستاذ محاضر ب.

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله-تيازؤ. التخصص: دراسات أدبية عامة
معهد اللغة والأدب العربي المؤسسة الأصلية: الجزائر 2.

الملخص:

لقد غدت مسألة نقاء الثقافات أسطورة من أساطير المركزية الغربية، تلك الفلسفة التي هيمنت ولا تزال تهيمن على العقل الغربي إلى يومنا هذا، من دون أن يثبت الغربيون أنهم مستعدون للتخلي عن أساطيرهم التي تتخلل لاوعيهم الجمعي. إن الاحتكاك الذي يحصل اليوم بين الحضارات والثقافات، وزوال الحدود السياسية والإيديولوجية بين الإثنيات والأعراق، وتمازج المصالح الاقتصادية بين الأمم والشعوب، كذلك عجز عن بلورة مبدأ نسبية القيم. لا يزال الغربيون يعتقدون بأفضلية ثقافتهم وإنما طعشهم على الآخرين. ولا يزال موقفهم من مستعمراتهم القديمة عدائيا إلى أبعد الحدود. لاشيء تغير باستثناء الطلاء الخارجي للعلاقات ولغة الحوار التي أضحت أكثر نعومة، من دون أن تفقد حملتها العنصرية.

وفي هذا البحث المحدود أحاول أن أدرس مظاهر الصراع الثقافي بين الغرب والشرق من خلال عمل إبداعى للروائي الفرونكوفوني أمين معلوف، ورواية «رحلة بالداسار». تلك الرواية بدت لي عالية الخصوبة في مجال الآخرة. إنها ملققي لأعراق وثقافات شتى، أترك وعرب ومسيحيون غربيون، تجمع بينهم فضاءات مثيرة للجدل، في زمن شديد الاحتراب. زمن عرف ملامح ثورة عنيفة في مجال القيم الكونية التي تحكم العالم. لقد جسدت الرواية حلبة صراع بين الأديان السماوية الثلاثة الأكثر تمثيلا لتاريخ الإنسانية، الإسلام باعتباره الديانة المهيمنة على الفضاء السردى، والمسيحية باعتبارها العنصر

الثقافي المناوئ، والذي يقتحم مجالا لآخر لكي يقارعه في أرضه، واليهوديّة الحليف الجديد للغرب، في مطلع القرن العشرين. وسأعمدُ إلى توخي المنهج الطباقى الذي ابتدعه إدوارد سعيد من خلال مؤلفه الهامّ في مجال النقد الثقافى «الثقافة والامبريالية». وهو منهج يرصد العلاقة بين الشرق والغرب كما يمثّل لها المستشرقون والرحالة في كتبهم ومذكراتهم وسيرهم الذاتية، من خلال ثنائيات ضدية تعكس احتدام الصراع بين الغرب وآخريه.

الشخصيّة المحوريّة التي تحملهما وجوديا شديد الوطأة على العالم الروائى لأمين معلوف، هي شخصيّة بالداىسار. إنّ سيرتها لإشكاليّة مثار لخرة لا يخطئها الإدراك، بالنسبة للمتلقى مهما كانت تحييزاته. إنّها لخرة تثير الشكوك في كثير من القيم والأعراف والتقاليد المجتمعيّة في الغرب والشرق على حدّ سواء. فالتقارب بين المسيحية والإسلام في بعض القيم الأخلاقيّة ذات الطبيعة الميتافيزيقيّة، لم يفعل الشيء الكثير في مجال رتق الهوة بين الحضارتين الإسلاميّة والمسيحيّة. ولعلّ الانزياح التي لحقت كثيرا من المفاهيم والممارسات الدينيّة في كلا لمجتمعين هي المسؤولّة عن تعميق أزمة القيم بين الشرق والغرب. بيد أن الظاهر من أطروحات أمين معلوف، والرواية هي وعاء لها، أنّ الإدانة كلها توجّه للشرق، الرافض للحدائث الغربيّة المتشبّث بقيم قروسطيّة بالية، بدعوى المحافظة على الهويّة والأصالة، ورفض الوصاية ومقاومة الهيمنة الاستعمارية الجديدة. إنّ انحياز أمين معلوف لأطروحات المستشرقين سيئة السمعة، يطرح بحدة لا نظير لها مشكلة وضعيّة الفرونكفونيّة وتموقعها الحضارى، والمهامّ الموكلة إليها، هل هي البديل المثالى للاستشراق الذي غدا منبوذا، وسيء السمعة ومشبوه التورطه في الشرط الامبريالى، أم أنّها - أي الفرونكفونيّة -، الفضاء الثالث الذي ترسوفيه الهويات الكوسموبوليتيّة التي أوكلت إليها مهمّة جمع العالم في ليف واحد؟. أرجو أن أنهي البحث بإجابة شافية عن هذا التساؤل.

Résumé :

Le conflit de culture a été toujours le dénominateur commun de toutes les sociétés et de tous les temps. C'est l'un des facteurs mobilisateur de l'histoire humaine. Ce conflit se manifeste dans divers formes de culture, tel que la littérature, le cinéma et les relations politico-économiques. Dans cet article, j'ai étudié ce conflit à partir du roman d'Amin Maalouf

intitulé « Le Périples de Baldassar ». Ce Baldassar chrétien, originaire de l'Italie, résident au Liban, est un commerçant du dix-septième siècle. Il a fait un voyage au cœur de l'Empire Ottoman à la recherche d'un livre sacré, et chemin faisant, il notait tous les corvées et les mauvais tours causés par les musulmans turques auxquels il manifestait beaucoup de haine et de répugnance.

Ce roman riche en matière d'altérité et de différence culturelle met en relief le conflit Est-Ouest en rapport avec le problème d'identité et d'ethnie.

مقدمة :

لا تنمو الحياة وفقا لنظام مطّرد الرتابة، بل عبر صيغ من المجتمعات والحضارات عجيبة التنوع؛ هذا التنوع الفكري والجمالي والمجتمعي لا يتصل بأية صلة سببية، بذلك التنوع القائم على الصعيد البيولوجي بين بعض جوانب التجمعات البشرية التي تقع تحت طائلة الملاحظة. إنه مواز له فقط على صعيد آخر. فعدد الثقافات أكبر بكثير من عدد الأعراق البشرية. بل إن تعدد الثقافات، بغض النظر عن طبيعة العلاقة بينها، قد يكون ضمن العرق الواحد، أو القومية الواحدة. وعلى النقيض من ذلك، قد نجد تجانسا ثقافيا في رحم مجتمع متعدد الإثنيات. وتؤكد هذه الفرضية، وإن بنسب متفاوتة، مع احتدام الترويج للعلومة. ومع ذلك، فنادرا ما ينظر البشر إلى تنوع الثقافات باعتبارها ظاهرة صحية وطبيعية ناجمة عن علاقات مباشرة أو غير مباشرة بين المجتمعات⁽¹⁾. بل هم يرون هذا التنوع أمرا مستهجنا وشاذا. والثورة المعرفية التي يحظى بها عصرنا لم تبدد هذا الشعور. إن موقف الناس يقوم على النفور التلقائي من كل الأشكال الثقافية والأخلاقية والدينية والاجتماعية والجمالية البعيدة عن الأشكال التي نتماهى بها. وهو موقف يستند إلى أسس نفسانية صلبة لأنه يميل إلى الظهور دائما لدى كل واحد منا يجد نفسه في موقف غير متوقع. يقول الفرد الذي يصطدم بسلوك غريب عن مخياله الاجتماعي: هذه من عادات الهمجيين والبربريين. هكذا كانت العصور القديمة تصف كل ما لا يمت بصلة للثقافة الإغريقية بأنه بربري. فالشخص سواء كان من النخبة المثقفة أو من عامة الناس، يفضل «أن يطرح كل ما لا يتفق مع المعايير التي يحيا بموجبها خارج نطاق الثقافة، فيجعله ضمن نطاق الطبيعة»⁽²⁾. إن هذه الفكرة وإن بدت لدى بعض المستنيرين ساذجة، إلا أنها متجذرة في وعي الأفراد والمجتمعات وهي تشتغل في

الخفاء، ولا تتجلى إلا في حالات الاحتراب. إن تحيزنا لحضارتنا يجب أن يسود العالم أجمع. والفكر الإنساني الذي أبدعه التنوير الفرنسي، لم يتحقق على مستوى الأفراد والجماعات في أفضل فتراته. ولقد كانت الكلمة الأخيرة لصوت القوميات المتخيلة. «منذ الثورة الفرنسية، ومنذ وقت أطول بكثير، بنت فرنسا هويتها على مبادئ الحرية والمساواة والأخوة، إلا أن هذه القيم شمولية بكل معنى الكلمة ولم ترق إلى مستوى الممارسة الفعلية. «لقد بين الفيلسوف الفرنسي ميشال سار (Michel Sarre) أنه في الوقت الذي يقوم فيه ديكرت بتأسيس مبادئ العقل، تقوم الجيوش الانجليزية والغربية بصفة عامة بقتيل الهنود في أمريكا وحرق الغابات وبناء المستعمرات»⁽³⁾ ولهذا السبب، فإن قوانين الغرب، كأساطيره، ليست سوى قوانين العقل وأساطيره»⁽⁴⁾. وقوانين العقل وأساطيره لا تعني إلا في إثراء الثقافة النظرية التي تُوظَّفُ لتبييض وجه الاستعمار والامبريالية. ينظر الفيلسوف الفرنسي ميشال أونفراي، نظرة ازدراء لكل الأعراب. فالروس «كتل همجية»، ولغاتهم بمختلف منطوقاتها هي أصوات حيوانات متوحشة ولغة الألمان رموز مُلغزة لا يفهمها غيرهم. أما عن انجلترا فهي عملاق ضعيف ومتورم، واليهود شعب بلا أرض، يشكلون تهديدا أبديا، ناشرين الرعب في كل مكان بفضل المصرف والربا. إن وطنهم هو بورصة لندن. «إنهم يتحركون في كل مكان. ولكن جذورهم موجودة في بلد الذهب»⁽⁵⁾

مع بداية مراحل التنوير، أدركت أوروبا أنها بصدد غزو العالم. وكان الدافع لهذا التمدد خارج الحدود في غالب الأحيان، الرغبة المحمومة في معرفة الآخرين، ليس من أجل الثقافة وتتمّة النقص الحاصل في الذات، وإنما من أجل تجريد الآخرين من عناصر قوتهم الكامنة. وقد تكفّل بهذه الإرسالية الاستشراق باعتباره فرعاً من فروع المعرفة الذي تنوّل به الشرق (وبه يُتناوَل)، بطريقة منتظمة، من حيث هو موضوع للتعلّم والاكتشاف والاحتواء والإلحاق.

لقد مثّلت آسيا بالنسبة لأوروبا «النّأي والغربة الصامتة»، وكان الإسلام العدائية والهجومية بالنسبة للمسيحية الأوروبية⁽⁶⁾. ذلك أنّ فضاءات الحروب الصليبية وخيبتها لا تزال عالقة بالخيال الغربي بشكل لا شفاء منه. ومن هنا، فإنّ التصالح مع هذا الشرق المتمرد على الحداثة الغربية يبدو وهماً من أوهام أكثر الفلاسفة الغربيين اعتدالاً. لا ينظر الغرب إلى العرب والمسلمين على أساس اختلافهم الطبيعي عن أغيارهم بحكم التاريخ والجغرافيا والإطار الحضاري العام. إنه ينظر إليهم باعتبارهم نماذج منقوصة ومعيبة، ذوي تركيبة بشرية دونية. إنهم يُعانون خارج إطار الحضارة. فهم ليسوا أكثر من «راكبي جمال، إرهابيين، معقوف في الأنوف، شهبانيين، شرهين، تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة

للحضارة الحقيقية⁽⁷⁾. ولا يمكن للحضارة الحقيقية إلا أن تكون غربية. فالغرب هو صاحب الثورة الكوبرنيكية والثورة الصناعية والتكنولوجية والمعلوماتية. وهو الذي عوم الكرة الأرضية بمنتجات الرفاهية الإنسانية. وأبدع كل أشكال المعرفة والعلوم بشكل لا نظير له. وهذه حقيقة أكسبته ثقة في النفس أدرك على إثرها أن امتلاك العالم بكل أقطابه هي مسألة وقت.

تشكّلت معالم الثقافة الغربية ومقدّراتها، بفعل عاملين أساسيين يكمل أحدهما الآخر. العامل الأول هو أنّها صنّعة عصر التنوير الذي حرّرها من إرثها الخرافي، وبُعدها الميتافيزيقي. فتحوّل العقل الغربي بفعل تلك الثقافة إلى مركز للحدث، وفرض أنماط وجود اجتماعي وأنماط إنتاج اقتصادي عقلانية وبرغماتية إلى أبعد الحدود. أمّا العنصر الثاني، فيتمثّل في كون هذه الثقافة تنامت في سيرورة تاريخية أتاحت للغرب أن يضع يده على جزء كبير من اليااسة خارج أقاليمه، وأن يميّز ذاته عن خارجه، ويستعلي عليه. وأكثر من ذلك فهو لا ينفكّ يدمّر أنساقه الثقافية بدعوى عدم انسجامها مع التحوّلات الكبرى للحواضر الغربية، ويضعُ آليات طرد لكلّ ما هو غير غربي، بحيث يتعذّر على المهمشين والعالمثالين اللحاق بقيم المتحضّرين وتبني أنماطهم الثقافية. ومن هنا، فإنّ حالات الصراع الثقافي رغم خفوتها الصوتي أحياناً، فإنها تتفجّر من حين لآخر ضمن تجليات شتّى⁽⁸⁾.

التركز حول الإثنية:

إن خصوم أي نظام ثقافي من الأنظمة لا يعترفون طوعاً أو كرها بأن هذا النظام يتطور. إنهم يدينونه جملة وتفصيلاً، حتى وإن كان هذا النظام الثقافي معاصراً لهم ومتاخماً لفضائهم. بل إن رفضهم له يجتدم كلما قاسمهم هذا النظام الثقافي الزمان والمكان. وهم بالتالي يطرّحونه خارج التاريخ. يقول كلود ليفي شتراوس ما نصه «إن تاريخية ثقافة من الثقافات (...)، وغناها بالأحداث، لا يقاس اعتماداً على خواصها الداخلية، بل اعتماداً على الوضع الذي نجد أنفسنا فيه حيالها، بناء على عدد اهتماماتنا، وتنوع هذه الاهتمامات المرتبهة بها»⁽⁹⁾. ذلك أن الإنسان يعجز عن النظر إلى العالم من منظور ثقافة الآخر. كما يعجز عن إدراك غنى الثقافات المحيطة بمجاله الداخلي وخط تطورها ومدى انسجامها مع روحيتها بفعل تمرّكه حول إثنيته وانكفائه حول أناه. «ولقد أوحى ما شهدته القرن السادس عشر من اكتشاف أوروبا حضارات عظيمة شرق الأزيك في المكسيك والإنكا في البيرو بوجود تعددية إنسانية لا فكاك منها. فمعظم هذه الحضارات كانت قد تطورت

بانفصال تام عن التاريخ المعروف لكل من أوروبا والعالم المسيحي والعصور القديمة والإنسان بوجه عام»⁽¹⁰⁾. إن تعدد الثقافات، وتطورها بمعزل عن بعضها البعض تبدو من حقائق المجتمعات البشرية عبر التاريخ. لقد تفككت إيديولوجيا الحداثة الغربية التي نظرت لشريعة تفوق الحضارة الغربية على غيرها من الحضارات، والتي تسببت في تدمير حيوات شعوب بأكملها. «ومما لا شك فيه أن فكرة البشرية ذات الخصائص المشتركة، بمعناها المتخلف الذي يُنصُّ على أن تحيِّزنا حضارتنا يجب أن يسود العالم أجمع، كان من أكثر الأساليب الوحشية التي تفتق عنها التاريخ لسحق آخريه الآخرين»⁽¹¹⁾. فالإنسانية التي يستند إليها الرجل الأبيض لتحضير الشعوب الملونة من خلال إغراق بلدانها بثقافة الغرب وعلومه وآدابه فقدت سندها الأخلاقي مع مشاريع الاستعمار المدمرة خلال بضعة قرون. لقد شكلت إيديولوجيا التنوير هجوما عنيفا على فلاسفة الاستعمار ومُشرِّعهم، وعلى المستشرقين ذوي العقول الأبوية الذين كانوا يرددون أن الأصلايين لم يكونوا على مستوى عال من الفضيلة، وأن عقولهم فشلت في أن تنسجم وتتماهى مع العقل الغربي، وهي بسبب ذلك يجب أن تنقاد لآلهة الحضارة العلمية المتطورة. تلك كانت إيديولوجيا الاستعماريين الفرنسيين في الجزائر وفي المشرق العربي عموما. لقد دمروا بنى الثقافة المحلية واختزلوا ديانتها في الزوايا المعتمدة من الحياة، كما دمروا أنماط الإنتاج الاقتصادي وألحقوا الجزائر بالمتروبول. وكانت المؤسسات التعليمية الرسمية وغير الرسمية والهيئات العلمية والثقافية تعتمد أساسا على اللغة الفرنسية. لغة الرجل الأبيض المتفوق بذكائه وعلومه وإنسانيته. بل إن هؤلاء المستعمرين غيروا أسماء المدن والشوارع بما يتماشى مع ذاكرتهم التاريخية، إن تسمية الشيء هي امتلاك له واستحواذ على رمزيته الثقافية.

يوجد في قلب الثقافة الأوروبية ما يمكن تسميته مركزية غربية مستحكمة، قد راكمت التجارب، والأقاليم والشعوب والتواريخ، ثم درستها وصنفتها وأخضعتها للثقافة الغربية والمسيحية للرجل الأبيض⁽¹²⁾. وقد أُشيعت الثقافة الغربية الحديثة وما بعد الحديثة بهذه المركزية التي تحولت إلى عقيدة ثابتة، عجزت كل الثقافات غير الغربية على كبح جماحها، إذ غدا من الصعب إقناع الغربيين بنسبية أحكامهم، وبحقيقة وجود ثقافات أخرى هي من الرقي والجمالية، ما يُمكنها من مزاحمة الثقافات الأخرى. وإنك لتلمس هذه العقيدة في أدب الغرب وأدبياته، سواء ما تعلق منها بعصور الحداثة الكلاسيكية، على غرار أدب فلوبر (Flaubert) وشاتوبريان (Château brillant) وألبير كامي، (Albert Camus) أو ما تعلق بأدب ما بعد الحداثة أو الرواية الجديدة على غرار أرنست هيمنجواي Ernest Hemingway في ملحمة «العجوز والبحر». أو رواية «كيم» لكيبليينغ. وانتقلت عدوى المركزية الغربية إلى أدباء فرونكوفونيين قد تماهوا مع الحداثة

الغريبة وغمرهم الفكر الاستشراقي بوعي أو بغير وعي. وأما الآن وفي هذا المقال رواية لأحد هؤلاء الأدباء، وهي «رحلة بالداसार» لأمين معلوف.

تيمة الرحلة والترحال:

إذا كان أساس البنية السردية في هذه الرواية هي الرحلة في حد ذاتها، باعتبارها وعاء لتجربة وجودية منتشرة في الفضاء العثماني والإسلامي، فإنّ هذه الرحلة تحولت إلى مسح طوبوغرافي لأقاليم آخية بعين ناقدة وروح متمرّدة. وانطلاقاً من كون الشخصية المحورية في الرواية هي شخصية مسيحية موصولة بعرق غربي يرى نفسه عريقاً في مسيحيتيه وأصوله العرقية، انطلاقاً من ذلك يجمل بنا إلقاء نظرة مختزلة على تيمة الترحال والتيه في الفضاء الغريب، من أجل غايات بدت في تقاسيمها الخارجية وكأنها دينوية، وتكشفت في خواتيمها عن تجربة وجودية ذات طابع ميتافيزيقي. وفي هذا الشأن يقول «تزفيتان تود وروف» «لا أعرف إطلاقاً مدرسة أفضل لتشكيل الحياة، كما قلت كثيراً من العرض المستمر على الروح لعدد من تنوع الحيات الأخرى، والابتداعات والممارسات، وجعل الروح تذوق مثل هذا التنوع الدائم من أشكال طبيعتنا»⁽¹³⁾. في مثل هذا الصنف من الترحال تستشرف الذات الواعية كينونتها غير المكتملة، متجاوزة القوالب الجوهرانية الثابتة، والعقائد المطلقة، متخطية بذلك الستائر الإثنية والإيديولوجية. يدفعنا إلى هذا التأكيد أن رحلة بالداसार لم تكن لدوافع اقتصادية - رغم كونه تاجراً -، وإنما كانت في بدايتها بدافع البحث عن كتاب المازندران الذي يثير الحديث عن يوم الدينونة، وعن الاسم المائة للذات الإلهية، كما تتحدث بذلك الديانة المسيحية. فالمنامخ الثقافي العام في منتصف القرن السابع عشر في الشرق الأوسط، كان يعجّ بتشكيلات ثقافية ذات نزوع ديني حاد، مهيمن على وعي الناس. وبالداसार في ذلك المنامخ، هو شخصية أجنبية، باعتبار أن المنطقة كانت تحت مظلة الدولة العثمانية.

تنوعت أشكال الترحال قديماً وحديثاً وتوزعت دوافعه بين المادية والروحية والنفسية؛ وأياً تكن تلك الدوافع فالرحلة تعبر عن وعي متوتر تَوَاق إلى أسرار الوجود المعتم، متوثب نحو الآخر الغريب والعجيب. «النزوع إلى التيه لا تحدده العوامل الاقتصادية، أو الآلية الوظيفية فحسب، بل إن الباعث عليه أساساً هو الرغبة الجامحة في الانطلاق. يتعلق الأمر بانطلاقة هجراوية تحث أصحابها على تغيير المكان والعوائد والشركاء في معاشة الأوجه المتعددة للشخصية البشرية»⁽¹³⁾. فالمشاهد المألوفة، والأمكنة المعتادة والأشخاص الذين يؤلفون الطقوس اليومية للذات البشرية، إن كل ذلك قد يبدو عاجزاً

عن تحريك الفكر المتكلس والروح الكتومة. وذلك من شأنه أن يحول الحياة إلى ممارسة يومية مملة وباهتة، لا تدفع باتجاه المعرفة والتحول التاريخي. وحده الإنسان المهاجر، يفلت من رتابة المكان إلى رحابة الفضاء غير المألوف، فيصطدم بما يهز وعيه، ويخدش وجدانه، ويشكك في قناعاته. وهو إذ يقاوم ذلك أحيانا، ويفاوضه أحيانا أخرى، ضمن جولات من الصراع المرير، والاحتكاك العنيف والاحتجاج المستميت، إنما يفضي إلى فضاء تصالحي تتعايش فيه الثنائيات الضدية ضمن جدلية الذات والآخر، وتمتزج فيه الأصوات وتختلط الألوان وتلتقي الأضواء لتشكل حقلا أناسيادينا ميا يخترق المكان والزمان الدائمي الحركة بحثا عن كينونة، ما أن تتحقق حتى تراجع نفسها وتنفي شكلها وتعاود ترحالها. «ثمة أيضا سوسيولوجيا خاصة بالمكان الدائم الحركة. مكان يعيد إلى الأذهان حقيقة ترى بأن الفرد تماما كالمجتمع، لا ينتمي إلى أي مكان ولا يمكنه حصر نفسه في مكان إقامة دائم. فالحياة في مظهراتها المتعددة لا تقدر أن تكون تلك المسافة المقطوعة بين هنا وهناك»⁽¹⁴⁾. ينبغي أن يستقر في الأذهان أننا في عصر الهويات المتقاتلة المتذبذبة بين عين الذات وغيرية الذات، هويات هشة تفقر إلى نقطة الارتكاز، لأنها أضاعت حدودها وانشغلت بخارجها، فهي بين غريب وقريب، في عمق الهجنة، وعلى التخوم من الحدود، تعاني من مرض فقدان الذاكرة.

الاختلاف الثقافي:

للحديث عن الاختلاف الثقافي نطلق من مبدأ مفاده أن جميع الكائنات البشرية تعيش في عالم من صنع البشر، وأنها تجدد في هذا العالم معنى حياتها. «الثقافة هي هذا العالم المعقد الذي نواجهه في حياتنا اليومية ونتحرك من خلاله»⁽¹⁵⁾. ولا يزال الإنسان كائنا إشكاليا مهما حاول التماهي مع محيطه الاجتماعي والانسجام مع الأغيار. فهو في سيرورة دائمة ودائبة، يقاتل من أجل البقاء من أجل ما يراه مقدسا. وهو دوما في اختلاف مع آخره، خصوصا إذا كان هذا الآخر عدائيا. فالاختلاف بين البشر أزلي وأبدي، ولا يني يشكل عوامل صراع واحتراب بين الجماعات القومية والإثنية المتخيلة.

لقد وظف جيليان روز الأسطورة اليهودية التي تتحدث عن برج بابل في الكتاب المقدس.⁽¹⁶⁾ لتبرير مبدأ اختلاف الثقافات. تتحدث تلك الأسطورة عن أن الناس بعد الطوفان، ومخافة أن يتيهوا، راحوا يبنون برجاً عظيماً ليكون لهم بمثابة المنارة التي يجتمعون إليها، فلا يتيهون، ولتكون لهم عاصمة جامعة. ثم إن الغرور دبّ في نفوسهم وغشيه الكبر. فدمر الله تعالى بنيانهم وبلبل ألسنتهم وشتتهم، فصاروا شعوبا وقبائل

شتى، منتشرين في الأرض، متعددي اللغات تحقيقا لمشئة الله في خلقه. وبحسب روز، فإن الله منع الاتصال بين تلك المجموعات البشرية من خلال اختلاف ألسنتهم.

كثيرا ما توظف هذه الأسطورة لتبرير تعدد اللغات. وهي من ناحية أخرى عمل فني رمزي يشير إلى اللغة والعمارة. « لهذا ينظر المفكرون إلى هذه الأسطورة على أنها تفسير وتعليق على عدد من الموضوعات الرئيسية في الدراسات الثقافية بما فيها موضوع المجتمع والصدام بين الثقافات المختلفة والقوة والقانون والأخلاق والمعرفة»⁽¹⁷⁾. يرى روز أن بابل لا تمثل مشروعا معماريا فحسب، وإنما مشروعا لبناء مدينة. والمدن تمثل حدودا ثقافية فاصلة. ذلك أن الثقافات المختلفة بما هي حاملة لقيم وعادات وسلوك وديانة وأعراف إنما تتجلى في المدينة كبناء حضري اجتماعي. وفي المدينة يتضخم الوعي بالذات الثقافية؛ وفيها تُدرَك نسبية القيم والأعراف وتتعدد الحقائق وتتناقض وتتقاتل الهويات وتتصادى، وتتفاوض الخطابات والسرديات بين الجماعات المقيمة والمهاجرة. بيد أن هذه الدينامية لا تكون على قدر كاف من الجلاء كلما تعلق الأمر بالعلاقة مع الغرب. لقد كانت هذه العلاقة احترازية على مدى قرون. فعلماء الغرب ومستشرقوه وفقهاؤه يرون أن تحيزهم لحضارتهم يجب أن يسود العالم أجمع. وقد أفضت هذه العقيدة إلى سحق أخرية الآخرين تحت نعال الاستعمار⁽¹⁸⁾.

لقد تبلورت الأزمة بين الشرق والغرب منذ عصور النهضة الأوروبية، مروراً بالأنوار وحتى الحداثة وما بعدها. ولا تزال هذه الأزمة تشتغل في الخفاء وفي العلن مع ازدياد تعقدها واستعصائها على الانفراج. وقد مثل الأدب الروائي هذه الأزمة تمثيلا مواكبا لتاريخ تلك العلاقة وتجلياتها المتنوعة. وقد تورط هذا التمثيل في معظم مراحلها في مركزية غربية ممجوجة وبغيضة تنبعث منها رائحة العنصرية واحتقار الشعوب الملونة. « إن القصص لا ترسم الحياة، وإنما ترسم الحياة كما تصفها الإيدولوجيا. فالإيديولوجيا أي كيفية تمثيل الثقافة نفسها لنفسها - تثبت طبيعة ثانية للتمثيل القصصي، فتجعله يبدو طبيعيا أو عاديا. فهي تقدم ما هو في الواقع معنى منشأ على أنه شيء صميمي في الذي يمثل»⁽¹⁹⁾. وقد مثل الأدب الكولونيالي وما بعد الكولونيالي، الذات العربية والإسلامية تمثيلا غاية في السلبية والدونية، تاركا انطبعا لدى المتلقي أن هذه هي حقائق الأمور، وأنه لا مجال للتغيير؛ «إن الفكر ما بعد الحداثي يرفض تحويل الآخر إلى المثل»⁽²⁰⁾. من خلال ابتداع آليات طرد واستبعاد تمنع الغرباء من التحول إلى جسم أليف.

لفظة الانكشاري هي لفظة تطلق على رجال الأمن والعساكر العثمانيين. فهم إذا رمز لحضور هذه الدولة وسلطانها. إن التركيبة الصوتية لهذه اللفظة ذات خصوبة عالية من حيث الدلالات الفكرية والنفسية والاجتماعية. بسهولة بالغة يمكننا أن نستوحي من الكلمة الجذر مفردات من مثل: انتشر أو انتشار. كما يمكننا استنتاج مفردة أخرى وهي كلمة انكسار بكل ما يعنيه هذا اللفظ من دلالة متعلقة برد الفعل السلبي الدال على الهزيمة والصلية والتراجع. أما موضوع الانتشار، فهو الشر، وهي لفظة مستوحاة هي الأخرى من الكلمة الأم «انكشاري». وحصيلة هذا الحقل الدلالي أن الإنكشاريين هم شر منتشر ومستطير عمّ الفضاء وكسر كل ردود الفعل المحتملة. إنها كلمة جامعة ومختزلة لكل أشكال السوء والأذى والظلم الذي يمثله هذا الإنكشاري في كامل الفضاء العثماني. ويقابله انكسار وضعف من طرف الفاعلين الاجتماعيين رغم كثرتهم وتنوع أعراقهم. إن شخصية بالداसार هي العدسة التي سنراقب من خلالها صورة العثمانيين كما يراها الغربيون في القرن السابع عشر وما أعقبه. وإذا كانت الصور النمطية هي الوعاء الجمالي للثقافة، ولأشكال السلوك والعادات، فسيكون من المناسب توظيف هذه الصور لدراسة محتوياتها المقارنة. يأخذنا بالداसार إلى القسطنطينية التي قصدها مع ابني شقيقته وخادمه بحثاً عن كتاب المازندراني الذي يكشف عن الاسم المائة للذات الإلهية، والإعلان عن يوم الدينونة. وفي الطريق إليها، رافقتهم امرأة تُدعى مارتا، كان زوجها قد اختفى في ظروف غامضة. فكانت ترجو أن تحصل من السلطات العثمانية عما يفيد بوفاته، لتتمكن من التصرف بحياتها. وتبعاً لذلك أُلقي بالداसार نفسه إزاء مهمتين: البحث عن كتاب المازندراني وتقديم العون للأرملة. ومن أجل المهمة الثانية، والتي ستستغرق كل مراحل البنية السردية للرواية، يُدخلنا بالداसार إلى باحة قصر السلطان التي كانت تعج بالمتظلمين، وتُدعى «باحة الانكشاريين»⁽²¹⁾. يشعر بالداसार في هذه الزحمة بالصغار والمذلة. وما يخفف من شعوره ذاك، هو أن صاحب المقهى المتاخم للباحة هو رجل يوناني، قد ألفه لما بينهما من قرابة إثنية. فهو غير عثماني وغير مسلم وغير عربي، الأمر الذي يجعله محل ثقة بالداसार. لقد حصلت له مصائب حمة مع الانكشاريين. يقول السارد «وقد تبادلنا أحاديث مطولة لم تقاطعها سوى أحاديث الزبائن، وأغلبهم من الجنود الانكشاريين الأغرار الذين يحتسون قهوتهم على صهوة جيادهم، ثم يرمون بالفناجين في الهواء، فيجهد صاحب المقهى في التقاطها وسط قهقهاتهم. ويتظاهر أمامهم بالمرح، ولكنه يضمُّ أصابعه، حالما يتعدون، ويتمتم شتيمة يونانية»⁽²²⁾. كان بالداसार يستمتع أثناء ساعات الانتظار الطويلة بالحديث مع صاحب المقهى الذي انجذب إليه

بحكم وحدة الوضع الاجتماعي ضمن تراتبية المجتمع العثماني. فصاحب المقهى يوناني من هيراقليون وبالداसार جنوي، سليل عائلة امبرياتشي الإيطالية. يُقر صاحب المقهى أن والده أنشأه على كراهية العثمانيين لأسباب عديدة. وهو لا يرغب في تغيير الصورة النمطية التي تحتزنها ذاكرته الثقافية عنهم، ما دامت هذه الصورة تتعزز بممارسات العثمانيين اليومية، وما دام حفاظه على هذه الصورة النمطية يشكل من منظوره على الأقل احتراماً لذكرى أسلافه. ذلك أن الشعور بالانتماء إلى الأسلاف يشتدّ كلما ألفينا أنفسنا في محيط أجنبي غير متعاطف وعدائي. وبذلك تكون الذات أكثر تمسكاً بانتمائها العرقي والثقافي. وعلى العموم، فإن مشكلة الهوية لا تطفو إلى السطح إلا لدى بزوغ ظاهرة الاختلاف. وعند ذلك فنحن بحاجة إلى إثبات الذات إزاء الآخر. وهذا السلوك إن هو إلا دفاع عن النفس وحمايتها من الجماعة الإثنية المعادية⁽²³⁾

إن شعور صاحب المقهى اليوناني الجنسية بالكرهية تجاه العثمانيين نابع من كون هؤلاء ينكرون عليه آخريته وينظرون إليه بكثير من الازدراء لكونه أجنبياً وعلى غير دينهم. وهو يشعر بالألفة والحميمية تجاه بالداसार لوحدة الانتماء الإثني. ووجوده إلى جانبه يمكنه من البقاء على تواصل مع ثقافة الأسلاف. ورغم أن الانكشاريين هم أهم زبائنه، فهو لا يني يكشف عن وجههم القبيح وعنصريتهم المبحوجة وبربريتهم، على الطريقة التي يصورها الرحالة الأوروبيون للشرق بدءاً من عصور النهضة الأولى وإلى غاية القرن العشرين. الجنود الانكشاريون الأغرار يحتسون قهوتهم على صهوة جيادهم، ثم يرمون بالفناجين في الهواء. فلنقلب المشهد لنذكر أن الغربيين المتحضرين يحتسون القهوة وهم جلوس على الكراسي، ويدعون الفناجين على الطاولة ليلتقطها النادل بسلاسة وعفوية تنبئ عن ذوق حضاري رفيع. «وتحديداً لأن اختلاف الآخر مطلق، فإن من الممكن قلبه رأساً على عقب في لحظة ثانية كأساس للذات؛ بعبارة أخرى، تصبح صفات الشر والبربرية والفسق والفجور العائدة للآخر هي التي تجعل صفات الخير والطيبة والتحضر والاحتشام لدى الذات الأوروبية ممكنة»⁽²⁴⁾. لنعكس السياق الآن ولنقرأ ما يقوله بالداसार عن نفسه في معرض حديثه عن علاقته بأحد فقراء حيه الذي أعطاه كتاباً والتمس منه أن يبيعه لحسابه. «لم أكذب عليه كما ترون، فأنا لا أطيق الكذب»⁽²⁵⁾. ألا تلمع هذه الإشارة أن الكذب لدى الآخر وارد؟ أليست صفة الصدق التي أُجمل بها ذاتي تقتضي خلافها لدى الغير؟ ويؤمن بالداसार في التباهي بقيمه الإنسانية ذات النزوع المسيحي أثناء استعراضه لعلاقته بإدريس ابن حيه العربي المسلم، بسبب فقره المدقع. لقد باع له كتابه الرث بثمن لم يكن يحلم به وسلمه له كاملاً وبدون مقابل. ويقول في ذلك: «ولكنني كنت أسعى لصون كرامة هذا الرجل البائس ومعاملته كبائع لا كسائل»⁽²⁶⁾. إذا

كان بالداसार يُثبت لنفسه هذه القيم الأخلاقية العالية ذات العلاقة بالديانة المسيحية فهو ينكرها على الآخر وعلى ديانتها التي يراها صورة مشوّهة عن عقيدة الرّجل الأبيض.

في طريقهم إلى القسطنطينية، وقبل أن تنضمّ إليهم مارتا التي فرّت عن أهل زوجها الذين كانوا يجسونها، خوفاً من العار الذي قد تلحقه بزوجها الغائب، توقف بالداसार ومرافقوه لتناول غذائهم، فاقترح بالداसार أن يُشركوا أخا مارتا الذي كان يتابعهم، لشكه في توأطئهم مع مارتا الفارة من البيت. ذلك العربي الفظ الغليظ الذي كان يتوعدهم بالقتل في حال ثبوت صدق شكوكه، لم يستح من خصومه الذين ناولوه بعضاً من غذائهم، ف«انتحى زاوية ليلتهم وحيدا كالبهيمة، في الجهة المقابلة من الطريق، موليا لنا ظهره. كانت طباعه البرية لا تسمح له بمشاركتنا الطعام، ولكنه لم يكن عزيز النفس ليرفض التّقوّت على حسابنا. ياله من نفس دنيئة»⁽²⁷⁾. كثيرة ومُعيبة هذه المساوئ التي ينسبها بالداसार للعربي الذي كان يشاركه الطريق. فهو بهيمة، بكل ما تحمل هذه العبارة من تحقير وتسفيه. وهو ذو طباع برّية. أي أنه بربري لا يفقه للاجتماع معنى. ذلك أنه رغم مشاركته لهم نفس الوجهة، ومقاسمته لهم طعامهم، فقد حالت طباعه الحادة ومزاجه الفاسد بينه وبين الجلوس إليهم ومحدثهم كشركاء محترمين. وهو إلى ذلك ذو نفس دنيئة وذليلة. إنّها الكليشيات التي تعودنا على سماعها من المستشرقين العنصرانيين في القرن التاسع عشر.

من الواضح أن هذه المقارنات بين طبائع «نا» وطبائع «هم» وتوزيع الأدوار بين «نا» و«بين» «هم» تشهد على الرغبة في تفهم المجهول بمساعدة المعلوم، إلا أنها تتضمن أيضاً توزيعاً منهجياً للقيم. فالفضيلة والذوق الرفيع والحس الإنساني من نصيب بالداसार والبربرية وسوء الطباع والغلظة من نصيب العرب والانكشاريين. لقد ابتدع إدوارد سعيد ما أسماه المنهج الطبّاقى الذي يقارِبُ النّصوص ضمن ثنائيات ضديّة، تلك النّصوص التي تتخلّق في إطار ثقافتين نقيضتين على شاكلة الرواية التي هي تحت طائلة هذه الدّراسة. ولذلك كانت شخصيّة بالداसार تعيشُ أشدّ لحظات التوتّر كلّما واجهت آخرها.

من خلال ما سبق تبين لنا أن ظاهرة الارتشاء هي مكون أساسي في الثقافتين الشعبية والرسمية في المجتمع الإسلامي. فهو سلوك يمارسه الانكشاريون من أدنى الرتب المدنية والعسكرية، إلى أعلاها. وأن الذي يرفض هذا السلوك باعتباره تقليداً محرماً يُعزل عن منصبه، وتُلصق به أخطر التهم للزجّ به في السجن. فالضابط العثماني المدعو عبد اللطيف الذي رفض الرشوة عن بالداसार وقدم له خدمات فوق التي طلبها، ودلّه على مكان

تواجد زوج مارتا، وأوعز إليه أن لا يجهر برفض الرشوة، لأن في ذلك هلاكه، هو دليل صارخ على تورط المجتمع العثماني في الفساد والسقوط الأخلاقي.

نمر الآن إلى ملمح آخر من يوميات المجتمع العثماني الآيل للزوال، لدلالته على ثقافة متخلفة. إنه ملمح الجغرافيا العثمانية. فإذا كانت المدينة تشكل علامة حضارية مركزة، بعمرانها وشوارعها وأزقتها ودكاكينها، فدعنا نلقي نظرة على البيئة الحضرية للعثمانيين الذين كانوا يمثلون الحضور الإسلامي في العالم. لقد قُدِّمَ لنا الشرق بطريقة سلبية للغاية، وخصوصاً إذا ما قورن بصورة الفضاء المسيحي الذي كان ملاصقاً له. وأول ما تصفه عدسة بالداसार وهو في طريقه إلى القسطنطينية، قذارة المدينة، واستحالة العيش فيها. يقول، وهو في إحدى محطات رحلته: «أضينا ليلة فضيعة؛ كنت أعرف خانا على الطريق، لم أبت فيه منذ عهد بعيد (...). فلم أعد أذكر أسراب الناموس والجدران المعفنة والمتصدعة، وسيول المياه الآسنة. وقد قضيت الليل بطوله أتقلب في فراشي وأصفق بيديّ كلما طنّ نشيد متوعد في أذني»⁽²⁸⁾. أعتقد أن أمين معلوف استنجد بذاكرته الشخصية من أجل رسم هذه اللوحة ذات الدلالة الحضارية العميقة. لقد عاش طفولته الأولى وردحا من شبابه في لبنان، ولا تزال مثل تلك المشاهد عالقة بذهنه، كعلامة من علامات التخلف. نقول هذا ونحن نعلم أنه هجر بلده مع انطلاق الرصاصة الأولى للحرب الأهلية. لم تكن الذكريات العالقة بوجدانه عن الشرق الإسلامي إلا محبطة.

وإذا أضفنا إلى ذلك المشهد صورة الانكشاريين المنتشرين في كل زوايا المدن من أجل سلب أموال الناس بكل الأساليب الممكنة، إلى درجة أن بالداसार كان يتحاشى أن يلتقي بأحدهم في الشوارع. لقد كانت القوافل التجارية تستأجر رجالاً مسلحين من أجل حمايتها من قطاع الطرق، مقابل مبالغ مالية طائلة، في ظل غياب سلطة الدولة. ذات يوم من أيام رحلة العذاب إلى الجحيم العثماني، وبينما حطت القافلة رحالها في مدينة حلب للراحة وقضاء الحاجات، انطلق بالداसार يمشي في شوارع المدينة بحثاً عن تاجر أرمني، اشترى منه بعض النبيذ وتابع تجواله ليجد نفسه محاطاً بمجموعة من قطاع الطرق: «كلما أوغلت في الأزقة، شعرتُ بنفسني مراقباً، وملاحقاً، ومحاصراً (...). فائنان من هؤلاء الرجال يسيران أمامي، ولما التفتُ رأيت رجلين آخرين يسدان عليّ كل المنافذ»⁽²⁹⁾. ولم ينبج بالداसार إلا بفضل ظلمة الليل التي حجبته عن اللصوص. وفي الحقيقة، فإنّ المواقف التي تشير إلى ظاهرة التهديد الأمني للأفراد في المدينة العثمانية لا عد لها. والأوبئة التي تصيب الناس بسبب الأوساخ والمياه القذرة تبدو من يوميات الحياة في بلاد العثمانيين. إن التوصيف الذي يقدّم به الانكشاري سلباً للغاية. كما أنّ ذلك العرق

لا يبدو محبباً للأجانب، رغم أنهم مصدر نشاط اقتصادي بالغ الأهمية. ولا يحظى بالقبول حتى من المسلمين من عامة الناس. فالتدّمر كان السّمة الأساسية للأهالي. إن كل شيء في بلاد الأناضول يوحى بثقافة تُذكر بثقافة القرون الوسطى. وفي المقابل لذلك نجد مشهداً نقيضاً لثقافة مسيحية حاضرة بقوة في الرواية.. نستحضر صورة عن جزيرة يونانية هي جزيرة «كيوس» التي لجأ إليها سيف المخفي عن زوجته. إن «منازلها جميلة، وشوارعها نظيفة، ومرصوفة بعناية، ونساؤها يتنزهن بأناقة، وعيونهن تبتسم للغرباء»⁽³⁰⁾.

من ناحية أخرى يصف لنا بالداسار حي الغرباء في مدينة إزمير، والذي يقطنه الأجانب من أصول أوروبية. ويتمتع هذا الحي بفضاء عمراني يكشف عن حس حضاري عميق بقدر ما هو جميل. يقول غاستون باشلار في تحليله لشعرية المكان: «إن عدداً غير قليل من الفلاسفة التجريديين ومن الفلاسفة المتصفين بوعي العالم يكشفون الكون من خلال اللعبة الجدلية بين الأنا وما ليس الأنا»⁽³¹⁾. ويمكن تبين المنهج الطباقى المتخفي وراء السلسلة من الصور المتضادة عن شرق يقابله غرب ويختلف عنه في كل شيء رغم تداخل العالمين جغرافياً، مع بداية عصور النهضة الأولى، وهي الفترة التي تقع فيها الأحداث المفترضة للرواية. ونحن إذ نقارن المشهدين المتناقضين، نكتشف عمق الهوة الحضارية التي تباعد بين شرق متخلف حضارياً وأخلاقياً وبين غرب في طريقه إلى امتلاك العالم معرفياً وجمالياً. «إن جماعة من البشر ستقيم حدوداً بين أرضها ومحيطها المباشر وبين ما هو خارج عن ذلك؛ وتسمي ما يقع عبر حدودها أرض «البرابرة». وبكلمات أخرى إن هذه الممارسة الكونية، أي تحديد مجال مألوف في ذهن المرء يسمّى مجال-نا-، ومجال غير مألوف، خارج مجال-نا، يسمّى مجال-هم-، هي طريقة في خلق مجالات جغرافية يمكن أن تكون مطلقة الاعتبارية»⁽³²⁾، أي أنها لا تستند إلى سند عقلاني ولا تاريخي.

لقد انحاز الأجانب من المسيحيين واليهود، إلى فضاء جغرافي في مدينة إزمير، يقع متاخماً للبحر، وهياً وأوله كل مرافق الحياة التي يحتاجونها، وكل رموز ثقافتهم، وبعبارة وجيزة، إنهم قد راكموا كل رموز هويتهم المسيحية واليهودية، المختلفة جوهرياً عن المحيط الإسلامي، ليسعروا بالألفة وبوهم الحماية، وبدفء المكان، وبشفافية الوعي بالذات من خلال تعميق التعارض مع الآخر. إنهم يشبعون المكان بوظيفة التدليل على الماضي بكل ذكرياته الأليفة، ويحوّلونه إلى دالول من دواليل الهوية. لنقرأ ما يقوله الفيلسوف الفرنسي الظاهر اتيغاستون باشلار: «في بعض الأحيان نعتقد أننا نعرف أنفسنا من خلال الزمن، في حين أن كل ما نعرفه هو تتابع تثبيات في أماكن استقرار الكائن الذي يرفض الذوبان، والذي يودّ حتى في الماضي حين يبدأ البحث عن أحداث سابقة،

أن يمسك بحركة الزمن. إن المكان في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثفاً، هذه هي وظيفة المكان»⁽³³⁾. لقد اصطنعت الأقليات المسيحية الغربية فضاءات جغرافية وعبّأتها بيوتا ومرافق عمرانية، تحيل على جغرافيا متخمة بصور عن أحلامها الكامنة في لاوعيتها وفي ماضيها الزاخر بتجارب الطفولة والألفة والانتفاء. إن حي الغرباء الواقع على أطراف مدينة إزمير هو مكان للسكينة والرضا عن الذات، يصل المسيحيين بماضيهم الغربي العريق ويعزز فرضية الاختلاف والتفوق من خلال سلسلة من الثنائيات الضدية.

الموقف من المرأة:

الموقف من المرأة، في هذه الرواية مُركّز في شخصية «مارتا»، وعلاقتها بزوجها سياف من ناحية، وبعشيقها «بالداسار» من ناحية أخرى. تعيش عائلة مارتا في مجتمع ذكوري، يُلغّي صوت المرأة ويجعلها تابعة من توابع الرجل، غير قادرة على تمثيل نفسها، وهي وإن كانت واعية ببؤسها فإنها تفتقر إلى لغة خاصة بها لإنشاء خطاب يحتجّ لوضعها. «إن الإفصاح عن الاستغلال الواقع بشكل خاص على المرأة الخانعة يستلزم خلق لغة خاصة بها. واللغة بنية عامة، وغيابها قصور عام وليس قصورا شخصيا خاصا»⁽³¹⁾. إن غياب خطاب الرفض النسوي في الشرق العربي والإسلامي هو حالة اجتماعية، وليس نقيصة في شخصية مارتا تحديدا. فهذه الأخيرة، حتى وإن كانت ترفض وضعها الاضطهادي، فهي عاجزة عن الإفصاح عن هذا الرفض في ظل مجتمع يحافظ على سلطة الرجل ويعتبر المرأة شيئا من أشياءه، يستعمله كيفما شاء وأنى شاء. إنه يمنع إنشاء خطاب نسوي يمثل المرأة التابعة على حدّ تعبير سيفاك. «في المجتمعات التي تسودها الهيمنة الذكورية، يُنظر إلى النساء أساسا كناقلات للثقافة وليس كمنتجات لها»⁽³⁴⁾. إن مارتا المعلقة بين توصيفين نقيضين، أحدهما مرّ: بين أن تكون متزوجة مع رجل غائب باستمرار، وبين أن تكون أرملة غير معترّف بها. لقد أريد لها أن تكون رمزا لأقلية مضطهدة، منبوذة اجتماعيا، محبطة نفسيا. وبينما تصمت الثقافة الرسمية تجاه مثل هذه الأقليات، فلا تحيب عن أسئلتها، ولا تتكفل بنضالاتها، توشك هذه الأقليات المعذبة أن تتحول إلى حالة اجتماعية شاذة، كالبغاء والتجارة الجنسية. وذلك بالإضافة إلى كونه تهديدا لقيم المجتمعات، فهو تدمير لآدمية المرأة.

اللافت في هذه الرواية أن صوت مارتا مغيب تماما. فهي لا تتكلم إلا لتعبر عن خنوعها وانجرارها حيث تساق إلى ما يُعدّ لها. وسيتكفل بالداسار بتمثيل آلامها وأوجاعها بشكل

يطمس ذاتيتها. إنها تعيش فيما يسمى «الحريم» بكل ما تلقى العبارة من إحياءات وظلال وأخيلة. ولئن كان هذا الاصطلاح رديف العوالم المغلقة، والأبواب الموصدة، والحدود المحرّمة، فإنه أيضا رديف الغرائبية والإثارة والإدهاش، وفي كثير من الحالات الشبقية الجنسية. ورد في الطبعة الأولى من قاموس روجي (Rougetts Thesaurus)، الذي صدر سنة 1852، أن كلمة «حريم» استعملت مرادفا لعبارة «دنس» وهي رديفة لعبارات المبغي والفسوق والفاحشة. واستمرت هذه المفردات ضمن حقل دلالي واحد إلى حين صدور طبعة (Everyman)، من هذا القاموس عام 1952، حيث وردت كلمة «شقة» كمعنى ثان. أما طبعة 1962، فلم تضع كلمة «حريم» تحت المدخل «دنس» وإنما تحت مدخل «جنس النساء» (Womankind)، والمدخل «مكان منعزل»⁽³⁵⁾. وعلى العموم، فإن من معاني هذه الكلمة الإشكالية المكان المعزول والجزء من البيت الذي لا يسمح للرجال الأغراب بالدخول إليه. ومع أن هذا المكان المغلق والأسراري يبقى مجهولا من طرف الأغراب والأجانب فإنه يتحول إلى مدعاة للتشهير والتشنيع والتحقير. ولأمر ما، وكما هو وارد في المعجم المشار إليه أعلاه، غدت كلمة حريم تنتمي إلى الحقل الدلالي لمفردات من مثل «دنس» و«جنس» و«شقة». والمفردة الأخيرة كناية عن الانغلاق والحبس والقيود والقهر. من هذا المنظور يمكن أن نفهم لماذا افتقدت المرأة الشرقية ولا تزال تفتقد في غالب الأحيان إلى هوية جماعية مع نساء أخريات هن أوضاع مماثلة، ويُنشئن خطابا واحدا يعبر عن همومهن بمعزل عن هموم الرجال. لقد ظلت المرأة تابعة إما لأب أو لزوج، أو لولي أمر. لذلك ظلت قاصرة عن تخطيط الحواجز التي تحول بينها وبين أن تتكلم. كان بالداसार هو الذي يُحدّث عنها، وهو الذي يُفصح عن مشاعره تجاهها، أو مشاعرها تجاهه. يقول ذات مرة، في بداية الرحلة، وقبل أن تتعمق علاقتها: «أما فيما يتعلق بمارتا، فلم أكن أعرف بعد ما أرجوه في أعماقي. هل أريد جارة ودودة؟ أم أطمع بالمزيد؟ لا يمكن أن أصغي فقط إلى رغبات الرجل المستوح الذي كنت، ولكن كل يوم أمضيه على الطرقات سوف يحثني على الإصغاء إلى هذه الرغبات أكثر من ذي قبل»⁽³⁶⁾. ما يُلاحظ في هذا الحوار الذاتي أن بالداसार، ولدى حديثه عن مارتا، يعمد إلى استبطان ذاته. ويتساءل عن رغباته، دون الالتفات إلى رغباتها هي أو مشاعرها المحتملة. فتلك قضية لا أهمية لها، رغم علمه بزواجها، وبأنها خرجت تبحث عن هذا الزوج. وذات مرة، وهما منفردان عن القافلة، استدرجها للحديث عن معاناتها والهموم التي دفعتها للفرار عن بيت الزوجية. ولم يدعنا ننصت لحديثها دون أن يتدخل ويتصرف فيما باحث به. لقد تحدثت طويلا عن عذاباتها، وعن الرجل الذي أحبته فخانها، وعن أهله الذين ألزموها الصمت والخنوع. وفي هذا الصدد قالت: «لقد انتهى العالم بالنسبة لي يوم خاني

الرجل الذي أحببت، بعد أن جعلني أخون والدي. منذ ذلك الحين، لم تعد الشمس تشع بالنسبة لي، ولا أكثر ث لو انطفأت. وهذا الطوفان الذي يتنبأ به الجميع لا يرعيني كذلك»⁽³⁷⁾. انفجرت مارتا وفجرت كل المكبوتات التي قهرتها لسنين عديدة، بمجرد أن أعطيت لها فرصة الحديث لتمثيل نفسها. بيد أن بالdasar افتك منها هذه السيادة على الذات وتصرف بدلها. وهو يُقر بهذا إذ يقول: «لم أنقل كلامها حرفيا بدون شك بل بتصريف». بمعنى آخر، لقد كان هو الذي ينتقي المفردات الأشد تعبيراً عن الحالة النفسية التي يريد أن يُظهرها عليها، بغض النظر عن صدقية هذه الحالة من عدمها. إنه هو الآخر يراها عاجزة عن تمثيل نفسها، ولا بد أن يمثلها هو في ظل غياب الأب والزوج. وينتهي بالdasar إلى النتيجة التي تحوّل له امتلاك المرأة لدواعي إنسانية كما يريد أن يقنعنا. يقول تعليقاً على شكواها: «يا إلهي كم عانيت يا امرأة، منذ ذلك الزمن الذي كنت فيه ابنة الحلاق اللعوب»⁽³⁹⁾. لقد أدرك الآن أو أنه أو همنا بذلك، مدى معاناتها، وباعتباره المسيح المخلص، سيتحمل أوزارها، وسيتبنى قضيتها. ها نحن بصدد الرسالة التحضيرية التي خولت للغرب استعمار الشعوب الملونة. لقد كان هو الذي يتنقل إلى المحاكم العثمانية للسؤال عن زوجها، وهو الذي يدفع الرشاوى والهدايا للذين يقدمون له الخدمات من الانكشاريين. لقد كانت مارتا تابعة، وخانعة للمصير الذي يراد لها. انطلاقاً من هذا المخيال الاجتماعي، سيحدد بالdasar علاقته بمارتا. لقد خطبها من والدها لما كانت صغيرة، ولكن هواها كان متعلقاً بشاب عربي يُدعى سيف، الذي تزوجها وسلبها كل ثروتها التي تركها لها أبوها وأغراها بتجارة رابحة، ثم سافر وطال غيابه، وهي حبيسة البيت تُمنع من الخروج احتراماً لزوجها الغائب. ولما يئست من عودته وضافت بها الحياة بين الجدران الصامتة، قررت أن تباشر البحث عنه سرا، فإما أن تجده وتنضم إليه، أو أنها تعلم بوفاته، فتحرر نفسها من قيود المجتمع الذي ظلمها، وتعيد ترميم حياتها بحرية. لقد سجت مارتا نفسها لدى رجل متخلف لا يرى في المرأة إلا متاعاً أو شيئاً يباع ويشترى. وأثناء ترحالها في قافلة بالdasar وتحت حمايته أنشأت معه علاقة عاطفية، فجّرت فيها كل مشاعرها الدفينة ورغباتها المكبوتة، وصارت متعلقة به أكثر مما هي مهتمة بالعشور على الزوج الخائن والعاجز عن تحمّل أعباء الوضع الذي صنعه بيديه.

في المجتمع العربي، بدل أن تُفجّر المرأة منابع الحياة بداخلها، وتوقظ جذوة الإبداع بفكرها، بدل أن تمارس شخصيتها المتفتحة، ومبادئها المتجددة، كما هو الحال مع شخصية «كلارا» في رواية «سلايم الشرق» لأمين معلوف، أو «جيهان» في رواية «سمرقند» للروائي نفسه، بدل أن تطور ذاتها بالعلم والمعرفة، وتنهض بما أنيط بها من مسؤوليات، بدل كل ذلك تشغل المرأة ذاتها بالزواج منذ نعومة أظفارها، وهي تتلقى التربية التي

تنسجم مع ذلك النمط من الحياة الذي تحدثنا عنه من خلال تحليل سيميائية «الحريم». في ذلك العالم المنغلق تتلقى المرأة مبادئ الطاعة العمياء للزوج، وتقديسه، وحرمة الخروج على أمر من أموره. «مبدئياً يُنظرُ إلى النساء بوصفهن قائمات بالرعاية والعناية، مهمتهن في الثقافة هي النقل والحفظ والصون، وليس البحث في القيم الثقافية وخلقها»⁽⁴⁰⁾ والغريب في الأمر، أن كل ما تتلقاه المرأة بخصوص وضعها وعلاقتها بالرجل، يأخذ طابع العقيدة. فهو الدين كله. يقول جودي مابرو: «فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة، فذلك لأنهن سجينات، وهذه الموازنة الدرامية بين التحجب والحبس ضرورية لبناء سيناريو متخيل يفضي إلى تصفية المجتمع الفعلي والواقعي. هذا المجتمع الذي يسبب الإحباط واستبداله بوهم، وهو الحريم»⁽⁴¹⁾. إن بالداसार مدرك لوضع المرأة الشرقية، ولوضع مارتا تحديدا. وبمجرد أن ساقها قدرها البائس إلى طريقه قرر أن يخرقها وأن ينتهك حرمة تابوهاها. ولم تمنع المرأة لهشاشة تركيبها النفسية والعقلية. إن صمود ثقافة الانكشاريين وقوتهم الوهمية أمام المد المسيحي الجارف، والعقل الغربي المتنامي هي مسألة وقت. وكما لم تقاوم مارتا إغراءات بالداसार طويلا، فلن يقاوم المجتمع العثماني والإسلامي عموما، إغراء الحضارة الغربية. ولعل هذه هي أهم رسائل أمين معلوف المسربة من خلال العمل الروائي الذي بين أيدينا. إن حضور الثقافة الغربية قويّ ولافت في هذه الرواية، كما أن حضور رموز الثقافة الشرقيّة قد اختزلت في امرأة شبيّّة، موهوبة، وضعيفة ومستكينة، ومستلبة. ولطالما رُمز للشرق بامرأة عاهرة وراقصة، تنتظر الذكر الغربي القادم من بعيد ليخرقها ويؤهلها للحياة على النمط الغربي.

الهوامش:

- 1 - كلود ليفي شتراوس، مقالات في الأناسة، ترجمة د. حسن قبسي، دار التنوير للطباعة والنشر. لبنان، سنة الطبع 2008. ص. 167.
- 2 - المرجع نفسه، ص. 168.
- 3 - عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2003. ص. 180.
- 4 - تيزفيتانودوروف، نحن والآخر، ترجمة ربي حمودي، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى 1998. ص. 240.
- 5 - المرجع نفسه، ص. 248.
- 6 - سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية-بيروت، ط

- الثانية 1984. ص 117.
- 7 - المرجع نفسه، ص 131.
- 8 - سعيد إدوارد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديد، المركز العربي للدراسات والنشر، بيروت، ط الأولى 1996. ص 23/24.
- 9 - كلود ليفي شتروس، مرجع سابق، ص 185.
- 10 - بندكت أندرسن، الجماعات المتخيلة، ترجمة ثائر ديب، تقديم عزمي بشارة، شركة قدميس للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط الأولى 2009، ص 94.
- 11 - تيري ياجلتون، أو هام ما بعد الحداثة، ترجمة د. منى سلام. مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون. القاهرة. ص 87.
- 12- Terry Eagleton, Frederic Jameson Edward Said, Nationalisme, Colonialisme et littérature. Trad. De Sylviane Troadec Ginette Emprin, Pierre Lurbe et Jacqueline Genet. Ed. Presse universitaire de Paris. p.72.
- 13 - ميشال مافيزولي، في الحل والترحال. تر. عبد الله زارو، إفريقيا الشرق 2010. المغرب. ص 46.
- 14 - المرجع نفسه، ص 89.
- 15 - اندرو ادجار وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية. تر. هناء الجوهرى، مراجعة وتقديم وتعليق محمد الجوهرى. الطبعة الأولى 2009. المركز القومي للترجمة. ص 184.
- 16 - صفر التكوين، الفصل 11 من 1 إلى 9.
- 17 - اندرو إدجار وبيتر سيدجويك، مرجع سابق، ص 184.
- 18 - تيري ياجلتون، مرجع سابق، ص 87.
- 19 - ليندا هتشون، سياسة ما بعد الحداثة، تر. د. حيدر حاج إسماعيل. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى 2009 بيروت. ص 140.
- 20 - المرجع نفسه، ص 121.
- 21 - أمين معلوف، رحلة بالداسار، تر. نهلة بيضون، ANEP - دار الفارابي. ط 1 بالبنان 1997.
- بالجزائر س 2001. ص 121.
- 22 - المصدر نفسه، ص 122.
- 23 - voir Selim Abou, L'identité culturelle, éditions anthropos, Paris, 1981. p. 3031.
- 24 - مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الإمبراطورية، تر. فاضل جنكر، مراجعة د. رضوان السيد. الناشر: العيبكان 2002، الرياض. ص 198.
- 25 - أمين معلوف، رحلة بالداسار، ص 22.
- 26 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

- 27 - المصدر نفسه ص 40.
- 28 - المصدر نفسه، ص 48.
- 29 - المصدر نفسه، ص 59.
- 30 - نفس المصدر ص 236.
- 31 - غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، مجد للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1-2006. ص 36.
- 32 - ادوارد سعيد، الاستشراق والمعرفة، ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الخامسة 2001. ص 81.
- 33 - غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 39.
- 34 - أوما ناريان وساندرا هاردينغ، نقض مركزية المركز، ترجمة د. يمني طريف الخولي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978. ص 44.
- 35 - المصدر نفسه، ص 107.
- 36 - جوديا برو، تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط، تر ناث ديب، مجلة الآداب الأجنبية العدد 111، صيف 2002، سوريا، ص 208.
- 37 - رحلة بالدا سار، ص 65.
- 38 - رحلة بالدا سار، ص 84.
- 39 - المصدر نفسه، ص نفسها..
- 40 - أوما ناريان وساندرا هاردينغ، مرجع سابق، ص 107.
- 41 - جودي مابرو، مرجع سابق، ص 206.

أبعاد المشروطة القانونية في إطار «سياسة الأوروبية للجوار»

La portée de la conditionnalité dans le cadre de
« La Politique Européenne de Voisinage »

د. خطاب فؤاد

كلية الحقوق والعلوم السياسية

المركز الجامعي تيبازة

الملخص :

منذ سنة 1995 بدى من الواضح التزام الاتحاد الأوروبي بشكل رسمي في مجال ترقية لدى شركائه من بلدان الجوار الجغرافي (جنوب المتوسط وبلدان من اوروبا الشرقية) بعض من القيم التي يؤمن بها لاسيما تلك المتعلقة باحترام حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية من خلال اعتماد أسلوب فرض المشروطة القانونية في اتفاقات التعاون المسماة «بالجيل الثاني». غير أن الواقع السياسي الدولي سرعان ما بين أن الاتحاد الأوروبي يستعمل هذه المشروطة لتحقيق سياسات قانونية ترمي إلى إسقاط النموذج التشريعي الأوروبي المشترك في مجال حقوق الإنسان من اجل منع استيراد أي نموذج بديل لاسيما من الضفة الجنوبية للمتوسط من هامه على الإطلاق النموذج الإسلامي، لاسيما وأن أوروبا الموحدة أضحت في السنوات القليلة الماضية مهووسة بالخطر التطرف الذي قد يأتي اذا استمرار تدفق الهجرات السرية على حدودها البرية والبحرية.

إن الغاية من دراستنا هذه هي محاولة إلقاء الضوء على الجوانب القانونية للسياسة الأوروبية للجوار في شقها القانوني والإنساني إذ أن الهدف الرسمي المعلن من جانب الاتحاد الأوروبي ومؤسساته من حماية حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية قد كذبه الواقع في عدة مناسبات، لاسيما من خلال تدعيم الاتحاد الأوروبي للكيان الصهيوني عبر صمته عن الانتهاكات الموثقة ضد المواطنين الفلسطينيين وعدم إبداء ردود فعلية ضده، الأمر الذي من شأنه أن يجعل عدم التزام الاتحاد الأوروبي بشكل فعلي في إبداء ردود فعلية ضد تلك الانتهاكات وغيرها من أن يقيم مسؤوليتها الدولية باعتبارها منظمة دولية.

الاتحاد الأوروبي السياسة الأوروبية للجوار، المشروطة القانونية، التدابير المضادة (في القانون الدولي)، حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية.

Résumé :

Depuis 1995 il était clair de l'Union Européenne c'est engagé dans un processus qui vise officiellement à promouvoir au près de ses partenaires notamment ceux de son voisinage le plus près, certains de ses valeurs, en premier lieu la promotion et la protection des Droits de l'homme et des principes Démocratiques au travers une conditionnalité juridique imposée dans les accords de coopérations, dite de « 2ème Génération » Sauf que depuis la *realpolitik* a fait que l'Union Européenne instrumentalise cette conditionnalité juridique à des fins de politique juridique en vue de projeter le modèle législatif européenne en matière des droits de l'homme pour éviter justement l'importation des valeurs des pays du sud Méditerranéen en pense ici au modèle « Islamique » d'autant plus que on a voulu la justifier par le flux d'immigrer qui se déferle sur les côtes Européennes avec le risque du radicalisme. Notre étude tend à démontrer d'un point de vue juridique que l'objectif officiel de l'Union Européenne de promouvoir les droits de l'homme et des principes démocratiques reposent sur le respect du Droit international a été vite démentie par les faits notamment par le silence complice qui devrait établir la responsabilité internationale de l'Union Européenne en tant qu'organisation internationale au vu de nombreuses violations de ses mêmes droits par ses partenaires dit « stratégiques » comme l'état Sioniste et par conséquent cette conditionnalité et un moyen de pression de plus au sein de l'Union Européenne pour réaliser des objectifs politiques qui non parfois rien à voir avec le respect des droits de l'homme

Mot clefs :

Politique Européenne de Voisinage (PEV), L'Union européenne (UE), Conditionnalité Juridique, Accords d'association, Contre-mesures, Droits de l'homme et principes Démocratiques

تمهيد :

لم تكن المعونات الاقتصادية والمالية التي كانت تمنحها المجموعة الأوروبية لصالح البلدان النامية، أثناء الحرب الباردة تخضع لأية شروط تذكر، ذلك انه كان من ضمن الأهداف التي كانت تسعى الى المجموعة الأوروبية تحقيقها هو المحافظة على روابط سياسية واقتصادية متينة مع تلك البلدان، على اعتبار أن شركاء المجموعة الأوروبية من البلدان النامية يشكلون مصدر هام من حيث التمويل بالطاقة والمواد الأولية إلى جانب كونهم منفذ أساسي لمنتجات الصناعية والزراعية لدول الأوروبية، كما حرصت المجموعة الأوروبية في الوقت ذاته على الامتناع عن إبداء أي انتقاد للسياسات المتبعة من قبل شركائها لاسيما حول مسائل حقوق الإنسان والديمقراطية كي لا تسعى تلك البلدان إلى الميول للمعسكر الشرقي⁽¹⁾.

لكن منذ انهار هذا الأخير، ابتداء من نهاية الثمانينات من القرن الماضي، تراجعت الأهمية الإستراتيجية للبلدان النامية لدى المجموعة الأوروبية لصالح دول أوروبا الشرقية والوسطى، حيث أضحى يسعى إلى التمدد نحو شرق أوروبا سعياً منه إلى التقليل من النفوذ الروسي، كما انه خلال ذات الفترة بدأت تلوح بوادر التغيير في العلاقات الدولية، حيث فرض فيه المنهج الليبرالي واعتمدت فيه المؤسسات المالية الدولية على مفاهيم جديدة حيث فرض فيه المنهج الليبرالي على الدول النامية أين اعتمدت بعض المؤسسات المالية من بينها: البنك الدولي على مفهوم «الحكم الرشيد»⁽²⁾ كوسيلة مبتكرة لتأمين سداد القروض الممنوحة للبلدان النامية مما أدى إلى فرض على تلك البلدان شروط اقتصادية وصفت بالصارمة (ضرورة اعتماد اقتصاد السوق وتحرير التجارة) الالتزام ببرنامج التعديل الهيكلي لإدارة الشؤون العامة في إطار مبدأ الشفافية) وأخرى سياسية (ضرورة احترام الحريات الأساسية للإنسان ومبادئ الديمقراطية ودولة القانون) ك شروط مبدئية للحصول على قروض أو إعانات.

ولقد تبنى الاتحاد الأوروبي بصفة رسمية ابتداء من دخول معاهدة ماستريخت Maastricht حيز النفاذ سياسة دولية أساسها ربط التعاون الدولي بضرورة احترام حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية وهو ما اصطلح على تسميته لدى فقهاء القانون الأوروبي المشترك بالمشروطة القانونية التي تم تعريفها من طرف اليزابيث سميت Elisabeth Smith على أنها «... تلك السياسة التي تنتهجها دولة او منظمة دولية والتي تجعل بموجبها منح أية امتيازات أو معونات لدولة أخرى مرهون بمدى استعداد الكامل لهذه الأخيرة في ضمان احترام مسائل حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية...»⁽³⁾ فالمشروطة بهذا

المفهوم لا تشكل التزام في حد ذاته وإنما قبولها من جانب الدولة المستقبلة للمعونات يعد مصدر للالتزام الدولي⁽⁴⁾، الأمر الذي يدفعنا للتساؤل عن الأهداف الذي يصبو الاتحاد الأوروبي إلى تحقيقها من خلال إدراج شرط احترام حقوق الإنسان والديمقراطية في علاقته التعاقدية مع الدول الأخرى؟

أولاً : المشروعية وسيلة لإسقاط قيم الاتحاد الأوروبي على دول الجوار:

منذ دخول معاهدة ماستريخت Maastricht المؤسسة للاتحاد الأوروبي حيز التنفيذ سنة 1993 تحصل الاتحاد الأوروبي على أساس قانوني يسمح بإدراج المشروعية القانونية في إطار اتفاقيات التعاون والشراسة التي يبرمها مع الدول الأخرى⁽⁵⁾ ذلك أن المعاهدات المؤسسة للاتحاد الأوروبي قد جعلت من حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية إحدى أولويات الدول الاتحاد الأوروبي⁽⁶⁾ في إطار السياسة الخارجية والأمن المشترك بموجب المادة ج 2 (حاليا المادة 21 من معاهدة لشبونة)⁽⁷⁾ وكذا سياستها المتعلقة بالتعاون لأجل تحقيق التنمية المادة 130 (حاليا المادة 208 من معاهدة لشبونة)⁽⁸⁾.

غير أن الاتحاد الأوروبي بدء فعليا منذ سنة 1992 في إدراج شرط متعلق بضرورة احترام حقوق الإنسان والديمقراطية ضمن الاتفاقيات الأولى التي ابرمها مع دول ما يسمى بعهد اوندا Pact Andin ودول البلطيق وألبانيا والبرازيل والتي جعلها من مسائل احترام حقوق الإنسان « عنصر جوهرياً »⁽⁹⁾ في التعاون الثنائي كما انه في ذات الوقت تم إدراج بنود تكميلية تمثلت في بند « عدم التنفيذ »

Clause de Non-exécution سميت ببند « البلطقي » Clause Balte والبند البلغاري⁽¹⁰⁾ Clause Bulgare التي تم إدراجهما في اتفاقات التعاون والشراسة من الجيل الثاني التي أصبحت تمكن المجموعة الأوروبية بموجبها من تعليق تعاونها ومعوناتها المالية في حالة إقدام احد شركائها على انتهاك حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية

ومنذ صدور بيان المفوضية الأوروبية سنة 1995 تحت عنوان « الاهتمام بمساءل احترام حقوق الانسان ومبادئ الديمقراطية في اتفاقات المبرمة من طرف المجموعة الأوروبية مع الدول الأخرى » استقر الاتحاد الأوروبي على فكرة تعميم إدراج شرط « العنصر الجوهري » في كافة تصرفاته الدولية مع تبني نموذج شرط عدم التنفيذ الذي تضمنه شرط البلغاري والذي اعتبره سيدريك موسو Cédric Musso نموذج معتدل من شأنه أن يلقي قبول من الناحية السياسية لدى شركاء الاتحاد الأوروبي، حيث أصبحت إمكانية اعتماد تدابير (كتعليق التعاون مثلاً) تخضع لضرورة إجراء مشاورات سياسية مسبقة⁽¹¹⁾

تعتبر المفوضية الأوروبية أن لدى الاتحاد الأوروبي إمكانية تعليق التعاون في حالة تبوث انتهاك جسيم لحقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية من طرف احد شركاءها أمر يتماشى مع أحكام القانون الدولي العام، لاسيما أحكام المواد 60 و65 من اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات، مادام ان مساءل حقوق الإنسان والديمقراطية قد تم ترقيتها إلى مصف « عناصر جوهرية» خلاف لشرط « الأساس » الذي ورد في اتفاقية لومي 1989 بين دول إفريقيا الكرايب والمحيط الهادي ACP والمجموعة الأوروبية التي لم تكن لتسمح للمجموعة آنذاك من تبرير من الناحية القانونية تعليق التعاون الثنائي في حالة انتهاك حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية من طرف إحدى دول تلك المجموعة الشريكة للاتحاد الأوروبي⁽¹²⁾.

أما في ما يخص دياجعة اتفاقيات التعاون فان المفوضية الأوروبية قد شددت على أن أي إشارة إلى معايير حماية لحقوق الإنسان يكون بحسب الانتماء الإقليمي لأطراف الاتفاق اي أنه يتعين أن تستند إلى مرجعية عالمية، غير أن مسألة عالمية حقوق الإنسان تبقى لدى الكثير من البلدان النامية من المسائل المختلف بشأنها مع الدول الغربية حيث كانت ترى العديد من دول الجنوب أن مفهوم العالمية إنما يعبر عن فلسفة غربية مما دفع الكثير منهم إلى التمسك بخصوصياتهم الثقافية والحضارية في هذا المجال المتواجدة في الصكوك الإقليمية التي صادقوا عليها في مجال حماية حقوق الإنسان كالميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان أو الميثاق العربي لحقوق الإنسان⁽¹³⁾، ولو أن هذا التمسك قد قلت حدة في الآونة الأخيرة بسبب زحف العولمة وانصياح المنظومة الأممية في كثير من قراراتها ولوائحها التي تعتمد في الأطروحات الغربية، لاسيما تلك التي تتبنى ما يسميه الفقه الغربي «مسؤولية الحماية La responsabilité de protection أي حق الجماعة الدولية للتدخل في الشؤون الداخلية لدول كلما ثبت انتهاك جسيم لحقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية.

مهما يكن من أمر فانه يبدو أن الاتحاد الأوروبي منذ دخول معاهدة لشبونة حيز التنفيذ سنة 2009 لم يصبح ملزما بالالاخذ بعين الاعتبار خصوصيات شركائه من دول الجنوب في مجال حقوق الإنسان ووالديمقراطية، حيث انه من ألان فصاعدا أصبحت سياساته الدولية مبنية على نشر قيم الاتحاد الأوروبي عبر العالم هذا ما أكدته على الأقل المادة 3 من المعاهدة المنشأة للاتحاد الأوروبي حيث ورد فيها «... في علاقاته مع بقية العالم، يؤكد ويرقي الاتحاد قيمه ومصالحه ويساهم في (...) حماية حقوق الإنسان بالأخص تلك المتعلقة بحقوق الطفل مع الاحترام الصارم وتنمية القانون الدولي لاسيما احترام مبادئ الأمم المتحدة...» من جانبها أكدت المادة 8 من ذات المعاهدة حرص الاتحاد الأوروبي على الأهمية الإستراتيجية التي يوليها الاتحاد لدول الجوار⁽¹⁴⁾ حيث ورد فيها :

« يطور الاتحاد علاقات متميزة مع الدول المجاورة له، بغية إقامة فضاء للازدهار وحسن الجوار، يركز على قيم الاتحاد يتميز بعلاقات متينة وسلمية أساسها التعاون... » من خلال هذه الأحكام يتضح جليا أن الاتحاد الأوروبي يصر على إقامة علاقاته الدولية المستقبلية مع دول الجوار بما فيها مع الجزائر استنادا على القيم التي يؤمن بها بدلا من «القيم المشتركة» التي من المفترض أن تجمعها بالدول الأخرى⁽¹⁵⁾.

الأمر الذي يؤكد أننا أمام سياسة أوروبية تعتمد على إسقاط المكتسب التشريعي المشترك (16) Projection de l'Acquis Communautaire لدول الاتحاد الأوروبي خارج حدوده، من خلال الاعتماد على الآلية الأوروبية للجوار والمشاركة واتفاقيات الشراكة التي هي حيز التنفيذ للضغط r على دول الجوار قصد تفادي استيراد قيم البلدان المجاورة⁽¹⁷⁾ وكأن أوروبا الموحدة تشن حرب حضارية إستباقية، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل ما هو المقصود بقيم الاتحاد الأوروبي؟

الراجح في تصورنا أن معاهدة لشبونة تستند الى كافة الصكوك الدولية المتعلقة بحماية حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية ذات البعد العالمي التي صادقت عليها غالبية الدول الأعضاء، الأمر الذي يعطي الانطباع أننا أمام توجه إيديولوجي سيؤدي بالنتيجة الى مصادرة حق الدول غير الاعضاء في الاتحاد الأوروبي في انتهاج مفهوم آخر لحقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية يختلف عن النظرة الأوروبية. هذا ما يبدو من خلال توسيع المجال الجغرافي للوكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية لتشمل دول الجوار الأوروبي بما فيها الجزائر، الذي لم يستبعد من خلال تقرير تقييم مسار الإصلاحات في مجال حقوق الانسان والديمقراطية على ضوء اعلان حول الحقوق الأساسية للاتحاد الأوروبي.

من ناحية أخرى يعتزم الاتحاد الأوروبي استعمال شرط «احترام حقوق الإنسان» كوسيلة لتدعيم مساعيه لتعزيز الاستقرار والوقاية من النزاعات⁽¹⁸⁾ في كثير من مناطق من العالم لاسيما تلك المحاذية على حدوده بغية الوقاية من حدة تدفق المهاجرين السريين بسبب انتهاكات حقوق الإنسان في بلدانهم الأصلية.

غير أن المشروطة التي تضمنها شرط « احترام حقوق الإنسان » ليست الوسيلة الوحيدة لدى الاتحاد الأوروبي نحو إسقاط قيمه، وإنما تعد أيضا وسيلة لديه لإرساء قواعد حوار مستمر مع الدول الأخرى بشأن قضايا حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية.

ثانيا-المشروطية وسيلة لدفع دول الجوار إلى تعديل تشريعاتها :

تقوم مقارنة الاتحاد الأوروبي في مجال ترقية وحماية حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية نحو الدول الأخرى بحسب بيان صادر عن المفوضية الأوروبية سنة 2001 على «...شراكة ايجابية وبناءة، أساسها الحوار، الدعم والتشجيع...» قصد «تحسين الفهم والاحترام المتبادل وتشجيع الإصلاح الدائم...» في الدول الأخرى، وبغرض تحقيق ذلك التزم الاتحاد الأوروبي بإدراج بنود تتعلق بالحوار السياسي في غالبية الاتفاقات الثنائية التي أبرمها مع الدول الأخرى لاسيما تلك المبرمة مع الدول النامية، على أن يتم ذلك على مستويات متباعدة (على المستوى الوزاري، الموظفين السامين، أو عبر القنوات الدبلوماسية)⁽¹⁹⁾.

وقد شددت المفوضية الأوروبية في هذا الشأن على ضرورة إرساء قواعد للحوار السياسي مع الدول الأخرى على المستوى المتعدد الأطراف، مع إعطاء عناية خاصة للحوار السياسي الثنائي ضمن مجالس ولجان الشراكة، بغية «تبادل الآراء» كي يتمكن الاتحاد الأوروبي من لعب دور الوقاية من النزاعات في الدول الأخرى.

بصفة عامة فإن هدف الاتحاد الأوروبي من الحوار السياسي حول قضايا حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية يتلخص في حث الدول الأخرى على «...المصادقة على الاتفاقيات الدولية المتعلقة بتلك المسائل...»⁽²⁰⁾ وأيضا «...دراسة مدى احترام المعاهدات الدولية والاتفاقيات المقبولة من طرف شركاء ومدى جدية التحفظات المبرر عنها اتجاه تلك المعاهدات والاتفاقات...»⁽²¹⁾.

أما عن كفاءات إرساء الحوار السياسي يعتزم الاتحاد الأوروبي إنشاء لجان فرعية متساوية الأعضاء تكون من مهامها الرئيسية مناقشة مسائل حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية، أين سيكون للاتحاد الأوروبي بحسب الخطوط التوجيهية للاتحاد الأوروبي في مجال الحوار حول حقوق الإنسان مع الدول الأخرى «...الحق في إثارة قضايا فردية وتقديم لشركائه (أي الدول المتعاقد معه) قائمة إسمية عن حالات خاصة تقضي بموجبها ضرورة الحصول على أجوبة...»⁽²²⁾ مما يضع الاتحاد الأوروبي في موضع المطالب كما وصفها الأستاذ إيمانويل ديكو⁽²³⁾ Emmanuelle Decaux، الأمر الذي يراه الكثير من أنصار حق التدخل، حق طبيعي يمنح للاتحاد الأوروبي «ليس فقط حق التدخل بل أن عليه مسؤولية للتدخل...»⁽²⁴⁾ ذلك أن جانب من الفقه الغربي يعتبر أن قضايا حقوق الإنسان والديمقراطية أضحت الآن خارج «المجال المحفوظ للدولة»⁽²⁵⁾ في وقت لا

تزال تتمسك فيه بعض الدول النامية بمبدأ عدم التدخل في شؤونها الداخلية وفقا لأحكام الفقرة 7 من المادة 2 من ميثاق الأمم المتحدة ولوائح لاسيما الأئحة رقم 2625 الصادر عام 1970.

في ذات السياق إننا نتساءل عن مدى إمكانية تحميل الاتحاد الأوروبي المسؤولية الدولية في حال تقاعسه عن الرد بالشكل المناسب عن انتهاكات حقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية في الدول الأخرى؟

للأسف يبدو مجلس الاتحاد الأوروبي - باعتباره المؤسسة الوحيد التي لها صلاحية اتخاذ ردود فعل ضد انتهاكات حقوق الإنسان (و التي تسمى في القانون الدولي بالتدابير المضادة Mesures - contre) - صارما عندما يقدم على تطبيق بند «عدم التنفيذ» (الشرط البلغاري) «ضد الدول التي لا تمثل بالنسبة للاتحاد الأوروبي أي أهمية اقتصادية أو إستراتيجية تذكر، كما هو الحال بالنسبة للتدابير التي فرضت على النيجر سنة 1999 تحت مبرر انتهاك مبادئ الديمقراطية أي الوصول إلى الحكم بطريقة غير دستورية عن طريق انقلاب عسكري، حيث جمدت آنذاك المعونات المالية التي كان من المقرر تخصيصها لهذا البلد وقد تم كل ذلك دون استشارة شركاءه من دول إفريقيا الكرايب والمحيط الهادي، والتي تعتبر النيجر عضو فيها بموجب اتفاقية لومي الرابعة لسنة 1995⁽²⁶⁾.

فحين نرى نفس المجلس متساهلا أمام الانتهاكات الخطيرة التي يقوم بها الكيان الإسرائيلي في حق المواطنين الفلسطينيين المتواجدين في قطاع غزة الذين يعانون حصار غير مشروع يخالف كل الأعراف والمعاهدات الدولية في هذا الشأن، بالرغم من وجود شرط «العنصر الجوهرى» في المادة 2 من اتفاق الشراكة الذي يجمعه بالكيان الإسرائيلي منذ عام 1995 والذي ينص صراحة بان قضايا حقوق الإنسان تعد مصدر الهام « للسياسات الداخلية والدولية للأطراف » هذه الجملة التي يعتبرها الأستاذ لوران بارتل⁽²⁷⁾ Laurent bartel بمثابة تأكيد التزام الأطراف بضرورة الامتناع عن أي عمل (إيجابا أو سلبا) من شأنه أن يكون سبب في دعم انتهاكات لحقوق الإنسان في البلدان الأخرى، مما يجعلنا نستنتج انه بامتناع الاتحاد الأوروبي اتخاذ « تدابير مناسبة » (أي فرض تدابير سياسية أو اقتصادية) لرد عن انتهاكات حقوق الإنسان في غزة من طرف إسرائيل من شأنه أن يقيم المسؤولية الدولية للاتحاد الأوروبي، ذلك انه إذا ما اعتمدنا منطق أنصار « حق التدخل » فانه كان لا بد لا محال للاتحاد الأوروبي والدول الأعضاء فيه من أن يكون لهم « مصلحة قانونية »⁽²⁸⁾ في حماية حقوق الإنسان الفلسطيني.

الختامة

الاتحاد الأوروبي لا يبدو جادا في حماية حقوق الإنسان لاسيما اذا علمنا ان جل الدول الاعضاء فيه هم أعضاء في المنظمة حلف الأطلسي والتي يتبنى نفس المواقف السياسية التي ترمي الى اطلاق حملات عسكرية على الدول العربية الإسلامية تحت شعار حماية حقوق الإنسان والديمقراطية لاسيما في خضم ما يسميه الكثير من الكتاب العرب المستغربين بالثورات العربية، الملفت للانتباه في المقالات الأوروبية التي تناولت موضوع ترقية وحماية حقوق الإنسان ومساءلة المشروطة الأوروبية انها ركزت على الانتهاكات التي تستوجب الرد بالأخص الانتهاكات التي تقوم بها الدول الشريكة (المتعاقدة مع الاتحاد الأوروبي) ضد مواطنيها، رغم أن انتهاك حقوق الإنسان قد تم فعلا من طرف منظمة حلف الأطلسي لاسيما أثناء الحملة على ليبيا مما يجعل الاتحاد الأوروبي مسؤول دوليا عن تلك الانتهاكات.

اننا نعتقد أن الوصف الذي أطلقه الفقه الأوروبي على الاتحاد الأوروبي بأنه القوة الناعمة او القوة المعيارية La puissance normative قد تجلت في جميع صورها ضمن اتفاقيات الشراكة وستتجلى اكثر في إطار اتفاقيات الأوروبية للجوار مستقبلا، و عليه من منظور قانوني بحث يستوجب على القوى الفاعلة في المجتمعات (الجنوب) ولاسيما في الجزائر، التأكيد على التمسك بحماية وترقية حقوق الإنسان دون التفريط في ثوابت الهوية الوطنية والقيم المجتمعية المستمدة من الشريعة الإسلامية، كما يتعين ترقية وحمايتها لاسيما ضمن التشريعات الوطنية لتفادي استيراد القيم الأوروبية.

في الاخير اننا لامسنا من خلال مختلف التوجهات الدولية للفقه الاوروبي تأثره غير المعلن بنظريات سمويل هنتجتن «صراع الحضارات» مما جعل حاليا مسائل حماية حقوق الانسان والديمقراطية مجال للنزاع الايديولوجي في اوروبا.

الهوامش :

1- Jean Louis Atangana Amougou « La conditionnalité juridique des aides et respects des droits Fondamentaux » Revue Afrilex| Disponible sur <http://afrilex.u-bordeaux4.fr/conditionnalite-juridique-des.html>.

2- Frederique Lozanrios « La conditionnalité relatives aux droits de l'homme dans le cadre des accords de partenariat économique de l'Union Européenne » Intervention au Centre de Droit International, Université Jean Moulin Lyon III, le 6 Décembre 2007| p2. Disponible sur <http://acatparis5.free.fr/html/modules/news/print.php?storyid=138>

3- Elisabeth Smith « the Use of Political conditionality “ in the EU s relations with third countries who

effective? Paper of the ECSA¹ international conference Seattle, 29 may –juin¹ 1997, P5 Disponible /sur http://aei.pitt.edu/2729/1/002732_1.PDF

Nguele Abada « Conditionnalité et Souveraineté » In Acte du Colloque sous (Dir) Marcelin Abada « 4- la Conditionnalité dans les relations international » Colloque de Yaoundé 2004, p 37. Disponible sur <http://unesdoc.unesco.org/images/0014/001485/148547fo.pdf>

5 – تجدر في هذا المقام توضيح مسألة مهمة هو أن قبل دخول معاهدة لشبونة حيز التنفيذ سنة 2009 كانت المجموعة الأوروبية تتمتع بالشخصية القانونية ومن تم كانت تستأثر بصلاحيات إبرام اتفاقيات دولية، غير أنه منذ دخول معاهدة لشبونة حيز التنفيذ، اعترفت المعاهدة رسمياً بتمتع الاتحاد الأوروبي بالشخصية القانونية بموجب المادة 47 التي أكدت الاتحاد له الشخصية القانونية.

6 Candela Soriano « Analyse de l'évolution de l'Action extérieure de l'UE dans le domaine des Droits- de l'Homme et de la Démocratie et de l'état de Droits » p 15, Consulté en 2006 Depuis le lien électronique et fermer, http://www.iej.net/fileadmin/IEJE/Pdf/Action_ext_rieure.pdf

7 – حيث في نص المادة «إن عمل الاتحاد على الساحة الدولية مبني على مبادئ التي سبقت نشأته وتطوره وتوسعه، والتي يسعى الى ترقية عبر انحاء العالم الديمقراطية ودولة القانون عالمية وعدم قابلية حقوق الانسان للتجزئة والحريات الاساسية واحترام الكرامة الانسانية مبادئ المساواة والتضامن واحترام مبادئ ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي-ترجمة شخصية-

8 – حيث ورد في نص المادة «تتم سياسة الاتحاد في مجال التعاون لأجل التنمية في اطار مبادئ واهداف التصرفات الخارجية للاتحاد تتكامل سياسة التعاون لأجل التنمية مع تلك التي يقودها الاتحاد الاوروي «ترجمة شخصية

9- Marie Lebrun « La Conditionnalité Démocratique en matière d'aide publique au développement sa mise en œuvre par l'Union Européenne et ses conséquences » Essai de Maitrise 2003, p 22 Consulté depuis 07-06-2009 www.dhdi.free.fr/recherches/gouvernance/.../lebrunmemoire.doc

10 – حسب ما جاء في بيان صادر عن المفوضية الاوروبية موجه للمجلس الاتحاد والبرلمان الاوروي يحمل عنوان « الاهتمام باحترام حقوق الانسان والديمقراطية في الاتفاقات الثنائية المبرمة من طرف المجموعة الاوروبية مع الدول غير الاعضاء في الاتحاد بيان (95) 215 نهائي فان نموذج لما يسمى بشرط «العنصر الجوهرى» في اتفاق جاء كالتالى «ان احترام مبادئ الديمقراطية والحقوق الاساسية للإنسان كما هو منصوص عليه في الاعلان العالمي لحقوق الانسان وكما هو محدد في العهد النهائى لهلسنكي وميثاق باريس لأجل اوروبا مجددة يعد مصدر للإلهام السياسات الداخلية والدولية للمجموعة الاوروبية(ذكر اسم البلد كطرف اخر للاتفاق) يشكل عنصر جوهرى في الاتفاق الحالي «، وفي ضمن ذات البيان اقترحت المفوضية صيغة لشرط عدم تنفيذ سميت بالشرط البلغاري والتي مجسدة في نص المادة 104 من اتفاق الشراكة الاوروي-الجزائري جاء فيه «اذا رأى احد الطرفين ان الطرف الاخر لم يف بإحدى الالتزامات التي يفرضها عليه هذا الاتفاق يمكنه اتخاذ التدابير الملائمة ويجب عليه قبل ذلك إلا في حالة الاستعجال خاصة تزويد مجلس الشراكة بكل المعلومات ذات الصلة والضرورية لدراسة معمقة للوضعية قصد البحث عن حل يقبله الطرفان» كما ورد توضيح في تصريح مشترك ملحق باتفاق الشراكة لتفسير عبارة حالة الاستعجال الواردة في المادة 104 حيث جاء في التفسير ما يلي :

-يتفق الطرفان لإغراض التفسير والتطبيق العملي للاتفاق، على أن المجالات الاستعجالية المنصوص عليها في نص المادة 104 من الاتفاق في حالات خرق جوهري للاتفاق من قبل أحد الطرفين ويتمثل الخرق الجوهري في :

-رفض الاتفاق غير مسموح به من قبل القواعد العامة للقانون الدولي

-خرق العنصر الأساسية للاتفاق المنصوص عليها في المادة 2(شرط «العنصر الجوهري»)

11- Cédric Musso « Les clauses droits de l'homme dans la pratique communautaire » Revue Droits Fondamentaux N°1 Juillet¹ consulte depuis 07-06-2009 sur http://droits-fondamentaux.u-paris2.fr/sites/default/files/publication/clauses_droits_de_lhomme.pdf

12- (E) Riedel (M) Will « clauses relatives aux droits de l'homme dans les accords extérieurs des communautés européennes » In sous (Dir) Alston ; l'Union Européenne et les Droits de l'homme, Edition Brylant¹ Bruxelles¹ 2001, p 753 et 785

13- Voir René Jean -Dupuy « Les Droits de l'Homme valeur Européenne ou valeur Universelle ? », In Dialectique du Droit International souveraineté des états, communauté internationale et Droits de l'Homme » Edition Pédone, 1999 p 213-217

14- le premier document officiel de la Commission Européenne sur la nouvelle politique Européenne envers ses partenaires du Sud Méditerranéens et des l'Est de l'Europe, s'intitule « L'Europe élargie — Voisinage: un nouveau cadre pour les relations avec nos voisins de l'Est et du Sud » COM(2003)104 Final du 11.03.2003 Disponible sur <http://eur-lex.europa.eu/legal-content/FR/TXT/PDF/?uri=CELEX:52003DC0104&from=FR>

15- Erwan Lannon « Le traité constitutionnel et l'avenir de la politique méditerranéenne de l'UE élargie » p 22, Disponible sur http://www.euromesco.net/euromesco/media/paper_32.pdf

16- Voir Bassem Karray « L'évolution du partenariat euro-méditerranéen » Journal de Droit International, Juillet-Aout 2008 p 760

17- Jérôme Boniface « La politique Européenne de voisinage entre élargissement et politique étrangère » Disponible sur http://www.eipa.eu/files/repository/eipascopes/20071003110254_jeromeSCOPE20071-internet-6.pdf p27.

Communication de la Commission au Parlement et au Conseil Intitulé « - 18 Disponible. 26-Prévention des conflits » du 11 avril 2001 Com (2001)211 Final p 25 https://eeas.europa.eu/cfsp/crisis_management/docs/com2001_211_fr.pdf

19 - راجع المادة 5 من اتفاق الشراكة الأوروبية الجزائرية المرسوم الرئاسي رقم 65-159 مؤرخ في 18 ربيع الأول عام 1426 الموافق ل 27 إبريل 2005 الجريدة الرسمية العدد 31

Communication de la Commission au parlement et au conseil « le rôle de l'union Européenne 20- dans la promotion des droits de l'homme et démocratisation dans les pays tiers » COM(2001)252, Bruxelles 8 Mai 2001 p 11 Disponible <http://eur-lex.europa.eu/legal-content/FR/TXT/PDF/?uri=CELEX:52001DC0252&from=fr>

Communication de la Commission au parlement et au conseil « donner une nouvelle impulsion aux 21- actions menées par l'UE dans le domaine des droits de l'homme et de la démocratisation en coopération

avec les partenaires méditerranéens : orientations stratégiques » COM (2003)294 Final Bruxelles 21 Mai 2003 p11 Disponible <http://eur-lex.europa.eu/legal-content/FR/TXT/PDF/?uri=CELEX:52003DC0294&from=FR>

22- Conseil de l'Union Européenne « Lignes directrices de l'UE sur les dialogues en matière de Droits de l'Homme avec les pays tiers » Disponible http://eeas.europa.eu/human_rights/guidelines/dialogues/docs/16526_08_fr.pdf

Emmanuelle Decaux « les dialogues sur les droits de l'homme types conditions objectifs et évaluation » Revue Droits fondamentaux n° 2 Janvier –décembre 2002 p 104 Disponible sur http://droits-fondamentaux.u-paris2.fr/sites/default/files/publication/les_dialogues_sur_les_droits_de_lhomme_types_conditions_objectifs_et_evaluation.pdf

24- Voir Chentouf Tayeb « La démocratie est –elle exportable ? sur les origines de la démocratie » In, 12 Assemblée générale sur Administrer l'espace public Africain CODESRIA, consulte depuis 07-09-2009 -non Disponible Actuellement sur : http://www.codesria.org/Links/conferences/general_assembly12/papers/Chentouf_tayeb.pdf

25 - voir Olivier Corten « Droit d'ingérence ou obligation de réaction a la responsabilité d'action » Revue belge de Droit international 1990, p 368- 440 Disponible <http://rbdi.bruylant.be/public/modele/rbdi/content/files/RBDI%201990/RBDI%201990-2/Etudes/RBDI%201990.2%20-%20pp.%20368%20%C3%A0%20440%20-%20Olivier%20Corten%20et%20Pierre%20Klein.pdf>

26- JUSTAFRE, Claudine « La suspension de l'aide européenne comme sanction de la non performance des pays ACP » <http://www.ue-acp.org/fr/fiches/dph/205.htm>

27 -Rapport Lorands Bartels « les clauses relatives aux droits de l'homme et a la démocratie dans les accords internationaux de l'UE » Direction General des politiques externes de l'union, Version résumé , 2005 p8, Disponible sur http://www.europarl.europa.eu/meetdocs/2004_2009/documents/nt/584/584520/584520fr.pdf

28 -Voir Barcelona Traction Affaire Arrêt du 5 Février de la cours international de Justice 1970 Disponible <http://www.icj-cij.org/docket/files/50/5387.pdf> Spécial page 32 paragraphe 33.

تنظيم العمل وانعكساته على إنتاجية المؤسسة

دراسة ميدانية على مستوى المؤسسة الوطنية للدهن بالشرقة - الجزائر -

د. لادي بديعة .

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله - تيارة -

ملخص :

إن لتنظيم سيرورة العملية الإنتاجية بطريقة محكمة يتطلب من المؤسسة الإلمام بكل عوامل الإنتاج الضرورية لتحقيق البرنامج التوقعي الذي سطرته، والمتمثلة في كل العوامل المادية والبشرية التي توفرها داخل المصنع، أو تلك العوامل الخارجية المختلفة كتوفير قطاع الغيار، المواد الأولية، هذه العوامل تؤثر في العملية الإنتاجية ودرجة التأثير تتوقف على مدى تحكم المؤسسة في مختلف الوظائف المحيطة بها بطريقة عقلانية، لأنه بصفة عامة يمكن القول أن أنه مهما كان الأسلوب أو النمط التنظيمي الذي تعتمد عليه الإدارة ينعكس بذلك على الإنتاج وإذا فشلت في الإجراءات الضرورية والمحكمة لتحقيق الفعالية، فإن المؤسسة تتعرض إلى التذبذب أو انخفاض في كمية إنتاجها.

الكلمات المفتاحية :

تنظيم العمل، الإنتاج، الإنتاجية، المردودية، الظروف الفيزيائية للعمل، العلاقات العمل.

Résumé :

L'organisation de la production en milieu industriel doit suivre un processus rigoureux exigeant de la part des entreprises une parfaite connaissance des processus et facteurs nécessaires pour mener à bien les programmes planifiés, cela implique une bonne maîtrise de facteurs intrinsèques à l'entreprise (matériel et humain) ainsi que de facteurs extrinsèques (connaissance du secteur des matières premières, de la fourniture de pièces de rechange,..), Influent sur la productivité et le

degré d'influence de ces facteurs est dépendant également du contrôle exercé par l'administration.

En effet, de manière générale, quelque soit la méthode ou le motif de la réglementation appliquée aux entreprises, les mesures réglementaires doivent être appliquées de manière rationnelle afin d'éviter toute variabilité de la productivité, voir d'induire une nette diminution de la production et de la rentabilité.

Mots clés: Organisation du travail, la production, la productivité et la rentabilité, les conditions physiques de travail, les relations de travail.

مقدمة

سواء كان قطاع المؤسسات عاما أو خاصا، فإن البحث عن أفضل طريقة للتسيير أو التنظيم من جهة ورفع الإنتاج من جهة أخرى، هو الهدف الأسمى الذي تسعى إليه، ذلك أن المؤسسة الاقتصادية تتموقع ضمن الاقتصاد كنواة أساسية فيه وتؤثر بشتى الطرق والعوامل في الاقتصاد ككل، وبما أن الجزائر دولة نامية تسعى دوما إلى الرفع من إنتاجها وتحسينه، ولا يأت لها إلا في ظل إستعمالها لنظام يحفز العمال ويجعلهم يزدون الكمية المنتجة، لتحقيق الدافعية لديهم نحو العمل قصد تحسين أدائهم، لأن عدم توفر حد معين من التحفيز قد يؤدي إلى نقص الرضى عن العمل في المؤسسة، مما يؤثر على الإنتاج من جهة والعلاقات الاجتماعية في محيط العمل من جهة أخرى.

إن المنشأة الصناعية لم تعد في أيامنا مجرد منشأة إقتصادية تعمل من أجل الإنتاج فقط، بل لها وظيفة اجتماعية إلى جانب وظيفتها الإقتصادية والإنتاجية، لأن المصانع تضم موارد بشرية متباينة من حيث القيم والعادات والتقاليد التي تضم تصرفات الأفراد وسلوكهم داخل المؤسسة، كذلك هي محور الإهتمام والتفكير من أجل إعادة وظيفتها الإنتاجية التي هي هدف وجودها، لتتمكن من أداء دورها ضمن عملية التنمية الإقتصادية، وما هي إلا وسيلة للوصول إلى أهداف محددة ترمي إلى تحقيق زيادة في الإنتاج السلعي والخدماتي والخدمي الناجم من الإستغلال الأمثل للموارد المادية والبشرية المتاحة.

كما أن نجاح التنمية مرهون من خلال إقامة هيكل إقتصادي منسجم قائم على أسس علمية حديثة، قادرة على خلق التوازن بين معدل الإنتاج وطلب السوق، ذلك أن أهم

العوامل التي تلعب دورا هاما في نجاعة أية مؤسسة هي وجود إدارة واعية وخبرة مؤهلة، تستطيع عن طريق إستخدام الأساليب الحديثة في الإدارة، تحقيق الإستعمال الأمثل لآلات، المواد الأولية، الجهود البشرية وإقامة علاقة جيدة بين المؤسسة والعمال وإشراكهم في الإدارة والرقابة مع الأخذ برأيهم في كل ما من شأنه أن يدفع إلى تطوير الإنتاج بالمؤسسة.

شغل موضوع تنظيم العمل وإنعكساته على إنتاجية المؤسسة الكثير من الباحثين منذ بدء العمل المنتظم في الحياة الاقتصادية، حيث كانت أهم الجهود في هذا المجال خلال العقود الماضية مبنية على نظريات، التي حاولت تفسير تنظيم العمل في المؤسسات ففي منتصف القرن 19 بدأت الأفكار بترغيب الإنسان في العمل وحثه على الارتقاء بمستوى أدائه، وفي بداية القرن العشرين بدأت تبلور شكل الأفكار بصورة أكثر تحديدا أو وضوحا في صورة نظريات التنظيم، ومما لا شك فيه أن هذه النظريات قد أرسيت مبادئ هامة وأساليب فنية تركز على تأملات فكرية راسخة وفروض علمية، ونتائج قد نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ومن أهم هذه النظريات نجد:

- النظرية الإدارية العلمية لفريدريك تايلور سنة 1912 :

كان فريدريك تايلور من رجال الإنتاج والإدارة ومن الأوائل من إهتموا بتطبيق أسلوب علمي في تناول المشكلات الصناعية، كما يعتبر أول من فكر وعمل من أجل تطور وظيفة إدارة الإنتاج وبين أن رفع مستوى الكفاءة الإنتاجية داخل المصنع لا يأتي عن طريق التخصص فقط ولكن يجب مراقبة أداء العامل قصد تحسين طريقة أدائه للعمل، وقد أطلق على أفكاره الخاصة بالملاحظة والتجربة وتسجيل النتائج وتحليلها تحت إسم «الإدارة العلمية» والتي لخصت توصياته وأرائه في كتاب نشر تحت عنوان مبادئ الإدارة العلمية سنة 1912.

قد أثبت تايلور أنه يمكن زيادة الحافز على الإنتاج والتحكم فيه من خلال نظام الأجور، فكل زيادة في الأجر يقابلها زيادة في الإنتاجية، وكل إنتاجية أعلى يقابلها أجر أعلى وهكذا، ولا تمنح الحوافز المادية إلا للفرد الممتاز الذي يحقق المستويات المحددة للإنتاج أو زيادة عليها، أما الفرد المنخفض الأداء الذي لا يصل إنتاجه إلى المستوى فعلى الإدارة تدريبه أو نقله أو فصله (1)، وأثناء دراسته قام بدراسة دقيقة للعمل الصناعي في كل مرحلة من مراحله، ذلك بتحليل العمل إلى حركاته وعملياته الأولية، ثم استبعاد

الحركات الزائدة والغير ضرورية ثم تقدير الزمن الذي لكل حركة من الحركات الضرورية تقديرا دقيقا بواسطة الكرونومتر، ثم التأليف بين الحركات الأولية الضرورية في مجموعات تكون أفضل طريقة وأسرعها في أداء العمل وتكون هذه الطريقة المثل الوحيدة التي يجب أن يتبعها العامل في عمله وقد عرفت دراسته هذه باسم -دراسة الحركة والزمن (2).

كما لم تقف جهود تايلور عن الحركة والزمن بل كان مهتما كذلك بدراسة الأدوات والمعدات والمواد التي يستخدمها العامل في عمله ووضعها وشكلها وترتيبها، حتى ييسر عليه العمل ويجنبه القيام بمجهود لا داعي له فيزيد إنتاجه.

أهم النقاط التي ركزت عليها النظرية التايلورية هي: (3)

- تطوير مجموعة من المبادئ العلمية التي تحكم التفكير والممارسة الإدارية، بدلا من الاعتماد على الحكم الشخصي وحده.
 - ضرورة إختيار العمال وتدريبهم على أسس علمية ومنهجية.
 - ضرورة التعاون بين المديرين والعمال وتقسيم المسؤولية بين الجانبين والتخطيط للعمل وتنظيمه والإشراف عليه.
 - الإيثار بقيمة الحوافز وأهميتها في رفع الكفاية الإنتاجية.
- وحسب النظرية التايلورية تجد أن: (4)

- الإنسان هو كائن اقتصادي فهو يعمل بسبب حاجة ودافع واحد هو الحصول على دخل يستخدم للحصول على حاجاته، فالإنسان قد يملك حاجات متعددة إلا أنه يعمل فقط من أجل المال وطريقة استخدامه للمال هي ليست من شؤون الإدارة.
- الإنسان هو كائن عقلاني أي أنه يسعى لتعظيم مدخولاته من خلال الحصول على أعلى دخل ممكن كما يبذل الجهد المناسب مع الدخل الذي يحصل عليه.
- يكون الإنسان راضيا عن عمله إذا حقق دخلا عاليا وعليه فإن قوة الاندفاع للعمل ترتبط بمبلغ الحافز الذي يعطى للفرد وكلما عرضنا على فرد مبلغ أكبر كان اندفاعه للعمل أكبر، هذه النظرية تجعل مهمة الإدارة في تحفيز العاملين هي مجرد تحديد السلوك والعمل الذي تزيده، ثم تحديد مبلغ الحافز المادي لهذا العمل.
- التركيز على الساعة والدقيقة: حول العاملين إلى أشبه بالآلات، الأمر الذي ثار مشاعرهم وأربك الإستقرار النفسي لهم، ذلك أن الإدارة العلمية تعتبر أن الإنسان آلة.

- و خلاصة القول أنه لا يجب أن نبالغ في الوصف الذي نقدمه للحركة التaylorية، ذلك أن هذه الحركة مهدت ولاشك في ظهور حركات علمية أخرى أكثر شمولاً منها، وأن القضية الأساسية التي كانت تدافع عنها هذه النظرية، أنه لا يوجد صراع بين الإنسان والتنظيم، إذ أن ما يحقق النفع والمصلحة للإدارة يعتبر كذلك بالنسبة للعمال، طالما لأن العمل الذي يبلغ أقصى درجات الكفاءة والذي يستوعب كل طاقة الإنسان سوف يؤدي في النهاية إلى رفع الأجور.

- نظرية YX لدوجلاس ماك جريجور سنة 1920 :

- يتقبل الكثيرون بعض الفرضيات الدفاعية على أنها حقيقة وثابتة بالكامل بالرغم من أنها لا تأتي إلا بجزء من الحل.
- ولقد فند "دوجلاس ماك جريجور" هذا النوع من الفرضيات تحت عنوان نظرية YX التي وصفها بالنظرية التقليدية للتوجيه والضبط وهي: (5)
- الإنسان العادي بطبيعته يكره العمل ويحاول الابتعاد عنه كلما أمكنه ذلك.
- هذه الكراهية تحتم تهديد معظم الناس بالعقوبة لجعلهم يبذلون الجهد اللازم لإنجاز أهداف المؤسسة التي هي في تناقض مع أهدافهم.
- الإنسان العادي طموحاته قليلة نسبياً ويحاول الحصول على قليل من المسؤولية فهو يفضل أن يُوجّه ولا يُوجّه والبحث عن الأمان الاقتصادي قبل كل شيء.
- وقد طبق ماك جريجور نظرية YX على المدير والتي تنظر إلى الفرد العادي على أنه بطبيعته كسول لا يود العمل ولا يعمل إلا قليل، لا طموح له ويكره المسؤولية أي أنه يفضل أن يقاد بدلاً من أن يقود، أضف إلى ذلك لأنه الإنسان المتعلق داخلياً أي أنه لا تهمه أهداف المنظمة وكل ما تهمه ذاته فقط، كذلك هو شخص قابل للتغيير بطبيعته.
- هذه الافتراضات تتطلب التدخل النشط من طرف الإدارة لتوجيه طاقات الأفراد وتحفيزهم والرقابة على أعمالهم وتغيير سلوكهم بما يتوافق مع حاجات المنظمة وإلا فإن الأفراد سوف تسودهم حالة من التراخي أن لم تكن المعارضة لأهداف المنظمة وحتى تستطيع الإدارة القيام بعملها فليس أمامها سوى أن تلبس ثوب القوة أو التشدد في مواجهة سلوك الأفراد بما ينطوي على ذلك من عنف أو تهديد مستمر

وأدوات الإدارة في هذا السبيل: الإشراف والرقابة المباشرة وهذه هي فلسفة الضغط أو ما يسمى بنظرية YX وهي فلسفة "العصا والجزر" التي قامت عليها النظرية التقليدية في الإدارة. (6) فالإدارة تملك التحكم في عملية التوظيف وأنظمة الأجور والمرتبات وملحقاتها وظروف العمل المادية الأخرى وهي جميعها لا تخرج من كونها الحاجات التي يسعى العامل للحصول عليها مقابل أدائه لعمله، وبالتالي فإن التراخي في الأداء يحول هذه الوسائل إلى عصا يمكن للإدارة استخدامها للضغط على الأفراد واستخدام هذه العصا بإرادة الإدارة وليس بإرادة الفرد.

ويعتمد ماك جريجور بأن الأبحاث الحديثة في علم السلوك قد أوضحت الافتراضات البديلة فيما يسميه بنظرية Y التي تكون أكثر صحة من مبادئ نظرية X وهي: (7) بذل الجهد الجسماني والعقلي في العمل أمر طبيعي مثله مثل التعب والراحة.

إن الضبط الخارجي والتهديد بالعقاب ليست الوسيلة الوحيدة لتحسين الأداء اللازم لتحقيق أهداف المؤسسة فيمكن أن يضبط نفسه ويلزم بها.

- مدرسة العلاقات الإنسانية لإلتون مايو سنة 1933 :

يعتبر إلتون مايو مؤسس مدرسة العلاقات الإنسانية سنة 1933، تركزت أبحاثه على دراسة العلاقة بين الإنتاجية وروح المعنوية للعمال، حيث أكد في كتابه المسمى «المشاكل الإنسانية للمدينة الصناعية»، بأن الحاجات الإنتاجية للعمال أهم من حاجياتهم الإقتصادية بالرغم من أهميتها، كما أكد على أهمية دراسة السلوك الفردي والجماعي في التنظيم وعلى دور الجوانب النفسية والاجتماعية في تشكيل هذا السلوك وتكييفه (8).

تعد الدراسة في مصنع هاوتون الشهير التابع لشركة ويستون الكتريك بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية نقطة الإنطلاق لدراسة العلاقات الإنسانية، وهي دراسات كانت تهدف في البداية إلى دراسة الظروف الفيزيكية للعمل وعلاقتها بالإنتاج، وتصنيف المشكلات المختلفة التي تنشأ عن مواقف العمل، ثم ما لبث أن حولت إهتمامها لدراسة العوامل النفسية والاجتماعية المحددة للسلوك التنظيمي، وهكذا توصلت هذه الدراسة إلى نتيجة هامة وهي البحث الدائم عن تفسير اتجاهات العمال وسلوكهم تفسيراً نابعا من طبيعة التنظيم الاجتماعي للمصنع لا من سمات شخصية، ثم أوضحت بعد ذلك « أن العامل ليس كائنات سيكولوجيا منعزلا ولكنه عضو في الجماعة، تشكل سلوكه وتضبط تصرفاته من خلال القيم السائدة فيها والمعايير التي تحكمها » (9).

كما حاولت مدرسة العلاقات الإنسانية « الكشف عن بعض جوانب السلوك التنظيمي مثل: الدافعية، الروح المعنوية وعلاقتها بالإنتاجية، وإنتهت إلى تأكيد حقيقة أساسية في تأثير الجماعات التي ينتمي إليها العمال، خاصة جماعات الصداقة وغيرها من الجماعات غير الرسمية، كما أوضحت هذه المدرسة أهمية الإتصال بين الإدارة والعمال ومشاركة العمال في إتخاذ القرارات، كما أبرزت أهمية القيادة الديمقراطية التي تعتبر وسيلة فعالة للإتصال» (10).

1 - الإشكالية :

فتح التطور التكنولوجي الباب الواسع أمام المؤسسة الصناعية وذلك بتوفير الإمكانيات اللازمة لتحسين طرق وظروف العمل من أجل الرفع من مستوى الإنتاجية والمردودية وإن لرفعها أهمية حاسمة بالنسبة للمؤسسة، لأنها لا تعود بالفائدة والربح عليها فقط وإنما على المجتمع كذلك، ما يجعلها مفتاحاً أساسياً من مفاتيح التنمية والتقدم لأنها خلاصة تظافر عوامل كثيرة ومتشعبة تؤثر في العملية الإنتاجية، إذ لا تكاد توجد ظاهرة في الحياة الاقتصادية لا تؤثر على إنتاجية العمل.

و من ولا شك أن أهم مشكلات وظائف التنظيم ”هو تحليل الأعمال وتقييم الوظائف، وهاذين أهم الخطوات الأساسية لوضع الأسس العامة لكل تنظيم صناعي وتحديد المسؤوليات والواجبات والالتزام بالقواعد داخل كل تنظيم“ (11).

تولي المؤسسة للعنصر البشري والتنظيمي إهتماماً بالغاً، فهذا الأمر يكمن وراء العديد من العوامل الخارجية: نوع العمل، الحوافز، الظروف الفيزيائية للعمل: الإضاءة، التهوية، الضوضاء والحرارة، ومن الجدير بالذكر، أن يحدث أحيانا أن بعض العمال يتنجون تحت ظروف فيزيقية سيئة ماداموا يشعرون بالرضا عن العمل ويتقبلون إدارتهم، ”ذلك أن المنافسة الحقيقية بين الأفراد في رفع الإنتاج، لن تتحقق إلا عن طريق رغبة حقيقية وصادقة، تنبع من العامل نفسه عن إيمان وإقتناع في جو مريح داخل وحدته الإنتاجية التي تنمي روح التعاون وتغذي الفهم المشترك بين الإدارة والعمال في سبيل رفع المستوى المادي والمعنوي للعمال من جهة وتحقيق الكفاية الإنتاجية من جهة أخرى“ (12).

ومن هذا المنطلق قمنا بطرح التساؤلات التالية:

هل تطور الإنتاج والمردودية مرتبط بنوعية الأساليب التحضيرية المستعملة قبل العملية الإنتاجية؟

هل لنوعية العلاقات بين جماعات العمل تأثير على إنتاجية المؤسسة ؟

2 - الفرضيات:

ولمحاولة الاجابة عن هذه الأسئلة إقترحنا الفرضيات التالية :

الفرضية الأولى:

وجود عوامل جيدة للإنتاج (آلات، قطع الغيار، مواد أولية...)، تؤدي إلى رفع الإنتاج.

الفرضية الثانية:

التضامن والتعاون بين العمال يساهم في رفع الإنتاج.

3 - المنهجية:

1 - المنهج المتبع والتقنية المستعملة:

قمنا بإتباع منهج معين من مناهج البحث الاجتماعي وهو المنهج الكمي الذي يقوم بتحليل عناصر الظاهرة ليعطيها الطابع الإحصائي ويزيد من درجة تمثيلها في المجتمع لغرض الوصول إلى نتائج وبالتالي الإجابة على التساؤلات المطروحة في الإشكالية، كما إقتضت الضرورة أن نستعمل تقنية الإستبيان، التي تم تصميمها في صيغتها النهائية على ضوء المشكلات المدرجة في إشكالية البحث، وهي موجهة إلى العمال الذين لهم علاقة مباشرة بالإنتاج، فرغم صعوبة التقنية وإستهلاكها للوقت، إلا أنها أساسية في تقصي جميع جوانب الظاهرة، من جهة للتقرب أكثر من المبحوثين والتحصل على إجابات متعددة وإثراء البحث من جهة أخرى.

2 - العينة:

العينة المختارة هي العينة القصدية، وتتمثل في العمال الذين لهم علاقة مباشرة بالإنتاج، بصفة إجمالية تم توزيع إستمارة الإستبيان على 102 مبحوث، مقسمين كالآتي: 10 إطارات، 47 أعوان التحكم، 25 أعوان التنفيذ و20 عمال مؤقتين.

جدول رقم 01: بعض خصائص أفراد العينة

النسبة المئوية	التكرارات	فئة السن
20,59%	21	[23-33 سنة]
43,14%	44	[34-44 سنة]
36,27%	37	[45- فما فوق]
100%	102	المجموع

النسبة المئوية	التكرارات	المستوى التعليمي
39,21%	40	أمي
29,41%	30	إبتدائي
19,61%	20	متوسط
3,92%	4	ثانوي
7,84%	8	جامعي
100%	102	المجموع

النسبة المئوية	التكرارات	الفئة المهنية
9,80%	10	إطار
46,08%	47	أعوان التحكم
24,51%	25	أعوان التنفيذ
19,61%	20	أعوان مؤقتين
100%	102	المجموع

النسبة المئوية	التكرارات	الأقدمية
34,31%	35	[1-11 سنة]
39,22%	40	[12-23 سنة]
26,47%	27	[24 سنة فما فوق]
100%	102	المجموع

4 - نتائج الدراسة :

الفرضية الأولى:

جدول رقم 02: الفئة المهنية وعلاقتها بطريقة تنظيم العمل

الفئة المهنية طريقة تنظيم العمل		إطار		أعوان التحكم		أعوان التنفيذ		أعوان مؤقتين		المجموع	
		ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
أحسن		6	60	20	55,42	12	48	8	40	46	45,10
عادي		2	20	18	38,29	6	24	7	35	33	32,35
لم يتغير		2	20	9	19,15	7	28	5	25	23	22,55
المجموع		10	100	47	100	25	100	20	100	102	100

من هنا يتضح أن تنظيم العمل من حيث التخطيط، التنسيق، وفرة قطع الغيار، الرقابة، تحسين طرق وأساليب العمل، كلها عوامل تساعد في تحسين ورفع مستوى الإنتاجية كما ونوعا.

جدول رقم 03: الفئة المهنية وعلاقتها بأسباب توقفات عن العمل

الفئة المهنية طريقة تنظيم العمل		إطار		أعوان التحكم		أعوان التنفيذ		أعوان مؤقتين		المجموع	
		ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
نقص المادة الأولية		7	70	28	59,57	17	68	11	55	63	61,76
إنقطاع الكهرباء		2	20	10	21,28	6	10,35	6	30	30	23,53
أعطاب تقنية		1	10	9	19,15	2	8	2	15	15	14,71
المجموع		10	100	47	100	25	100	20	100	102	100

من هنا يتضح لنا أن العوامل الخارجية أثر كبير وبالتالي تعرقل مهمة المؤسسة في تحقيق كمية الإنتاج، خاصة وإن لم تتحكم في مختلف الوظائف المحيطة بالعملية الإنتاجية والمتمثلة في توفير قطع الغيار، المادة الأولية، الكهرباء، تجديد الآلات، وفرة العوامل الجيدة للإنتاج يؤدي إلى رفع الإنتاج في المؤسسة.

الفرضية الثانية :

جدول رقم 04: الفئة المهنية وعلاقتها بالشعور بالإرتياح في جماعة العمل

طريقة تنظيم العمل		الفئة المهنية		إطار		أعوان التحكم		أعوان التنفيذ		أعوان مؤقتين		المجموع	
		نعم	لا	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
		نعم		10	100	35	74,47	17	68	15	75	77	75,49
		لا		-	-	12	25,53	8	32	5	25	25	24,51
		المجموع		10	100	47	100	25	100	20	100	102	100

ومنه يتضح أن العلاقات الموجودة بين العمال تخلق جوارئا للعمل، فهذه العلاقة الحميمة والطيبة دافع إيجابي للعمل الجاد، ذلك أن أهم عامل يؤثر في إنتاج الفرد هو وجوب توفر العلاقات الإنسانية، فالمؤسسة ليست مؤسسة إقتصادية إنتاجية، هدفها فقط الإنتاج وتحقيق الأرباح، بل هي عبارة أيضا عن منظمة إجتماعية، فشعور العامل بالإرتياح مع جماعة العمل التي ينتمي إليها، يؤدي إلى إرتفاع الروح المعنوية وإلى زيادة قدرة الجماعة على تحقيق الكفاية الإنتاجية.

جدول رقم 05: الفئة المهنية وعلاقتها بوجود مشاكل في العمل

طريقة تنظيم العمل		الفئة المهنية		إطار		أعوان التحكم		أعوان التنفيذ		أعوان مؤقتين		المجموع	
		نعم	لا	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
		نعم		1	10	9	19,14	3	12	4	20	17	13,72
		لا		9	90	38	80,85	22	88	16	80	85	86,28
		المجموع		10	100	47	100	25	100	20	100	102	100

ومنه يتضح أن المؤسسة لا تقوم فقط بإختيار عمالها وأن تضعهم في أنسب الأمكنة لإستعداداتهم ورغباتهم وأن تهئ لهم برامج التكوين اللازم لإعدادهم على الآلات الجديدة التي تم إدخالها في المؤسسة وأن توفر لهم فرص التقدم والترقية وتقدم لهم الخدمات الإجتماعية المختلفة وكذلك طرق توزيع الأجور على العمال، أجور عادلة

ومتناسبة مع إنتاجهم لكي يكون إنتاج هؤلاء العمال أكثر ما يكون، فهي تقوم كذلك بتكوين علاقات إنسانية بينهم أي بين العمال من جهة وبين الإدارة من جهة أخرى، مبنية على التقدير المتبادل والتعاون المثمر، وهذا يؤدي إلى شعور العمال بالثقة بالنفس ويكونون أكثر استعداداً للتفاهم والتعاون مع الغير وهذا كله يخلق ما يسمى بالجو الاجتماعي.

5 - مناقشة النتائج:

أهم ماتوصلنا إليه بعد عرض البيانات والتحليل المتعلقة بموضوع تنظيم العمل وإنعكساته على إنتاجية المؤسسة.

أدخلت المؤسسة إصلاحات وتغيرات جديدة والمتمثلة في تحسين وتغيير طرق وأساليب العمل من حيث إدخال تجهيزات ومعدات جديدة، تبنيتها لمرجعيات تأمين الجودة على المنتجات، فالإنتاج الذي تنتجه المؤسسة، مطابق لمعايير دولية هذا الأمر يتطلب تسييراً عقلياً للنوعية، يتأسس من خلال الكفاءات المكتسبة لدى الأطراف المعنية، تمثل عائلة ISO 9001، إحدى هذه المرجعيات ويقصد بها ضمان جودة ونوعية المنتج في إطار رضى الزبون مع الإحترام المطلوب أو المستحق من طرفهم.

كذلك عمدت المؤسسة إلى إعادة النظر في طريقة تنظيم العمل، أصبح العمل في الورشة شبه أوتوماتيكي، تمثل في إدخال آلات جديدة، في السابق كانت الآلات تغطي عليها الأعمال اليدوية، ذلك أن لنوعية الآلات والمعدات المستخدمة تأثيرها على الإنتاج، لا سيما إذا كانت المكائن تختلف من حيث قدرتها في الأداء، لأن هناك آلات أتمتة من الأخرى، لكن لا يعني إدخال آلات جديدة في الورشة يؤدي إلى الإقلال من أهمية العنصر البشري أو القوى العاملة في ذلك بل بالعكس، تعتبر هذه الأخيرة رأس مال المؤسسة التي لا تود ضياعه.

كما أن إستعمال الآلات ومعدات الإنتاج مع صيانتها وتوفير قطع الغيار المطلوبة لها تؤثر على كمية الإنتاج إيجاباً، فالصيانة لها دور كبير حيث بواسطتها يتم الكشف والإطلاع على الآلات والتجهيزات في الوحدة الإنتاجية، قصد التأكد من سلامتها، تنظيفها صيانتها، إصلاحها والتقليل من حالات التعطل والتوقف عن العمل وتحقيق الكمية المخطط إنتاجها، فموضوع الصيانة بكافة أشكالها وأنواعها، بإعتبارها من الوسائل الهادفة إلى رفع الكفاءة في الوحدة الإنتاجية لما تحققة من توفير النفقات ومساهمة فعالة في تحقيق الجودة المطلوبة عن طريق دقة وملاحظة إنتاج الآلة.

كما أن خلق علاقات إنسانية بين العمال من جهة والمشرفين والإداريين من جهة أخرى

يزداد شعور الفرد بالأمن والحرية والإنتهاء ومن ثم يزداد نشاطه وإنتاجه متى وجد نفسه يعمل مع أفراد يتجاوزون معه، ويرغبون في صحبته، فالتألف بين أفراد الجماعة العاملة من أقوى العوامل على رفع مستوى الإنتاج والروح المعنوية جميعاً، فالمؤسسة تعمل على مراعاة هذا التألف بالعمل على تشكيل جماعات عاملة متماسكة، فالواقع أن العمال يستطيعون أن ينتجوا في الضوضاء، قدر ما ينتجون في الهدوء، بشرط أن تكون دوافعهم إلى العمل قوية وأن يبذلوا جهداً أكبر ذلك أن العامل هو وحدة التنظيم الإنساني الذي نطلق عليه النشاط الجماعي.

6 - خاتمة

تقوم المؤسسة بوظيفة الإنتاج بناء على الطلبات وبرضاء أكبر عدد ممكن من المستهلكين لمنتجاتها، فتجلب أهمية تنظيم العمل كعامل رئيسي من عوامل النجاح في الإنتاج والتسويق، ويشمل هذا إلى حد كبير كافة أوجه النشاطات الرئيسية للمشروع الصناعي، وجود إدارة واعية وخبرة مؤهلة تستطيع عن طريق إستخدام الأساليب الحديثة في الإدارة مثل : الآلات والتجهيزات والمواد الأولية والجهود البشرية والإستفادة من الموارد الإقتصادية [البشرية والمادية] وإقامة علاقات في كل ما من شأنه دفع وتطوير المؤسسة إلى القيام بوضع الخطط ورسم السياسات وتقرير الاجراءات الكفيلة من أجل الحصول على المنتجات المطلوبة كما ونوعاً وبأقل ما يمكن من الوقت والتكاليف وهذا ما لاحظناه من خلال تبني مرجعيات دولية مثل : ISO 9001 لأن منتجاتها تتطابق مع المعايير الدولية للإنتاج فدرجة تكامل وظيفة الإنتاج تكمن من خلال جودة المواد الأولية وانتظام تدفقها، توفير الأجواء المناسبة للعمل الترتيب الداخلي والموقع الجغرافي للمصنع من حيث وفرة المياه والكهرباء والنقل داخل الورشة الاستخدالم الأمثل للموارد المادية والطاقات البشرية المتاحة مع تحسين الظروف الفيزيكية للعمل درجة التماسك والتضامن بين العمال من جهة والمشرفين من جهة أخرى وغيرها يؤدي الى تنسيق الجهود وتكاملها مع بعضها البعض لتحقيق الأهداف المطلوبة.

7 - المراجع :

7-1 المراجع باللغة العربية :

- 1 - أبو شيخة نادر أحمد: الكفاءة الإنتاجية ووسائل تحسينها، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، عمان، 1997، ص ص 35-38.
- 2 - الزيايدي عادل رمضان: إدارة الموارد البشرية، مكتبة عين الشمس، القاهرة، 1995، ص ص 18-19.
- 3- كمال بربرا: إدارة الموارد البشرية وكفاءة الأداء التنظيمي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2000، ص 40.
- 4 - الشاش محمد: إدارة الإنتاج والتنظيم الصناعي، كلية التجارة، جامعة دمشق، 1971، ص 102.
- 5- صلاح الشنواني: إدارة الأفراد والعلاقات الإنسانية، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1987، ص ص 55-56.
- 9- عيسوي عبد الرحمن: الكفاءة الإنتاجية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1990، ص 38.
- 10- علي محمد منصور: مبادئ الإدارة، كلية الإقتصاد والمحاسبة، جامعة الجليل العربي، بيروت، 1999، ص 180.
- 12- علي محمد عبد الوهاب: العنصر البشري في إدارة الإنتاج، مكتبة عين الشمس، القاهرة، 1983، ص 20.

7-2 المراجع باللغة الفرنسية :

- 6- BOLMAN GEORGE : Repenser les organisations, Maison d'Édition Maxima, Paris, 1996, P 158.
- 7- BOYER LUC et EQUILBEY NOEL : Organisation « théorie et application », Edition D'organisation, Paris, 2001, P 60.
- 8- BERNOUX PHELIPE : Les nouvelles approches sociologiques des organisations, Edition du seuil, Paris, 1980, P42.
- 11- CHEVALIER JEAN : Organisation du travail, 19^{ème} Edition Dunod, Paris, 1961, P P 95-96.

توحيد المصطلح العلمي في الوطن العربي الجهود والعوائق

أ. مصطفى زماش

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:

يروم هذا البحث إلى تتبع إشكالية تعدد المصطلح العلمي في الساحة العربية لما شهدته من تطورات هائلة في جميع مجالات العلوم الحديثة وخاصة الوافدة علينا من العالم الغربي، فشهد ذلك اضطرابا في وضع المصطلحات، وفوضى في تطبيقها. فشيوع المصطلحات فرض على كثير من الباحثين انتقاء مصطلح دون الآخر؛ إذ تجد كل واحد يستعمل مصطلحا خاصا به، وهذا ما خلق نوعا من الاضطراب والتشتت المصطلحي في الوطن العربي.

والإشكالية المراد تشخيصها ودراستها في هذا المقال، هي: ما الأسباب الكامنة خلف تعدد المصطلح للمفهوم الواحد الوافد إلى الوطن العربي؟ وفيم تتمثل جهود اللغويين أفرادا وهيئات في علاج هذا الداء؟ وما الحلول المقترحة المناسبة، التي من شأنها الحد من هذه الفوضى المصطلحية أو التقليل منها قدر المستطاع؟

الكلمات المفتاحية:

المصطلحية، المصطلح العلمي، التوحيد، التنسيق، الترجمة، التعريب، ...

Abstract:

This study aims at investigating the polemical issue of the existence of a variety of scientific terminology in different Arab countries, which coincided with the considerable advance in modern sciences in the western world, which had a major influence in academic arena in Arab countries. This led to a lack of consensus over the adoption of those terms. The widespread of a variety of scientific terms perplexed scholars and pushed each scholar to adopt certain terms and ignore others, which resulted in a chaotic situation in academic institutions in Arab countries. The research questions that are put forward are as follows: What are the causes of the existence of a variety of scientific terms that refer to the same adopted entity in Arab countries? In what way could scholars and linguists solve this problem? And what are the appropriate solutions that could put an end to and overcome the chaotic situation of the existence of a variety of terminology that refer to the same entity in Arab academic institutions?

Key words: terminology, scientific term, unification, coordination, translation, derivation, arabization,...

مهاد :

ترتب عن الانفجار الحضاري الذي يشهده العالم، تكاثر الاختراعات والاكتشافات والأطروحات الفكرية والمفاهيم العلمية والإنسانية، فتكاثرت -تبعاً لذلك- المصطلحات المعبرة عنها، بالموازاة مع انفتاح سكان المعمورة على بعضهم، نتيجة وسائل التواصل المختلفة المتاحة، فلم تعد هذه المصطلحات التي أكثرها أجنبي، تمر عبر قنوات معلومة تمكّن المختصين والمجمعين العرب من إلباسها اللبوس العربي قبل وفودها إلينا، بل أحيانا ما يتلقفها المستعملون من عموم الناس قبل أن يعرفها المختصون، فإذا احتاج المذيع أو مقدم الأخبار أو أستاذ المدرسة إلى استعمالها، ارتجل لها مصطلحاً يفتقر إلى المعايير الرصينة الموصى بها. وتتعدد المصطلحات بتعدد الواضعين، فينغلق الكلام وينهم القول، ويلتبس المقصود بغير المقصود.

هذه الإشكالية الكبيرة والفوضى العارمة التي نعيشها، أثارت حفيظة الغيارى على اللغة العربية من أساطين المجامع اللغوية فتنادوا وتداعوا إلى توحيد المجامع وتوحيد المصطلحات.

- ظاهرة تعدد المصطلح العلمي العربي؛

لم يعد مشكل تعدد المصطلح العلمي العربي مشكلا عارضا يظهر بين الفينة والأخرى هنا أو هناك، فلا تتأذى اللغة ولا الباحث منه إلا قليلا، فالتسارع التكنولوجي والتطور الحضاري الذي تسبب في سيل من المصطلحات اجتاحت الوطن العربي كله، جعل هذا المشكل ظاهرة سلّم بخطرهما الأكثرون، فسعوا حثيثا لحلها؛ فمن المعلوم «أن المصطلحات هي مفاتيح العلوم»⁽¹⁾. و«من شأن اختلاف أسماء المصطلح أن يسبب ضعف التفاهم بين العرب»⁽²⁾. وذلك لأن هذه «الفوضى سينجم عنها فوضى أخرى في فهم مداليل هذه المصطلحات من جهة، والقطيعة الثقافية والعلمية بين مشرق الوطن العربي ومغربه»⁽³⁾، حيث «تؤثر بصورة سلبية في (...) تبادل المعرفة العلمية، وإيصالها للقراء في شتى أجزاء العالم العربي»⁽⁴⁾، فكم أرهق وأربك هذا التباين والتعدد في المقابلات الدارس اللساني العربي وبعثر الجهود، وأدى في كثير من الأحوال إلى الافتقار إلى الدقة، والمصطلح ينبغي أن يدل على مفهوم مجرد يميزه عن أي مفهوم آخر، ولن يتوافر ذلك إلا بتوحيد المقابلات وتثبيت العلاقة بين المصطلح ومفهومه، وبذا فقدت هذه الجهود أهم ما نحتاج إليه في العمل المصطلحي، ولا يخفى أن التعريف الدقيق المنضبط للمصطلح في مصادره ومطانه، يسعف في تحديد المقابل المناسب في العربية، فيسهل بالتالي وضع حد لتعدد المصطلح وتباين مقابلاته. وأدى أيضا إلى لجوء كثير من اللسانيين إلى المصطلح الأجنبي وحده حيث يسعفهم بما يبتغون، أو إلى المصطلح الأجنبي وإلى جواره مرادفه بلفظ عربي توخيا للدقة وأمانا من اللبس والغموض⁽⁵⁾.

ولا يتوقف الأمر عند الدارس العربي وحسب، بل الوطن العربي كله مسيس بذلك، إذ إنه «يهدد وحدته القائمة أساسا على وحدة لغته التي هي وعاء الحضارة العربية الإسلامية وقوامها منذ قرون عديد»⁽⁶⁾. ويكفي أن نعلم أن «المصطلحات تتوالى على ساحة الفكر العلمي بواقع خمسين مصطلحا جديدا أو أكثر في كل يوم»⁽⁷⁾. ومع التقدم السريع في العلوم، ومع هذا الاختلاف الذريع في المصطلحات بتنا «نخشى أن لا يسمي أحد منا يفهم الآخر بدقة ووضوح»⁽⁸⁾، وبالجمل ما الاختلاف في استعمال المصطلحات إلا علامة «من العلامات الواضحة على ضعف هذه الأمة وتفرقتها»⁽⁹⁾.

غير أن «علي القاسمي» هوّن من شأن تعدد المصطلحات في حالة شياعها في أقطار الوطن العربي، فتكون حينئذ من قبيل المترادفات التي يجوز استخدام أي منها من غير حرج، والمستقبل كفيل كما يقول - بتفضيل أحدها على الآخر، ولكن الخطر في نظره «يكمن إذا اختص كل قطر بلفظ واحد دون غيره من المترادفات»⁽¹⁰⁾.

وينقل «الزركان» عن «محمد جميل الخاني» في وصف حال الاصطلاح العربي قوله: «أتى على اصطلاحات العلوم والفنون لا سيما الطبية منها حين من الدهر وهي تتخبط في دياجى الإبهام... فاعتراها التشويش والتحريف واستولت عليها الأغلاط والتصحيف حتى اللفظ يوضع لغير ما سمي به، فانتشر الالتباس في الألفاظ، وسرت الفوضى في الأسماء، فأصبح كل شيء بما تهواه نفسه مما أدى إلى توالي العقبات في سبيل التفاهم، وسد في وجوه مريدي العلوم أبواب السهولة والإقبال... حتى لا يكاد ينتهي الإنسان من قراءة صفحة إلا ويمر عليه من المصطلحات أنواع وألوان»⁽¹¹⁾.

ومن السهل بعد قليل من التدبر والمقارنة بين النظم والقوانين المعمول بها في هذه البلدان وبين الكتب المقررة في مدارسها أن يتضح لنا مبلغ التضارب والاختلاف سواء أكان ذلك في مصطلحات التشريع والقضاء والإدارة ومصطلحات الجيش والشرطة أو أوضاع العلوم والفنون ومصطلحات الدواوين⁽¹²⁾. فقارئ كتب اللسانيات -مثلا- المترجمة منها أو الموضوعة بالعربية تتخطفه أمواج الفوضى المصطلحية ما بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، وهو ما يحول دون فهم هذا العلم فهما دقيقا صائبا⁽¹³⁾.

يقول «محمد شرف»: «وقد سار معربو هذا الزمن ومترجموه في نقل اللغات الفرنجية على طرق مختلفة، فابتدع هذا أسلوبا جرى عليه، خالفه فيه غيره، واستن آخر سنة لم يشايعه عليها أحد، وصار كل معرب يضع لنفسه منهاجا لتصوير الألفاظ والمعاني أو لتعريبها، وانطلقت للأقلام وللألسنة الأعنة... وصيغت ألفاظ بطرق مختلفة لا تؤدي المقصود منها، وشط المعربون عن الصواب شططا بعيدا... وأكثر هؤلاء المعربين ممن درسوا بلغات فرنجية وابتعدوا عن العربية، فتجدهم يستعملون الألفاظ المتبدلة والسخيفة، والكلمات العامية الركيكة، ويتصرفون بالمعاني ويتناولونها بالزيادة أو النقص والتشويه أو يستعملون المجازات التي لا تتم بها المعاني المقصودة تماما لعدم وقوفهم على الألفاظ العربية المقابلة، أو لعدم وجود طريقة تتبع، أو معجم واف يستدعي للمعونة حتى صار أكثر المعربات لا يتفق في وحدة الاصطلاح أو المدلولات»⁽¹⁴⁾.

ويكفي لمعرفة حجم المشكل الحقيقي الذي يواجه الأمة العربية يكفي أن نرى هذا الحشد المؤسساتي والاستنفار القومي والتداعي الثقافي والسياسي الواسع في الوطن العربي وهذه الهيئات والمؤسسات والمكاتب والمجالس والمجامع الكبرى الممولة وطنيا ودوليا العاملة على الحد من هذا الخطر القادم.

ويعد «الأمير مصطفى الشهابي» من أوائل من تنبهوا لهذا الخطر الداهم، فنادى بتوحيد المصطلحات في الثلاثينات من القرن الماضي «في أربعة أبحاث، وذكر أن اختلاف

المصطلحات العلمية العربية أصبح داء يزداد خطورة باتساع الثقافة في البلاد العربية وازداد عدد المؤلفين والمترجمين في العلوم بها»⁽¹⁵⁾.

«ولعل من أسطع البراهين على ما يعانيه المصطلح العربي من اختلاف هو ما نجده من اختلاف في أسماء الشهور، وفي أسماء النقود. فالشهر الثامن يسمى في لبنان والعراق (آب) وفي مصر (أغسطس) وفي تونس (أوت) أما النقود فعندنا (الجنيه، والدينار، والريال، والدرهم)»⁽¹⁶⁾. ومن أمثلة ذلك الاختلاف أيضا تعريبهم ل:

Soupière: سلطانية الشربة (مجمع القاهرة)

ماعون حساء (مجمع بغداد)

حسائية (معجم المنهل)

Thermos: ترموس (مجمع القاهرة)

كظيمة (مجمع بغداد)

قارورة عازلة (المعجم الموحد)

Microphone: مكبر الصوت (المعجم الموحد)

مصوات (مجمع دمشق)

مصداح (تونس)⁽¹⁷⁾

وقد يستساغ اختلاف المصطلح بسبب اختلاف الجهات الصائغة له، إلا أن غير المستساغ أن تتعدد المصطلحات لدى الجهة الواحدة، بل ومن هم عالمون بخطورة هذا التذبذب ومحاربون له كمكتب تنسيق التعريب بالرباط، إذ جاء في كتاب «الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث» جملة من المصطلحات الطيبة الموصوفة بالموحدة وهي غير موحد في الحقيقة، يقول المؤلف: «وعلى الرغم من النداءات المتكررة بشأن توحيد المصطلحات العلمية العربية، فإننا ما نزال نجد كثيرا من العاملين في توليد المصطلحات العلمية، ومصنفي المعاجم المتخصصة يقعون في المشكلة نفسها بين حين وآخر. فلا يعقل والأمر هذا أن تصدر معاجم متخصصة عن جهة علمية عربية واحدة تتباين في تسمية مصطلحاتها وصيغها، وقد صدرت جميعها خلال مرحلة زمنية واحدة»⁽¹⁸⁾، كمثل:

(Shisama): تصالب (مصطلحات علم النبات)

تقاطع (مصطلحات علم الحيوان)

- تصالبة (المعجم الطبي الموحد)
- (Cyst): حوصلة (مصطلحات علم النبات)
- كيس (مصطلحات علم النبات)
- كيسة (المعجم الطبي الموحد)
- (Decay): انحلال، تلف (مصطلحات علم النبات)
- تفسخ (مصطلحات علم الحيوان)
- بلى (المعجم الطبي الموحد)⁽¹⁹⁾

- أسباب تعدد المصطلح العلمي العربي:

يمكن رد أسباب تعدد المصطلح العلمي العربي الكثيرة والمتباينة إلى عاملين رئيسين: تعدد جهات التعريب والاصطلاح، وغياب التنسيق أو انعدامه. فإذا ما وحدت جهات الاصطلاح كُفينا التنسيق والتوحيد، غير أن تعدد المصطلح رغم خطورته - لا يرقى لخطورة تفشي الدخيل في لغتنا العربية، ومن هذه الأسباب:

- «الارتجالية والحماسية.

- الفردية وادعاء سبق الريادة، وانعدام الروح الجماعية»⁽²⁰⁾.

وجلاء ذلك أن غلبة النزعة الفردية جعلت الواحد من الواضعين لا يكلف نفسه عناء البحث عن اجتهادات سابقة، سواء من الأقدمين أو من المحدثين أو حتى المعاصرين. «بل يسارع إلى وضع مصطلح عربي مقابل للمصطلح الأجنبي، فتتعدد المصطلحات المقترحة دونما مسوغ ولا فائدة»⁽²¹⁾. وغالبا ما تكون المقالات الصحفية العلمية والشبيهة بالعلمية، أول من يتلقف المصطلح الأجنبي الوافد، فينتشر فيها الكثير من المصطلحات المستحدثة التي ارتجلها الصحفيون بعامل السرعة، فوفق بعضهم وأخفق بعضهم الآخر، وقد يظهر للمصطلح الواحد أكثر من ترجمة في بلدين مختلفين بل في صحيفتين من البلد نفسه، والجماهير تقرأ لذلك فتتأثر فئة بهذا وفئة بذاك، وتزداد الشقة اتساعا مع الأيام وتنمو الأجيال متصاعدة في هذا الجو الفوضوي ولا تعرف كيف تتفق.

وتظهر كذلك «فوضى التأليف المدرسي حين يصوغ كل مدرس أو أستاذ للمصطلح مرادفا عربيا يتساقق وقدرته اللغوية أو معرفته العلمية، فتظهر في البلد الواحد كتب متخالفة المصطلحات في مؤلفات من موضوع واحد، ولم تستطع

الحكومات العربية السيطرة على هذه الفوضى إلا في وقت متأخر جدا وضمن حد معين»⁽²²⁾.

- «تعدد مشارب اللسانيين ومصادرهم»⁽²³⁾، فلما كان وضع المصطلحات يخضع كثير من الأحيان لأعمال الأفراد لا لأعمال المجامع اللغوية والعلمية؛ فإن من «المحتم أن يحدث اختلاف على الألفاظ العربية الدالة على معنى علمي واحد؛ لأن لكل من العلماء الذين يضعون المصطلحات رأيه الخاص في معالجة الكلمة العلمية الأعجمية، كما أن أذواقهم تختلف»⁽²⁴⁾.

- «النصرة القطرية»⁽²⁵⁾: «ذلك بأن عددا من العلماء والباحثين يتعصبون للمصطلح الموجود في القطر الذي ينتمون إليه حتى وإن كان مصطلح آخر في قطر عربي أو أكثر أدق في الدلالة على المفهوم المراد وأنسب وأوسع انتشارا. وقد اشتكى المرحوم مصطفى الشهابي من ذلك كله في زمانه فقال: لقد أصبح اختلاف المصطلحات العلمية داء من أدواء لغتنا الضادية. وهذا الداء ينمو ويستشري كلما اتسعت الثقافة في البلاد العربية، وكثر فيها نقلة العلوم الحديثة، وعدد المؤلفين في تلك العلوم»⁽²⁶⁾.

فلكل عالم رأيه في الألفاظ التي تختار لتأدية كل مصطلح، «فقد يؤثر فيه التأدية عن طريق الترجمة باسم عربي جامد أو مشتق أو طريق التعريب أو طريق النحت، ويختلف الذوق في اختيار اللفظ المطابق للمقابل الغربي من عالم إلى عالم»⁽²⁷⁾.

بل إن بعضهم «يصر -إرضاءً لنزعة التفرد- على وضع مصطلح جديد مقابل المصطلح الأجنبي ولو علم بوجود مصطلح عربي شائع ومقبول. وإذا تهادوا مؤلفاتهم تعصب كل أستاذ للمصطلحات التي وضعها أو ألف استعمالها. وربما يزري بمصطلحات زملائه»⁽²⁸⁾.

- «ثم إن ضعف التبادل الثقافي بين البلدان العربية، مشرقها ومغربها جملة، ثم ما بين المشاركة والمشاركة، ثم فيما بين المغاربة والمغاربة، تفصيلا؛ كل أولئك يوصد الأبواب في وجه الآخر، ثم لا يلبث أثناء ذلك أن ينحني باللوائيم على سواه، لتبرير فعله»⁽²⁹⁾.

- غياب التنسيق المصطلحي: إن أفدح ما يكلل هذه الوضعية المشخصة فيما يخص التوحيد المصطلحي غياب التنسيق المصطلحي. إنه لمن المفارقات العجيبة أن يكثر الحديث عن التوحيد المصطلحي مع درجة الإصرار (...)، ومع ذلك يظل التنسيق المصطلحي مقدرًا تقديرًا شكليًا، إن لم نقل مغيبًا، من غير إتباعه الممارسة الفعلية في الميدان. وما يزيد هذه الوضعية سوءًا هو تعدد الجهات العربية المختصة بالوضع المصطلحي (التوليد

المصطلحي) وتجاهل بعضها بعضا. نذكر من أشكال هذه الجهات المعنية بشأن الوضع والتوحيد والتنسيق معا، المجامع اللغوية والعلمية، المنظمات القطرية والعالمية، الهيئات الوصية، الاتحادات العلمية والجمعيات القافية والمهنية والصناعية، علاوة على الجهود الفردية، ونشدد على أنه مع تعدد هذه المؤسسات وتنوعها، فالمصطلح اللساني العربي يعاني من غياب التنسيق بين هذه الجهات في حد ذاتها⁽³⁰⁾. مما يسبب في إضعاف الرابط بين النقلة والمؤلفين في مختلف أقطارنا العربية، ففي كل قطر توضع مصطلحات جديدة لا يدري علماء الأقطار الأخرى عنها شيئا. وتكاد الصلات تكون مقطوعة بين أساتذة الجامعات وكلياتها في مصر والعراق والشام⁽³¹⁾. بسبب فقدان العمل المنظم في هذه السبيل، «فقد أسهمت فيه مجامع وجامعات وهيئات وأفراد»⁽³²⁾.

ويضم عبد الملك مرتاض غياب الاتصال أو قلته، فيما بين علماء اللسان والنقاد العرب أنفسهم إلى ضعف التنسيق العلمي فيما بينهم، الشيء الذي يزيد هذا الأمر سوءا؛ «بحيث نلفي كلا منهم يضطرب في مضطربه، ويهيم في واديه، ويتيه في نادية؛ فتتطاير الجهود شعاعا، وتبدد الأنشطة شظايا، وتخب لدى نهاية الأمر المساعي الطيبة حيث لا تكون الثمرات المجنية إلا شحيحة مزجاة»⁽³³⁾.

- «انعدام المنهجية الموحدة في التعريب»⁽³⁴⁾، «ذلك بأن البعض يفضل استعمال المصطلح التراثي مقابلا للمصطلح الأجنبي ما دام موجودا وصالحا لأداء المفهوم العلمي المحدد، بينما لا يلتفت البعض الآخر إلى ما في التراث العربي من مصطلحات ويقدم مصطلحات جديدة، ويتوسع البعض في المجاز، ويعمل آخرون بالتعريب اللفظي، ويقبل البعض بالنحت ويرفضه غيرهم. وقد تحدث محمد شرف صاحب المعجم المشهور في العلوم الصحية والطبيعية عن ذلك كله في زمانه، فقال: وقد سار معربو هذا الزمن ومترجموه في نقل اللغات الفرنجية على طرق مختلفة، فابتدع هذا أسلوبا جرى عليه خالفه فيه غيره، واستن آخر سنة لم يشايعه عليها أحد، وصار كل معرب يضع لنفسه منهاجا لتصوير الألفاظ والمعاني أو لتعريبها، وانطلقت للأقلام وللألسنة الأعنة، ووضعت أوضاع وصيغت ألفاظ بطرق مختلفة لا تؤدي المقصود منها، وشط المعربون عن الصواب شططا بعيدا... وأكثر هؤلاء المعربين ممن درسوا بلغات فرنجية وابتعدوا عن العربية، فتجدهم يستعملون الألفاظ المبتذلة والسخيفة والكلمات العامية الركيكة ويتصرفون بالمعاني ويتناولونها بالزيادة أو النقص أو التشويه ويستعملون المجازات التي لا تتم بها المعاني المقصودة تماما لعدم وفوفهم على الألفاظ العربية المقابلة، أو لعد وجود طريقة تتبع، أو معجم واف يستدعى للمعونة حتى صار أكثر المعربات لا يتفق في وحدة الاصطلاح أو المدلالات»⁽³⁵⁾.

ويرجع «صالح بلعيد» ذلك إلى أمور منها:

- «البعد الحضاري، والنشاط العلمي السابق للغة العربية.
 - الامتداد الجغرافي للعربية بين قارتي آسيا وإفريقيا، فيتلاغى بها حوالي ثلاثمائة مليون عربي.
 - الامتداد الإسلامي، فالعربية يستعملها أكثر من مليار مسلم في العالم.
 - عدم وجود عاصمة لغوية تحميها.
 - اختلاف الأرضية المعرفية لدى واضعي المصطلحات، وتعدد أذواقهم.
 - العمل الفردي لا الجماعي.
 - غياب صيغة التزام وإلزام بما تقره المؤسسات المصطلحية في هذا المجال»⁽³⁶⁾.
- ومثال اختلاف مناهج الاصطلاح المعتمدة من الهيئات العربية ما يلي:

مجمع اللغة العربية بالقاهرة:

- ◆ الأخذ بالقياس ما احتيج إليه.
- ◆ يقبل السماع من المحدثين.
- ◆ إجازة الاشتقاق من أسماء الأعيان.
- ◆ إجازة النحت إذا اقتضت الضرورة⁽³⁷⁾.

المجمع العلمي العراقي:

- ◆ إثارة استعمال اللفظ العربي على اللفظ الأجنبي.
- ◆ إحياء استعمال المصطلح العربي القديم إذا كان مؤيدا للمعنى العلمي الصحيح.
- ◆ تفضيل اللفظ العربي الأصيل على المولد، والمولد على الحديث، إلا إذا اشتهر الأخير.
- ◆ تجنب تعريب الأجنبي إلا في أحوال مخصوصة⁽³⁸⁾.

مكتب تنسيق التعريب بالرباط:

- ◆ ضرورة وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي، ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب ل معناه العلمي.
- ◆ استقراء وإحياء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه.
- ◆ تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به.

♦ تفضيل الكلمة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والإضافة والتثنية والجمع⁽³⁹⁾.

و «اتخذت في اصطناعه أساليب مختلفة من الوضع والترجمة والنحت والتعريب»⁽⁴⁰⁾، فالملاحظ على المجامع اللغوية والاتحادات العلمية والمنظمات، أن بعضها «يترجم معنى المصطلح ترجمة يرجع في اختيارها إلى المعاجم اللغوية العربية أو إلى الوضع والتوليد، وبعضها يعرب المصطلح الأجنبي تعريبا، أي ببقية على ما نطق به في أصل لغته مع بعض التحوير ليصاغ على وزن صرفي مقبول في حدود الإمكان»⁽⁴¹⁾.

هذا التنوع في الآليات التوليدية ما بين تعريب الدخيل وتأصيله وإحياء التراث والتوليد الصوري (الاشتقاق) والدلالي (المجاز)، والنحت إضافة إلى تعدد المرجعية اللغوية للمصطلح ما بين المغرب والمشرق، مع غياب منهجية موحدة لكيفية التعامل مع المصطلح الوافد ومقابلته بمكافئ ناجع. كل أولئك كان عوامل تضافرت لتكوين الأزمة⁽⁴²⁾.

- «تعدد الجهات الواضحة: ذلك بأن التصدي لترجمة المصطلحات الأجنبية في مجالات علمية متعددة كان من جهات متعددة، من مجامع لغوية ومؤسسات علمية ومعاهد مصطلحية وعلماء وأساتذة جامعات ومؤلفين وإعلاميين... ومن الطبيعي أن تتعدد المصطلحات العربية المقترحة خاصة إذا انعدم التنسيق بين هذه الجهات، وتسرب إلى القيام بهذه المهمة غير المتخصصين»⁽⁴³⁾.

- اختلاف لغات المصدر: «ذلك بأن البعض ينطلق من المصطلح الإنجليزي لكونه أخذ تعليمه باللغة الإنجليزية، بينما ينطلق آخرون من المصطلح الفرنسي للسبب ذاته، وقد ينطلق غير هؤلاء من المصطلح الألماني أو الروسي أو الإسباني... ومن المعلوم أن المصطلح إنما يقوم على خصيصة من خصائص الشيء أو المفهوم، وليس من الحتمي أن تكون المصطلحات المتعددة بتعدد اللغات قائمة على اعتماد الخصيصة ذاتها في التسمية. فقد يصطلح على مرض أو علاج أو دواء بمصطلح يحمل اسم صاحبه في لغة، ويحمل في لغة أخرى مصطلحا يصف خصيصة من خصائص المرض أو العلاج أو الدواء. وينتج عن ذلك طبعا تعدد في المصطلح العربي مقابل مفهوم علمي واحد»⁽⁴⁴⁾.

ويقول «محمد علي الزركان»: «وإن اختلاف المؤثر اللغوي الأجنبي في البلاد العربية أنتج اختلافا في المفاهيم والنقل والترجمة والتعبير، وقد كان الاختلاف محصورا فيما يترجم عن اللغتين الإنكليزية والفرنسية لوقوع أكثر البلاد العربية تحت استعمار دولتي هاتين

اللغتين. وزاد هذا التفاوت تباعدا بعد الحرب العالمية الثانية بمن تأثر باللغة الروسية وسواها»⁽⁴⁵⁾.

وذلك نتاج «الاحتلال الإنجليزي والفرنسي لديارنا العربية، فإن الفرنسيين والإنجليز حين سيطروا على التعليم في بلادنا ألزموا الناشئة أن تتعلم لغتيهما وجعلوها لغة العلم في المدارس العليا وكذلك في الجامعات حين أنشئت. وأدى ذلك -فيما بعد- إلى بلبلية واسعة في صوغ المصطلحات العلمية حين ترجمت وعربت، فإن بلاد المغرب: تونس والجزائر والمملكة المغربية وكذلك لبنان وسوريا في الشام ترجمت وعربت عن الفرنسية، بينما عربت وترجمت مصر ولعراق والأردن والسودان عن الإنجليزية، مما هيأ لاختلاف واسع في الصيغ المختارة للمصطلحات العلمية العربية المقابلة لمصطلحات الغرب العلمية في اللغتين»⁽⁴⁶⁾.

ومن العوامل المغفول عنها وجود المترادفات في المصطلحات الأجنبية نفسها فضلا عن اللغة المترجم إليها، ذلك بأن عددا من المفاهيم العلمية وضع لها أكثر من مصطلح في اللغة الواحدة، وإذا تم ترجمة هذه المصطلحات المترادفة، فإن الحصلة ستكون مصطلحات عربية مترادفة متعددة⁽⁴⁷⁾. «فالترادف والاشتراك اللفظي في لغة المصدر وفي اللغة العربية ذاتها»⁽⁴⁸⁾. يشعب المصطلحات ويعددها.

ويعدد «السراقيبي» عوامل أخرى للتعذر، وهي في الحقيقة ليست بسبب في الاختلاف بقدر ما هي سبب في سوء الاصطلاح، كمثل:

- الجهل بأصول علم المصطلح.

- تولي دور النشر إصدار المعجمات المصطلحية.

- الخلط بين الشرح والتفسير والمصطلح، كقولهم في: Etymology علم تاريخ الكلمات، والصواب: التأثيل، أو التأصيل⁽⁴⁹⁾، وغير ذلك كثير.

- خاتمة :

يتبين مما قد سلف أن تعدد المصطلح أزمة حقيقية تواجه وحدة الوطن العربي على المستوى اللغوي، فتستدعي التنسيق والتوحيد، إلا أن المشكل الأكبر يكمن في تغلغل الدخيل في اللغة العربية حتى ليكاد يحلها أعجمية محضة، فيكون على ذلك التعدد أهون الشرين. ولذلك ينبغي العمل على إيجاد هيئة واحدة في الوطن العربي تعمل على

الاصطلاح والتعريب السريع والجيد، تتلقف المفاهيم الجديدة قبل ولوجها للفضاء العربي، وقادرة على فرض قراراتها على الدول العربية، وهذا شبه محال، مع التكاثر المفاهيمي الكثيف، وتعدد وسائل الإعلام وتشعبها، وانتشارها بين العرب، بحيث لا يمكن بناء سد محيط أمام الزحف المصطلحي الوافد، ما لم يوجد صدق إخلاص.

ومجمل الأسباب المذكورة آنفا: تعدد الجهات المُصطلِحة، وتعدد مناهجها، مع غياب التنسيق، بل وتعدد الجهات الموحدة عامل في تعدد المصطلح أيضا. فعلى العرب اليوم التعريب والتعريب، وإن اختلفت المصطلحات وتعددت، حذر فساد اللغة، ثم لا بد من العمل في مرحلة لاحقة على التنسيق.

وقد ظهرت مؤسسات حكومية تعمل على توحيد المصطلح، كمكتب التنسيق بالرباط واتحاد مجامع اللغة العربية بالقاهرة، إذ يتجه عملها نحو انتقاء المصطلح الأصح للمفهوم أو المخترع الجديد، وافدا كان أو محليا، مما هو موجود ومصطلح عليه، وفاق معايير مخصوصة، ومنهجية رصينة، وقد يعملون على التعريب أيضا رفقة التنسيق، الأمر الذي قد يؤثر على مصداقيتها

الهوامش والإحالات:

1. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، منظمة الصحة العالمية، (د، ط)، 2005، الفصل السابع، ص 140.
2. عبد الرزاق البصير، «مجمع الخالدين وتوحيد المصطلح العربي»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 81، ص 219.
3. وليد محمد السراقبي، «فوضى المصطلح اللساني»، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، مج 83، ج 2، ص 390.
4. محمود إسماعيل صالح، «فوضى المصطلحات في الكتابات العربية الأسباب وحلول مقترحة»، دراسات مصطلحية، فاس، المغرب، العدد 3، 2003، ص 115.
5. عبد الحميد مصطفى السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار همورابي، عمان، الأردن، ط 1، 2008، ص 186.
6. أسلمو ولد سيدي أحمد، «التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 84، ص 198.
7. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د، ط)، 1998، ص 406.
8. عبد المالك مرتاض، «إشكالية المصطلح في اللسانيات والسيائيات»، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، العدد 1، ماي 2005، ص 30.
9. عبد الرزاق البصير، مجمع الخالدين وتوحيد المصطلح العربي، ج 81، ص 216.
10. «ألفاظ الحضارة ماهيتها وأثر توحيدها في تنمية اللغة العربية»، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، العدد 9، جوان 2009، ص 81.
11. الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 382.

12. ينظر: محمد رضا الشيببي، «توحيد المصطلحات»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 8، 1955، ص 132.
13. ينظر: وليد محمد السراقي، «فوضى المصطلح اللساني»، مج 83، ج 2، ص 377.
14. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 382.
15. وفاء كامل فايد، المجمع العربية وقضايا اللغة، عالم الكتب، (د، ط)، 2004، ص 168. نقلا عن: الأمير مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ص 04.
16. عبد الرزاق البصير، مجمع الخالدين وتوحيد المصطلح العربي، ج 81، ص 219.
17. ينظر: علي القاسمي، ألفاظ الحضارة ماهيتها وأثر توحيدها في تنمية اللغة العربية، ص 81.
18. ينظر: محمد علي الزركان، ص 437.
19. المرجع نفسه، ص 437 وما بعدها.
20. وليد محمد السراقي، فوضى المصطلح اللساني، مج 83، ج 2، ص 386، 387.
21. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
22. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 407.
23. وليد محمد السراقي، «فوضى المصطلح اللساني»، مج 83، ج 2، ص 387.
24. وفاء كامل فايد، المجمع العربية وقضايا اللغة، ص 169.
25. وليد محمد السراقي، فوضى المصطلح اللساني، مج 83، ج 2، ص 387.
26. ينظر: أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
- نقلا عن: الأمير مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ص 04.
27. شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، ط 1، 1984، ص 136.
28. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
29. ينظر: عبد الملك مرتاض، «إشكالية المصطلح في اللسانيات والسيائيات»، ص 27 وما بعدها.
30. يوسف مقران، «دور المصطلحيات في اللسانيات دراسة إبستمولوجية»، رسالة دكتوراه (مخطوط)، قسم الأدب العربي، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، إشراف: صالح بلعيد، ص 27.
31. ينظر: أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
32. أسلمو ولد سيدي أحمد، التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب، ص 198.
33. عبد الملك مرتاض، «إشكالية المصطلح في اللسانيات والسيائيات»، ص 27 وما بعدها.
34. وليد محمد السراقي، «فوضى المصطلح اللساني»، مج 83، ج 2، ص 387.
35. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
36. صالح بلعيد، «أين تكمن مشكلة المصطلح؟»، دراسات مصطلحية، العدد 3، ص 42.
37. ينظر: صالح بلعيد، مقالات لغوية، دار هومة، الجزائر، (د، ط)، 2004، ص 301 وما بعدها.
38. ينظر: المرجع نفسه، ص 297 وما بعدها.
39. ينظر: المرجع نفسه، ص 301.
40. أسلمو ولد سيدي أحمد، «التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب»، العدد 4، ص 198.
41. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 407.
42. ينظر يوسف مقران، دور المصطلحيات في اللسانيات دراسة إبستمولوجية، ص 27.
43. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
44. المرجع نفسه، ص ن.
45. الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 407.
46. شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، ص 136.
47. ينظر: أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، ص 154.
48. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص 404.
49. ينظر فوضى المصطلح اللساني، مج 83، ج 2، ص 387.

المصادر والمراجع:

1. أسلمو ولد سيدي أحمد، «التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 84.
2. أعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية، علم المصطلح لطلبة العلوم الطبية والصحية، منظمة الصحة العالمية، (د، ط)، 2005.
3. شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، ط 1، 1984.
4. صالح بلعيد، «أين تكمن مشكلة المصطلح؟»، دراسات مصطلحية، العدد 3.
5. صالح بلعيد، مقالات لغوية، دار هومة، الجزائر، (د، ط)، 2004.
6. عبد الحميد مصطفى السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار هموراي، عمان، الأردن، ط 1، 2008.
7. عبد الرزاق البصير، «مجمع الخالدين وتوحيد المصطلح العربي»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 81.
8. عبد المالك مرتاض، «إشكالية المصطلح في اللسانيات والسيائيات»، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، العدد 1، ماي 2005.
9. علي القاسمي، «ألفاظ الحضارة ماهيتها وأثر توحيدها في تنمية اللغة العربية»، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، العدد 9، جوان 2009.
01. محمد رضا الشبيبي، «توحيد المصطلحات»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، العدد 8، 1955.
11. محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د، ط)، 1998.
21. محمود إسماعيل صالح، «فوضى المصطلحات في الكتابات العربية الأسباب وحلول مقترحة»، دراسات مصطلحية، فاس، المغرب، العدد 3، 2003.
31. وفاء كامل فايد، المجمع العربية وقضايا اللغة، عالم الكتب، (د، ط)، 2004.
41. وليد محمد السراقبي، «فوضى المصطلح اللساني»، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، مج 83، ج 2.
51. يوسف مقران، «دور المصطلحيات في اللسانيات دراسة إستمولوجية»، رسالة دكتوراه (مخطوط)، قسم الأدب العربي، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة تيزي وزو، إشراف: صالح بلعيد.

البرامج التلفزيونية الموجهة إلى الطفل العربي وأثارها على القيم والسلوكيات.

الأستاذة: لويضة درار

المركز الجامعي مرسلي عبد الله - تيبازة-

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على علاقة البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل ببعض القيم والسلوكيات المكتسبة لديه، ففي ظل التطورات التكنولوجية الحديثة، ومع انتشار توظيف الاقمار الاصطناعية في مجال البث التلفزيوني، تعددت القنوات الفضائية العامة والخاصة، التي أعطت للفرد الحق في اختيار ما يشاهد، في أي مكان يريد وفي أي وقت يريد، سواء في المنزل أو في الحافلة أو في المقهى، وسواء بمفرده أو جماعة.

إذن؛ وفي ظل بيئة عالمية تمتاز بالتنافس الشديد بين المحطات التلفزيونية الفضائية للاستحواذ على اكبر عدد ممكن من المشاهدين، ومن ثم تحقيق الأهداف التي تصبو إليها، توجهت هذه الأخيرة إلى فئة الأطفال من خلال إنشاء قنوات بكاملها تعرض برامج خاصة بهم تبث 24 ساعة على 24 ساعة.

لكن ما يلاحظ في القنوات الفضائية العربية، أن معظمها تابع للقطاع الخاص، ومعظم برامجها مستوردة ومن إنتاج غربي سواء أكان أمريكي أو ياباني خاصة الرسوم المتحركة، وهذا قد يؤثر على قيم وسلوكيات الأطفال في المنطقة العربية بما في ذلك الجزائر، باعتبارها لا تملك برامج منتجة محلياً، فيجد الطفل نفسه مجبراً على متابعة هذه القنوات باسم مالك محلي، لكن بمضمون غربي.

الكلمات الدالة:

البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل، الأثر، القيم، السلوكيات.

الملخص بالانجليزية :

This article aims to highlight the relationship between the television programs destined to children and their influences on some child's values and behaviors. In the context of current global telecommunicational technological developments and the spread of the use of satellites in the field of television broadcasting, public and private satellite channels have become numerous, which gave the receiver the right to choose what, when and where he wants to watch and even with or without a group.

Thus, under a highly competitive global environment between satellite TV stations, to acquire the largest number of receivers, aiming to achieve their objectives, these stations are dedicated to the category of children through broadcasting 24 hours programs dedicated solely to children.

But what is to notice in the Arab region, is that the majority of the satellite channels are private, using imported programs basically Western production either American or Japanese especially cartoons. This may influence the children values and behaviors the Arab region, including Algeria, as long as it does not have programs that are produced locally. The child is thus obliged to follow these channels whose owner is local, but the content is Western.

Keywords: TV programs dedicated to children, influence, values, behaviors

مقدمة :

أحدث التلفزيون نقاش لم يسبق وأن أحدثه أي اختراع آخر في القرن العشرين، وقد يعود ذلك إلى كونه استعان بالبث عبر الأقمار الصناعية وبالتكنولوجيا الرقمية، ما جعله يشهد تغيرات وتطورات على المستوى التقني، وقد أثبتت دراسات عدة أنه وسيلة لا مثيل لها لتحقيق الهروب من الملل والروتين ومشكلات الحياة، منها دراسة ماكوبي⁽¹⁾ Maccoby الذي يرى أن الأطفال يستخدمون التلفزيون للهروب من الإحباط الذي يجدونه في حياتهم الواقعية، ونجد دراسات أخرى ترى أنه وسيلة ثقافية، منها دراسة عن الأطفال والتلفزيون سنة 1976م «وهي مجموعة من المقالات والبحوث» أجريت حول الموضوع نفسه بأمريكا وبريطانيا والسويد وغيرها،⁽²⁾ وبينت دراسات أخرى أنه

منشط أو مبرر للروابط الاجتماعية، كدراسة (كاتز وهاس) Katz, Hass حيث بين الباحثان أن الأفراد يستخدمون وسائل الاتصال منها التلفزيون ليربطوا أو يفصلوا أنفسهم عن طريق علاقات مع الآخرين سواء كانوا من أفراد الأسرة أو الأصدقاء أو غيرهم.⁽³⁾

وبناءً على ما سبق، فإن التلفزيون اكتسب مكانة هامة وسط الأفراد عموماً والأطفال خصوصاً؛ حيث أصبح جزءاً فعالاً في حياتهم، ليصبح بهذا الوسيلة الأساسية للترفيه وقضاء وقت الفراغ لمعظمهم، بصرف النظر عن التأثير المحتمل له، فلا شك أن الوقت المكرس لمشاهدته يسمح لهم بتعزيز علاقاتهم الاتصالية الافتراضية، لكن في المقابل يحرم هذه الشريحة من قضاء وقت أطول مع باقي أفراد العائلة.

ومما لا شك فيه، أن تعرض الأطفال لهذه الوسيلة يجعلهم يتعلمون الكثير منها، ويتعرفون أكثر على عالمهم، وإذا كانت وظائف التلفزيون معروفة ومحددة في المجتمعات الغربية، فإن معرفة هذه الوظائف قد تزداد أو تنقص كلما ابتعدنا عن هذه المجتمعات واقتربنا من المجتمعات النامية كالمجتمع الجزائري.

وبالرغم من الأهمية التي يحظى بها التلفزيون، تبقى العلاقة الوظيفية التي تربطه بالأطفال مجهولة، خاصة مع قلة الانتاج التلفزيوني المحلي الموجه للطفل، وطغيان البرامج المستوردة باعتبارها تحمل قيم المجتمع الذي انتجت فيه، ومعظمها يساعد الطفل على اكتساب السلوكيات العنيفة.

I- طبيعة البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل العربي؛

تكرس القنوات التلفزيونية الفضائية اليوم أوقات لا يستهان بها للأطفال، وتخصص لذلك كوادراً وإمكانيات كبيرة، وتطور الأمر إلى حد تخصيص قنوات بكاملها لبث برامج موجهة للطفل، والأمر نفسه يتعلق بالدول العربية حيث نجد قنوات تلفزيونية خاصة بهذه الفئة، يتم عرض برامجها باللغة العربية أو باللغة الانجليزية أو مترجمة أو مدبلجة، والتي قد تكون موجهة للطفل والأسرة معاً، كقناة (براعم) وقناة (طيور الجنة)، وقد تكون خاصة بالأطفال وفي الوقت نفسه تستهدف الأسرة والطفل معاً كقناة (النيل للأسرة والطفل). وفي أحيان أخرى نجد برامج البعض منها متنوعة تشتمل على الأغاني، الأناشيد، الرسوم، وغيرها. والبعض الآخر منها يتخصص في نوع معين من البرامج كالرسوم المتحركة.

1- أهم القنوات التلفزيونية الموجهة للطفل العربي:

تشير الاحصائيات إلى وجود أكثر من خمسين قناة تلفزيونية للأطفال في أوروبا مقابل عدد ضئيل في العالم العربي، بعضها عربية بالكامل وأخرى عبارة عن كرتون ياباني مدبلج في الغالب، وثلاثة منوعات سطحية، ورابعة ذات مهنية عالية، وخامسة محافظة (مشفرة) لكنها متواضعة فنيًا ومهنيًا.⁽⁴⁾

قام الباحث (المنصف العياري) بإجراء دراسة حول (القنوات التلفزيونية المتخصصة في برامج الأطفال) انظر الجدول رقم (01)، منطلقاً من الصيغة الاستفهامية التالية: هل أن الغرض من بعث هذه القنوات هو تلبية حاجات الطفل العربي إلى برامج تلفزيونية عربية على قناة متخصصة تتوجه إليه هو بالأساس، نظرًا للنقص المسجل في هذا المجال على مستوى القنوات الجامعة، أم أن هناك أغراضًا تجارية وإيديولوجية تقف وراء هذه القنوات؟.

إن أول ما نلاحظه في الجدول رقم 01، أن أغلب القنوات المتوجهة إلى الطفل هي قنوات خاصة بنسبة 85٪، هذا ما يعكس مرة أخرى تهميش القطاع العام أو الحكومي لمثل هذه النوعية البرمجية. كما أن أربع قنوات من مجموع سبع تحمل تسميات غير عربية، ولعل أبسط القواعد الدالة على عروبة انتهاء هذه القنوات التسمية التي تحملها.

جدول رقم (01) يقدم صوراً عن القنوات العربية الموجهة للطفل.⁽⁵⁾

القناة	البث مركز	الهيئة	البث سواتل	حكومية خاصة/	ساعات البث
ARTEENZ	السعودية	شبكة آرتي	ARABSAT NILESAT	خاصة	ساعة 18
المجد للأطفال	الإمارات العربية المتحدة	للثب المجد شركة المحدود الفضائي	ARABSAT	خاصة	ساعة 18
SPACE TOON	البحرين الإمارات	SPACE TOON INTERNATIONAL	ARABSAT NILESAT	خاصة	ساعة 17

ساعة 17	خاصة	NILESAT	SPACE TOON INTERNATIONAL	البحرين الإمارات	SPACE TOON ENGLISH
ساعة 24	خاصة	ARABSAT	تلفزيون مجموعة الشرق الأوسط	الإمارات العربية المتحدة	MBC3
ساعة 14	حكومية	NILESAT	للقنوات النيل قطاع المتخصصة	مصر	النيل قناة

هذا الجدول حسب الباحث المنصف العياري، لم يتضمن قناتين موجهتين إلى الأطفال، هما قناة « ديزني » و « FUN CHANNE »، لأنها لا تنتجان البرامج وتبثان بالأساس رسومًا متحركة مدبلجة من الانجليزية أو مرفقة بترجمة إلى العربية مكتوبة على الشاشة، وتعتمد القناتان البث المشفر ضمن باقة أوربيت.

تجدر الإشارة إلى أن أغلب القنوات الموجهة إلى الطفل تعتمد البث المفتوح، باستثناء قناة المجد للأطفال التي تبث برامجها للمشتركين. كما أنه من البارز أن هذه القنوات تبث مضامينها ما بين 14 ساعة و 24 ساعة، هذه الفترات من البث تعد طويلة بالنسبة إلى جمهور الأطفال.⁶

مهما بررت القنوات هذا الطول من حيث عدد الساعات، بأن البرامج تتوزع على شرائح عمرية مختلفة، فذلك لا يسمح لها بالبث إلى ساعات متأخرة من الليل، مما يجعل الطفل المشاهد ينتهج سلوك مشاهدة غير سوية على حساب مواعيد الدراسة والترفيه واللعب والاندماج ضمن مجموعته الأسرية.

من خلال متابعتنا لهذه القنوات قمنا بإضافة بعض القنوات التي لم يتم ذكرها في الجدول أعلاه:

أ. قناة طيور الجنة الفضائية :

هي قناة فضائية موجهة للأطفال، تم تأسيسها في عام 2008، تبث عبر مدار النايلسات، وهي تحت إدارة وإشراف مالكها خالد مقداد، مقرها في عمان بالأردن. تبث إرسالها من البحرين. تقدم القناة أناشيد وأغاني للأطفال للفرقة التي سميت القناة باسمها «طيور الجنة».

سبب التسمية: جاء اختيار اسم طيور الجنة «شعاراً يهدف إلى ترغيب الأطفال وتحبيسهم بالسير إلى طريق الجنة، التي هي غاية كل إنسان على وجه الأرض وبكل الديانات السماوية»، فالجنة محفز لكل عمل خير في الدنيا.⁷

ب. قناة كراميش:

قناة انشادية مختصة للأطفال مديرها وسيم عواد بدأت بثها في 15 / 2 / 2009 في الأردن عبر قمر النايلسات لتبث إلى الوطن العربي، وقامت بضم بعض المنشدين امثال مسى مصطفى ومجاهد هشام واحمد المنصوري وغيرهم من النجوم. وقامت كراميش بتقديم الكثير من (الكليات)، وهي في بداياتها مثل بابا عضلنجي، نام نام يلا نام، إضافة إلى تقديم عدة رسوم كرتون وبعض الاعمال اليدوية والمعلومات الثقافية والنصائح الاجتماعية كالحفاظ على النظافة وغيرها وأيضاً الدروس الدينية كأداب الطعام.

وحسب مؤشرات جوجل فان عمان تترأس أعلى مستوى من الاهتمام الاقليمي في متابعة القناة بنسبة بلغت 100%، تليها فلسطين بنسبة 95%، ثم المملكة العربية السعودية بنسبة 64%، ثم الاردن بنسبة 51%، العراق 31%، ثم مصر بنسبة 29%، وأخيرا الجزائر بنسبة 19%.⁸

ج. قناة براعم:

هي قناة موجهة للأطفال في سن ما قبل المدرسة بين (3 و9 سنوات)، بدأت بثها في 16 جانفي 2009م، تعمل على تقديم برامج تفاعلية تم انتاجها بنسبة 15% من طرف القناة، ونسبة 85% تم استيرادها من الشركات الانتاجية العالمية.⁹

2- ماهية البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل:

أصبح التلفزيون بالنسبة للغالبية العظمى من الأطفال صديقاً وموجهاً اختاروه لأنفسهم، ومن الثابت أن للأطفال ثقة قوية بالتلفزيون، وأن ثمة علاقة طيبة قامت بين هذا الجهاز والمشاهد الصغير، وعلى حد تعبير أحد الكتاب الانجليز: «إن هذه الأداة التي تخص الكبار فقط سرعان ما سيطر عليها الأطفال، لقد تعلموا كيف يشغلونها وكيف يستخدمونها، من أجل أن يشاهدوا مع الكبار أو من غيرهم، والأكثر من ذلك وضمن نظام الأسرة أصبح الأطفال المالكين والمستخدمين الوحيدين لهذا الجهاز».¹⁰

3- تعريف البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل :

تتخذ المادة الموجهة إلى الأطفال عبر جهاز الإذاعة المرئية أشكالاً وقوالب فنية عدة، تتنوع تبعاً لنوع المادة المقدمة، وكانت بداية بث هذه المواد ضمن قنوات تلفزيونية عامة، تخصص فيها مدة زمنية معينة تسمى (فترة برامج الأطفال) إلا إن التطور الحاصل في عالم البث الفضائي وانتشار القنوات التلفزيونية الفضائية، وظهور القنوات التلفزيونية المتخصصة، جعل جمهور الأطفال يحصلون على قنوات خاصة بهم، وبدأت تلك القنوات تتنافس فيما بينها من حيث شكل ومضمون المادة الإعلامية المقدمة إلى لأطفال.

وقنوات الأطفال اليوم تكاد تشترك مع القنوات العامة من حيث مدة البث، ومن حيث شكل المادة الإعلامية المقدمة، إلا أنها تتميز بالمضمون والهدف، فمضامينها تتجه إلى جمهور الأطفال الذي يتطلب مضامين خاصة تراعي مراحلهم العمرية كافة.

تنوع المواد التلفزيونية المقدمة إلى الأطفال من حيث الإعداد والتقديم إلى قوالب وأشكال فنية عدة منها: الرسوم المتحركة وأفلام الأطفال ومسلسلات الأطفال والبرامج الكاملة والأغاني والسيرك والدمى، وتتخذ البرامج الكاملة المعدة للأطفال قوالب فنية عدة منها: قالب المسابقات والقالب التمثيلي وقالب الحديث المباشر والقالب الغنائي وقالب الحوار.

تتضمن الرسوم المتحركة المقدمة إلى الأطفال معالجة قضايا تتصل بتفكير الأطفال ومشاعرهم واهتماماتهم، ويعبر هذا النوع من المواد التلفزيونية عن مكونات الأطفال ودواخلهم، ويقدم لهم تصورات عن القيم الاجتماعية المتصلة بحياتهم كالأخلاق، ويسعى إلى الوصول بالأطفال إلى معرفة أدق واشمل عن الحياة ويراعى في الرسوم المتحركة قيامها على البساطة والجاذبية.¹¹

2- أسس اختيار البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل :

لقد أظهرت مختلف دول العالم اهتماماً بالغاً بالبرامج الخاصة بالأطفال: ففي فرنسا وبريطانيا تبلغ مدة البث التلفزيوني لهذه الفئة حوالي عشرين ساعة أسبوعياً، وفي النرويج يعرض التلفزيون يوماً كاملاً لهم، أما في ألمانيا يقوم المختصون بتنظيم دورات تقدم فيها الأبحاث والمحاضرات والندوات حول برامج الأطفال والعلاقة بين هذه الشريحة والتلفزيون، وتقوم الدول الاسكندنافية بإعداد الأطفال للحياة اليومية، بما فيها من ممارسات وسلوكيات لمواجهة مشاكل وهموم الحياة اليومية.

ويقدم القائمون على إعداد برامج الأطفال في الدانمارك، التمثيليات القصيرة الهادفة إلى إيجاد حلول لمواجهة المواقف الصعبة، أما في السويد يطرح هذا النوع من البرامج أموراً عامة في إطار تمثيلي أو غير تمثيلي، ويركز المشرفون عليها في فنلندا على المبدأ التربوي والفلسفي والإنساني، وإطلاع الطفل على حقائق الحياة بكل تفاصيلها.¹²

في السياق نفسه، يشرح الباحث توفيق يعقوب، واقع برامج الأطفال العربية المحصور بين الضعف المحلي وخطورة المستورد، فيظهر أن القصور الإنتاجي لتلفزيونات العالم العربي يؤدي إلى القصور في تغطية ساعات الإرسال اليومية بالإنتاج المحلي، مما يدفع نحو استيراد البرامج الأجنبية، لذلك ارتفعت الأصوات التي تنادي بضرورة إعداد برامج للأطفال تحقق الأهداف المنشودة وتراعي المستوى العقلي والسني والانفعالي والشخصي لهذه الفئة.

إضافة إلى مراعاة اللغة من حيث قاموس الطفل اللغوي وخصائص اللغة الخاصة بالأطفال في كل مرحلة من مراحل الطفولة المختلفة، وكذا مراعاة العبارات البسيطة التي تنسجم في تسلسلها المنطقي ومعناها مع الحقائق، والوقائع المحيطة ببيئة الطفل، والبعد عن العبارات المجردة التي تنبع من واقع خياله المطلق.

ويرى معظم الباحثين أن أزمة إيجاد المضمون التلفزيوني المنسجم مع قدرات الطفل العقلية والنفسية، هي مسؤولية رئيسية، فالمضامين التلفزيونية العربية الموجهة له أعدت وأنتجت ارتجالياً بعيداً عن طموحات ورغبات طفل اليوم.¹³

رسم المدير العام للمركز العربي للتدريب الإذاعي والتلفزيوني بسوريا (السيد قاضي امين)، الخلفية التربوية لقضية الطفل العربي في علاقته بالتلفزيون، ومدى التأثير الذي يحدثه التلفزيون بالنظر إلى طول مدة تعرض الأطفال العرب له ومنافسته للدور التربوي الذي تقوم به الأسرة والمدرسة.

وكان من أهم المؤشرات ضرورة الاتفاق على منهج عربي مشترك في إنتاج البرامج الموجهة للأطفال، وإجراء الدراسات لتحديد الجوانب الثقافية والنفسية المتصلة بالطفل العربي، وتحديد المراحل العمرية للأطفال الذين توجه إليهم البرامج، وتحديد كم الإنتاج ونوعيته.

وفي هذا السياق أيضاً فإن برامج الدراما تعتبر ذات جاذبية خاصة للأطفال، وهي تعتمد على الكاتب في الدرجة الأولى وقدراته الفنية والتربوية على الأخص معرفته بمستويات اللغة التي تتناسب مع مراحل العمر المختلفة.

إذن يتوجب على ذوي الخبرة والعاملين في مجال الإعلام، مراعاة مراحل نمو الأطفال وخصائص كل مرحلة منها ومراعاة خصائصه اللغوية والثقافية والمعرفية، وكذا فروق الذكاء والتأكيد على الأسلوب القصصي الذي هو أفضل أسلوب لغرس القيم والحكايات الشعبية والتمثيلات الهادفة وطرق أساليب التعامل مع الألعاب ومع الناس في أسرهم وفي مجتمعهم بشكل عام.¹⁴

وفي نفس الصدد، يجب الاعتماد على الأساليب العلمية الصحفية في مخاطبة خيال الأطفال وعواطفهم وانفعالاتهم الخاصة، ومحاولة التقليل من الاعتماد على الأمور الغريزية أو العقلية المجردة والابتعاد عن التكرار الممل أو التقليل من شأن الأطفال، بعرض مواد تافهة تثير سخريتهم، وهذا يتطلب جمع الجهود من منتجين لهذه البرامج ومقدمين ومشرفين من ذوي الإعداد المناسب والخبرة المصقولة والتجربة الجيدة في هذا المجال.¹⁵

هذه الجهود منطلقها أهمية التلفزيون في حياة الأفراد صغارا وكبارا، مما يجعلها تركز على المحتوى الذي يقدمه، من برامج تراعي في مضمونها وأسلوب عرضها وتقديمها مفاهيم الأطفال الذاتية، الواقعية والخيالية، وليس من خلال مفاهيم الكبار، وواقعهم وخيالهم ونظرتهم إلى الحياة، مع الأخذ بعين الاعتبار قابلية الأطفال وميلهم للتقليد، مما يستوجب التقليل من المناظر المثيرة التي تعتمد أساليب العنف والإجرام والاعتماد على الألحان الموسيقية، لما في ذلك من عناصر جذب واهتمام للأطفال.

وعليه فإن الطريقة المثلى لإنتاج برامج جيدة للأطفال، هي إبداع وإنتاج قصص عن الأطفال يستطيع الأطفال فهمها، وترى الباحثة فاتن سليم بركات في هذا السياق بجامعة دمشق¹⁶ أن الأسلوب القصصي يساهم في تنمية القيم التربوية في نفس الطفل، ولعل المسلسل الكرتوني الشهير سالي قد لقي رواجا لدى الاطفال، وهو عبارة عن قصة حول فتاة هندية تغيرت حياتها الى بؤس بعد وفاة والدها الغني. وإضافة إلى ذلك يجب على التلفزيون اليوم أن يوثق رؤية الأطفال للوسط والمحيط، وتبيان موقعهم في هذا الوسط. تجدر الإشارة، أن معظم القنوات العربية تعتمد في برامجها وخاصة تلك التي تنطوي على البعد الترفيهي إلى استخدام اللهجات العامية، والتي تنعكس سلبا على سلامة لغة الطفل.

إن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 8 و15 سنة، يتصفون في هذه الفترة باليقظة والوعي إنها فترة الرغبة في الاستقلالية، إنه السن الذي يبدأ فيه الصراع بين الأخلاقية المطلقة للطفولة وبين الأخلاقية النسبية للنضج، وهذا ما ينتظر من منتجي البرامج التلفزيونية المعالجة الجيدة للموضوعات التي تتعلق بهذه المرحلة.¹⁷

في المجال نفسه، يرى الباحث عبد الوهاب بوخنوفة:¹⁸ أنه بالرغم من الإقرار بأهمية مسألة الارتقاء بالمضامين الإعلامية الموجهة للطفل كمًّا ونوعًا، إلا أن ذلك لا يعد عاملاً كافياً لتعظيم استفادة الأطفال وتفاعلهم معها. فالأمر يقتضي من وجهة النظر هذه، خلق الشروط السوسيو معرفية والثقافية التي تبدأ من مراجعة نقدية لجملة التمثيلات والتصورات السائدة في حقل التفكير في علاقة الأطفال بوسائل الإعلام في المجتمعات العربية.

إن البرامج التي تكون معدة إعدادًا مدروسًا، التي تضع الأسس العلمية في الإعداد والإنتاج، ضمن إطار خاص بالأطفال، وتعكس واقع حياتهم، وتخدم متطلبات حاجاتهم، يمكن أن تقدم الكثير للأطفال، مما يثري خبراتهم ويغني حياتهم ويزيدهم إمتاعًا وتسليّة، من خلال أسلوب الحكايات والقصص والتمثيلات والرسوم المتحركة والألعاب والدراما والهوايات والمسابقات، وألوان الموسيقى والغناء.

إذا ما راعت هذه البرامج الأسس، فإنها تستطيع أن تنقل إلى الأطفال المفاهيم والمهارات والأنماط السلوكية، والتوجيهات التربوية، وتعطيهم دوافع للمعرفة، وتكسبهم خبرات مفيدة لحياتهم.

في دراسة قام بها عبد الله الحيدري بقسم الاعلام جامعة البحرين في سنة 2005 حول الصناعات العربية الاعلامية العربية، أفرزت نتائجها ان هناك ضعف نسبة المؤلفين في مجال الكتابة للطفل، وأكدت أن خمس شركات إنتاج من مجموع تسع وعشرين تفي بحاجياتها في هذا التخصص أي ما يعادل 17٪، وتُعد هذه النسبة ضئيلة لأن الأمر متّصل بالتنشئة. وينبغي حينئذ أن تكون الرموز الثقافية المحلية مادة التنشئة وعمادها الحقيقي، لكي تظلّ العملية منسجمة مع الوسط الاجتماعي للفرد.¹⁹

II. علاقة البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل بقيمه :

كثيراً ما يرتبط مفهوم القيم بوسائل الإعلام الجماهيرية، حيث اثارَت العلاقة بين هذين المتغيرين الكثير من الاشكاليات، فأصبحت وسائل الإعلام الجماهيرية أحد العوامل الأساسية في عملية تثبيت أو تغيير أو خلق قيم جديدة داخل المجتمعات، فقد توصلت العديد من الدراسات والبحوث الميدانية إلى أن هناك آثاراً كبيرة للبث التلفزيوني المباشر الذي أصبح يشارك في التنشئة الاجتماعية للأطفال جنباً إلى جنب مع الأسرة والمدرسة والمسجد.

وعندما يتعلق الأمر بالطفل فإنه يمكن طرح العديد من الأسئلة المتعلقة بمضمون البرامج التلفزيونية، من حيث مفهومها وطريقة تقديمها والجوانب المتعلقة بهذا المشاهد الصغير ورغبته، واستجابته لهذه البرامج. إن الاهتمام العالمي بتلفزيون الأطفال، يدل دلالة واضحة على أنه يمكن اعتباره مدرسة موازية للمدرسة العادية والأسرة، ومما لا شك فيه أن المشرفين على البث التلفزيوني للأطفال يكتفون مدة البث خلال أوقات فراغهم.

يؤكد المختصون في مجال الاعلام على أن التلفزيون نافذة يرى فيها الطفل وهو في بيته العالم الخارجي، ومن خلالها يرى مشاهد من بلدان عديدة، ونماذج من سلوك وقيم الكبار والصغار، كما يصور له شخصيات بطولية من الحقيقة والخيال والمغامرة لها تأثيرها الكبير على نمو عقلية الطفل وتقوية ادراكاته.

كما أن مشاهدة برامج الأطفال عادة ما تتضمن قيماً يستوعبها الطفل بطريقة تلقائية كاملة، لكونها تتسلسل إلى بنائه الداخلي دون قصد منه، ومن ثم تشكل أساساً لسلوكياته في مختلف المجالات الاجتماعية. واستيعاب هذه القيم عادة ما يرتبط بصور عميقة نظراً للصور الخيالية المرتبطة بهذه القيم، والتي تعمل وفقاً لها أبطال هذه القصص، وبالنظر أيضاً إلى الشحنة الانفعالية التي يعيشها أثناء سماعه أو مشاهدته المادة المعروضة.²⁰

في المضمار نفسه، أوضحت بعض الدراسات أن أنواع البرامج التي يهتم بها الأطفال أكثر من غيرها تحمل في طياتها اتجاهات وقيماً اجتماعية وأخلاقية، يمكن أن يتأثر الطفل بها، كما أن هذه الدراسات توضح أن هناك كثيراً من التوافق أو التعارض بين ما تعلمه الطفل من مصادر أخرى، وما يتعرض له أمام التلفزيون. ففي دراسة قام بها الباحث اديب خضور حول تحليل مضمون البرامج التلفزيونية الموجهة إلى الأطفال في التلفزيون السوري توصل إلى أن القيمة المهيمنة على هذه البرامج هي قيمة الصراع حيث احتلت المرتبة الاولى بنسبة 70.1%. وتتجلى هذه القيمة في مجالات وأفاق ومواقف مختلفة: الصراع المباشر والمكشوف، الرغبة في الفوز، التفوق الفردي، التفوق الجماعي، انتصار الخير على الشر، الطموح، التعاون ضد العدو المشترك، الصراع الطبقي، الصراع ضد العدو.

كما ظهرت في مواد العينة قيم أخرى بنسب متواضعة: احترام الكبار 1.8%، التماسك الاسري 1.3%، التسامح 0.9%، احترام المرأة 2.7%، ويلاحظ غياب قيم اساسية مثل الصدق والمحبة والخلاص والجمال والتواضع والادخار... الخ.²¹

من جانب آخر، رغم أن التلفزيون يقدم كمّاً من المعلومات تشكل جزءاً أساسياً من معارف الاطفال مما يساعد في تنشئتهم، إلا هناك بعض التحفظات إزاء هذه المعلومات خاصة

وأن معظم الشركات العاملة في مجال الإنتاج التلفزيوني الموجهة للطفل هي شركات أمريكية مثل - (تايم وارنر، والت ديزني وفياكوم، ونيوز كروب) إلى جانب (بيرتلسمان) الألمانية وصوفي اليابانية. مما يؤكد أن القيم التي تتضمنها منتجات هذه الشركات هي من خصائص مجتمعات غير عربية لها منظومات وأهداف تربوية تختلف عن المجتمعات العربية.²²

يؤكد هذا الاتجاه، الباحث السعيد بومعيزة، الذي يرى «أنه في البلدان النامية تراجع دور وسائل الإعلام المحلية أمام الإعلام الأجنبي خاصة الأمريكي والأوروبي، التي هي في الواقع تحمل قيما واتجاهات وآراء وسلوكيات يعكس معظمها السياق الذي أنتجت فيه، وأغلب القيم التي تحملها قيم استهلاكية. والعلامة الأخرى أن وسائل الإعلام المحلية أصبحت مقلدة للإعلام الغربي فأصبح دورها مكملًا لوسائل الإعلام الغربية».²³

ومن وجهة النظر هذه، يجمع الباحثون الذين يهتمون بثقافة الطفل، على سلبية برامج الأطفال التي تقدمها الفضائيات العربية، ويصف لنا الدكتور أديب خضور هذه الحالة بقوله «يتزايد القلق الشعبي إزاء البرامج التي تقدمها المحطات التلفزيونية العربية إلى الأطفال العرب، كما يحدث النقاش حول طبيعة هذه البرامج ومضامينها والآثار التي تتركها في الأطفال».²⁴

لا شك أن ثلثة من الباحثين أمثال الباحث اديب خضور، قد أدركوا بدقة تلك الفلسفة الخفية التي تنطوي عليها البرامج الموجهة للطفل العربي التي تشكل خطراً بعيد المدى على قيمه العربية، من هنا تبدو ملامح المشكلة في هذا الإنتاج، فمعظمها يكرس للحياة الغربية في الملبس والمأكل والمسكن، مما يورث الانبعاث نوعاً من التمرد، وبعضها يشير إلى التحرر من الوالدين، وبعض الفضائيات تقدم افلام ومسلسلات تكرس للسحر والشعوذة.²⁵

ولكن يبدو أن جهوداً قد بذلت لإعادة إحياء هذا العمل حديثاً بالنظر لأهميته وخطورته للنشء الجديد لذلك ذكرت أحد المجلات، أنه تم إشهار أول مركز عالمي للكرتون في هوليوود بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم إعداد فريق طبي، نفسي، وديني بالاستعانة مع تربويين عرب، لتأليف القصص المناسبة على أن تكون ذات طابع تربوي عام وطابع تربوي إسلامي أيضاً، وسيتم ترجمة هذه القصص إلى العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية. ويهدف هذا المشروع إلى طرح مفاهيم صحيحة على الطفل العربي المسلم والذي أصبح يتلقى قصصاً خرافية تخالف عقيدته وأخلاقه، كما سيتم استحداث رمز الطفل المسلم مثل السندباد أو علاء الدين وسيتم تقريب هذه الشخصية من خلال لعب الأطفال.

من الجدير ذكره في هذا المضمار، ما صدر مؤخراً عن أعمال اللجنة الدائمة للإعلام العربي في دورتها العادية، حيث أشارت في البند السابع من تقريرها وتحت عنوان مشروع إنتاج رسوم متحركة للأطفال مستمدة من التاريخ والبيئة العربية، وإن اللجنة ناقشت هذا البند في ضوء تقرير مجموعة العمل المعنية بوضع مشروع إنتاج لمدة عام لأفلام رسوم متحركة للطفل العربي.²⁶

III. علاقة البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل بسلوكياته :

يكتسب الطفل السلوك الاجتماعي، عندما يقوم بسلوك يتفق مع مجموعة من القواعد والأعراف والتقاليد التي يقرها المجتمع الذي نشأ فيه، ويتطور هذا السلوك في الفرد بالقدر الذي يكتسب فيه هذه القواعد ويصبح أكثر وعياً لها.

ففي المراحل الأولى لا يميز الطفل بين ذاته والأشياء خارج الذات وتدرجياً يأخذ بادراك ذاته مستقلة عن الأشياء المحيطة به، أي العالم الخارجي المكون من مكونات مادية وأخرى إنسانية، ثم يُميز تدرجياً بين هذين النوعين من المكونات، ويصبح أكثر وعياً لخصائص الوجود الاجتماعي.

في أول الأمر يتقمص سلوك الكبار، ويظهر ذلك من خلال عمليات المحاكاة والتقليد والامثال لمطالباتهم باعتبارهم القائمين على تلبية حاجاته، إذا هنا لا يكون عنده وعي بالقواعد التي تحكم تصرفاته، وبسبب اعتماده على الكبار وبخاصة الأم والأب في تلبية حاجاته، تكون سلطة الكبار هي الموجه للسلوك الاجتماعي عنده في هذه المرحلة، ثم يأخذ بالإدراك تدرجياً أن هنالك قواعد عامة يطلب منه أن يلتزم بها، وإذا خالفها يمكن أن يناله العقاب، وفي هذه الحالة يكون الخوف من العقاب هو الموجه لسلوك الطفل في هذه المرحلة.

ومما تجدر ملاحظته أن التطور الاجتماعي للطفل يواكب تطوره المعرفي، ويرتبط به، ومن هنا فإن الدرجة التي يتأثر بها التكوين المعرفي للطفل، بفعل عوامل نفسية وبيئية، تترك أثارها على التكوين الاجتماعي والأخلاقي عنده.

يرى ولبر شرام أن حوالي 77٪ من الصورة التي يرسمها الإنسان لعالمه، مستمدة من وسائل الاعلام وخاصة المرئي، حيث تقوم هذه الصورة بدور واضح في تشكيل آراء الناس وتكوين اتجاهاتهم ومواقفهم، وأنماط سلوكهم تجاه الأشخاص، والموضوعات والأشياء. فالفرد يتعرف على العالم الخارجي ويتعامل مع الواقع الاجتماعي من خلال

الصورة الذهنية، التي تقوم وسائل الإعلام «التلفزيون خاصة» برسمها وترسيخها في ذهنه، أثناء تعرضه وتلقيه المواد الاعلامية المختلفة، سواء كانت هذه المواد اخبارية أو ثقافية أو درامية، الامر الذي يساهم في تشكيل الاتجاهات النفسية والقيم والسلوكيات، والأفكار وأساليب الحياة للفئات الاجتماعية المختلفة وخاصة الأطفال.²⁷

تشمل وسائل الإعلام كل ما يمكن أن يتعرض له الطفل، من خبرات مسموعة أو مرئية أو مدون في كتب الأطفال وقصصهم ومجلاتهم، إضافة إلى الراديو والتلفزيون، ويمكن الإشارة إلى أن أكثر المواقف التي يتم بها حدوث النمذجة الرمزية هي عمليات التعلم من وسائل الإعلام والاتصال، فقد أصبحت هذه الوسائل مصدرا مهما للتعلم الاجتماعي والأخلاقي والتي تتميز بنقل معظم المعرفة المتعلقة بالسلوكيات المختلفة، كما تؤدي دورا مهما في التنشئة الاجتماعية بما تقوم به من دور في غرس وتعميق القيم الاجتماعية والأخلاقية لدى الأطفال.

إن النمذجة من خلال وسائل الإعلام تعتمد على كل من التمثيل الصوري المتحرك أو الثابت، وعلى الوصف اللفظي، وهذه الإمكانية في الجمع بين التمثيل الصوري من جهة والوصف اللفظي من جهة أخرى، أعطت العملية قدرة على التأثير.

في هذا الإطار يبقى النموذج التلفزيوني هو الأكثر حضورا وهيمنة على الأطفال لان الصورة المتحركة هي اللغة الأساسية في النموذج، فما يثبت من نماذج كرتونية مدبلجة تقدم أشكالا من السلوك تفرض نفسها على الأطفال، ليس فقط من خلال محتوى النصوص الروائية التي تتضمنها المشاهد أو الأدوار، ولكن أيضا من خلال مجموعة المؤثرات في الحركة والنغمة، والأسلوب والموقف والتي تتألف مع بعضها البعض في المشهد الواحد لتبرز إيجابيات سلوك أو قيم اجتماعية معينة وسلبيات سلوك أو قيم اجتماعية أخرى.

في هذا المجال، وردت أبحاثا كثيرة تثبت أن كلا من الأطفال والكبار يكتسبون مواقف جديدة، واستجابات عاطفية، وطرق جديدة للسلوك من جميع وسائل الإعلام، وخصوصا من التلفزيون والأفلام. مما يقوي أثر التلفزيون كوسيلة اتصال جماهيري ما يسمى بالأثر التراكمي، أي أن تكرار المواد يؤدي إلى ترسيخها، وزيادة نسبة تذكرها لدى المشاهد، وهذا يؤدي إلى أن يصبح التأثير عميقا وقويا.²⁸

إن البرامج التلفزيونية التي يقبل الأطفال على مشاهدتها تشمل - عادة - حلقات الرسوم المتحركة، أو مسرح العرائس أو المسلسلات العادية، والتي يدور معظمها حول المشكلات الاجتماعية أو الجريمة. والقليل منها يتسم بالفكاهة ولقد دلت أبحاث أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر الستينات من هذا القرن. نذكر على سبيل المثال

دراسة George Gerbner الذي توصل الى نظرية الغرس الثقافي، دلت على أن العدوان والعنف والحقد والانتقام جميعها أو بعضها تشاهد في الحلقات البوليسية، وحلقات المغامرات والحلقات الاجتماعية، وتشاهد بنسبة أقل في الحلقات الفكاهية، وحتى حلقات الصور المتحركة فان معظمها الذي يهدف إلى اضحاك الصغار يتضمن العنف والعدوان الذي تمارسه شخصيات الحلقات في الصور المتحركة.

أما المجالات المصورة، فان معظم قصصها تدور حول المغامرة والجريمة والجاسوسية، وتشمل نسبة عالية من أعمال العنف والاعتداء، وقد تبين أن الأطفال عادة ما يقلدون ما عرض عليهم على التلفزيون من أنماط السلوك. ويحدث هذا التقليد في وسط الأطفال صغار السن الذين لا يدركون ما يشاهدونه، وبطل القصة عندما يلکم المجرم أو يطلق عليه الرصاص فيريده قتيلا أو جريحا يفهمونه على أنه فوز القوي والعنيف. أما الأطفال الأكبر سنا فيتأثرون باحدى الطريقتين:

الأولى: وهي ملحوظة -عادة- في أطفال الأسر محدودة الدخل والثقافة فهم يمجدون العنف والعدوان. فاذا كان هؤلاء في بداية الطريق إلى الانحراف، فان انحرافهم يتأكد بمشاهدة العنف والجريمة.

الثانية: وهي ملحوظة في أطفال الأسر المثقفة الذين رست قواعد السلوك لديهم واستقرت قيمهم الأخلاقية. وهكذا فانهم يكونون أكثر قدرة على التفريق بين السلوك الطيب والسلوك السيء، ولذلك فانهم لا يتأثرون كثيرا بما يشاهدونه من هذه الأمور.²⁹

IV تقليد البطل وعلاقته بالسلوكيات المكتسبة لدى الطفل:

يبدأ الطفل في تقليد أفعال الآخرين في نهاية السنة الأولى من عمره، ويعتمد هذا التقليد بالأساس على الملاحظة المباشرة للفعل، وفي سن السنتين يكون بمقدور الطفل تموين صورة ذهنية لما يقع حوله، والاحتفاظ بتلك الصور واسترجاعها، بذلك يقلد الطفل ما يقع أمام عينه وتجري ملاحظته.

وعليه لابد من التنبيه إلى الفرق بين الاستعداد للتقليد وعمليات التقليد، فالاستعداد للتقليد هو أمر طبيعي في الإنسان، أما عملية التقليد أو ما يقلده الإنسان بالفعل، فإنه يتوقف على توافر شروط معينة، بعضها كائن في الموقف وبعضها كائن في الإنسان.

من هنا يرى (بياجي)، أن التقليد نوع من أنواع السلوك، لابد له من توافر أمران الرغبة في التقليد، والقدرة على تقليد السلوك المراد تقليده.³⁰

وفي مجال العلاقة بين التقليد والملاحظة، نذكر ما حدده المركز العالمي للطفولة، حيث أشار إلى أربع عمليات فاعلة في التقليد:

♦ الأولى: هي حيث يتحد المشاهد بالمثل الظاهر على الشاشة الصغيرة، وينسج عنه أفكاره وتصرفه وآلامه.

♦ الثانية: هي الانغماس، حيث يكون الاتحاد المذكور حاصلا في اللاوعي، ومستمر فيه ومؤثرا في التصرف العام.

♦ الثالثة: تعطل القدرة على المواجهة، فيكون الانتقال من الفكرة والإحساس، إلى الفعل تلقائيا وعفويا ومن غير رادع.

♦ الرابعة: هي فقدان الشعور حيث يؤدي تكرار الصور وتنفيذاتها على علاوتها ومن غير تنبيه أو رادع ذاتي أو خارجي، و إلى فقدان المشاهد أحاسيس الشفقة أو الخوف أو الحزن أو الرعب، باعتبار أن كل شيء عادي وطبيعي.

يشار في هذا المجال ما جاء في تجربة الباحث Meltzof A. في جامعة واشنطن عام 1988م، حيث وضع بشكل منعزل (40) طفلا لا يتجاوز عمر كل منهم السنة أمام شاشة، يحرك فيها شخص راشد لعبة -دمية- تؤدي بعض الحركات المحدودة تماما، ثم أعطى اللعبة المعينة إلى نصف الأطفال، ولم يعطي الآخرين اللعبة إلا بعد 24 ساعة لاحقا، دون أن يشاهدوا الصور التلفزيونية مرة أخرى، وفي هذه الأثناء تبين بالمقارنة مع مجموعة كانت بمثابة الشهود ولم تر التلفزيون، أن النسبة المئوية للمشاهدين للتلفزيون الذين قلدوا حركات النموذج، كانت ذات مغزى سواء حدث التقليد آنيا أو لاحقا.³¹ وعليه، تشكل البطولة في نفس الطفل مثلاً أعلى يسعى إلى الاحتذاء به، وتدل الدراسة النفسية على أن الأطفال الصغار من سن السادسة والسابعة يختارون مثاهم الأعلى من الآباء والأمهات. وقد وجدت انه بعد سن الثالثة عشر يعود الطفل للاختيار من دائرة المقربين.

تؤدي صورة البطل في التلفزيون دورا مهما في توجيه الطفل، ويتفق معظم خبراء الإعلام على تعاظم هذا الدور في إشباع الحاجات النفسية للطفل، حيث تؤكد الباحثة (جارسيلد) Jerseald "أن اختيار الطفل لنوع البطل يبصرنا بنوع القيم التي يؤمن بها الطفل، والتي تحدد سلوكه، فإعجاب الطفل ببطولة معينة يدل على تفضيله لأفعال معينة وانجذابه نحوها ونفوره من أفعال أخرى، ويلعب البطل في نفسية الفرد لعبة الأب في نفسية الطفل، و البطولة في نفس الطفل تشكل مثلاً أعلى يسعى إلى الاحتذاء به.

ومن أجل ذلك أطلق كثير من النقاد والمفكرين، التحذيرات بشأن أهمية الصورة التي يحملها البطل، منهم الدكتور اعتداده يخلف أستاذة في معهد دراسات الطفولة في مصر، التي تحذر من خطورة صورة البطولة المقدمة للطفل العربي، عن المثل العليا الموجودة في المجتمعات الغربية، كالذكاء والمهارة في تحريك الأحداث، والقدرة الخارقة على تخطي الصعاب، إذ يستقر في ذهن الطفل العربي أن المجتمع الغربي يحتكر هذه القدرات التي يفتقر هو إليها.³²

ومما لا شك فيه أن النماذج الظاهرة في البرامج التلفزيونية المستوردة، هي نماذج غربية وهذا يعني أن الأطفال يجدون القدرة أو المثل الأعلى أو النموذج، خارج قيم مجتمعاتهم المحلية وهذا قد يقود إلى تقليده في أنماط سلوكية مضادة للمجتمع مما يخلق تحديات جديدة للمجتمعات العربية.

الختامة :

من المؤكد أن مصدر المضامين التلفزيونية يشكل واحدا من المؤثرات الهامة على طبيعتها ونوعيتها، ونظرا لحقيقة ان الانتاج التلفزيوني يأخذ الى حد ما سمات الجهة التي انتجته، ولذلك فهو في الغالب مشبع بمضامين فكرية، وثقافية وقيمة ومعرفية، وحتى سلوكية ذات صلة وثيقة بالسياق الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي الذي انتجه.

من خلال دراستنا هذه توصلنا الى انه تم استحداث قنوات بكاملها موجهة الى الطفل العربي، لكن ملا يؤخذ عليها أن معظمها تابع للقطاع الخاص، وبتسميات غربية مثل، Spacetoon Mbc 3، Cartoon Net Work، كما أن معظم برامجها يغلب عليه افلام الكرتون المستوردة فهو اما ياباني او امريكي، مع قلة البرامج المنتجة محليا.

باعتبار أن المضامين القيمية التي تحملها البرامج التلفزيونية الموجهة للطفل في القنوات الأكثر مشاهدة Spacetoon، Cartoon Net Work، Mbc3 وغيرها، صممت بخلفية إيديولوجية غربية فهي بالتأكيد تعمل على بناء وترسيخ القيم الغربية المبنية على الفردانية وتعظيم المادية. حيث أن النجاح الفردي وتحقيق الانجاز والانتصار هو الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الانسان الغربي.

فمن خلال نماذج الشخصيات الكرتونية كسوبرمان وباتمان وبان تان، وغيرها من الشخصيات تؤكد الخلفية القيمية للمجتمع الأمريكي خصوصا، والغربي على وجه العموم المبنى على أساس الصراع واخضاع الآخر، وعلى المتعة واللذة والرفاه دون

الالتفات الى القيم الدينية وهو ما يتناقض مع المجتمعات العربية المسلمة على وجه العموم، والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص.

وعليه، بالرغم من الاهمية التي تحظى بها البرامج التلفزيونية الموجهة الى الطفل العربي لا اعتبار انها تساهم في تشكيل المعارف، وتطوير اللغة لديه، وتوجه له مختلف انواع التسلية، وتعزز لديه بعض القيم المتعارف عليها عالميا في كل الثقافات ولدى معظم الشعوب، منها التعاون، ومحاربة الشر، فعل الخير، الثقة بالنفس، الشجاعة، قوة الإرادة، والطموح، والطاعة، والصبر، والأمانة. لكن في المقابل تبقى هذه البرامج تحمل قيما خفية منها الصراع الطبقي، الرغبة في التفوق الفردي، وبما ان الرسوم المتحركة معظم مضامينها تدور حول المغامرة والجريمة والجاوسوسية وتشمل نسبة عالية من أعمال العنف والاعتداء، هذا قد يساهم في تشكيل سلوكيات غريبة عن بيئة الطفل العربية، خاصة على المدى الطويل.

الهوامش:

1. أماني عمر الحسيني، أطفال في ظروف صعبة ووسائل إعلام مؤثرة، عالم الكتب، القاهرة، 2005، ص 87.
2. عبد الرحمن عزي وآخرون، سلسلة الدراسات الإعلامية، فضاء الإعلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د، ت، ن) ص 92.
3. أماني عمر الحسيني، مرجع سبق ذكره، ص 86.
4. عبد الرزاق محمد الدليمي، وسائل الإعلام والطفل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ص 106.
5. المنصف العياري، القنوات التلفزيونية المتخصصة في برامج الأطفال، مجلة الإذاعات العربية، الدورة الثانية عشر، العدد 04 سنا بكت للنشر والتوزيع، تونس، 2005، ص 68.
6. المنصف العياري، المرجع نفسه، ص 70.
7. مروة أحمد غانم، توظيف أناشيد فضائية طيور الجنة في تنمية مفاهيم التربية الاسلامية، دراسة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، 2012، ص 59 انظر رابط التحميل library.iugaza.edu.ps/thesis/102754.pdf تاريخ الزيارة 20 افريل 2015.
8. قناة كراميش انظر الموقع الالكتروني <https://ar.wikipedia.org> تاريخ الزيارة 20 ماي 2015.
9. قناة براعم، انظر الموقع الالكتروني <https://ar.wikipedia.org> تاريخ الزيارة 20 ماي 2015.

10. أديب خضور وآخرون، التلفزيون والأطفال، سلسلة المكتبة العلمية، (د،د،ن)، دمشق، 1990، ص 37.
11. هاشم احمد نغميش، المواد التلفزيونية في قناة 3 mbc الفضائية للأطفال، بحث في واقع المواد المعروضة في القناة لمدة اسبوع، مجلة الباحث الاعلامي العدد 9-10، 2010، قسم الاعلام، كلية الاداب، جامعة الانبار، ص 192-193 انظر رابط التحميل www.iasj.net/iasjfunc=fulltext&aId=4272 تاريخ الزيارة 12-09-2014.
12. عبد الفتاح أبو معال، أثر وسائل الإعلام على الطفل، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2000، ص 86.
13. المرجع نفسه، ص 60.
14. صالح ذياب هندي، أثر وسائل الإعلام على الطفل، ط 4، دار الفكر، عمان، 2008، ص 46.
15. عبد المهدي زعموم، برامج الأطفال في التلفزيون الجزائري، نموذج الرسوم المتحركة من 1999 إلى 2001، دراسة وصفية ميدانية، أطروحة لنيل شهادة دكتورا في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية و الإعلام، 2008-2009، ص 72.
16. فاتن سليم بركات، مدى توافر القيم في عينة قصص الاطفال في سوريا، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد 03، (د،د،ن)، (د،م،ن)، 2010، ص 193.
17. أديب خضور، التلفزيون والطفل، المكتبة الإعلامية، دمشق، 1990، ص 50.
18. عبد الوهاب بوخنوفة، الوسائط الإعلامية والالكترونية والأطفال، وسائل للترفيه وأدوات للمعرفة، مجلة اتحاد الاذاعات العربية، العدد 03، سنباكت للنشر والتوزيع، تونس، 2008، ص 96.
19. صالح ذياب هندي، مرجع سبق ذكره، ص 46-47.
20. أحمد حسن صالح القواسمة، منظومة القيم الدينية ونقيضها المتضمنة في برامج قناة سبائس تون، لدى طلبة مرحلة الابتدائية، دراسة تحليلية، دراسات العلوم التربوية، المجلد 38، ملحق 06، (د،د،ن)، (د،م،ن)، 2011، ص 2092.
21. اديب خضور، البرامج التلفزيونية الموجهة إلى الأطفال، دراسة تحليل المضمون، التلفزيون السوري- القناة الأولى نموذجاً- سلسلة الاعلام التطبيقي، (د،د،ن)، دمشق، 2008. ص 104.
22. هاني مبارك، البرامج الموجهة للأطفال، محاولة نقدية، مجلة اتحاد الإذاعات العربية، العدد 04، سنباكت للنشر، تونس، 2005، ص 86.
23. السعيد بومعيزة، أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشباب، دراسة استطلاعية بمنطقة البليدة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الإعلام

- والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2006-2005، ص 184.
24. عبد المهدي زعموم، مرجع سبق ذكره، ص 59.
25. عبلة الكحلاوي، الخطاب الديني والطفل، مجلة اتحاد الاذاعات العربية، العدد 01، سنايكت للنشر، تونس، 2007، ص ص 139-140
26. سامية بن عمر، تأثير البرامج التلفزيونية الموجهة للأطفال على التنشئة الأسرية في المجتمع الجزائري، دراسة ميدانية على أطفال مدارس بلدية بسكرة كنموذج، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة خيضر بسكرة، 2012-2013، ص 131.
27. مها الكردي، الطفل المصري والقنوات الفضائية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، (د، م، ن)، 2004، ص 15-16.
28. المرجع نفسه، ص 44
29. محمد عبد الرزاق ابراهيم، وآخرون، ثقافة الطفل، ط 1، دار الفكر، عمان، (د، ت، ن)، ص 278.
30. أسامة ظافر كبارة، برامج التلفزيون والتنشئة التربوية والاجتماعية للأطفال، دار النهضة العربية، بيروت، 2003، ص ص 196-197.
31. المرجع نفسه، ص ص 199-200.
32. أسامة ظافر كبارة، مرجع سبق ذكره، ص ص 201-204.

الائتمان الإيجاري كتقنية لتمويل المؤسسة الاقتصادية في الجزائر

د. بن لكحل نوال (أستاذة محاضرة «أ» المركز الجامعي تيبازة)

د. الأغا تغريد (جامعة الجزائر3)

أ. الأغا سعاد (جامعة الجزائر3)

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الائتمان الإيجاري كتقنية تمويلية تساعد المؤسسات التي تعاني نقص أو عجز في التمويل في الحصول على الأصول اللازمة للقيام بنشاطها وتطويره، وذلك من خلال استئجارها ولمدة معينة محددة في العقد، وبعد انتهاءها يكون للمؤسسة المستأجرة ثلاثة خيارات إما رفع خيار الشراء أي حيازة الأصل، أو إعادة استئجاره بتكلفة أقل، أو إعادته للمؤسسة المؤجرة، وهذا ما يتيح الفرصة لمواكبة التطور التكنولوجي بأقل التكاليف.

الكلمات المفتاحية :

تقنية التمويل - الائتمان (القرض) الإيجاري - شركات الائتمان الإيجاري

Résumé :

Cette étude a pour objet de présenter le crédit-bail comme outil de financement, qui permet aux entreprises qui ont un manque ou un déficit de financement d'obtenir les actifs nécessaires pour développer ses activités, grâce à la location durant une période déterminée dans le contrat, sachant que après cette période l'entreprise locataire se trouve face à trois choix, soit lever l'option d'achat par l'acquisition de l'actif, ou bien renouveler la location avec un cout plus bas, ou bien le

restituer à la société de leasing, cette technique de financement permet le développement technologique au moindre cout.

Mots clés : technique de financement, Crédit-bail (leasing), Sociétés du crédit-bail

مقدمة :

يعتبر الائتمان الإيجاري تقنية تمويلية تسمح للمؤسسات الاقتصادية بتمويل استثماراتها والتوسع في نشاطاتها دون حاجتها لرؤوس أموال ضخمة التي تعتبر عائقا أمام نموها وتطورها.

حيث أن عملية التأجير كانت معروفة منذ القدم وتعود إلى عام 2000 قبل الميلاد في عهد السومريين، وسجلت أول عملية تأجير في بريطانيا سنة 1855م من خلال تأجير عربات السكك الحديدية، لكن ظهوره بالشكل المعروف عليه الآن فقد كان في مرحلة متقدمة من تطور نظم الائتمان، وتعود بداية انتشاره عندما أسس أحد رجال الصناعة (Boothe Junior) في الولايات المتحدة الأمريكية شركة الائتمان الإيجاري سنة 1952 عرفت باسم United states leasing corporation، وفي أعقاب تأسيس هذه الشركة سرعان ما زاد الطلب على إيجار المعدات الإنتاجية، وتعاضت أرباح هذه الشركة في فترة زمنية وجيزة، وما لبث أن تأسست شركات تأجير تمويلي أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وقد ساعد على ظهورها عدة عوامل منها التطورات التكنولوجية الهائلة في وسائل الإنتاج وسرعة تقادمها بظهور تجهيزات إنتاج أحدث، وبما أنه من الصعب امتلاك هذه التجهيزات الحديثة نظرا لارتفاع تكلفتها، كان استئجارها والاستفادة منها واستغلالها دون تملكها أحسن حل لمواجهة هذه المشكلة، وبهذا اعتبر الائتمان الإيجاري وسيلة أساسية لترقية الطلب على المنتجات الصناعية وإعطاء دفع قوي لنموها، وذلك في ظل الظروف التضخمية والإجراءات الصعبة التي تتطلبها القروض التقليدية مع ضعف التمويل الذاتي الذي تعاني منه أغلب المؤسسات، الأمر الذي أدى إلى تزايد أهمية الائتمان الإيجاري في معظم دول العالم وليس المتقدمة منها فقط.

وبناء على ذلك تسعى هذه الدراسة إلى معالجة الإشكالية التالية:

ما مدى مساهمة الائتمان الإيجاري في تمويل المؤسسة الاقتصادية بالجزائر؟

وفي هذا الصدد سنتطرق إلى العناصر التالية:

- أولاً: مفهوم وأطراف الائتمان الإيجاري.
- ثانياً: العقود المتضمنة لعملية الائتمان الإيجاري.
- ثالثاً: مراحل عملية الائتمان الإيجاري وأنواعه.
- رابعاً: تقييم الائتمان الإيجاري كمصدر للتمويل.
- خامساً: الائتمان الإيجاري في الجزائر.

أولاً: مفهوم وأطراف الائتمان الإيجاري

سنتطرق فيما يلي إلى مفهوم الائتمان الإيجاري ومختلف الأطراف الواجب توفرها.

➤ مفهوم الائتمان الإيجاري

يعرّف الائتمان الإيجاري بأنه «اتفاق بين طرفين، يخول لأحدهما حق الانتفاع بأصل مملوك للطرف الآخر مقابل دفعات دورية خلال فترة الإيجار التي تحدد عادة بمدة إهلاك الأصل¹، حيث أن المؤجر هو الطرف الذي يحصل على الدفعات الدورية مقابل تقديم الأصل، في حين أن المستأجر هو الطرف المتعاقد على الانتفاع بخدمات الأصل مقابل سداده لأقساط التأجير للمؤجر»².

وبالتالي فالائتمان الإيجاري هو وسيلة لتمويل المشاريع المختلفة دون حاجة أصحابها إلى رؤوس أموال كبيرة لشراء الأصول اللازمة³، وذلك مقابل قسط الإيجار الذي يدفعه للمؤسسة المؤجرة حسب الاتفاق المبرم بينهما.

كما يمكن تعريف الائتمان الإيجاري بأنه «عملية إيجار للقيم المنقولة وغير المنقولة، حيث تقوم المؤسسات باستئجار ما تحتاجه من منقولات وعقارات من إحدى المؤسسات المتخصصة في الائتمان الإيجاري لمدة محددة، وتدفع مقابل ذلك إيجاراً لمدة تساوي أو أقل من مدة إهلاك الأصل المستجراً أهائيهتهنتياًجر، وفي نهاية مدة الإيجار يمكن أن يقوم المستأجر بإعادة تجديد عقد الإيجار، أو شراء الأصل المستأجر، أو إعادته للمؤسسة المؤجرة»⁴.

ومن خلال هذين التعريفين نستنتج أن الائتمان الإيجاري هو عبارة عن «عقد يبرم بين طرفين المؤجر (مالك الأصل) والمستأجر (مستخدم الأصل)، حيث يقوم المؤجر بمنح حق استخدام الأصل للمستأجر لفترة زمنية معينة، مقابل قيام هذا الأخير بتسديد أقساط الإيجار المتفق عليها في العقد».

◀ أطراف الائتمان الإيجاري

تنشأ عملية الائتمان الإيجاري بين ثلاثة أطراف وتتمثل في المورد (المنتج)، المؤجر والمستأجر، وسوف نتطرق لكل منهم فيما يلي:⁵

♦ **المورد (المنتج):** هو الطرف الذي يسلم الأصل إلى المؤجر وفقا للمعايير والمقاييس المتفق عليها بينه وبين المستأجر، أما عن الأصل موضوع الإيجار فيمكن أن يكون عبارة عن أصول غير منقولة كالعقارات أو أصول منقولة كالتجهيزات؛

♦ **المؤجر:** هو مؤسسة الائتمان الإيجاري التي تقبل تمويل عملية التأجير، وتتميز بالملكية القانونية للأصل موضوع العقد؛

♦ **المستأجر:** يمثل الطرف الذي تتم عملية التأجير لصالحه، حيث يقوم بتحديد مواصفات الأصل الذي يرغب في تأجيره بالتفاوض مع المورد حول السعر، التكلفة والمدة، ليقوم باستخدامه مقابل تسديد دفعات الإيجار وفقا للاتفاق المبرم مع المؤجر.

ثانياً: العقود المتضمنة لعملية الائتمان الإيجاري؛

إن القيام بعملية الائتمان الإيجاري يتضمن إبرام مجموعة من العقود بين مختلف الأطراف المشاركة فيه، والتي تتمثل فيما يلي:⁶

- **عقد الشراء:** يبرم هذا العقد بين المورد والمؤجر في حالة اختلافهما، ويستفيد منه بصفة مباشرة المستأجر بالرغم من أنه ليس طرفاً فيه، حيث يشمل العقد شراء المعدات محل التعاقد حسب اختيار المستأجر ووفق شروطه ومواصفاته.

- **عقد التأجير:** يبرم بين المؤجر والمستأجر، ويتضمن وعد أول يكون من طرف المؤجر يتعلق بتأجير المعدات، ووعد ثاني يكون من طرف المستأجر يتعلق باستخدام الأصل محل التعاقد.

- **عقد الاقتراض:** يكون هذا العقد بين المقرض المتمثل أساساً في البنك، والمقرض المتمثل في المؤجر أو المستأجر.

- **عقد الصيانة:** يبرم هذا العقد بين المستأجر ومورد الأصل في حالة تحمّل المستأجر لتكاليف الصيانة والتأمين بدلا من المؤجر، وهذا بهدف ضمان استمرار تشغيله واستغلاله بكفاءة وفعالية.

ثالثا: مراحل عملية الائتمان الإيجاري وأنواعه

سنستطرق فيما يلي إلى المراحل التي تمر بها عملية الائتمان الإيجاري، بالإضافة إلى مختلف الأنواع التي يشتملها الائتمان الإيجاري.

◀ **مراحل عملية الائتمان الإيجاري**

تمر عملية الائتمان الإيجاري بثلاثة مراحل:

- **المرحلة الأولى:** تتمثل في إنجاز عملية الشراء، حيث تشتري مؤسسة الائتمان الإيجاري الأصل المراد تأجيره من المورد لتؤجره إلى المستأجر؛

- **المرحلة الثانية:** تتمثل في تأجير الأصل طبقا للأحكام المرتبطة بالائتمان الإيجاري، حيث يسلم المؤجر الأصل للمستأجر بغرض استعماله خلال مدة التأجير، كما يمنحه ضمانا ضد المشاكل الناجمة عن حيازة الأصل وهذا حسب نوع الائتمان الإيجاري المستعمل؛

- **المرحلة الثالثة:** تتمثل في انقضاء عملية الائتمان الإيجاري التي تسمى بمرحلة الخيار، ففي نهاية مدة التأجير المحددة في العقد يجد المستأجر نفسه أمام ثلاث خيارات كالتالي:

♦ رفع خيار الشراء المنصوص عليه في العقد مقابل دفع المبلغ المتبقي للأصل إلى المؤجر، وبالتالي يكتسب المستأجر الأصل ويتمتع بالملكية التامة له؛

♦ طلب تجديد العقد، من خلال التفاوض مع المؤجر لتسديد أقساط أقل من الأقساط المدفوعة سابقا بالنظر إلى القيمة المتبقية للأصل؛

♦ إعادة الأصل إلى المؤجر، الذي بدوره يبحث عن مستأجر آخر، أو يبيع الأصل في سوق التجهيزات المستعملة، أو يعيده إلى المورد بعد موافقة هذا الأخير.

◀ **أنواع الائتمان الإيجاري:**

سوف نتطرق إلى الأنواع التي يتخذها الائتمان الإيجاري من خلال زاويتين كالتالي:

✓ **الائتمان الإيجاري حسب طبيعة العقد:** نميز بين الائتمان الإيجاري المالي والائتمان الإيجاري التشغيلي كما يلي:

- **الائتمان الإيجاري المالي:** يعتبر الائتمان الإيجاري مالي إذا تم تحويل كل الحقوق، الالتزامات، المنافع، المساوى والمخاطر المرتبطة بملكية الأصل المعني إلى المستأجر، ويعني ذلك أن مدة العقد كافية حتى تسمح للمؤجر باسترجاع كل نفقات رأس المال مضافا إليها عوائد الأموال المستثمرة⁷.

ومن أهم خصائص هذا النوع من الائتمان الإيجاري أنه لا يوفر خدمات الصيانة حيث يتكفل المستأجر بنفقات الصيانة بالكامل وبتكاليف التأمين والضرائب العقارية، ولا يمكن إلغاء عقود الاستئجار المالي، كما أن مدفوعات الإيجار تغطي بالكامل قيمة الأصول المستأجرة بمعنى أن إجمالي الإيرادات التي يتلقاها المؤجر تكون مساوية للقيمة الكلية للأصول المستأجرة إلى جانب معدل عائد استثمار هذه الأصول⁸.

- **الائتمان الإيجاري التشغيلي (العملي):** يتمثل في قيام المؤجر بتقديم التجهيزات وضمان خدمات الصيانة إلى المستأجر، وتعتبر السيارات، الشاحنات والكمبيوتر في عداد التجهيزات التي يمكن الحصول على خدماتها بعقد الإيجار التشغيلي، حيث تكون تكلفة الصيانة محسوبة في دفعات الإيجار الدورية التي يقوم المستأجر بسدادها، أو أنه يتم التعاقد عليها بشكل منفصل.

ومن بين خصائص الائتمان الإيجاري التشغيلي أن المؤجر يلتزم بصيانة الأصل المؤجر للغير، ومدة التأجير تكون قصيرة نسبيا أي أنها أقل من الحياة الإنتاجية للأصل، وبالتالي فإن قيمة الاستئجار لا تغطي تكلفة الأصل هذا ما يدفع بالمؤجر إلى إعادة تأجيرها إما لنفس المؤسسة أو لمؤسسات أخرى، كما أن عقود الائتمان الإيجاري التشغيلي قابلة للإلغاء وإرجاع الأصل إلى المؤجر قبل نهاية مدة العقد، وهذا ما يمكن المستأجر من مواكبة التكنولوجيا الجديدة بالتخلي عن الأصول القديمة المستأجرة⁹.

✓ **الائتمان الإيجاري حسب طبيعة موضوع التمويل:** نميز بين الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة والائتمان الإيجاري للأصول غير المنقولة كما يلي:

- **الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة:** يتمثل في قيام المؤسسة المؤجرة بتأجير أصول منقولة تتكون أساسا من تجهيزات وأدوات ضرورية لنشاط المؤسسة المستأجرة خلال مدة محددة، وذلك من خلال عقد الإيجار الذي يتضمن شروط متفق عليها بين المؤجر والمستأجر¹⁰، وفي نهاية المدة يمكن للمستأجر تجديد العقد لمدة أخرى، أو شراء الأصل، أو التخلي عنه نهائيا بإرجاعه للمؤسسة المؤجرة.

- الائتمان الإيجاري للأصول غير المنقولة: يهدف هذا النوع من الائتمان الإيجاري إلى تمويل أصول غير منقولة تتشكل أساساً من بنايات شيدت أو في طريق التشييد، أين يقوم المؤجر بتأجيرها إلى المؤسسة المستأجرة لاستعمالها في نشاطاتها المهنية مقابل ثمن الإيجار، وهو أكثر تعقيداً من الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة لأنه يتطلب وقت طویل لإنجاز المشروع والتأكد من ملائمة العقارات للأنشطة المهنية الخاصة بالمؤسسة المستأجرة كما يتطلب أموالاً طائلة¹¹.

رابعاً: تقييم الائتمان الإيجاري كمصدر للتمويل

هناك العديد من المزايا التي تشجع المؤسسات إلى اللجوء للتمويل عن طريق الائتمان الإيجاري بغرض الحصول على الأصول من عقارات ومنقولات، لكن وجود هذه المزايا لا يعني بالضرورة خلو هذا المصدر من العيوب، وفيما يلي سوف نتطرق إلى أهم هذه المزايا والعيوب.

◀ مزايا التمويل بالائتمان الإيجاري

باعتبار الائتمان الإيجاري وسيلة لتمويل المشروعات الإنتاجية في مختلف الأنشطة الاقتصادية، فإنه يحقق مزايا كبيرة بالنسبة للمؤسسة المستأجرة نذكر منها:

- التمويل الكلي للاستثمار، حيث أن الائتمان الإيجاري يضمن تمويل الاستثمار بنسبة 100% دون مساهمة المؤسسة المستأجرة بأموالها الخاصة، وهذا لا يوجد عادة في أساليب التمويل الأخرى؛

- يمكن المؤسسة المستأجرة من حيازة الأصول الرأسمالية اللازمة لنشاطها، دون الحاجة إلى تجميد جزء كبير من أموالها، مما يتيح لها سيولة أكبر تستخدمها في أوجه أخرى؛

- الأقساط الإيجارية قابلة للخصم، بما أنها تدفع من قبل المؤسسة المستأجرة إلى المؤجر فهي تعتبر كأعباء استغلال يتم خصمها كاملة من النتيجة الخاضعة للضريبة، وبالتالي تحقيق وفورات ضريبية؛

- السهولة والسرعة في الحصول على هذا النوع من التمويل، بحيث يتم الإجابة على الطلب في وقت قصير وإبرام عقد الإيجار في حالة الموافقة؛

- يعتبر الائتمان الإيجاري نوع من التأمين ضد المخاطر التكنولوجية، وذلك لأنه منظم بصفة تسمح بتجديد مستمر للأصول في حالة ظهور وسائل أكثر مردودية عن سابقتها.

❏ عيوب التمويل بالائتمان الإيجاري

إن لجوء المؤسسات للتمويل بالائتمان الإيجاري يفرض عليها أعباء وتكاليف هائلة غير قابلة للإلغاء على المدى الطويل خاصة بالنسبة للمؤسسات ذات المردودية الضعيفة، ومن أبرز هذه العيوب مايلي:

- التكلفة المرتفعة التي تشكل عائقا كبيرا وعاملا أكثر سلبية بالنسبة للمؤسسة المستأجرة، فمبلغ الأقساط الإيجارية التي تدفعها هذه المؤسسة تشمل في:¹²

✓ تكلفة رأس المال المستثمر؛

✓ مكافأة الخدمة المقدمة المتمثلة في سرعة التمويل الكامل؛

✓ إهلاك الاستثمار.

- مقارنة مع المؤسسة مانحة القرض الإيجاري، تتحمل المؤسسة المستأجرة مصاريف تسيير إضافية ناتجة عن العلاقة الثلاثية (المورد، المستأجر، المؤجر)؛

- تتحمل المؤسسة المستأجرة العيوب الخاصة بعدم توافق الأصل المؤجر مع عملياتها الإنتاجية، فتصبح مضطرة لدفع أقساط الإيجار حتى نهاية مدة العقد باعتبار أن المؤجر غير مسؤول عن العيوب الخفية للاستثمار؛

- تقيّد حرية المستأجر في اختيار الآلات والتجهيزات الإنتاجية نظرا لارتباط المؤسسة المؤجرة بمجموعة صناعية معينة.

خامسا: الائتمان الإيجاري في الجزائر

❏ الإطار القانوني

قبل أن يضع المشرع الجزائري تنظيم قانوني خاص بالائتمان الإيجاري، تناول ذلك سطحيا من خلال تظلمات وقوانين معينة، بدءا بقانون النقد والقرض رقم 90/10 الصادر في 14 أفريل 1990 الذي ينص على أن عمليات الإيجار بخيار الشراء لاسيما القرض الإيجاري شبيهة بعمليات القرض¹³، ويتم ممارستها فقط على مستوى البنوك والمؤسسات المالية فقط¹⁴، غير أن هذه الأخيرة تم إلغاؤها من خلال الأمر رقم 03-11 الصادر في 26 أوت 2003 المتعلق بالنقد والقرض والمعدل والمتمم للقانون 90/10.

ليأتي بعد ذلك القانون رقم 91/26 ليؤطر الائتمان الإيجاري في الجزائر الصادر في 18 ديسمبر 1991، والمتعلق بالمخطط المحاسبي الوطني لسنة 1992، الذي صنف الائتمان الإيجاري في عداد النشاطات ذات الأولوية، وأدرج صراحة بأن الأصول المنقولة وغير المنقولة الممنوحة وفق الائتمان الإيجاري تسجل ضمن الصنف الرابع «الحقوق».

وبعدها تم إصدار الأمر رقم 96/09 المتعلق بالائتمان الإيجاري في الجزائر الصادر في 10 جانفي 1996 المتضمن الأطر القانونية والجبائية التي سيتم العمل بها والتي تسمح للبنوك ومؤسسات الإيجار بممارسة هذه التقنية كمصدر لتمويل الاستثمارات، ومن أهم ما جاء به هذا الأمر أن عملية الائتمان الإيجاري هي عبارة عن عقد يخضع لتنظيم قانوني خاص باعتباره عقد تجاري وأداة قرض في نفس الوقت¹⁵.

حيث عرّف الائتمان الإيجاري في مادته الأولى بأنه عملية تجارية ومالية تبرم من طرف البنوك والمؤسسات المالية أو من طرف مؤسسة القرض الإيجاري المعتمدة، والمتعلقة بعمليات اقتصادية وطنية أو دولية، لأشخاص طبيعيين أو معنويين عموميين أو خواص، من خلال عقد إيجار يحمل أو لا يحمل خيار الشراء لصالح المستأجر لأصول منقولة أو غير منقولة.

ليتم إصدار التعليمات رقم 96/07 التي تحدد طرق تأسيس شركات الإيجار الصادرة في 22 أكتوبر 1996، والتي أدرجت الملف الذي يجب تقديمه إلى مجلس النقد والقرض للحصول على الاعتماد الذي يؤهلها لممارسة هذه المهنة، والذي يتكون من ثلاثة ملاحق تشمل معلومات حول المساهمين برؤوس الأموال، معلومات وصفية للمشروع ونموذج للرسالة الموجهة لمحافظ لبنك الجزائر¹⁶.

ومن بين الإعفاءات الضريبية والجمركية التي تستفيد منها هذه الشركات من أبرزها:¹⁷

- ✓ الإعفاء من الرسم على القيمة المضافة؛
- ✓ الإعفاء من الضريبة على أرباح الشركات، أو الضريبة على الدخل الإجمالي؛
- ✓ الإعفاء من الدفع الجزافي؛
- ✓ الإعفاء من الرسم العقاري لمدة عشر سنوات.

◀ شركات الائتمان الإيجاري في الجزائر

على الرغم من وجود شركات مؤهلة لممارسة الائتمان الإيجاري في الجزائر إلا أن نشاطها يعتبر ضئيل ومحدود، وفيما يلي لمحة عن أبرز هذه الشركات:

1- الشركة الجزائرية السعودية للتمويل الإيجاري:¹⁸ تم تأسيس هذه الشركة في سنة 1990 من خلال الشراكة بين البنك الخارجي الجزائري والمجمع الصناعي والمالي السعودي «دله البركة» كفرع من الشركة الدولية للتمويل الإيجاري التي يقع مقرها الرئيسي في لوكسمبورغ، ويبلغ رأسمالها بـ 20 مليار دولار.

تهدف هذه الشركة أساساً إلى تمويل الواردات بالعملة الصعبة من التجهيزات الموجهة إلى نشاط مهني وليس تجاري لاسيما التجهيزات الصناعية والطبية ومعدات الإعلام الآلي.

ومن بين الشروط التي وضعتها الشركة في إطار التمويل الإيجاري أن يكون مبلغ العملية ما بين مليون وعشرة ملايين دولار لكل عملية، في حين تكون تتراوح مدة التأجير بين ثلاثة إلى سبعة سنوات، مع تقديم ضمانات سواء عينية أو شخصية، فضلاً عن ضمان البنك الخارجي في شكل خطاب الموافقة على العملية، كما تم تحديد العملة بالدولار الأمريكي ويتحمل المستأجر كافة المصاريف القضائية.

2- بنك البركة الجزائري:¹⁹ تم تأسيس هذا البنك في 20 ماي 1990، ويعتبر أول مؤسسة بنكية برأسمال مختلط عمومي وخاص يساهم فيه بنك الفلاحة والتنمية الريفية ومجموعة دله البركة السعودية، حيث قدر بـ 500 مليون دينار جزائري، ليتم رفعه إلى 10 مليار دينار جزائري في سنة 2009.

3- الشركة الجزائرية لإيجار المنقولات «SALEM»: معتمدة من طرف بنك الجزائر وفق القرار رقم 97/ 03 الصادر في 28 ماي 1997، وهي فرع للصندوق الوطني للتعاون الفلاحي CNMA، يقدر رأسمالها بـ 1.650.000.000 دج من طرف الصندوق الوطني للتعاون الفلاحي بمقدار 1 مليار دج، والباقي أي 650 مليون دج عبارة عن مساهمة بنك الفلاحة والتنمية الريفية، القرض الشعبي الجزائري، الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط وشركة سوفينانس.

غير أن مجلس النقد والقرض سحب الاعتماد لهذه الشركة من ممارسة نشاط الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة، وذلك في 25 سبتمبر 2008²⁰.

4- الشركة المالية للاستثمار، المساهمة والتوظيف «سوفينانس»:²¹ هي عبارة عن شركة ذات أسهم، تم إنشاؤها من طرف المجلس الوطني لمساهمات الدولة في 09 جانفي 2001، برأسمال اجتماعي يبلغ 5 مليار دينار جزائري.

تهدف هذه الشركة إلى المساهمة في إنشاء وتطوير الشركات في المجال الاقتصادي لخلق قيمة مضافة، من خلال مرافقتهم في مرحلة الإنشاء والاستثمار ودعمهم في مشاريعهم.

وفي سنة 2001 تم اعتمادها من طرف بنك الجزائر كمؤسسة مالية، وفي هذا الصدد سرعان ما طرحت مصادر جديدة للتمويل في إطار تطوير السوق الجزائرية لاسيما ممارسة الائتمان الإيجاري والمشاركة في رأسمال المؤسسات.

5- الشركة العربية للائتمان الإيجاري²²: ALC تعتبر أول شركة خاصة تنشط في مجال الائتمان الإيجاري في الجزائر، تم إنشاؤها في أكتوبر 2001 برأسمال يبلغ 3.500.023.744 دج يتكون من مساهمات بنك المؤسسة العربية المصرفية بنسبة 41٪، الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط بنسبة 27٪، الشركة العربية للاستثمار بنسبة 25٪ والباقي الذي يمثل نسبة 7٪ عبارة عن مساهمة مستثمرين خواص.

تسعى هذه الشركة إلى القيام بنشاط البحث وإدارة عقود الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة، التي تعتمد أساسا على معدات الإنتاج لمختلف القطاعات الاقتصادية لاسيما قطاع البناء، الأشغال العمومية والنقل، وتخص المؤسسات التي لديها ستين من النشاط ويمكنها تبرير ذلك بتقديم ميزنتين متتاليتين لنشاطها.

وتجدر الإشارة إلى أن المبلغ الأدنى للعقد المعتمد من قبل الشركة العربية للائتمان الإيجاري هو 1.500.000 دج، ولمدة متوسطة تتراوح بين 3 إلى 5 سنوات.

6- مغربليزنيغ الجزائر²³: (Maghreb Leasing Algérie) تم تأسيسها في 15 جانفي 2006 برأسمال يبلغ مليار دينار جزائري، وعرفت نجاحا كبيرا خاصة من طرف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة فيما يتعلق بحيازة السيارات، معدات الإنتاج والمحلات المهنية، حيث أصبحت هذه الشركة رائدة في مجال القرض الإيجاري خلال مدة ثلاثة سنوات من نشأتها أين أصبحت تمثل 25٪ من حصة السوق في سنة 2010.

7- الشركة الوطنية للإيجار المالي²⁴: (Société Nationale de Leasing) أنشئت هذه الشركة في جويلية 2010 برأسمال يبلغ 3.500.000 دج موزع بالتساوي بين بنك التنمية المحلية والبنك الوطني الجزائري، وتهدف أساسا إلى تطوير قطاع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة فضلا عن المهن الحرة في الجزائر.

حيث تتولى الشركة الوطنية للإيجار المالي القيام بعمليات الائتمان الإيجاري للأصول المنقولة لاسيما تجهيزات الإنتاج، عمليات الائتمان الإيجاري للقيم غير المنقولة، بالإضافة إلى عمليات الائتمان الإيجاري المتعلقة بصناديق التجارة والمؤسسات الحرفية.

◀ الأطراف المهتمة بالائتمان الإيجاري في الجزائر

إن وجود شركات الائتمان الإيجاري يؤدي إلى تسهيل حصول المؤسسات على الأصول اللازمة لممارسة وتطوير نشاطها، مقابل دفع أقساط الإيجار المتفق عليها في العقد مع إمكانية الاختيار بين ثلاثة بدائل في نهاية المدة إما الحيازة على الأصل أو إعادته لشركة الإيجار أو إعادة تأجيره بأقساط منخفضة، وهذا ما يتيح للمؤسسة العديد من المزايا من أبرزها مواكبة التطور التكنولوجي بشروط ميسرة.

وعلى هذا يمكن إبراز الأطراف المهتمة بهذه التقنية من التمويل على سبيل المثال لا الحصر، تتمثل فيما يلي:

1- المؤسسات الصغيرة والمتوسطة: تلعب هذه المؤسسات دورا بارزا في تطوير الاقتصاد، حيث تخلق جو من المنافسة وتشجيع الابتكار، فضلا عن خلق فرص عمل وبالتالي التقليل من نسبة البطالة.

وبالنظر إلى الموارد المالية المحدودة لهذه المؤسسات من جهة، وحاجتها إلى التجهيزات والمعدات من جهة أخرى، فإنها تجد في هذه التقنية الحل الأمثل لتمويل احتياجاتها في ظل صعوبة حصولها على التمويل البنكي نظرا لعدم توفرها على الضمانات الكافية، ومن بين أهم القطاعات التي تلجأ إلى الائتمان الإيجاري في الجزائر نجد قطاع الزراعة، الصيد، المواد الغذائية لتمويل آلات التحويل، وقطاع النقل.

2- المهن الحرة: إن تزايد بروز المهن الحرة جعل من الائتمان الإيجاري مصدرا مهما للتمويل، خاصة بالنسبة للقطاع الطبي الذي يعتبر رائدا في هذا المجال نظرا للمعدات التي يحتاجون لها.

3- المؤسسات الكبرى: تلجأ هذه المؤسسات إلى الائتمان الإيجاري باعتباره تقنية مهمة للتمويل لاسيما فيما يتعلق بالمزايا الضريبية التي يتيحها للمؤسسات المستأجرة، ومن بين أهم القطاعات نجد قطاع المحروقات فيما يتعلق بحيازة تجهيزات الحفر، قطاع الأشغال العمومية وقطاع الصناعة.

الخلاصة :

يعد الائتمان الإيجاري أسلوبا يساعد المؤسسات الاقتصادية خاصة الصغيرة والمتوسطة منها التي تعاني من ضعف مواردها الذاتية وعدم قدرتها على الاقتراض نظرا

لعدم توفرها على الضمانات الكافية، للحصول على التجهيزات اللازمة للقيام بنشاطها وتطويره، وبذلك تتمكن من مواكبة التطور التكنولوجي بأقل تكلفة، وما ينجر عنه من تحريك عجلة التنمية وإنشاء مناصب شغل.

وبالنظر إلى تطبيق الائتمان الإيجاري في الجزائر تم إدخاله كأداة تمويلية بصدور قانون النقد والقرض 10/90، ليتم تنظيمه في إطار تشريعي من خلال الأمر رقم 96-09 الخاص بالقرض الإيجاري، وبعدها تم صدور العديد من النصوص المتعلقة بكيفية سيره، فضلا عن كيفية اعتماد الشركات الممارسة له واستفادتها من التحفيزات الجبائية والجمركية الممنوحة.

وعلى الرغم من ممارسة هذه التقنية في الجزائر بتوفر جانب العرض المتمثل في شركات القرض الإيجاري من جهة، وجانب الطلب المتمثل أساسا في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من جهة أخرى، إلا أنه يتطلب المزيد من تفعيل نظر الجهل العديد من المؤسسات لهذه التقنية في التمويل، ولما تحمله من أهمية في تطوير الاقتصاد الوطني من خلال مساهمتها في إنعاش العديد من القطاعات وتوفير مناصب شغل وبالتالي التقليل من نسبة البطالة.

النتائج:

- ✓ يعد الائتمان الإيجاري مصدرا تمويليا للمؤسسات الاقتصادية، يتيح لها إمكانية الحصول على الأصول اللازمة لنشاطها عن طريق الإيجار.
- ✓ في نهاية مدة الإيجار، يكون أمام المؤسسة المستفيدة من التمويل عن طريق الائتمان الإيجاري ثلاثة حالات، إما أن تشتري الأصل محل الإيجار، أو أن تعيد تأجيره بتكلفة أقل، أو تعيده للمؤسسة المؤجرة.
- ✓ تتمثل شركات الائتمان الإيجاري بالجزائر في الشركة الجزائرية السعودية للتمويل الإيجاري، بنك البركة الجزائري، الشركة الجزائرية لإيجار المنقولات، الشركة المالية للاستثمار والمساهمة والتوظيف «سوفينانس»، الشركة العربية للائتمان الإيجاري، مغرب لينزنغ الجزائر، الشركة الوطنية للإيجار المالي.
- ✓ تعتبر المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من أهم الأطراف المستفيدة من الائتمان الإيجاري نظرا لنقص مواردها المالية، غير أنه يعتبر مصدرا تمويليا لباقي المؤسسات لاسيما المهن الحرة والمؤسسات الكبرى.

التوصيات:

- ✓ ضرورة تطوير وتعزيز وزيادة شركات الائتمان الايجاري في الجزائر بتسهيل إجراءات إنشائها واعتمادها، فعلى الرغم من وجودها إلا أنها لا تعد كافية بالنظر لتعدد المؤسسات العاجزة عن التمويل.
- ✓ لا بد من تقليص مدة منح الائتمان الايجاري، من خلال استعمال تقنيات أكثر حداثة لدراسة ملفات الطالبين، وبالتالي تمكينهم من الحصول على الأصول ومزاولة نشاطهم في فترة وجيزة.
- ✓ تسهيل إجراءات الاستفادة من عملية الائتمان الايجاري خاصة بالنسبة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وتقديم مساعدات لها من قبل الدولة نظرا لما لها من دور كبير في امتصاص البطالة.

الهوامش

1. Pierre Cabane, L'essentiel de la finance à l'usage des managers, 2e édition, Eyrolles, Paris, 2004, P217.
2. Samia Oulounis, Gestion Financière Internationale, Office des publications universitaires, Alger, 2005, P46.
3. Georges Legros, Mini Manuel de Finance d'entreprise, Dunod, Paris, 2010, P168.
4. صليحة بن طلحة، بوعلام معوشي: الدعم المالي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ودورها في القضاء على البطالة، الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية، جامعة الشلف، الجزائر، 17-18 أفريل 2006، ص 357.
5. Jean-François Gervais, Les Clés du Leasing, édition d'Organisation, Paris, 2004, P05.
6. عاشور كتوش، عبد الغني حريري: التمويل بالائتمان الايجاري والاكنتاب في عقود و تقييمه مع دراسة حالة الجزائر، مداخلة مقدمة ضمن فعاليات المؤتمر الدولي حول التمويل وأثرها على الاقتصاديات والمؤسسات -دراسة حالة الجزائر والدول النامية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 21-22 نوفمبر 2006، ص 06.
7. عاشور كتوش، عبد الغني حريري، مرجع سبق ذكره، ص 08.
8. عاطف وليم أندراوس، التمويل والإدارة المالية للمؤسسات، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2006، ص ص 389-390.
9. أحمد بوراس، تمويل المنشآت الاقتصادية، دار العلوم، عنابة، الجزائر، 2008، ص ص 102-103.
10. Jean Barreau, Jacqueline Delahaye, Florence Delahaye, Gestion Financière DECF4: Manuel et Application, 14e édition, Dunod, Paris, 2005, P376.

11. السعيد بريش، التمويل التأجيري كبديل لتمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر، مداخلة ضمن الملتقى الدولي حول سياسات التمويل وأثرها على الاقتصاديات والمؤسسات -دراسة حالة الجزائر والدول النامية، جامعة بسكرة، الجزائر، -21 22 نوفمبر 2006، ص 08.

12. عاشور كتوش، عبد الغني حريري، مرجع سبق ذكره، ص 18

13. Article 112 de la loi 1090/ relative à la monnaie et au crédit, paru dans le journal officiel de la république algérienne N°16, du 181990/04/.

14. Article 116 de la loi 1090/ relative à la monnaie et au crédit, Ibid.

15. Ordonnance N°9609/,relative au crédit-bail, paru dans le journal officiel de la république algérienne N°03 du 141996/01/.

16. Instruction N°0796/ du 221996/10/ relatif aux modalités de constitution des sociétés de crédit-bail et les conditions de leurs agrément.

17. <http://www.mf.gov.dz/article/300/Grands-Dossiers/256/L%E299%80%ACTIVITE-DE LEASING-EN-ALGERIE.html>, Consulté le 212014/12/.

18. <http://www.alifleasing.net/>, consulté le 232014/12/.

19. www.albaraka-bank.com consulté le 232014/12/.

20. المقرر رقم 08-03 الصادر في 25 سبتمبر 2008 المتضمن سحب الاعتماد، الصادر في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية المؤرخة في 10 شوال 1429 الموافق ل 19 أكتوبر 2008، العدد 60، ص 31.

21. www.sofinance.dz, consulté le 242014/12/.

22. www.arableasing-dz.com, consulté le 242014/12/.

23. www.msaleasing.com, consulté le 252014/12/.

24. www.snl.dz/, consulté le 242014/12/.

المحددات الشخصية والبيئية للطموح عند الشباب

الدكتورة: بكير مليكة

علم النفس التربوي

المركز الجامعي بتيبازة.

ملخص :

يشكل الشباب الشريحة الكبرى في العالم العربي عموما والمجتمع الجزائري خصوصا، والطاقة البشرية الحيوية القادرة على القيام بالعمليات النهضوية. فهم الرصيد الاستراتيجي والثروة الحقيقية لذلك، فالحديث عنهم حديث عن المستقبل والتحديات المقبلة. وهذه الفئة العمرية تتطلب منا دراسة أوضاعها والوقوف عند همومها ومعرفة تطلعاتها وطموحاتها. إذ يعد الطموح من أهم السمات التي أدت إلى التطور السريع الذي شهده العالم في الآونة الأخيرة. فهو الدافع الذي يقوم بشحذ الهمم وترتيب الأفكار للارتقاء بمستوى الحياة من مرحلة إلى أخرى متقدمة. فالأمة العربية أحوج إلى جيل طموح واثق بنفسه له تطلعات سامية وقادرة على تحقيق طموحاته وطموحاته أمته. وعلى اعتبار ذلك فإن الطموح يشكل بعدا من الأبعاد التي لها تأثير في الشخصية الإنسانية وفي حياة الفرد والجماعة، إذ أنه واحد من أهم المفاهيم ذات التأثير البالغ فيما يصدر عن الإنسان من نشاط. لعل ما يصل إليه الأفراد والشعوب من نجاحات وما يقومون به من انجازات، يعود إلى توفر القدر المناسب من الطموح. إذ يتحدد هذا الأخير عند كل الأفراد والشباب بالخصوص بدرجات متفاوتة في الشدة والنوع، بفعل عوامل ذاتية واجتماعية وثقافية تساهم بشكل كبير في تشكيله وتنميته وتعبر عن التطلع لتحقيق أهداف مستقبلية قريبة أو بعيدة.

الكلمات المفتاحية :

المحددات الشخصية والبيئية، الطموح، الشباب.

The youth people represent generally major slice in arab world, and special algerian society, and represent also human dynamic energy which is able to do renaissance operation. they are strategic fund and real wealth. Talking about the mis the talk about futur and challenges ahead. This age group requires to study their situations, stand in their worries and recognize their aspirations and ambitions.

Ambition is an important traits that give a speed developpment where the world witness recent time. It is motive that sharpen elan and order the thoughts to upgrade the life level from stage to other advanced one. The arab nation has greatest needs to ambitional generation which has confident and has high aspirations, able to achieve youth and nation ambitions. Considering that, the ambition represent one of the dimensions that effect human personality, individual and social life, so that it is one of the most important concepts that influence deeply human activity.

The suces and achievement of individuals and nations is related to available quality from ambition. this one, it is determinated in all individual especially youth people in intensity and quality degrees. Personal, social and cultural factors where contribute significantly in forming and developping ambition, and express the ambition to achieve near-term and further goals.

Key words:

Personal and environmental determinants, ambition, youth people.

مقدمة :

إن نجاح جهود التنمية والتقدم في أي مجتمع لا بد أن يعتمد على مدى الجهد المبذول في تنمية أفراده، وذلك لتنمية إمكانياتهم واستعداداتهم وقدراتهم في شتى الجوانب بما يجعلهم قادرين على التكيف مع ما يحيط بهم. لذا فإن في تنفيذ أي خطة تنموية لا بد من أن تراعي إمكانيات واستعدادات وقدرات الشباب، ومعرفة اهتماماتهم وما يتطلعون إليه من آمال حتى تكون معبرة تعبيرا صادقا عن واقعهم.

إذ يعتبر الشباب العنصر الاقتصادي المنتج الذي يعتمد عليه أي مجتمع في تحقيق مشروعاته الخاصة بالتنمية في المستقبل، فهم أكثر المراحل العمرية قدرة على العمل والنشاط ومصدرا رئيسيا من مصادر التغير في العديد من المجالات التي يأتي في مقدمتها المجالين الثقافي والاجتماعي.

ولما كانت مرحلة الشباب ذات أهمية خاصة في حياة الأفراد والمجتمع فهي تعد من أكثر المراحل التي عنيت بالبحث والدراسة. فالأمة العربية أحوج إلى جيل طموح واثق بنفسه له تطلعات سامية وقادرة على تحقيق طموحاته وطموحات أمته. فالطموح يشكل بعدا من أبعاد التي لها تأثير في الشخصية الانسانية وفي حياة الفرد والجماعة، وما يترتب عليه من نشاط وانجاز، إذ يسهم في عملية التعلم ويعمل على دفع الفرد إلى بذل أقصى ما لديه للإرتفاع بمكانته الاجتماعية.

وقد بينت دراسات عديدة أن تنمية القدرات العقلية لم تعد مطلبا أساسيا والفريدة في تقدم الشعوب بل أصبح ينظر إلى ما تتمتع به الشخصية من سمات وخصائص بعناية أكبر، من بين هذه السمات هو مستوى الطموح الذي يعتبر سمة سلوكية يمكن ملاحظتها وقياسها وتفسيرها وبالتالي يمكن تنميتها عند الشباب. إذ يعتبر أحد المتغيرات التي تؤثر فيما يصدر عن الانسان من أنشطة وانجازات تساعد الفرد على التقدم في حياته بالشكل الصحيح. (حمادي، 1990، ص 2)

وتتشكل طموحات الفرد إلى حد كبير من عوامل بيئية وشخصية، إذ تشمل العوامل البيئية المحددات الاجتماعية مثل طموحات الوالدين، والتوقعات الاجتماعية، وضغط الأقران، والقيمة الاجتماعية، والمنافسة، إلى جانب المحددات الثقافية. والعوامل الشخصية من ناحية أخرى تلعب دورا مهما في تحديد مستوى الطموح له، وتشمل هذه العوامل الشخصية المحددات مثل رغبات والشخصية، والخبرات السابقة، الخ. (Afzalur & Dulumoni, 2013, p79)

فمن الناحية الاجتماعية والثقافية تتشكل وتحدد الشخصية الأساسية من خلال ما يتلقاه من خبرات أولية عبر أسرته التي تمثل الجماعة الأولية بالنسبة له، وللأسرة وما يسود فيها من أساليب تنشئة مختلفة دور فعال في حياة الفرد وفي اكسابه خبراته الأولى. وتختلف تلك الأساليب من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، ولها آثار ودور بارز في تكوين شخصيته مستقبلا وفي تكوين مفهومه عن ذاته وتقديره لها وقدرته على التفوق والنجاح في المجالات المختلفة. (ابراهيم، 1994، ص 571)

وتشير كاميليا عبد الفتاح إلى أن جماعة الفرد الثقافية تلعب دورا هاما في تحديد الشخصية وأسلوب تعبيرها، فهي تنقل إلى الفرد نوع القيم وأساليب السلوك التي ينبغي عليه اتباعها، وهي تؤكد بشدة على المنافسة وتحقيق الأهداف الشخصية والإنجازات الذاتية منذ طفولة الأفراد، كما تشجع التعاون والمشاركة، ويظهر هذا وذاك في الطابع القومي للشخصية تبعا لنوعية الثقافة والحضارة. (عبد الفتاح، 1990، ص 57)

وتشير بعض الأبحاث إلى أن دراسة الطموح تعتبر مقياسا لشخصية الفرد يفيدنا في معرفة أسلوب نشأة الفرد ونموه والتجارب والخبرات التي مر بها، كما أنه يفيدنا في معرفة النماذج والمثل العليا التي أحاطت بالفرد وكان لها تأثير في مستوى طموحه، بالإضافة إلى أنها تساعد في تخطيط الفرد حياته في جميع المجالات كالمجال الاجتماعي والتعليمي والمهني منها. وتدل التجارب العملية والملاحظات على أن مستوى الطموح يتغير من وقت لآخر وذلك تبعا لما يصادف المرء من نجاح أو فشل في تحقيق أهدافه. (ابراهيم، 1994، ص 570)

ومما لا شك فيه أن الشباب يختلفون في نظرهم إلى المستقبل وفي تحقيق أهدافهم، وقد يتحدد مستوى طموحهم بناء على قدراتهم واستعداداتهم وخبراتهم. إذ يفترض هوب Hoppe, F أن اختلاف الأفراد في مستوى الطموح يمكن أن يكشف عن فروق هامة في الشخصية، كالثقة بالنفس، الشجاعة في مواجهة الواقع، الحذر... الخ. (حمادي، 1990، ص 4)

ولا يمكن تصور شاب دون مستوى لائق من الطموح، وذلك لأن طموحه يلعب دورا في الدفع به نحو تحقيق المزيد من التحصيل والتفوق، والامتياز والتفرد. وهذا ما أثبتته العديد من الدراسات حيث أسفرت تلك الدراسات عن نتائج ارتباطية دالة وموجبة بين مستوى التحصيل، ومستوى الطموح. فالشاب الطموح هو الذي لا يكتفي بمجرد النجاح بل يسعى إلى التفوق. (الأسود، 2009، ص 339)

وغالبا ما يتوقف طموح الفرد ومستواه على دوافعه وحاجاته، فان كان وراء الفرد في سعيه للوصول إلى هدفه دافع قوي أو حاجة ملحة فلن يقف في سبيله أي عامل آخر. فالنجاح كهدف يسعى الفرد لتحقيقه لإشباع حاجة أساسية يصبح الفرد معها أكثر وثقا في ذاته وقدراته. هناك دراسة أجراها عدد من العلماء بينت أنه كلما كان الدافع قويا أدى إلى احتفاظ الأفراد بمستوى طموح مرتفع. ويؤكد التحليل الأكثر عمقا لتلك النتيجة أن النجاح الدائم يؤدي إلى الرفع من مستوى الطموح على حين الإحباط المتكرر يؤدي إلى الخفض منه بمعنى أن النجاح في الوصول إلى الهدف يعبر عن التناغم بين الطموح

المضروب أصلا من جانب وقدرات الفرد ودوافعه من جانب آخر، وذلك لأن كل من الطموح والقدرة على تحقيقه يتوقفان على شدة الطموح. (الناطور، 2008، ص 12)

وتعتبر دراسة هوي (1930) من الدراسات المعملية التي أوضحت علاقة النجاح والفشل بمستوى الطموح، حيث توصلت إلى أن أداء معينا يكون مصحوبا بالشعور بالفشل إذا وقع هذا الأداء أقل من مستوى الطموح والعكس صحيح. كما يصل مستوى الطموح إلى الارتفاع عقب النجاح وفي الهبوط عقب الفشل. (علي، 1994، ص 571)

فمن خلال ما سبق نجد أن الطموح يتحدد بفعل عوامل كثيرة من أبرزها العوامل الشخصية والاجتماعية والثقافية التي تسهم بشكل كبير في تكوين شخصيته وإبراز قدراته وتنمية طموحاته تجاوبا مع مقتضيات العصر حتى لا تجد التصادمات في كل عملية انطلاق يراد بها بناء لصالح نفسه ومجتمعه. ولا يتأتى ذلك إلا بتوفير الرعاية الكاملة للشباب الحاضر والقادم وحمايته من كل ما الأخطار التي تحيط به من كل جانب.

1 - تعريف الطموح: Ambition

إن كلمة الطموح اصطلاح متداول بين العامة من الناس كما هو معروف بين الخاصة من الباحثين والدارسين وكان شائعا على نحو غير دقيق حتى جاءت بحوث ليفين Levin وتلاميذه فحدد مفهوم الطموح بعد إجراء الكثير من الدراسات التجريبية التي إنتهت إلى تحديده بمصطلح مستوى الطموح Level of Aspiration، كما بينت الكثير من أبعاده المختلفة. ولقد ظهر لأول مرة إستخدام إصطلاح مستوى الطموح في دراسة ديمبو Dembo عن النجاح والفشل التعويض والصراع. (سالم، 2004، ص 41)

وقد ميزت إيلزابيت هيرلو I.Herlouk بين الطموح ومستوى الطموح وقدمت تعريفا لكل منهما كالتالي:

(1) عرفت الطموح « بأنه تلك الأهداف التي يضعها الشخص لنفسه في الأعمال التي لها أهمية ودلالة بالنسبة له، وبالتالي فإن النجاح في هذه الأعمال يرفع من تقدير الشخص لذاته بينما يقوده الفشل إلى الإحساس بالأسى الحزن».

(2) كما عرفت مستوى الطموح بأنه الفرق بين الهدف الذي حققه الشخص فعلا والهدف الذي يرغب في تحقيقه.

(الصافي، ب س: 34)

ويشير دسوقي إلى أن مستوى الطموح هو المعيار الذي يحكم به الشخص على أدائه الخاص كنجاح أو فشل على بلوغ ما يتوقعه هو لنفسه في تمايز عن التحصيل و عن التطلع. (المشيخي، 2009، ص 91)

كما عرفه رسول (1984): «مستوى توقعات الشخص، ورغبته المتميزة في تحقيق أهدافه المستقبلية، على ضوء خبراته السابقة وإطاره المرجعي». (جبر، 2012، ص 187)

2 - نمو الطموح:

يمر الإنسان في حياته بمراحل نمو مختلفة منها الرضاعة، والطفولة بمراحلها، والمراهقة والرشد، والكهولة، وانتقاله من مرحلة لأخرى يزيد من خبراته وتوسع مدرّكاته، وتفتح قدراته، حيث تصبح نظرتة للأمور تختلف عما كانت عليه في السابق، ولا يقتصر النمو هنا على الناحية الجسدية بل يكون أيضا عقليا واجتماعيا ونفسيا، وفي أوجه النمو المختلفة والمتعددة؛ وانتقاله من مرحلة نمو لأخرى يساعده أيضا على تحدي الصعاب ومواجهتها، كي يصل لمرحلة أفضل مما كان عليه، وبذلك فإن مستوى النمو عند الفرد ينمو ويتطور من مرحلة نهائية إلى أخرى. ولكل فرد طموحه المختلف والذي يتناسب مع مستواه ومرحلته العمرية. فطموح الطفل يختلف عن طموح المراهق، وأيضا يختلف عن طموح الرجل، فكلما كان الفرد أكثر نضجا، كلما استطاع تحقيق أهداف طموحه لامتلاكه وسائل تساعد في ذلك، وكلما كانت قدرته أكبر على التفكير في الوسائل والغايات، وكلما تقدم الفرد في العمر كلما نما وتطور مستوى طموحه، وهذا النمو قد يكون عرضة للتغيرات التي أعاقته الظروف، وقد يعيقه التطور السريع، وقد يتعرض للنكوص والارتداد إذا ما دعا الموقف لذلك. (القطناني، -57: 2011 58)

3 - مستويات الطموح:

يميز الباحثون ثلاث مستويات للطموح وهي:

1.3. الطموح الذي يقل عن الإمكانيات:

ففي هذا المستوى يملك التلميذ إمكانيات عالية وكبيرة، لكنه لا يستطيع بناء مستوى من الطموح يعادلها ويتناسب معها، أي أن مستوى طموحه أقل من مستوى إمكانياته. ومثال ذلك التلميذ المتفوق في مناسبات مدرسية عديدة، لكنه لا يطمح في المشاركة في

المسابقات الخارجية التي تجري بين مختلف المدارس، ويعبر هذا عن ضعف ثقته بنفسه، وفي نتائجه، ويطلق على هذا النوع من الطموح، الطموح غير السوي. (بوزر زور، 2011:63)

2.3. الطموح الذي يعادل الإمكانيات:

ففي هذا المستوى فإن الفرد يحدد مستوى طموحه بعد عملية الإدراك والتقييم التي يقدر بها إمكانياته واستعداداته، ويقف على حقيقة مستواه وقدراته وإمكانياته، ثم يطمح بما يتوافق وهذه الإمكانيات، أي أن بناء مستوى الطموح يسير وفق إمكانيات الفرد، ويطلق عليه الطموح الواقعي أو السوي. (بودالي، 2013:52)

3.3. الطموح الذي يزيد عن الإمكانيات:

هذا المستوى عكس المستوى السابق، فمستوى طموح الفرد أعلى من إمكانياته، أي هناك تناقض بين الطموح والإمكانيات، وهذا ما يعرف بالطموح غير الواقعي أو غير السوي. (بوفاتح، 2013:272)

4 - خصائص الفرد الطموح:

- الفرد الطموح يحاول دائما الانتقال من نجاح إلى آخر وما يحققه ليس النهاية بل هي البداية لنجاح جديد من خلال اعتماده على جهده الخاص وقدراته وإمكاناته وليس على حساب الآخرين.
- الفرد الطموح يؤمن بأنه كلما بذل مزيدا من الجهد وعمل على تطوير نفسه وتنمية قدراته كان هذا سببا للنجاح، والحظ ليس عاملا أساسيا في النجاح وهو الذي يرسم مستقبله بجهده وعمله ويضع الخطط المناسبة لتحقيق أهدافه ولا يتركها للظروف.
- الفرد الطموح لا يخشى المنافسة بل يعتبرها عاملا مساعدا لتطوير نفسه وأيضاً يتحمل الخطوات التي يقوم بها وما يتخذه من قرارات وأيضاً لا يخشى الفشل بل يكون دافعا له لتحقيق النجاح.
- يعمل الفرد الطموح على توليد الفرص التي تساعده على التقدم والرقى ولا ينتظر حدوث هذه الفرص التي قد تحتاج لزمن طويل.

- الفرد الطموح يعمل على الاستفادة من أخطائه وفشله كي تكون دافعا له للنجاح، وهو لا يتوقع أن يحصد نتائج جهده بشكل سريع بل يصبر عليها.
- يؤمن بأن الجهد والمثابرة يساعده على التغلب على أي صعوبات تواجهه وأيضا يتحمل هذه الصعاب ويعمل على تنمية قدراته لتخطيها. (القطناني، 2011: 59)
- لا يقنع بالقليل، ولا يرضى بمستواه الراهن ويعمل دائما على النهوض به، أي لا يرى أن وضعه الحاضر أحسن مما يمكن أن يصل إليه.
- النظرة المتفائلة إلى الحياة، والاتجاه نحو التفوق، والميل نحو الكفاح، وتحديد الأهداف والخطة وتحمل المسؤولية، والاعتماد على النفس، والمثابرة، وعدم الإيمان بالخطأ. (شبير، 2005: 32)

5 - أنواع الطموح وأشكاله

يشكل الطموح الدراسي والطموح المهني والثقافي والطموح الاقتصادي أهم الطموحات في حياة الفرد، وربما يرجع تفوق وتقدم كثير من الأمم والشعوب في العديد من الميادين الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية إلى وفرة، وجودة ودقة منتوجاتها الذي ساهم فيه بلا شك مستوى الطموح المرتفع لأفرادها على اختلاف مستوياتهم.

1.5 - الطموح الدراسي:

إن الطموح الدراسي يتعلق بالحياة المدرسية، وما يوجد فيها من تخصصات ومستويات دراسية ويبدأ هذا النوع من الطموح في السنوات الأولى من دراسة الطفل حيث يطمح في الانتقال من مستوى إلى آخر، حتى يلتحق بالتعليم الثانوي، فيطمح في تخصص دراسي يراه هاما وجذابا ويعمل على النجاح فيه، وفي السنة الأخيرة من التعليم الثانوي يطمح في مواصلة دراسته والالتحاق بالجامعة، ويصبح هذا الطموح المحور الأساسي لمواظبته، ولاجهده للنجاح في امتحان الثانوية العامة (البكالوريا) لتحقيق أسمى طموح في حياة التلميذ المدرسية هذا الطموح الذي ينمو ويرتقي مع ارتقاء سن التلميذ، هو الذي يساعده على التكيف في مختلف مراحل حياته.

هناك اختلاف بين النظريات في تفسير الطموحات التعليمية وأهميتها في السلوك المستقبلي. فالنموذج السائد هو النموذج «حالة تحقيق» 'status attainment' التي تؤكد

أن الطموحات لها جانب معرفي الذي يدفع أو يسوق الشباب للسعي من أجل تحقيق النجاح الأكاديمي. وهناك اعتراف بأن كلا أبعاد الشخصية على سبيل المثال، وتأثير الآخرين المهمين، أو تصورات الطلاب في الجوانب الشخصية الخاصة بهم، والأبعاد الاجتماعية على سبيل المثال نوعية التعليم، أو الطبقة الاجتماعية الأبوية، هي عوامل وسيطة مهمة.

(Strand & Winston, 2008:3)

2.5 - الطموح المهني:

قد يتشكل هذا النوع من الطموح عند التلميذ في سنوات الدراسة أو بعد الإنتهاء أو الخروج منها، وقد يوجد لدى الشخص الذي لم يدرس بتاتا، فكثير ما يطمح التلاميذ في مهن ويتعلقون بها، وبمن يعملون فيها، كطموح التلميذ في مهنة التعليم (أستاذ)، وفي بعض الحالات يبرز الطموح المهني إلا في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي أو الجامعي عندما يصل الفرد إلى مرحلة معينة من الموازنة بين الواقع والاستعدادات الشخصية.

3.5 - الطموح الثقافي:

وهو رغبة الشاب في الحصول على مستوى ثقافي عال أو رتبة علمية تزيد ثقته بنفسه، فنراه مطلعا على مايجري على الساحة الثقافية ومهتم بالفنون وكثير المطالعة، وكثير التردد على العروض الفنية والثقافية، من مسرح ومعارض فنية وندوات أدبية وأمسيات شعرية، كل حسب ميولاته. يعقوب (2011)

4.5 - الطموح السياسي:

يحاول من خلاله الشاب أن يكون له دور واضح في رسم الأحداث على الخريطة السياسية في مجتمعه، فنجد أنه يجب أن يكون عضوا في جمعيات أو تكتلات ذات طابع سياسي.

وقد يكون لبعض الناس نوع آخر من الطموح يختلف عن الأنواع السابقة، وهي طموحات بسيطة جدا ومتواضعة جدا ومعقولة، وهي العيش بسلام وهدوء وإطمئنان العيش في كنف بيئة يشعر فيها بكرامته وبقيمته الإنسانية بعيدا عن مرارة الذل والظلم والإضطهاد، وهناك من الباحثين من يفرق بين نوعين من الطموح طموح إيجابي وآخر سلبي، ويتمثل الطموح الإيجابي في التوجه لتحقيق نجاحات مستمرة، بينما يتمثل الطموح السلبي في محاولة تجنب مزيد من الفشل. (برهومي، 2006:56)

5.5 - الطموح الاقتصادي؛

ويشير ذلك إلى الطموح الذي يتبناه شخصا، أو مجموعة من الأشخاص، أو المجتمع لتحسين وضعيتهم الاقتصادية حسب ما يرونه مناسباً لهم، أو حسب مقارنة وضعيتهم مع وضعيات اقتصادية أخرى، مثال ذلك الطموح في مصادر مالية متعددة، الطموح في كسب مالي جديد، الطموح في أرباح تجارية، الطموح في زيادة الإنتاج، الطموح في تحسين وضعية البلاد الاقتصادية العالمية للبلد، الطموح في البحث عن أسواق اقتصادية جديدة، إلى غيرها من الطموحات والتطلعات الاقتصادية التي تعبر عن وضعية اقتصادية سيئة، أو مريحة للفرد أو الجماعة. (يعقوب، 2011، ص 143)

6 - محددات الطموح؛

إن تحديد مستوى الطموح ينطوي على مجموعة من العوامل، إذ يحتاج الفرد في وضع مستويات طموحه إلى تفاعل بين عوامل شخصية وعوامل اجتماعية للوصول إلى اكتشاف قدرات خاصة كامنة في نفسه. ونجد عددا كبيرا من علماء النفس يجمعون على أن مستوى طموح الفرد ينمو لدى الفرد مع تقدم العمر بالاستناد إلى عدد من العوامل المحددة كالقدرات العقلية والدوافع والحاجات، وخبرات النجاح والفشل، ونمط الشخصية وظروف الأسرة اجتماعيا واقتصاديا، وتوقعات الوالدين والأقران والجماعات التي يمكن أن يراها من المتغيرات المرجعية الهامة. (بن بركة، 2004، ص 34)

1.6 - المحددات الشخصية

محاولة الأفراد في تحقيق الأهداف غالبا ما يحددون مسبقا مستوى طموح، وهذا يجعلهم يحددون نتائج معينة لتحقيق ما يرغبون الحصول عليه. فقد أثبتت بعض الدراسات أن الهدف الملموس يؤدي إلى مستوى أعلى من الطموح في المستقبل القريب. ولكن الهدف المجرد يؤدي إلى مستوى أعلى من الطموح في المستقبل البعيد. (Fessel, Florian (2009)

أ- خبرات النجاح والفشل؛

إن درجة نجاح أو فشل الفرد في عمل ما يؤثر بلا شك على درجة إنجازه لأعمال التي تلي هذا العمل، فإذا حصل الإنسان على النجاح في العمل الذي يقوم بإنجازه وحقق له نوع من الإشباع النفسي الداخلي، جعله يفكر في أعمال أخرى تتجاوز ما هو

موجود وتتمشى مع درجة التفوق والنجاح التي حققها، وكأنه يسمو بمستوى طموحه إلى المراتب العليا، فالنجاح حسب ما جاء في قاموس سيلامي

Sillamy: «هو ينشط القوى الإبداعية ويصبح المعزز والمقوي الذي يدفع المرء لكي يتخطى ذاته برفع مستوى طموحه».

فالنجاح يرفع من مستوى الطموح ويشعر صاحبه بنوع من الرضا عن الذات والارتياح، ومعرفة الفرد لدرجة نجاحه كثيراً ما تستخدم كدافع هام للتعلم، أما الفشل فقد يؤدي إلى الشعور بالمرارة والإحباط وكثيراً ما يكون معرقلاً للتقدم في التعلم. وحدوث خبرات النجاح والفشل يقع في مدى محدود من الصعوبة، فالشخص لا يشعر بالنجاح أو الفشل إذا كان العمل صعباً جداً أو سهلاً جداً. (حمادي، 1993:41-42)

كما يؤثر النجاح في شخصيتنا وسلوكياتنا لما قد يسببه من آثار إيجابية عليها حيث أن النجاح في حد ذاته عامل ذو أثر كبير في تكوين شخصية الطفل، إذ أن النجاح يتبعه عادة تقدير ورضا من الغير، والشعور بالارتياح والثقة بالنفس.

أما الرسوب والفشل المتكرر فيتبعه في العادة تأنيب النفس، ونقد الغير وعدم الشعور بالارتياح والرضا. كما يكبر الطفل وتكبر حاجته إلى النجاح الذي تعود عليه منذ نعومة أظفاره في توفيقه في أداء بعض الحركات، أو الحبو، أو المشي، أو كتابة الحروف، أو كتابة لقب العائلة فالنجاح يختلف من شخص إلى آخر، فهناك النجاح الذي يكون بعد مرات متتالية من الفشل وهناك النجاح الذي يتحقق في أول مرة، وهناك النجاح الذي يعقب النجاح السابق مباشرة، أو غير مباشرة.

وقد أظهرت العديد من الدراسات علاقة مستوى الطموح بخبرات النجاح والفشل، إذ بينت كل دراسة (Diecidue & van de Ven, 2006) أن مستويات الطموح هي أحد الجوانب ذات الصلة بعملية صنع القرار. حيث أننا نضع الاحتمالات الشاملة للنجاح والفشل، أي احتمالات الوصول وعدم الوصول إلى مستوى الطموح، في ظل تصور القيمة المتوقعة. (Diecidue & van de Ven, 2006:1)

ب- مفهوم الذات:

إن مفهوم الذات عند الفرد يلعب دوراً هاماً في شخصية وأنماط سلوكه، فهو قوة دافعة للسلوك، إذ تدفع بالفرد إلى الارتفاع بمستوى الطموح للشعور بكيانه ووجوده، هذا في حالة الإدراك الإيجابي للذات، إذا حصل العكس فإنه لا محالة من انخفاض مستوى

طموحه. وقد كشفت أيضا دراسة (Jamalal-lail, Jafar 1988) وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين مفاهيم الذات لطلاب ومستويات الطموح. وكذلك أشارت دراسة (محمد عطا: 1978) أن هناك علاقة ارتباطية موجبة بين مستوى الطموح ومفهوم الذات أي كلما كان مفهوم الفرد لذاته موجبا كلما ارتفع مستوى طموحه.

ومما سبق يتبين لنا أن الصلة بين مفهوم الذات ومستوى طموحه صلة وثيقة وأنه كلما كان مفهوم الفرد عن ذاته موجبا كلما ارتفع مستوى طموح، وكلما كان مفهوم الفرد عن ذاته سالباً انخفض مستوى الطموح. الجبوري (2013)

ج- القدرات العقلية (الذكاء) :

يعتبر الذكاء أهم قدرة من القدرات العقلية التي نالت اهتمام وعناية الباحثين وعلماء النفس، لما له أثر في حياتنا النفسية والجسمية ولقد أوضح عدد من الباحثين وخاصة في مجال القياس النفسي أن هناك علاقة بين الذكاء والتحصيل أنستازي (Anastasi, 1964)، مرشال (Marshall, 1970)، كرومباخ (Cronbach 1972) وبالتالي أن هناك علاقة بين الذكاء ومستوى الطموح، فالذكاء يؤثر في مستوى الطموح بأشكال متعددة. فالتلاميذ الأذكياء أكثر استبصارا بقدراتهم والفرص التي تتاح لهم والعوائق التي تمنعهم من تحقيق أهدافهم، لذا من المتوقع أن يساعد ذلك على وضع مستويات طموح واقعية على عكس الطلاب الأقل ذكاء. (بن بريكة، 2004:35)

د- الإبداع :

الإبداع هو نشاط عقلي وذهني ينتج أفكار جديدة ليست مألوفة لدينا، تعمل على حل مشكلات كانت في نظر الإنسان صعبة الفهم من قبل، وتوفر عملية الإبداع الوقت والجهد تميز بين الأفراد وتوفر صيغ جديدة للمشاكل التي تعترض الفرد. إن مستوى الطموح هو تعبير عن تلك الأهداف والأفكار المستقبلية التي يضعها الإنسان لنفسه، وهذه الأفكار والأهداف تحمل في طياتها الكثير من المشكلات التي يجب حلها، إذن فالإبداع يؤثر بشكل أو بآخر في مستوى الطموح، من حيث قدرة الفرد على تبني أهداف جديدة وإنتاج عدد أكبر من الأهداف الغير عادية، التي تتناسب مع قدراته وأفكاره الإبداعية. أي أن الأفراد الذين لديهم قدرات إبداعية عالية نتوقع منهم مستوى عالي من الطموح، وهذا على العكس من الأفراد الذين لهم قدرات إبداعية ضعيفة فإننا نتوقع منهم مستوى منخفض من الطموح. (سراية، 2010:85)

سمات شخصية

يتأثر مستوى الطموح ارتفاعاً أو انخفاضاً بعدد من سمات الشخصية كالثقة بالنفس وتقدير الذات والانبساط والانطواء والاتزان الانفعالي والتكيف. حيث يرى محمود عطا حسن أن الشخص المتوافق أكثر استبصاراً بذاته وقدراته والعوائق التي تواجهه في تحقيق أهدافه، وأكثر تقبلاً لحدود إمكانياته، إن هذا الإدراك الموضوعي للذات وللعالم يساعدان على وضع مستويات طموح واقعية تتناسب مع إمكانيات الفرد وقدراته. (يعقوب، 2011:150)

وتشير السميري إلى ذلك بقولها: «مستوى الطموح يتأثر ارتفاعاً وانخفاضاً بعدد من سمات الشخصية، فقد وجد أن التكيف والاتزان الانفعالي، وتقدير الذات ومفهوم الذات الإيجابي، والانبساط، كلها سمات تساعد على رفع مستوى الطموح، في حين يعتبر الاضطراب الانفعالي، والتقدير السلبي للذات والانطواء تعمل في خفض مستويات الطموح».

ويرى كرونباخ أن الفرد الذي تكون قد اهتزت له صورته لذاته، يضع أحياناً مستوى مرتفعاً من الطموح، وهو لا يتنازل عنه حتى لو تعرض لخبرات متكررة من الفشل. وتتفق في هذا هيرلوك حيث ترى أن تصور الفرد لذاته - كلما كان سليماً - أدى ذلك إلى تكوين مستوى طموح واقعي. ذلك أن الفرد المتوافق مع نفسه سوي الشخصية، الراضي عن ذاته؛ يضع أهدافاً واقعية في ضوء تقييمه المستمر لقدراته وإمكانياته. ويشير الأسود إلى أن التوافق النفسي، والاتزان الانفعالي لدى الفرد، لهما دور كبير في التطلع وارتفاع الطموح؛ لأن القلق والخوف، والانطواء، والاكتئاب، وسوء التوافق النفسي، سبب لتشتت فكر وعقل الفرد مما يسبب ضعفاً في الأداء وتراجعا في الطموح، وعدم الاكتراث ببلوغ الأهداف. (شبير، 2004:43)

2.6 - المحددات البيئية

1.2.6 - الأسرة

الأسرة هي النواة الأولى التي تقوم بتربية الشباب منذ نعومة أظفارهم وفق معايير وقيم وعادات وإتجاهات المجتمع، فهي الخلية الأولى التي عرفها المجتمع الإنساني وقد مرت بعدة مراحل وأشكال متعددة، فمن الأسرة الممتدة الكثيرة العدد إلى الأسرة النووية القليلة العدد التي إستقر عليها المجتمع العصري، ويعرف عالم الاجتماع كولي Cooley على أن الأسرة جماعة أولية تقوم على أساس العلاقات بين أفرادها علاقة الوجه للوجه، ومن هنا أتت خطورة تأثيرها في تنشئة الأجيال. فوظيفة الأسرة الأساسية توفير الغذاء،

الأمّن، والحماية للطفل والمحافظة على نموه النفسي والجسمي والإجتماعي والعقلي، ليصل إلى مرحلة الرشد بسلام، وخالياً من أي اضطرابات نفسية حادة ويتمتع بشخصية متوازنة ومتوافقة منع نفسه ومع الآخرين، فالأسرة هي التي تحدد نمط شخصية الفرد وسلوكه.. (يعقوب، 2011، ص 151)

وترى الباحثة «هيروك» (Huriok 1962): أن الأسرة بكل جوانبها تلقى الضوء على مستوى الطموح. فأسلوب التربية الأسرية وأنماط التنشئة إن كان يتضمن أسلوب العقاب والقسوة والحرمان واللوم والإهمال وسوء المعاملة، والحرمان من إشباع الحاجات النفسية للأطفال ولا تسمح لهم بالتعبير عن أنفسهم بكل حرية، فإن ذلك سيؤدي بلا شك إلى انخفاض مستوى طموحهم. وقد توصلت كاميليا عبد الفتاح (1961) في دراستها عن الاتزان الانفعالي ومستوى الطموح، أن انخفاض مستوى طموح العصبيين عن الأسوياء يرجع أساساً إلى أسلوب تنشئتهم الأسرية، فقد وجدت أن 26.60٪ من مجموع العصبيين منخفضي الطموح. (عبد الفتاح، 1984، ص 119)

ويمكن القول أن مستوى طموح الفرد، يرتفع وينخفض حسب ما يتلقاه من تربية أسرية، داخل المنزل من طرف والديه وأفراد العائلة، فالعطف والحنان والود أمر ضروري في تربية الطفل، والضبط كذلك فلا تسبب، ولا تشدد مع الطفل ليستطيع التكيف مع واقعه الاجتماعي وخاصة في عصرنا الحالي الذي تعقدت معه مهمة الوالدين في التربية.

أ. المستوى التعليمي والمهني للوالدين:

إن المستوى التعليمي والمهني للآباء والأمهات يؤثر تأثيراً بالغاً على طموح الأبناء بطريقة مقصودة، أو عفوية، ففي هذه الحالة يسعى الطفل إلى تقليد الأبوين في ما يصدر منهما من سلوكات وتصرفات، وما يقومون به من أعمال ونشاطات. ذلك أن الطفل حينما يرى والديه، أو أحدهما قد وصل إلى مستوى تعليمي ومهني قد يعجز عنه رآهما عند هو في الوصول إليه، وبذلك يحاول تقليدتهما، والتأثر بنصائحهما وإرشاداتهما واختباراته الدراسية الحالية، أو المستقبلية، إنما يفعل ذلك انطلاقاً من اعتقاده أن الوالدين يملكان نظرة دقيقة للواقع والحياة ولهما من الخبرة والحكمة ما يجعلهما يتوقعان حيثيات المستقبل، وفي هذه الحالة فإن الأولياء يؤثرون على طموحات أبنائهم، إما بالدعم والتعزيز، في حالة أنهم يرون أن الأولاد سلكوا طموحاً مقبولاً في نظرهم، أو بالتعديل عندما يتبنى الأبناء بن أو البنت العيش الكريم طموحات غير مقبولة لسبب بسيط أن هذا الطموح سوف لا يجلب المكانة الاجتماعية المرموقة، أو أن هذا الطموح صعب المنال.

وقد توصل كل من ريتشارد هبرج ودافيد ويستري (Ritchard Heberg & David 1967) (Westhy

إلى أن للتعليم الوالدي والمهنة الوالدية، ارتباطا إيجابيا بالطموحات الأكاديمية، و بمستوى التطلع التعليمي للأبناء، فقد عبر 24٪ من أفراد العينة عن طموح تعليمي عندما كان الأب قد تاهل جامعيًا. (يعقوب، 2011، ص 154)

وقد يحدث العكس، وينفر الطفل من مهنة والديه، أو أحدهما لقلّة إطلاعه عليها، أو لتدني وضعيتها الاجتماعية، أو المالية، أو لتخويف والديه منها وترهيبه من الالتحاق بها لصعوبتها أو لما تتطلبه من جهد وغيرها من الأسباب. وكنيجة نهائية لذلك يسلك الطفل سلوكا مهنيا مغايرا لوالديه، ويتبنى طموحات مهنية مختلفة عن طموحات الأهل، وهذا تعبيرا عن عدم رضاه عن وضعيّة أسرته، مما يجعل الأبناء يتبعون طرقا أخرى، ويطمحون في مهن أخرى ويسمون بطموحاتهم تعويضا عن مهنة الوالدين. (يعقوب، 154:2011-155)

ب. الظروف الأسرية والمستوى الاجتماعي والاقتصادي لها :

أوضحت نتائج بحوث كثيرة أن الظروف الأسرية، عامل هام من بين العوامل في تحديد مستوى الطموح للفرد. فالأفراد المنحدرين من أسر مستقرة وأقدر اقتصاديا واجتماعيا لهم مستويات عالية من الطموح. فدراسة (Brim, 1956; Turner 1962) أكدت أن الأفراد الأقل حظا من حيث الاستقرار الاجتماعي يكونون أقل حظا أيضا في مستوى الطموح، وأن الظروف الاقتصادية الصعبة تؤدي بالفرد إلى صعوبة الاستمرار في وضع مستويات الطموح السابقة موضع تنفيذ خلاف الأسرة الميسورة اقتصاديا وذات المكانة الاجتماعية. (بن بريكة، 2004، ص 37)

وقد أشارت دراسات عديدة كذلك على أن المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة يعد من العوامل الهامة المؤثرة في مستوى طموح الأبناء. واتفقت دراسة كل من ريزمان (1953) Reissman وأيمبي (1956) Empey وأسماء الشنقيطي (1985) وغيرهم على وجود علاقة إيجابية بين مستوى الطموح ومستوى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد. فالأطفال الذين ينتمون لوضع اجتماعي-اقتصادي مرتفع لديهم فرصة أكبر في أن يطمحوا إلى مستويات تعليمية ومهنية عالية عن نظرائهم المنتمين لوضع اجتماعي منخفض. (حمادي، 1993، ص 45)

كما تتفق دراسة إيزاك (2014) مع الدراسات السابقة حيث أشارت إلى أن الأطفال في الأسر الفقيرة في بعض المجتمعات كأثيوبيا ليس لديهم أي عجز في الطموح، ولكن لديهم قدرة محدودة جدا على تحقيق طموحاتهم لأنهم ينشؤون في ظل الفقر.

Yisak Tafere(2014)

وقد عمل بعض الباحثين في ضبط متغيري المستوى الاجتماعي الاقتصادي ومستوى الطموح والعلاقة بين المتغيرات الأخرى، وانتهى (Sewell & al, 1957) في دراسة عن العلاقة بين كل من المستوى الاجتماعي والمطامح التعليمية والمهنية لدى عينة من طلاب وطالبات المرحلة الثانوية، إلى أنه توجد علاقة دالة وموجبة بين مستوى كل من الطموح المهني، والطموح التعليمي من جهة، والخلفية الاجتماعية من جهة أخرى بالنسبة للجنسين. (زينب بن بريكة، 2004، ص 34)

وعلى العموم، فإن ما توفره الأسرة من إمكانيات مادية ومعنوية يساعد على وضع مستويات طموح عالية ويساعد أيضا على تحقيقها.

كذلك الأسرة التي تتميز بمستوى ثقافي مرتفع، حيث يبلغ الأب أو الأم فيها مستوى عاليا من التعليم وتوفر لديها وسائل الثقافة المختلفة قد تسهم في رفع مستوى طموح أطفالها. (حمادي، 1993، ص 45-46)

ج. طموح الوالدين وأثره على مستوى طموح الأبناء

كثيرا ما يرى الشباب في أهلهم القدوة الحسنة في بناء طموحاتهم، لاسيما إن كان الأهل من الطبقة المثقفة، فيروا في ذلك من واجبه الخضوع لرأي أهلهم وذلك باتباع طموحهم الدراسي الذي يحددونه لهم، فهم يمثلون لهم النموذج الذي يقتدون به نظرا لخبراتهم في الحياة « وقد يقبل الشباب أن يختاروا لهم الآباء، ويرشدونهم لعدم توافر المعلومات المهنية لديهم ولعجزهم عن تقدير مستقبل المهنة المختارة بالنسبة لهم، ولأنهم دربوا على أن يتقبلوا توجيهات وآراء آبائهم باعتبار أنهم أكثر تجربة وأدرى بالمصلحة». إن الشاب عندما يجد طموحا جاهزا من طرف الوالدين يسلم له ويتبناه في مساره الدراسي والمهني. وهناك من الآباء والأمهات من يعمدون إلى السيطرة حتى على جزئيات سلوك الطفل، غير تاركين له مجالاً يتحرك في نطاقه، ومن ثم فإنهم لا يتركون له مجالاً يختار فيه لنفسه وبنفسه. من يريد من أبنائه مواصلة مشوارهم الدراسي والمهني، وإتباع طموحهم لأنه في نظرهم جلب لهم الكثير من المزايا، ويؤدي في الأخير للمحافظة على المكانة الاجتماعية والمادية للعائلة « أو ربما كان بسبب طموح الآباء الزائد وهو حب المحافظة

على الأسرة، أو بغية الوصول إلى مستوى راق، أو حرمان أحد الآباء من مواصلة التعليم أو الرغبة في تحقيق الأمانى المكبوتة». (بوفاتح، 2005:111)

2.2.6 - العوامل المدرسية

أ. المنهاج الدراسي

إن نجاح المدرسة في خلق شخصيات متوافقة لابد الموازنة بين ما تعطيه كمقررات، أي الموازنة بين المقررات وواجبات وتحصيل، وبين ما يطبق التلاميذ تقبله، وتمثله والقدرات وبين مستوى التحصيل الدراسي ومستوى الطموح، لأن في عدم توازن الهدف المنشود منع الوسيلة المؤدية إليه تعجيزا للدارس وتثبيطا لهمة، ويؤديان به إلى الفشل. (يعقوب، 2011:155)

ويرى جون ديوي Jean. Dewey إن هدف المدرسة هو تدريب التلاميذ على الحياة الاجتماعية المشتركة التعاونية. ومما لاشك فيه أن المناخ السائد في البيئة المدرسية يعمل كقوة رئيسية في التأثير على سلوك التلاميذ والطلاب وعلى مستوى طموحهم، فالتلميذ الذي يحترم زملائه ويوثق معهم علاقات طيبة ويتمتع باحترامهم وتقديرهم ويحمل لهم مشاعر الإخلاص والوفاء، وكذا يحترم مدرسيه، ومديره، وينضبط وفق القوانين المدرسية الداخلية، ويحمل لأساتذته مشاعر الحب والتقدير ويجد جوا تربويا يسوده التفاهم والتشجيع، ومجالا أوسع من الحرية وعلاقات تتسم بالتفاعل الاجتماعي الإيجابي بينه وبين جميع المتواجدين بالمدرسة، فهؤلاء الطلاب أكثر رضا عن مدرستهم، وأرفع مستوى طموحاً من زملائهم الذين يدرسون في بيئة مدرسية ذات الضبط الشديد والمغلق. ولنجاح المدرسة في خلق شخصيات متوافقة لابد الموازنة بين ما تعطيه كمقررات، أي الموازنة بين المقررات وواجبات وتحصيل، وبين ما يطبق التلاميذ تقبله، وتمثله والقدرات وبين مستوى التحصيل الدراسي ومستوى الطموح، لأن في عدم توازن الهدف المنشود منع الوسيلة المؤدية إليه تعجيزا للدارس وتثبيطا لهمة، ويؤديان به إلى الفشل.

فمن بين المشكلات التي يمكن سيادتها في المناخ التعليمي، القلق التحصيلي لدى الطلاب وعدم الرضا عن الدراسة، أو الاتجاهات السلبية تجاه المؤسسة التعليمية، ونقص الطموح، أو زيادته بشكل لا يتناسب وقدرات الطالب.

ب. شخصية المدرس

تتحمل المدرسة مسؤولية كبيرة في عملية نمو الأفراد. فهي توفر المدرسة المناخ الملائم للتنمية الاجتماعية والعاطفية والفكرية. والمعلم يمكن أن يساهم إلى حد كبير في

رفع مستوى مفهوم الذات ومستوى طموح كل طالب من خلال تنظيم برامج التعليم المناسبة. (Gupta, 2012:125)

وقد حددت الدراسات الخاصة الأدوار التي يقوم بها المدرس، حيث أكد ولسون على أن المدرس يمارس مهنة متخصصة في المجتمع المعاصر لذلك فهو يلعب دورا في عملية نقل المعرفة العلمية للتلاميذ، كما أنه يختار التلاميذ لأدوارهم المهنية والاجتماعية المستقبلية، ويقوم كذلك بوظيفة الرعاية الاجتماعية للتلاميذ وتدريبهم على كيفية التصرف وتجاوز المواقف. (بن دومية، 2001:57).

ومنه فشخصية المدرس من العوامل الهامة ذات التأثير البالغ في شخصية التلميذ داخل الفصل وخارجه، فهو الشخص الثاني المهم بعد الأب الذي يكون له تأثير فعال عند الطفل، كما أن الطفل يحاول أن يتواجد لاشعوريا مع المدرس، ويتفق الجميع تقريبا على قبول فكرة أن المدرس بسلوكه يعتبر نموذجا يقتدي به الطفل على هذا النحو يتعلق التلميذ بمدرسه، ويطمح أن يكون مثله في طريقة تقديمه للدرس، وفي صوته، وفي معلوماته. وبتعاقب سنوات الدراسة يرتسم للتلميذ مستوى طموحه تدريجيا حتى يصل إلى نهايته مع إنتهاءه من المرحلة الثانوية، ويستطيع التلميذ أن يتحقق له مستوى طموح إذا بقيت صورة المعلم المثالية باقية في ذاكرته كما كونها أول مرة على معلمه، مهما تغير المعلمين وتغيرت سلوكياتهم وصفاتهم الإيجابية منها والسلبية. (بن يعقوب، 2011، ص 156)

ج. المنافسة الدراسية :

تعتبر المنافسة ظاهرة عادية وطبيعية تسود حياة الأفراد والجماعات، فيعرفها «شابلين Chaplin على أنها» عملية تنازع بين طرفين (فردين أو جماعتين) حول بلورة نفس الهدف أو الغاية».

وهذه المنافسة من أكثر الأمور إنتشارا في قاعة الدرس، فهي شكل من أشكال التفاعل بين شخصين أو أكثر على نفس الأشياء ونفس الموضوعات ونفس الأهداف التي تتجلى في الحصول على الدرجات العليا.

كما تتضح هذه المنافسة في سعي كل تلميذ في الحصول على نقاط كبيرة للتفوق على بقية الآخرين، ويشعر بلذة النصر والتفوق زملائه في قاعة الدرس ليحضى بالتشجيع والتقدير من الآخرين حيث أن من الشائع في المجتمع الحديث أن الإنسان يزيد من مقدار الجهد المبذول حينما يتنافس مع غيره، وحينما يعرف أنه سيحصل على التقدير الاجتماعي.

ذلك أن المنافسة بين التلاميذ كبير تسهم في تحديد مستوى طموحهم، من حيث أنها تدفع بالمتعلم للرفع من مستوى طموحه للتفوق على زملائه. وكثيرا ما يلاحظ هذا الجو التنافسي

وهذه النزعة التنافسية عند تلاميذ أقسام الإمتحانات، نهاية المرحلة الابتدائية والإكلمالية والثانوية والجامعية. فمستوى طموح التلميذ يتحدد وفق نتائجه ونتائج الآخرين تجعله يرفع أو يخفض من مستوى طموحه ليحافظ على تفوقه في القسم، أو ليحقق الأفضل في الصف، أو يتهاون لأنه يرى نفسه بعيد المنال عما حققه غيره (يعقوب، 2011:157)

ويرى يملوايت Himmelweit «أن التنافس بين الأفراد يعمل على رفع مستوى طموحهم لتحقيق حاجاتهم، ويظهر عند هؤلاء التلاميذ سمات الثقة بالنفس وتحقيق الذات ويجنون مواقف المنافسة.»

ب. التحصيل الدراسي

ويقترّب الدافع إلى التحصيل بمستوى الطموح فكلما زاد الطموح بالشخص كلما كان هذا الدافع قويا يجعل له بأشياء، ويعينه على أشياء، ويحقق له فهم أشياء ما كانت تتسنى له لولا هذا الدافع القوي فيه الذي سببه الطموح الشديد.

إن التلاميذ ذوي التحصيل المرتفع يتمتعون بمستوى طموح مرتفع، لأن النتائج الدراسية المرتفعة تحفز التلميذ للرفع من مستواه الدراسي ومستوى طموحه إلى مستويات عليا، عكس الذي يتحصل على نتائج ضعيفة التي لا تشجعه على تبني طموحات عالية في دراسة له حول مستوى الطموح والتحصيل أن (Boyle, 1967:186) فقد توصل علاقة إيجابية ودالة إحصائية بين المتغيرين. بوفاتح (2005)

فلا شك أن الطالب ذي التحصيل المرتفع يتمتع بمستوى دراسي أكثر ومستوى طموحه يكون ذو مستويات عليا عكس الذي يتحصل على نتائج ضعيفة التي لا تشجعه على تبني طموحات عالية.

ب. الإعلام المدرسي

يعتبر الإعلام المدرسي سلاح ذو حدين وعلى أساسه يتوقف مصير ملايين من الشباب فالمصير المستقبلي الدراسي والمهني لهم متوقف على نوعية هذه إذا كانت صحيحة ودقيقة وهادفة ساعدته على رسم صورة حقيقية لحاضره ومستقبله الدراسي والمهني انطلاقا من قدرات واعية، واختيارات واقعية للبدائل المتاحة أمامه ومدى ملاءمتها لإمكانياته الدراسية وقدراته، ومختلف نواحي النمو الجسمية والنفسية والاجتماعية. إذ أن الشباب يحمل تطلعات عالية بشكل غير واقعي وتحتاج إلى أن تكون «إعادة توجيه» بحيث تطلعاتهم تعكس توافر فرص العمل التي تناسبهم. (Yisak Tafere, 2014)

ويرى أحد أقطاب نظريات السمات والعوامل أو ما يعرف « William son » ويقترح « وليام سون أحيانا بالإرشاد المباشر، أو نظرية الإرشاد المركز حول العميل، أن يكون الإرشاد طريقا لتسهيل حاجة الإنسان إلى تحقيق هويته وكفاحه من أجل فهم ذاته، والتعبير عن طموحاته.

ولقد إهتم «بارسون Parsons» أب التوجيه بعملية جمع المعلومات حول الدراسة والمهن وتعريفها، وتحليلها وتصنيفها، ثم تقديمها للطلاب للوقوف على حقيقة رغباتها وميولهم وإستعداداتهم، والتي تساعدهم بدورها على الرفع من مستوى طموحهم، ففهم الفرد لنفسه وما تمتلكه من قدرات وميولات وطموحات، هي من أهم العوامل المساعدة على نجاحه وتوافقه الدراسي. وعليه لابد أن يتلقى التلاميذ إعلاما مدرسيا من طرف الموجهين حول مختلف الشعب والتخصصات الدراسية الجامعية وما ينتظرهم في حياتهم الدراسية والمهنية، فالموجه يرشد التلاميذ إلى إختيار أفضل التخصصات الدراسية التي يمكن أن ينجحوا فيها، وتناسب مع قدراتهم وإمكانياتهم وميولهم وطموحاتهم، وتحقق لهم التوافق النفسي الدراسي، وذلك من خلال تعريفهم بهذه القدرات ومؤهلاتهم، وما تتطلبه للالتحاق بها، وتحتل هذه المعلومات التي يزود الموجه بها التلاميذ حول التخصصات الدراسية من أهمية بالغة في حياتهم، إذ يستطيع أن يعدل من طموحه وفق ما توفر لديه من شروط محددة. (يعقوب، 2011:159)

3.2.6 - أثر الأقران والجماعات المرجعية :

إن جماعة الفرد قد تكون إطارا مرجعيا يحدد مستوى الطموح وبينت تجارب جاردنر Gardner أن الأفراد داخل المجموعة الواحدة يميلون إلى الاحتفاظ بنفس المستوى الذي تؤدي به المجموعة.

فمعرفة ما وصل إليه الأفراد الآخرون يؤثر على طموح الشخص فمثلا معرفة التلميذ لمستوى زملائه ومقارنته بمستواه قد يكون سببا في رفع مستوى طموحه ودفعه إلى العمل وتعبئة جهوده نحو تحقيق الهدف، والتلميذ الذي يقدر لنفسه مستوى زملائه قد يدفعه ذلك إلى الكسل والتاخي. ولا يتأثر مستوى الطموح بموقف الفرد داخل جماعته فحسب بل يتأثر أيضا بموقف جماعته من الجماعات الأخرى.

وقام فستنجر Festinger - كما يذكر محمود الزيايدي في دراسته (1961) - بدراسة أثر مكانة الجماعات الأخرى على مستوى طموح الأفراد في مجموعة ما. وكانت تقاس التغيرات في اختلاف الهدف عامل الذكاء ولكن ضغوط الوالدين، والطموح الذي ينشأ

نتيجة الضغط لا يؤدي إلى النجاح بل عادة ما يؤدي إلى القلق والشعور بالإحباط عندما لا يتحقق الهدف. (حمادي، 1993، ص 51)

فإذا كان أفراد الجماعة يمتلكون مستوى عالياً من الطموح فسينتقل ذلك إلى الطفل سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا كان لدى الجماعة مستوى منخفض من الطموح، فسيؤثر ذلك على الطفل. ويرى قنديل (1990) أن الفرد يتأثر في تحديده لمستوى طموحه بأقرانه، وجماعته المرجعية أكثر من تأثره بالديه؛ نتيجة لمعدل التغير السريع في كل شيء، حيث إن للأقران دوراً ملحوظاً في التأثير على مستويات الأداء والتحيز الفردي، وللجماعة أيضاً تأثير هائل من خلال دينامياتها على الأفراد. ويؤثر الأصدقاء على اختيار الفرد لنمط معين من الطموح، وذلك لتأثير الشباب على بعضهم البعض - خاصة - الأصدقاء. فالفرد يرى في الجماعة نفسه، ويحاول أن يقلدها ويتأثر بها. وأشار كوخ وفرنش (1948) إلى أن الفرد عندما يكون عضواً في جماعة؛ يتأثر مستوى طموحه بما تقوم به هذه الجماعة وقد تؤدي المنافسة بين الزملاء إلى رفع مستوى الطموح، ولكنها قد تنقلب إلى أنانية، وتنازع بين الأصدقاء؛ ولذلك ينصح الكثير من المربين بعدم الرجوع إليها. (شبير، 2005:40-41)

4.2.6 - وسائل الإعلام

تساهم وسائل الإعلام باختلاف أنواعها المسموعة والمرئية والمقروءة بدور فعال في إحداث ما يتطلع إليه المجتمع وينشده من تغيرات اجتماعية، ثقافية، وتكنولوجية، بحيث تفرص على وكالات التطبيع الاجتماعي في وظائف ومهام ومسؤوليات جديدة فيما يتعلق بنمو الطفل الاجتماعي.

فوسائل الإعلام تزود الفرد بثتى المعلومات المختلفة قديمة كانت أو تلك التي في الوقت الحاضر، وتساعد وسائل الإعلام في بلورة دورا بارزا في تكوين شخصية الفرد وتطبيعته الاجتماعي على أنماط سلوكية معينة.

إن مل يقرؤه الفرد في ما ينشر في الجرائد والصحف المخصصة لمستواه، وما يسمعه في الراديو وما يشهده من برامج وأفلام وأحداث تلفزيونية، تؤثر فيه بشكل دائم ويحاول أن يرفع من مستوى طموحه أو يعدله، أو يشكل مستواه من الطموح الجديد في ضوء التغيرات الحاصلة في العالم، فوسائل الإعلام عبارة عن محفز للفرد أو ضاغطة للسمو أو الخفض من طموحه. (سراية، 2010:56)

5.2.6 - نوع العمل وخصائصه :

لكي يحدد الفرد مستوى طموحه لابد أن تتوافر لديه فكرة عن صعوبة العمل وعن قدرته على تعلمه أو أدائه، ومستوى الطموح يكون غير مستقرا عندما يواجه الفرد أعمالا جديدة غير أنه يتسم بالاستقرار عند أداء الأعمال المألوفة، وقد يكون العمل الذي يواجهه الطالب معقدا جدا وصعبا بحيث لا يرى سببا لتحديد مستوى لا أمل في تحقيقه، وقد يكون العمل من ناحية أخرى سهلا جدا بحيث لا يتحدى المتعلم ولا يستثيره. كذلك نجاح الفرد في عمل يعتبره سهلا وأقل من قدرته يقلل من شعوره بالنجاح والارتياح ونفس الشيء إذا كان العمل أعلى من قدراته ومستواه العقلي فإن ذلك سيعرضه للشعور بالفشل والإحباط.

كذلك من العوامل المؤثرة في مستوى الطموح الرضا عن العمل، فالشخص الراضي عن دراسته أو عمله يكون مستوى طموحه مرتفعا بمقارنته بالشخص غير الراضي. ويمكن تأكيد ذلك من نتائج إحدى الدراسات التي أجريت على مدرسي ومدرسات التربية الرياضية في المدرسة الثانوية، فقد تبين أن هناك علاقة بين الرضا عن العمل ومستوى الطموح، فالمدرسون والمدرسات الأكثر رضا عن عملهم أكثر طموحا من المدرسين والمدرسات الأقل رضا عن عملهم. (حمادي، 1993:51-52)

6.2.6 - العوامل الثقافية والحضارية

إن المؤثرات الثقافية والحضارية من شأنها تكوين مقاييس مرجعية تؤثر في اختيار الفرد شعوريا أو لا شعوريا لمستوى طموحه. فطموح الفرد يتأثر بمستوى الحضارة والثقافة التي يعيش فيها. فقد وجد مثلا أن معظم أفراد الحضارة الغربية تتأثر بالضغط الحضاري السائدة - يميلون إلى أن يحتفظوا بمستوى طموحهم أعلى من مستوى أدائهم السابق كذلك النظم الاجتماعية والقيم السائدة فيها تؤثر في مستوى الطموح. فالمجتمعات الطبقة تضعف من مستوى الطموحات، فالأفراد فيها لا يستطيعون تغيير وضعهم الطبيعي مهما بذلوا من جهد، فهم يلقون التشجيع فقط ليطمحوا إلى تحسين وضعهم داخل الطبقة التي ولدوا فيها. وفي ذلك تشير بعض الدراسات إلى أن الطموحات يمكن أن تتأثر بالمكانة الاجتماعية والثقافة والتاريخ أو المعايير المحلية أو تجارب الفرد المباشرة في المكان المتواجد فيه. (Ralf St Clair & al, 2011:2)

ولا يتأثر مستوى طموح الفرد بالثقافة العامة فقط بل يتأثر أيضا بالثقافات الفرعية، فأهل المدينة يختلفون في مستوى طموحاتهم عن أهل الريف. وقد أظهرت دراسة سيد

محمد عبد العال (1976) أن مستوى طموح الريفيين أقل بكثير من مستوى طموح الحضريين.

فالبينة التي ينتمي إليها الفرد لها دور كبير في رفع أو خفض مستوى الطموح. وبينت دراسات علم النفس الاجتماعي في موضوع مرونة المجال وعلاقته بارتفاع مستوى الطموح، أنه كلما كان المجال الذي يتحرك فيه الإنسان مجالا مرنا بمعنى أنه قليل الحواجز والعقبات، كلما كان ذلك دافعا إلى المزيد من حركة الشخص ونشاطه وتقدمه وارتفاع مستوى طموحه. وكلما زاد تصلب البيئة وضاق حيز الحركة، كلما انخفض مستوى الطموح كرد فعل دفاعي خوفا من الفشل والإحباط. حمادي، (1993:48-49)

وفي تحليل دور الطموحات في الاستثمار التعليمي للسكان الأصليين في بيرو، وجد أن أطفال السكان الأصليين لا يوقفون طموحاتهم بالمقارنة مع الأطفال غير الأصليين من نفس الخلفية الاجتماعية والاقتصادية. (Doumer & Brandon (2015)

خاتمة

إن كل الأفراد في مجتمعاتهم يتطلعون إلى المستقبل ويطمحون في تحقيق ما يصبون إليه. ويستمر وجود هذه المجتمعات بتطوير عنصرها البشري وبالأخص الشباب الذين تعول عليهم في كل خططها التنموية من أجل تحقيق الأمن والاستقرار لهم. وفي كل الحالات يظل الشباب عمادها وقوامها وقوة دوامها بفعل الطاقات التي يحتويها ويسخرها لخدمتها. وتختلف هذه الفئة الشبانية في سعيها لتحقيق ذلك من حيث مستويات الطموح التي ترسمها، والتي تتحدد أو تتشكل بفعل عوامل كثيرة منها عوامل اجتماعية، ثقافية واقتصادية، وأخرى عوامل ذاتية تخص الشباب في حد ذاته. لذا فإنه من اللازم دراسة أوضاع الشباب ومعرفة مشكلاتهم وطبيعة مستويات طموحاتهم من أجل دعمها وتشجيعها وتوفير لها كل الإمكانيات لتحسين أوضاعها واستغلال إنتاجها في ما يصلح للفرد وللمجتمع كله.

المراجع:

- 1- ابراهيم علي ابراهيم، 1994، العلاقة بين الطموح الأكاديمي وأساليب المعاملة الوالدية والتحصيل الدراسي، حولية كلية التربية، العدد 10، جامعة قطر.
- 2- الهادي سراية، 2010، مستوى الطموح وعلاقته بتقدير الذات والتكيف الاجتماعي لدى طلاب السنة الثالثة ثانوي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2.

- 3 - توفيق محمد توفيق شبير، 2005، دراسة لمستوى الطموح وعلاقته بنقص المتغيرات في ضوء الثقافة السائدة لدى طلبة الجامعة الإسلامية بغزة، رسالة ماجستير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.
- 4 - حسين عبيد جبر، 2012، المناخ الدراسي وعلاقته بمستوى الطموح لدى طلبة كلية الفنون الجميلة في جامعة بابل، مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، المجلد (2)، العدد (2).
- 5 - حمزة بوزرور، 2011، دور التداخل بين مركز التحكم ومستوى الطموح في إدراك الضغط النفسي لدى الطلبة الجامعيين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2.
- 6 - حميدة بودالي، 2013، مستوى الطموح وعلاقته بالقدرة على التفكير الإبداعي لدى طلبة ما بعد التدرج (ماستر، ماجستير، دكتوراه)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2.
- 7- رزيقة بن دومية، 2001، الرضا المهني للمدرسين عن مهنة التدريس (دراسة ميدانية للأوضاع الاقتصادية والمهنية عند أساتذة التعليم الثانوي وأثرها على عملهم التربوي)، رسالة ماجستير منشورة، جامعة بوزريعة، الجزائر.
- 8 - رشى الناطور، 2008، مستوى الطموح وعلاقته بتقدير الذات عند طلاب الثالث الثانوي العام (المستجدين - المعيدین)، دراسة ميدانية في محافظة درعا، جامعة دمشق، سوريا.
- 9 - زينب بن بركة، 2004، علاقة مركز التحكم بمستوى الطموح وتأثيرهما على الأداء الدراسي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر 2.
- 10 - فتيحة حسين حمادي، 1993، مستوى الطموح وعلاقته بكل من العصابية والتكيف النفسي والعائلي لدى طلاب جامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الإسكندرية.
- 11 - فتيحة يعقوب، 2011، علاقة بعض الخصائص النفسية السلوكية بمستوى الطموح لدى التلاميذ المتوافقين وغير المتوافقين دراسيا في مرحلة التعليم الثانوي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2.
- 12 - سمية محمد الصالح برهومي، 2006، تأثير الذكاء الوجداني على مستوى الطموح وبعض سمات الشخصية لدى الطالب الكفيف، ماجستير، جامعة الجزائر 2.
- 13 - عبد الله بن طه الصافي، ب س، المناخ المدرسي وعلاقته بدافعية الإنجاز ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب وطالبات المرحلة الثانوية بمدينة أمها، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد (71).
- 14 - علاء سمير موسى القطناني، 2011، الحاجات النفسية ومفهوم الذات وعلاقتها بمستوى الطموح لدى طلبة جامعة الأزهر بغزة في ضوء نظرية محددات الذات، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين.
- 15 - غالب بن محمد علي المشيخي، 2009، قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة طلاب، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
- 16 - فايز علي الأسود، 2009، دور الجامعة في تنمية الطموح الدراسي لدى طلابها نحو التفوق، مجلة جامعة الأزهر، سلسلة العلوم الانسانية، المجلد 11، العدد 1.

- 17 - كاميليا عبد الفتاح، 1990، دراسات سيكولوجية في مستوى الطموح و الشخصية، نهضة مصر، مصر.
- 18 - محمد بوفاتح، 2005، الضغط النفسي وعلاقته بمستوى الطموح الدراسي لدى تلاميذ السنة الثالثة ثانوي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ورقلة.
- 19 - محمد عبد الهادي الجبوري، 2013، قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات والطموح الأكاديمي والاتجاه للاندماج الاجتماعي لطلبة التعليم المفتوح - الأكاديمية العربية المفتوحة بالدانمارك نموذجاً، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك.
- 20 - هبة الله محمد الحسن سالم، 2004، علاقة دافعية الانجاز بالتحصيل الدراسي وموضع الضبط، ومستوى الطموح لدى طلاب مؤسسات التعليم العالي بولاية الخرطوم، أطروحة دكتوراه منشورة، جامعة الخرطوم، السودان.
- 21- Afzalur Rahmani & Dulumoni Goswami, 2013, Level of aspiration of undergraduate students in relation to their sex and socio-economic status, International Journal of Humanities and Social Sciences (IJHSS), Vol. 2, Issue 1, Feb 2013, 79-86.
- 22-Deepa Gupta 1, 2012, A Study of self-concept and level of aspiration of front-benchers and back- benchers International journal of behavioral social and movement sciences Vol.01, Issue 02 On-Line International Journal
- 23-Enrico Diecidue, Jeroen van de Ven, 2006, Aspiration Level, Probability of Success and Failure, and Expected Utility, International Economic Review, Vol. (49), No. (2).
- 24-Fessel. Florian, 2009, Increasing level of aspiration by matching construal level and temporal distance: The motivating effects of contemplating «how» now and «why» later, dissertation of doctorat non published University of Illinois at Urbana-Champaign.
- 25-Jamalal-lail, Mohammed Jafar, 1988, An investigation of self-concept and level of aspiration among Saudi male and female college students, Dissertation of doctorat published, University of Pittsburgh.
- 26-Pasquier-Doumer, Laure; Risso Brandon, Fiorella 2015, Aspiration Failure: A Poverty Trap for Indigenous Children in Peru?, World Development, Volume: (72).
- 27-Ralf St Clair, Keith Kintrea and Muir Houston, 2011 ; The influence of parents, places and poverty on educational attitudes and spirations, College of Social Sciences, University of Glasgow.
- 28- Steve Strand & Joe Winston, 2008, Educational aspirations in inner city schools, publication in Educational Studies (34), (4), Institute of Education, University of Warwick.
- 29- Yisak Tafere 2014, Education Aspirations and Barriers to Achievement for Young People in Ethiopia, First published by Young Lives, Oxford Department of International Development (ODID), University of Oxford

الدافعية للانجاز وعلاقتها بمستوى الطموح ودرجة التفاؤل وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي.

- دراسة ميدانية بالمركز الجامعي تيبازة-

خالد شنون - جامعة الجزائر 2

ملخص الدراسة :

استهدفت الدراسة الكشف عن طبيعة العلاقة بين الدافعية للانجاز ومستوى الطموح لدى عينة من طلبة الجامعة، وهي دراسة ميدانية تم فيها استخدام المنهج الوصفي الارتباطي كونه الملائم لطبيعة الموضوع ، وتم استخدام كل من مقياسي الدافعية للانجاز لعبد اللطيف محمد خليفة (2000) ومقياس مستوى الطموح لمعوض وعبد العظيم (2005) للإجابة على تساؤلات الدراسة.

وخلصت النتائج إلى وجود علاقة ارتباطية موجبة بين الدافعية للانجاز ومستوى الطموح لدى عينة الدراسة، كما أن الدافع للانجاز المرتفع يزيد من درجة التفاؤل وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي، مما يعني أن استثارة اهتمام الطلبة وتنمية شعورهم بالمسؤولية ، وسعيهم نحو التفوق وتنمية روح المثابرة والشعور بأهمية الزمن، يلعب دورا إيجابيا في الرفع من مستوى الطموح لديهم ، حيث يظهر هذا الأخير في مستوى التفاؤل، ووضع الأهداف وتحمل الإحباط الذي يواجهه طلبة الجامعة، خاصة في عصر يعرف تقدما تقنيا وتكنولوجيا.

الكلمات المفتاحية: الدافعية للانجاز ، مستوى الطموح .

مقدمة:

يشكل مستوى الطموح لدى الفرد بعدا من أبعاد الشخصية، وذلك لما له من أهمية في تكيف الفرد مع بيئته والمحافظة على توافقه النفسي والاجتماعي.

وفي الجامعة نجد أن الاختلاف في مستويات الطموح لدى الطلبة يرتبط بالاختلاف في الخصائص النفسية والتعليمية وكذا الاجتماعية هؤلاء الطلبة ، حيث تشكل الدوافع المكتسبة من البيئة إحدى هاته العوامل الهامة في تحديد مستويات مختلفة بين الأفراد عامة والطلبة على

وجه الخصوص في درجة التفاؤل وتحمل الإحباط وتقبل التجديد...الخ والتي تشكل أبعادا لمستويات الطموح لدى هؤلاء الأفراد، كما أن وضع أهداف والسعي في تحقيقها يعطي الفرد دافعا لإنجازها، ومن ثم يعتبر الدافع للإنجاز من العوامل المهمة لمواجهة مواقف الحياة وتحقيق الأهداف، ويعد موراي Murray أول من استخدم الحاجة إلى الإنجاز وقد سمي الدافع للإنجاز « بقوة الإرادة »، حيث يرى أنه غالبا ما يتداخل مع دوافع أو حاجات نفسية أخرى.

وتوفر الدافعية للإنجاز لدى الطالب الجامعي الرغبة في البحث والمثابرة في المهمات التعليمية الهادفة، حيث ينعكس ذلك على تقبل التجديد ومواجهة الصعاب وتخطيها والذي يشكل بدوره طموحا يرسمه الطالب لمستقبله، ذلك أن أداء الفرد وإصراره على القيام بأعمال معينة أو مواصلة هذه الأعمال، يتوقف في معظم الأوقات على ما لديه من دافعية، حيث تلعب هذه الأخيرة دورا في تحقيقه لأهدافه.

ويعد مستوى الطموح جزءا مهما وأساسيا في حياة الأفراد، فهو يبلور ويعزز الاعتقادات التفاؤلية عند الفرد بكونه قادرا على التعامل مع أشكال مختلفة من الضغوط والتحديات وتقبل التجديد وتحمل المتاعب، فالشخص الذي يؤمن بقدرته على تحقيق أهداف معينة يكون قادرا على إدارة مسار حياته الذي يحدده بصورة ذاتية وبنشاط أكبر، وهذا بدوره يؤدي إلى الإحساس بالسيطرة على البيئة وتحدياتها، وانطلاقا مما سبق تأتي هذه الدراسة لتكشف العلاقة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح ودرجة التفاؤل وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي.

1- إشكالية الدراسة:

تشهد اليوم الكثير من مواقف الحياة تحديات تتطلب تحمل المسؤولية من قبل الأفراد، والسعي نحو التفوق لتخطي العقبات وتحقيق النجاح. وذلك رغبة في تحقيق توافق نفسي واجتماعي يتكيف مع مقتضيات العصر الذي يميزه تقدم تقني وتكنولوجي واسع، ومتغيرات تتطلب نظرة استشرافية تفاؤلية مبنية على معرفة للقدرات الكامنة، وتظهر في طموح يرسمه الفرد في حياته لتجاوز التحديات التي تواجهه، وفي الجامعة نجد أن الطالب الجامعي يخطط لحياته ويحاول أن يرسم مستقبلا مشرفا في شكل أهداف يسعى لتحقيقها بما يتلاءم مع قدراته وحاجاته المتعددة.

وفي هذا الإطار يحاول الكثير من الطلبة بذل قصارى جهدهم لتحقيق أهدافهم، ويثابرون للتغلب على ما يواجهونه من مواقف صعبة في حياتهم رغبة في النجاح في تحقيق آمالهم وأحلامهم، ويتمتع هؤلاء الأفراد بدرجة عالية من الحاجة للتحقيق، إذ نجد أن أكثر ما يحركهم الدافعية للإنجاز، حيث تعتبر أحد الجوانب المهمة في منظومة الدوافع التي يمتلكها الفرد، ويتطلع من خلالها الطالب الجامعي إلى مستقبل يراه سهلا للتحقق، ويلتمسه المجتمع في مستوى الطموح الذي يمتلكه.

والدافعية للإنجاز ترتبط بتحقيق الأشياء التي يراها الآخرون صعبة، وتعبير عن السيطرة على البيئة والتحكم في الأفكار وسرعة الأداء والاستقلالية والتغلب على العقبات وبلوغ

معايير الإمتياز ومنافسة الآخرين والتفوق عليهم و الاعتزاز بالذات و تقديرها» (علي الطيب رشوان، 2006).

كما يعبر مستوى الطموح عن سمة من سمات الشخصية ، أي أنها صفة موجودة لدى الجميع تقريبا، ولكن بدرجات متفاوتة في الشدة والنوع، وهي تعبر عن التطلع لتحقيق أهداف مستقبلية قريبة أو بعيدة ، ويتم التعبير عن هذه السمة باستخدام مصطلح مستوى الطموح. حيث هناك عدة عوامل يمكن أن تؤثر في مستوى طموح الفرد، فمنها العوامل الذاتية (وتتعلق بخبرات النجاح والفشل، مفهوم الفرد عن ذاته، الذكاء) ومنها العوامل الخارجية (وتتعلق بالأقران والجماعات المرجعية..) وكل هذه العوامل تدخل في بناء وتكوين شخصية الفرد وتؤثر في سلوكاته.

ونتطلع من خلال الدراسة إلى أن الطلبة ذوي الدافع المرتفع للانجاز هم أكثر نجاحاً في حياتهم، حيث نجدهم يمتلكون مهارات اتصال عالية ، ولديهم استشراف لما يواجهونه في مستقبلهم ، كما نرى أن هذه الفئة من المتعلمين أكثر فهما لذواتهم وللمحيطين بهم ، نظرا لما يتميزون به من إرادة ودافعية تنعكس على مستوى تحقيقهم لأهدافهم ، كما لديهم قدرة عالية على تحمل المسؤولية في المواقف التعليمية التي تعكس طموحاتهم .

ويفترض معظم واضعي النظريات في مفهوم الدافعية بأنها ترتبط ولها علاقة وثيقة بعملية الأداء لجميع ردود الفعل السلوكية المكتسبة، بمعنى آخر أن السلوك المكتسب لن يكون ظاهرا وجليا إلا في حال عدم تحفيزه، وإمداده بالطاقة اللازمة لبروزه. (حسين أبو رياش، زهرية عبد الحق، 2007)

وعلى هذا الأساس تبحث الدراسة عن العلاقة بين الدافعية للانجاز ومستوى الطموح لدى طلبة الجامعة ، وتحديدًا تنحصر مشكلة الدراسة في الإجابة عن الأسئلة التالية:

- هل هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للانجاز ومستوى الطموح لدى طلبة المركز الجامعي لتيبازة ؟

- هل هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للانجاز والتفاؤل لدى عينة الدراسة من طلبة المركز الجامعي ؟

- هل هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للانجاز وتحمل الإحباط لدى عينة الدراسة من طلبة المركز الجامعي تيبازة ؟

2- فرضيات الدراسة : تمثلت فرضيات الدراسة في ما يلي:

1- هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للانجاز ومستوى الطموح لدى طلبة المركز الجامعي لتيبازة.

2- هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للانجاز والتفاؤل لدى عينة الدراسة من طلبة المركز الجامعي.

3- هناك علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى عينة الدراسة من طلبة المركز الجامعي تيبازة.

3- أهداف الدراسة وأهميتها:

تستهدف الدراسة الدافعية للإنجاز وعلاقتها بمستوى الطموح لدى عينة من طلاب وطالبات الجامعة ، لذلك فإنها تهدف إلى :

1- الكشف عن طبيعة العلاقة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح لدى طلبة الجامعة.

2- الكشف عن طبيعة العلاقة بين الدافعية للإنجاز و مستوى التفاؤل وتحمل الإحباط حيث يعتبر ذلك من أبرز المؤشرات على الطموح العالي لدى الطالب الجامعي.
كما تكمن أهمية الدراسة في:

1- - تتناول الدراسة الدافعية للإنجاز كقدرة، وهو ما يسهم في زيادة فهم دور توظيف الدوافع لدى طلبة الجامعة.

2- إيجاد السبل الكفيلة في تعزيز الطموح لدى طلبة الجامعة، في ظل ظهور متغيرات اجتماعية (كالعولمة)، حيث كان لها الأثر الكبير في المردود التعليمي لدى الطالب الجامعي.

4- تحديد المفاهيم الأساسية:

4-1- الدافعية للإنجاز:

الدافع هو حالة داخلية أو استعداد داخلي فطري أو مكتسب شعوري أو لاشعوري، عضوي أو اجتماعي أو نفسي يثير السلوك ذهنيا كان أو حركيا، ويوصله ويسهم في توجيهه إلى غاية شعورية أو لاشعورية « فمن الدوافع ما هو فطري وما هو مكتسب، ثم ما هو شعوري وما هو لاشعوري . (عبد الرحمن العيسوي، 2004)

يعرف ماكيلاند الدافعية للإنجاز أنها تلك الرغبة في النجاح والأداء والتفوق والإمتهان (فؤاد أبو حطب، 1996)

الدافعية للإنجاز» حالة داخلية مرتبطة بمشاعر الفرد وتوجه نشاطه نحو التخطيط للعمل، وتنفيذ هذا التخطيط بما يحقق مستوى محدد من التفوق الذي يؤمن به الفرد ويعتقده (أبو علام: 2007)

يعرفها الدكتور عبد اللطيف محمد خليفة على أنها استعداد الفرد لتحمل المسؤولية ، والسعي نحو التفوق لتحقيق أهداف معينة ، والمثابرة للتغلب على العقبات والمشكلات التي قد تواجهه ، والشعور بأهمية الزمن، والتخطيط للمستقبل (خليفة، 2000).

وتعرف الدافعية للإنجاز إجرائيا بأنها استعداد - دائم نسبيا - للشخصية يدفع المتعلم إلى السعي وراء النجاح، ويتضمن الرغبة في الأداء الجيد وتحقيق النجاح.

ويحدد بما يحصل عليه المتعلم من الدرجات من خلال إجابته على مقياس دافعية الإنجاز لعبد اللطيف محمد خليفة ، والمستخدم في هذه الدراسة.

4-2- مستوى الطموح:

هو المستوى الذي يضعه الفرد لنفسه ويرغب في بلوغه أو يشعر أنه قادر على بلوغه، وهو يسعى لتحقيق أهدافه في الحياة، وإنجاز أعماله اليومية». (راجح أحمد عزت، 1973).

تعريف نوربرت سيلامي (Norbert Sillamy, 1980): «هو سلوك قوي ينزع نحو هدف محدد من طرف الموضوع بمستوى أعلى أو أدنى، يرتفع عندما تتكرر المهمة القابلة للتدريب».

- هو سمة ثابتة ثباتا نسبيا تفرق بين الأفراد في الوصول إلى مستوى معين يتفق والتكوين النفسي للفرد وإطاره المرجعي، ويتحدد حسب خبرات النجاح والفشل التي مر بها». (كاميليا عبد الفتاح، 1984)

- يرى أتكسون (Atkinson, 1964) أن مستوى الطموح يعبر عن مستوى الإنجاز المترقب الذي يحاول الفرد الوصول إليه في مهمة مألوفة مع وجود معلومات لدى الفرد عن مستوى إنجازه السابق فيها. (احمد صقر عاشور، 1983)

- يعرفه معوض وعبد العظيم 2005 بأن مستوى الطموح يتصف بتقبل حمل ما هو جديد وتحمل الإحباط والقدرة على وضع الأهداف والالتزام بالتفاؤل (معوض وعبد العظيم ، 2005)

- هو سمة ثابتة ثباتا نسبيا تحدد المستوى الذي يضعه الفرد لنفسه من أهداف ، وتفرق بين الأفراد في الوصول إلى ذلك المستوى الذي يتفق مع التكوين الشخصي والبناء النفسي للفرد.

وهو سمة مميزة لكل فرد ، وثابت نسبيا ويحدد بما يحصل عليه المتعلم من الدرجات من خلال إجابته على مقياس معوض وعبد العظيم ، والمستخدم في هذه الدراسة.

5- مستويات الإنجاز لدى المتعلمين :

ينقسم في إنجاز المتعلمين إلى مستويات ثلاث، لكل مستوى منها خصائصه وميزاته وإن كان هناك تشابه في بعض الأحيان بين بعض خصائص هذه المستويات ، فالمتفوقون في إنجازهم والمعتدلون منهم أكثر قابلية للتنبؤ بهم والتعرف عليهم، أما الفئة الثالثة وهم متدنوا الإنجاز لا يكاد يجمع بينهم جامع و الجدول الآتي يوضح خصائص كل من هذه الفئات بشكل عام:

جدول رقم 02 : يبين يوضح مستويات الإنجاز

المصدر : (عدس محمد عبد الرحيم ، 1979 : 35)

خصائص المتفوقين في الإنجاز	خصائص المعتدلين / المتوسطين	خصائص المتدنيين في إنجازهم
- يتحملون المسؤولية بشكل عال.	- يمكن إثارتهم للعمل وحفزهم عليه	- متساهلون
- منتجون ويخططون لإنتاجهم	- يحملون عن أنفسهم فكرة إيجابية	- يقفون موقف المدافع
- يحظون بالرضا والقبول.	- عندهم عقول جادة	- يشعرون في وجه غيرهم
- يتنباهم القلق والتوتر أحيانا من الداخل	- يتحملون المسؤولية	- سريعو التغير
- يتصفون بالجد والصبر والقدرة على التحمل	- أصحاب سلطة ونفوذ	- عدوانيون سلبيون غريبو الأطوار
- منظمون جيدا وموظبون في عملهم وحياتهم	- لهم مراكز قيادية في الجماعة	- يبدو عليهم الاستياء والضجر
- لا يطبقون الإخلاء إلى الراحة طويلا	- يثقون بأنفسهم وهم منظمون في عملهم وحياتهم	- يهتمون بها حولهم ولغيرهم أكثر مما يهتمون بشؤونهم الخاصة
- ذوو طاقة ونشاط	- يخططون للمستقبل	- يكتبون عواطفهم
- يفخرون بإنجازهم ويعتزون به	- ينزعون نحو الاستغلال	- يبدو عليهم الحزن والتشاؤم
	- عندهم زمام المبادرة	- قلقون متوترون
	- موظبون	- كثيرو الشك والريبة
	- يهتمون بما يدور حولهم	- مفكرون

يتبين مما سبق أن المتفوقون في الإنجاز وكذلك المعتدلين منهم يتصفون بالجد والاجتهاد وبالتركيز ، وفي كل نوع من أنواع الطاقة التي يبذلونها وبغض النظر عن الأسلوب الذي يتم به عملهم ، وصفة الجد عندهم تصل إلى مستوى عال منه وكذلك قدرتهم على تنظيم العمل ومواصلتهم له.

أما متوسطو الإنجاز (المعتدلون) يغلب عليهم التوازن والاعتدال وهم يحسون أن كل شيء هو تحت نفوذهم وسيطرتهم ، ولكن ليس إلى درجة كبيرة ، كما يشعرون بأن كل شيء يجب أن يكون في محله وفي المكان المعد له.

كل من هاتين القائمتين للمتفوقين والمعتدلين يمكن أن تكون وصفا لشخص واحد ، وبعبارة أخرى يمكن أن يبدو على شخص واحد كل هذه الخصائص وأن يتصف بها جميعا.

ولكن إذا قارنا بين خصائص متدني الإنجاز وصفاتهم لوجدنا أنه يصعب أن يتوافر في أي منهم خاصيتان متناقضتان أو غير متوافقتين وفي الوقت نفسه، مثل كبت العواطف مع التطفل والاهتمام بالغير، أو بين العداء وبين التأمل والتفكير.

ويعود السبب في وجود مثل هذا التناقض إلى أن متدني الإنجاز ليسوا فئة متقاربة متشابهة في صفاتهم وخصائصهم، وبعبارة أخرى لا يشكلون مجموعة متجانسة، حيث يظهر متدنوا الإنجاز في كل حذب وصوب وفي جميع الظلال والأشكال والحجوم والألوان.

وإذا نظرنا إلى ما بين أفراد هذه المجموعة من فروق واختلافات إلى ما بينهم من متشابهات لوجدنا أن النظر إلى هذه الفروق أمر ضروري وهام حتى نستطيع أن نفهم كلا منهم، وأن نفهمه، ونقوم بذلك أقدر على تقديم المساعدة المناسبة له، والتي تتفق مع ظروفه وخصائص تدني إنجازة.

6- أشكال الطموح:

1-6 - الطموح الدراسي:

وهو ما يطمح الفرد إلى تحقيقه في المجال التعليمي، وينمو ويتطور هذا الشكل من الطموح من السنوات الأولى للدراسة ويظهر ذلك في سعيه واجتهاده للنجاح في كل مستوى يصل إليه لانتقاله إلى مستوى أعلى فمن الابتدائي إلى الإكمالي ثم الثانوي، حتى يصل إلى المستوى الجامعي، فهناك من يكتفي بحصوله على الشهادة الجامعية ويتجه لسوق العمل والبحث عن وظيفة محترمة يستقر بها في حياته، وهناك من يرتقي بطموحه التعليمي ليوصل دراساته العليا في مابعد التدرج من ماستر أو ماجستير ومن ثم الدكتوراه، وما يميز أفراد هذه الفئة أنهم حتى ولو تسلموا شهادة الدكتوراه فإن هذا ليس نهاية مسارهم الدراسي فهناك من يحاول التعمق أكثر في تخصصه وذلك بمساهمته في الدراسات والبحوث والمكتبيات إلى غير ذلك من النشاطات.

2-6 - الطموح الاجتماعي والمهني:

يتضح في الصورة عن المهنة المستقبلية للفرد في السنوات الأخيرة من الدراسة أو حتى بعد الإنتهاء منها، وهناك من لم يسعفهم الحظ في التعليم فإنهم يلجؤون إلى القيام بتربصات في المجالات التي يعتقدون أنها تلائمهم ليتخذوها مهنة لهم، فكل فرد يسعى للمهنة التي يعتقد أنها تلائم مع إمكانياته ورغباته، وتؤمن له العيش الكريم والمكانة الاجتماعية.

3-6 - الطموح الاقتصادي:

ويشير ذلك إلى الطموح الذي يتبناه الفرد أو مجموعة من الأشخاص أو المجتمع ككل لتحسين وضعيتهم الاقتصادية حسب ما يرونه مناسباً لهم أو حسب مقارنة وضعيتهم مع وضعيات اقتصادية أخرى، كالطموح في أرباح تجارية، أو الطموح في زيادة الإنتاج، الطموح في كسب مالي جديد، الطموح في تحسين وضعية البلاد الاقتصادية، الطموح في الإصلاح الاقتصادي،

الطموح في تحسين المكانة الإقتصادية العالمية للبلاد، إلى غير ذلك من التطلعات الإقتصادية الأخرى. (محمد بوفاتح، 2005)

7- منهج الدراسة :

تستند الدراسة إلى المنهج الوصفي (الارتباطي) ، حيث يتناسب هذا المنهج مع طبيعة الموضوع، إذ يقوم المنهج الوصفي بوصف ما هو موجود ومحاولة تفسيره، ويهتم أيضاً بتحديد الشروط والظروف والمتغيرات والعلاقات التي تقوم بين الظواهر والوقائع. وقد تم اختيار المنهج الوصفي الارتباطي لإثبات أو تفنيد الفرضيات التي قامت عليها الدراسة، وهو ما يتناسب مع أهداف الدراسة وحدودها.

8- مجتمع الدراسة :

تكون مجتمع الدراسة من طلبة معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية بالمركز الجامعي تيبازة.

9- عينة الدراسة:

9-1 عينة الدراسة الاستطلاعية:

انصبت الجهود في الدراسة الاستطلاعية في استطلاع الميدان الخاص بالدراسة والتحقق من صدق وثبات المقاييس المستخدمة في جمع البيانات (مقياس الدافعية للإنجاز. مقياس مستوى الطموح).

واشتملت عينة الدراسة الاستطلاعية على 74 طالب وطالبة من مجتمع الدراسة الأصلي ، وتم اختيارهم بطريقة عشوائية.

9-2 عينة الدراسة الأساسية:

تم إختيار عينة الدراسة الأساسية كما يوضحها الجدول التالي:

جدول رقم 02: يبين توزيع افراد العينة الأساسية حسب الجنس:

الجامعة	العدد الكلي للعينة	الذكور	نسبة الذكور	الاناث	نسبة الإناث
المركز الجامعي تيبازة	111	21	19 %	90	81 %

9-3- مكان وتاريخ إجراء الدراسة: تم إجراء الدراسة بكلية العلوم الاجتماعية والانسانية بالمركز الجامعي تيبازة ، في شهر فيفري من السنة الجامعية 2014 / 2015

10- أدوات الدراسة :

10-1- مقياس الدافعية للإنجاز :

أعد هذا المقياس عبد اللطيف محمد خليفة بهدف قياس دافعية الإنجاز واشتمل المقياس بوجه عام على 50 بنداً، خصصت منها عشرة بنود لكل محور أو مقياس فرعي يميز الدافع القوي للإنجاز، عن الدافع الضعيف وذلك على النحو التالي: الشعور بالمسؤولية- السعي نحو التفوق لتحقيق مستوى طموح مرتفع - المثابرة- الشعور بأهمية الزمن - التخطيط للمستقبل. وتم التأكد من صدق وثبات المقياس مع عينة استطلاعية مكونة من 74 طالب وطالبة وكان معامل ثباته $\alpha = 0.91$

10-2- مقياس مستوى الطموح:

مقياس مستوى الطموح لمعوض وعبد العظيم (2005)، يتكون من 36 بند موزعة على أربعة أبعاد وهي:

التفاؤل - المقدرة على وضع الأهداف- تقبل الجديد - تحمل الإحباط. وتم التأكد من صدق وثبات المقياس مع عينة استطلاعية مكونة من 74 طالب وطالبة من نفس مجتمع الدراسة، وكان معامل ثباته $\alpha = 0.79$

10-3- بعد التفاؤل في مقياس مستوى الطموح :

ويُقاس من خلال 12 بند من المقياس الكلي لمستوى الطموح وهي (26، 25، 24، 19، 18، 13، 12، 11، 9، 7، 6، 32)

10-4- بعد تحمل الإحباط في مقياس مستوى الطموح :

ويُقاس من خلال 06 بنود من المقياس الكلي لمستوى الطموح ويعبر عنه من خلال البنود (27، 23، 22، 21، 20، 5)

11- نتائج الدراسة:

11-1- النتائج المتعلقة بالفرضية الأولى:

نصت الفرضية الأولى على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح لدى الطالب الجامعي، ولمعرفة النتائج تم حساب المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري لكل من الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح، ومعامل الارتباط بيرسون (r) لدراسة دلالة العلاقة بين المتغيرين.

وأظهرت نتائج التحليل الإحصائي ما يلي:

جدول رقم 1: يوضح نتائج تطبيق معامل الارتباط (r) بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح.

المتغيرات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة r	مستوى الدلالة	النتيجة
الدافعية للإنجاز	174	28	0.37	0.01	توجد علاقة ارتباطية موجبة
مستوى الطموح	78	10.6			

تحليل نتائج الفرضية الأولى:

يتضح من خلال الجدول رقم 01 أن معامل الارتباط بيرسون لدراسة العلاقة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح يساوي ($r = 0.37$) وهي دالة عند مستوى ($\alpha = 0.01$) ، وهذا يشير إلى رفض الفرضية الصفرية وقبول فرضية الدراسة التي تنص على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح لدى طلبة الجامعة، وهي علاقة ارتباطية موجبة ، حيث كلما ارتفع مستوى الدافعية للإنجاز لدى الطالب الجامعي زاد مستوى طموحه.

11-2- النتائج المتعلقة بالفرضية الثانية:

نصت الفرضية على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز والتفاؤل لدى عينة الدراسة من طلبة المركز الجامعي، ولمعرفة النتائج تم حساب المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري لكل من الدافعية للإنجاز و بعد التفاؤل في مستوى الطموح لدى عينة الدراسة ، كما تم حساب معامل الارتباط بيرسون (r) لدراسة دلالة العلاقة بين المتغيرين. و أظهرت نتائج التحليل الإحصائي ما يلي:

جدول رقم 2: يوضح نتائج تطبيق معامل الارتباط (r) بين الدافعية للإنجاز والتفاؤل.

المتغيرات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة r	مستوى الدلالة	النتيجة
الدافعية للإنجاز	174	28	0.23	0.05	توجد علاقة ارتباطية
التفاؤل	27.3	3.8			

تحليل نتائج الفرضية الثانية:

يتضح من خلال الجدول رقم 02 أن معامل الارتباط بيرسون لدراسة العلاقة بين الدافعية للإنجاز والتفاؤل يساوي ($r = 0.23$) وهي قيمة دالة عند مستوى ($\alpha = 0.05$) ، وهذا

يشير إلى رفض الفرضية الصفريّة وقبول فرضية الدراسة التي تنص على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز والتفوّّل لدى عينة الدراسة ، وهي علاقة ارتباطية موجبة ، مما يعني أنّ الدافعية للإنجاز تلعب لعب دوراً إيجابياً في الرفع من مستوى التفوّّل لدى طلبة الجامعة.

11-3- النتائج المتعلقة بالفرضية الثالثة:

نصت الفرضية على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي ، ولمعرفة النتائج تم حساب المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري لكل من الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط كبعد من أبعاد مستوى الطموح ، كما تم حساب معامل الارتباط بيرسون (r) لدراسة دلالة العلاقة بين المتغيرين. وأظهرت نتائج التحليل الإحصائي ما يلي:

جدول رقم 3: يوضح نتائج تطبيق معامل الارتباط (r) بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط.

المتغيرات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة r	مستوى الدلالة	النتيجة
الدافعية للإنجاز	174	28	0.35	0.01	توجد علاقة ارتباطية
تحمل الإحباط	12.5	3.4			

تحليل نتائج الفرضية الثالثة:

يتضح من خلال الجدول رقم 03 أن معامل الارتباط بيرسون لدراسة العلاقة بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى الطالب الجامعي يساوي ($r = 0.35$) وهي قيمة دالة عند مستوى ($\alpha = 0.01$) وهذا يشير إلى رفض الفرضية الصفريّة وقبول فرضية الدراسة التي تنص على وجود علاقة ارتباطية بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى طلبة الجامعة ، وهي علاقة ارتباطية موجبة ، مما يعني أنّ الدافعية للإنجاز وارتفاع مستواها لدى طلبة الجامعة يعبر عن الارتفاع في مستوى تحمل الإحباط.

12- تفسير نتائج الدراسة:

12-1 تفسير نتائج الفرضية الأولى:

تشير نتائج الفرضية الأولى إلى وجود علاقة ارتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح لدى عينة الدراسة من طلبة الجامعة . ويمكن تفسير ذلك بأن الشعور بالمسؤولية والمثابرة والسعي نحو التفوق مع مراعاة عامل الزمن والتي تشكل بدورها أبعاداً وعوامل للدافعية للإنجاز تؤثر تأثيراً إيجابياً في الرفع من مستوى طموح الطالب الجامعي ، حيث يظهر

ذلك في قدرته على وضع الأهداف وتقبل التجديد ، وذلك ما يعبر عن مستوى طموح عالي يبرز في شخصية الطالب الجامعي .

كما يمكن تفسير وجود علاقة موجبة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح أن أصحاب الدافع للإنجاز القوي يميلون إلى التصرف بطرق يتميزون فيها عن غيرهم من الأفراد ، حيث تميزهم المثابرة ، الطموح ، والثقة بالنفس ، كما يفضلون المسؤولية الفردية بالنسبة لنتائج عملهم ونشاطاتهم ولا يتركوا الأشياء للقدر (الصدفة أو الحظ) ، ويختارون الأصدقاء ليشاركوا معهم في الأعمال ، كما يقاومون الضغط الخارجي ، وبذلك يتحملون متغيرات الإحباط ويواجهونها بقوة ، ذلك أن ما يمتازون به من شعور بالمسؤولية تجاه المواقف والمثابرة والتي تشكل أبعادا لدافعيتهم للإنجاز تجعل من طموحهم عالي في تحقيق أهدافهم .

12-2 - تفسير نتائج الفرضية الثانية:

تشير نتائج الفرضية الأولى إلى وجود علاقة إرتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز والتفاؤل لدى الطالب الجامعي . ويمكن تفسير ذلك إلى أن الدافعية للإنجاز تعطي الفرد والطالب الجامعي تفاؤلا في رسم مستقبل واضح مبني على حقائق عملية ، كما يعني أن من يتمتع بالقدرة على تحمل المسؤولية ، ويسعى نحو التفوق ويثابر في ذلك هو أكثر تفاؤلا عن المستقبل الذي ينتظره ، مهما واجهته مواقف الحياة .

كما تبين نتائج هذه الفرضية أن الطلبة الذين لديهم مستوى مرتفع في الدافعية للإنجاز يضعون نصب أعينهم أعمال يستطلعون نتائجها ، ويستطيعون من خلالها أن يثبتوا كفاءاتهم وقدراتهم ، ويستثمروا في خبراتهم بالشكل الذي يستطيعون أن يحققوا أهدافهم ، ويرون مؤشرات نجاحهم في ذلك .

كما أن الأفراد ذوي دافع الإنجاز المرتفع نجدهم يفضلون الوظائف التي تهيء لهم فرص معقولة من النجاح ، بينما يميل الأفراد ذوي الإنجاز المنخفض الضعيف ، إما إلى الوظائف السهلة ذات العائد الصغير أو إلى الوظائف ذات العائد الكبير ، والتي تتطلب مسؤولياتها قدرات فوق قدراتهم .

12-3 - تفسير نتائج الفرضية الثالثة:

تشير نتائج الفرضية الثالثة إلى وجود علاقة إرتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى عينة الدراسة ، ويمكن تفسير ذلك أن تحمل الإحباط الذي يلاحظ في المقاومة وتحمل الصعاب له علاقة بالشعور بالمسؤولية والمثابرة والعمل على النجاح في الأداء ، حيث تلعب الدافعية للإنجاز دورا في مواجهة التحديات وتقبل التجديد ومواجهة الإحباط لدى الطالب الجامعي ، كما ترسم عامة الدوافع والدافعية للإنجاز خاصة في الفرد خطط لمواجهة الصعاب ، وقدرة على حل المشكلات المتوقعة وغير المتوقعة ، حتى يتمكن من تحقيق الأهداف وتلبية الحاجات والرفع من مستوى النجاح في الحياة .

13 - استنتاج عام :

- تتدخل عدة عوامل في تحديد مستوى الطموح لدى الطالب الجامعي ، منها ما هي متعلقة بخبرات النجاح لدى هذا الأخير ، ومنها ما تتعلق بدرجة الإنجاز ومفهومه عن ذاته وقدراته ، وومنها ما يتعلق كذلك بتفاعله مع جماعته المرجعية والأقران.

- الدافعية للإنجاز لها أهمية قصوى في حياة الأفراد عامة وطلبة الجامعة والمتعلمون على وجه الخصوص .

- مستوى الطموح له أهمية قصوى في حياة الأفراد عامة والمتعلمون خاصة ، حيث يعبر عن سمات ثابتة تتعلق بقدرة المتعلمين على وضع أهداف والسعي لتحقيقها ومجابهة العراقيل التي تواجههم في ذلك.

- توجد علاقة ارتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز ومستوى الطموح لدى طلبة الجامعة، حيث يعبر الدافع المرتفع في الانجاز عن الطموح العالي لدى الطالب الجامعي.

- توجد علاقة ارتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز والتفاؤل لدى الطالب الجامعي ، حيث من شأن الارتفاع في الدافعية للإنجاز أن تعبر عن تفاؤلا لدى الفرد عامة والمتعلم خاصة.

- توجد علاقة ارتباطية موجبة بين الدافعية للإنجاز وتحمل الإحباط لدى طلبة الجامعة، خاصة في ظل الظروف الاجتماعية الضاغطة وعوامل العولة التي تميز العصر.

14 - اقتراحات الدراسة :

- ضرورة الاهتمام بالدوافع عامة والدافعية للإنجاز خاصة ، ونشر الثقافة النفسية بين طلبة الجامعة.

- ضرورة الاهتمام بتنمية مهارات مهارات تحمل الإحباط وتقبل التجديد لدى طلبة الجامعة، من خلال دورات تدريبية وورشات موجهة لهذا الغرض.

- العمل على توفير الظروف المواتية للرفع من مستوى الدافعية للإنجاز لدى طلبة الجامعة، وتعزيز أنجازهم بما يحقق توافقا لديهم.

- إعداد دراسات حول التفاؤل كبعد أساسي من أبعاد مستوى الطموح ، وعلاقته ببعض المتغيرات التي تساهم في الرفع من الأداء لدى طلبة الجامعة والمتعلمين عامة.

- الاستفادة من الفئة التي تتمتع بدرجات عالية من الدافعية للإنجاز ، ومهارات مواجهة الضغوط ، والاستثمار فيها علميا وعمليا في مواجهة الصعاب بالمؤسسات التعليمية.

مراجع الدراسة :

- 1 - أبو علام رجاء. (2007). التعلم أسسه و تطبيقاته. عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع (ط1).
- 2- أحمد صقر عاشور (1983). إدارة القوى العاملة . دار النهضة العربية . بيروت
- 3- حسين أبو رياش، زهرية عبد الحق (2007). «علم النفس التربوي للطلاب الجامعي والمعلم الممارس»، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والتوزيع، عمان.
- 4- عصام علي الطيب، ربيع عبده رشوان. (2006). علم النفس المعرفي. القاهرة: عالم الكتب للنشر والتوزيع. (ط.1).
- 5- عبد اللطيف محمد خليفة (2000): مقياس الدافعية للإنجاز، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
- 6- راجع أحمد عزت (1973)، أصول علم النفس، المكتب المصري الحديث، الاسكندرية ، مصر.
- 7- محمد بوفاتح . (2005). الضغط النفسي وعلاقته بمستوى الطموح ، لدى تلاميذ السنة الثالثة ثانوى، رسالة ماجستير ، الجزائر .
- 8- معوض محمد و عبد العظيم : (2005) مقياس مستوى الطموح ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.
- 9- عبد الرحمان العسوى (2004). «دوافع الجريمة»، ط1، منشورات حلبي الحقوقية، بيروت، لبنان.
- 10- عدس محمد عبد الرحيم ومنصور طلعت (1979): دافعية الانجاز وقياسها، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، مصر.
- 11- فؤاد أبو حطب (1993). تقويم الإبداع ، القاهرة ، معهد جوتة .
- 12 - كاميليا عبد الفتاح (1984)، مستوى الطموح والشخصية ، دار النهضة العربية . بيروت.

مراجع باللغة الأجنبية:

-Norbert Sillamy : dictionnaire de psychologie. Larousse, Edition France loisirs, paris, 1980.

الملاحق :

مقياس الدافعية للإنجاز:

أخي الطالب أختي الطالبة : فيما يلي مجموعة من العبارات، تشير إلى شعورك وسلوكك نحو بعض الموضوعات أو المواقف، والمطلوب منك أن تعطي لكل عبارة درجة تتراوح بين (1 - 5) في السطر المقابل لها وذلك على النحو الآتي:

- ضع الدرجة (1) إذا كان مضمون البند لا يعبر عنك على الإطلاق. و (2) إذا كان مضمون البند يعبر عنك إلى حد ما. و (3) إذا كان مضمون البند يعبر عنك بدرجة متوسطة، و (4) إذا كان مضمون البند يعبر عنك إلى حد كبير وضع الدرجة (5) إذا كان مضمون البند يعبر عنك تماما.

الدرجة	البند	رقم
	أفضل القيام بما أكلف به من أعمال على أكمل وجه.	1
	أشعر أن التفوق غاية في حد ذاته.	2
	أبذل جهدا كبيرا حتى أصل إلى ما أريد.	3
	أحرص على تأدية الواجبات في مواعيدها.	4
	أفكر كثيرا في المستقبل عن الماضي أو الحاضر.	5
	أحب أداء الأعمال التي تتسم بالتحدي والصعوبة.	6
	ليس من الضروري أن أحصل على أعلى التقديرات.	7
	المثابرة شيء هام في أدائي لأي عمل من الأعمال.	8
	أحدد ما أفعله في ضوء جدول زمني.	9
	أفكر في إنجازات الماضي عن المستقبل.	10
	لا يهمني أن أفشل في أداء عمل ما.	11
	أرفض الأعمال التي تتطلب المزيد من التفكير والبحث.	12
	عندما أبدأ في عمل ما من الضروري الانتهاء منه.	13
	أحرص على الالتزام بالمواعيد التي أرتبط بها مع الآخرين.	14
	أشعر أن التخطيط للمستقبل من أفضل الطرق لتفادي الوقوع في المشكلات.	15
	أشعر أن الراحة هي أهم شيء في الحياة.	16
	أشعر بالسعادة عند معرفتي لأشياء جديدة.	17
	عندما أفشل في عمل ما أتركه وأتجه لغيره.	18
	كثيرا ما تحول المشاغل والظروف بيني وبين مواعيد حددتها.	19

20	من الضروري الإعداد والتخطيط المسبق لما سنقوم به من أعمال في المستقبل.
21	ألتزم بالدقة في أدائي لأي عمل من الأعمال.
22	أحاول دائما الاطلاع وقراءة المراجع.
23	أشعر بالسعادة عندما أفكر في حل مشكلة ما لفترات طويلة.
24	المحافظة على المواعيد شيء مقدس بالنسبة لي.
25	أفضل في أدائي للأعمال التي لا يسبقها استعداد وتهيؤ لها.
26	أتضايق إذا فعلت شيئا ما بطريقة رديئة.
27	أشعر أن المقررات الدراسية غير كافية لتنمية معارفي.
28	أتفانى في حل المشكلات الصعبة مهما أخذت من وقت.
29	عندما أحدد موعدا فاني أجيء في الوقت المحدد بالضبط.
30	أفضل التفكير في أشياء بعيدة المدى.
31	أعطي اهتماما وتركيزا عاليا للأعمال التي أقوم بها.
32	أسعى باستمرار لتحسين مستوى أدائي.
33	أشعر أن الاستمرار في بذل الجهد لحل المشكلات الصعبة مضيعة للوقت.
34	أتعامل مع الوقت بجدية تامة.
35	لا أهتم بالماضي وما يشتمل عليه من أحداث.
36	أفضل الأعمال التي لا تحتاج لجهود كبيرة.
37	الحاجة لمعرفة الجديد هي أفضل الطرق لتقديمي.
38	الاستمرار والمثابرة من أنسب الطرق لحل المشكلات الصعبة.
39	لا أسمح لعمل من الأعمال أن يتم على حساب وقت عمل آخر.
40	يزعجني الأشخاص الذين لا يهتمون بمستقبلهم.
41	أداء الواجبات والأعمال يمثل عبئا بالنسبة لي.
42	أكتفي بما أدرسه في المنهج من موضوعات.
43	أشعر بالرضا عند مواصلة العمل لفترة طويلة في حل المشكلات التي تواجهني.
44	يزعجني أن يتأخر أحد عن مواعده معي.
45	أشعر بالسعادة عندما أخطط للأعمال التي أنوي القيام بها.
46	أحب قضاء وقت الفراغ في القيام ببعض المهام أو الأعمال لتنمية مهاراتي وقدراتي.
47	أستمتع بالموضوعات والأعمال التي تتطلب ابتكار حلول جديدة.

48	أفضل التفكير بجدية لساعات طويلة.	
49	من الصعب أن أزور أحداً إلا بموعد سابق.	
50	التخطيط للمستقبل من أفضل السبل لتوفير الوقت والجهد.	

مقياس مستوى الطموح :

أخي الطالب أختي الطالبة، قصد إعداد بحث علمي، أرجوا منكم قراءة كل عبارة بدقة والإجابة بوضع علامة (x) في الخانة المناسبة، وشكراً .

الرقم	العبارة	دائماً	كثيراً	أحياناً	نادراً
1	أسعى لتحقيق الأهداف التي رسمتها .				
2	أعرف جيداً ما أريد أن أفعله .				
3	إنني واثق من تحقيق أهدافي.				
4	أستطيع التغلب على ما يواجهني من عقبات.				
5	من الأفضل أن يضع الفرد أهدافاً بديلة.				
6	يشغلني التفكير في المستقبل.				
7	أرى أن الحياة ستستمر مهما حدث.				
8	أستطيع وضع أهداف واقعية في المستقبل.				
9	ينبغي الاستفادة من التجارب الفاشلة.				
10	أحدد أهدافي في ضوء إمكانياتي.				
11	أشعر بالرغبة في الحياة.				
12	أتطلع إلى المستقبل.				
13	أسعى لتحقيق ما هو أفضل.				
14	لدي القدرة على تعديل أهدافي حسب الظروف.				
15	أعتقد أن توظيف التطورات التكنولوجية مطلوب.				
16	لدي القدرة على تحديد أهدافي.				
17	أستطيع توجيه إمكانياتي والاستفادة منها.				
18	ينبغي عدم الاستسلام للفشل.				
19	أشعر بالتفاؤل نحو المستقبل.				
20	أستطيع استبدال أهدافي التي لا تتحقق.				
21	أعتقد أن الفشل أول خطوات النجاح.				
22	أؤمن بالقول -رب ضارة نافعة-.				

23	يتتابني الشعور باليأس.			
24	ينبغي أن يستعد الإنسان لمواجهة المستقبل بتحدياته.			
25	أعتقد أنه لا يوجد وقت يشبه الحاضر.			
26	أعتقد أن المعاناة تكون دافعا للإنجاز.			
27	أؤمن بأن بعد العسر يسر.			
28	لدي الرغبة في مواكبة التحولات الجوهرية التي يشهدها العالم.			
29	أدرك أن الحياة متغيرة.			
30	أجد صعوبة في تقبل كل ما هو جديد.			
31	أرى أن التجديد أساس استمرارية الحياة.			
32	يشغلني التفكير في الماضي بمشكلاته.			
33	أؤمن أن ما هو جديد ناتج لمجهودات سابقة.			
34	أسعى وراء المعرفة الجديدة.			
35	أرغب في الاطلاع على كل ما هو جديد و مثير.			
36	أجد صعوبة في تخطيط ما أقوم به من نشاط.			

ابن أبي حجلة التلمساني وما بقي من مقاماته (١)

١. قهلوز عبد القادر

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله تيبازة.

الملخص :

يهدف هذا المقال في جزئه الأول إلى الترجمة لابن أبي حجلة التلمساني ترجمة موجزة، وإلى التعريف بمقاماته بشكل عام، وكذا محاولة إحصاء ما عُرف من عناوينها، أو مناسبات تأليفها، وما وُجد منها، أو من أجزائها، فيما تسنى الحصول عليه من كتبه المطبوعة والمخطوطة، وكتب أدباء ومؤرخي عصره.

الكلمات الدالة :

ابن أبي حجلة التلمساني مقامات.

مقدمة :

زخرت الجزائر بالكثير من رجال العلم والدين، والفكر والأدب، عبر حقبة تاريخها الطويل، وماضيها السحيق، والذين تميزوا في زمانهم، وذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت كتبهم وأعمالهم بين الناس، ولكنهم للأسف الشديد ما زالوا مجهولين اليوم عند عامة أبناء وطنهم، بل حتى عند خاصتهم من الدارسين والمثقفين، وما زالت أغلب تأليفهم مخطوطة تعاني التلف والنسيان فوق رفوف المكتبات، ودور المخطوطات، في أنحاء العالم المختلفة.

ومن هؤلاء العلماء والأدباء الموسوعيين الذين جمعوا أصناف العلوم في عصرهم، وبرعوا في الأدب، منظومه ومثوره: ابن أبي حجلة التلمساني، صاحب التصانيف العديدة، والشعر الرائع، والنثر الفائق... وصاحب المقامات المشهورة، التي تشهد بعلو كعبه في هذا الفن، وبمجاراته لرجال وأعلامه؛ فمن هو هذا العالم الفقيه، والشاعر الأديب؟ وما شأن مقاماته؟ وأين تكمن أهميتها؟ وما سبب شهرتها؟ وما هي أقسامها؟ وما الدافع إلى كتابتها؟ وما عددها؟ ومن بطلها؟ ومن راويها؟ وما هي عناوينها؟ وما مناسبات تأليفها؟ وهل وُجدت كاملة أم وجدت أجزاء منها فقط؟ وهل طبعت أم ما زالت مخطوطة؟... تلك أهم الأسئلة التي حاول هذا المقال في جزئه الأول الإجابة عنها.

أولاً: ترجمة ابن أبي حجلة التلمساني¹:

ولد شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن يحيى بن أبي بكر، المعروف بابن أبي حجلة في زاوية جده بتلمسان سنة 725هـ / 1325م؛ ولعله أخذ بها ما تيسر من العلم على عادة الصبية آنذاك، ثم سافر رفقة أفراد أسرته لأداء فريضة الحج، ولكن يبدو أن أمرا جسيما حدث لهم بعد إتمام مناسكهم، إذ توفوا جميعا ولم يبق إلا هو، والغريب أنه لم يعد إلى بلده، بل يمم شطر دمشق، فنشأ بها يتعلم بمدارسها، ويأخذ عن شيوخها، حتى نبغ في العلم والأدب، واشتهر أمره بها، وعرف بين علمائها وشيوخها؛ ولكن يظهر أن طموحه كان أكبر من أن يستقر بهذا البلد، إذ نراه يتوجه إلى القاهرة وكانت إذذاك حاضرة دولة المماليك البحرية ومركز العلم والعلماء في حوالي سنة 753هـ / 1352م، ليتولى بها مشيخة الصوفية في صهرج منجك، وليتصل بسلطان الدولة وقتها الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون (ت 762هـ / 1361م)² فعاش في كنفه، واغترف من خيره، وألف باسمه أشهر كتبه.

وبعد موت هذا السلطان، اتصل بمن خلفه في الملك، فنال القرب والحضوة عندهم، وعند رجال دولتهم، من وزراء، وقادة، وعلماء، وقضاة، وغيرهم... وهكذا مكث بالقاهرة أكثر من عشرين عاما، ظل خلالها ينظم، ويكتب، ويؤلف، ويسجل حوادث عصره حتى وافاه أجله بها سنة 776هـ / 1375م متأثرا بمرض الطاعون الذي غشي البلاد.

ورغم أن الرجل لم يعمر طويلا، فقد عاش إحدى وخمسين سنة فقط، إلا أنه يعتبر من أكثر أبناء عصره نظما وكتابة وتدوينا، فقد ألف أكثر من ثمانين مصنفا وعنوانا، منها ما لا يزيد على بضع وريقات، ومنها ما يقرب من الثلاثين مجلدا، وذلك في فنون شتى، ومجالات متعددة، من فقه، وحديث، وتاريخ، وطب، وكيمياء، وشعر، ونثر... ومن تلك التأليف ما فقد وهو الأكثر ومنها ما طبع وهو قليل جدا ومنها ما بقي مجهولا أو مخطوطا في مكتبات الشرق والغرب، كما هو حال جل مقاماته.

ثانياً: مقامات ابن أبي حجلة:

تعتبر مقامات ابن أبي حجلة التلمساني مما ضاع من مؤلفاته الكثيرة، ومن حسن الحظ أن بعضها، وبعض الأجزاء منها، وكذا بعض الإشارات إلى عناوينها أو مناسباتها، ما زالت مبثوثة ومذكورة بين ثنايا بعض كتبه المطبوعة، وفي جزء من مصنفااته المخطوطة، وفي بعض كتب علماء وأدباء عصره... ولأجل تسليط الضوء على هذه المقامات، وعلى أهم الجوانب منها، رأيت أن أفصل الحديث عنها في العناصر الآتية:

01. أهميتها :

تكتسي مقامات هذا الأديب أو بالأحرى ما بقي منها أهمية بالغة من عدة نواح، فبالإضافة إلى فائدها الأدبية واللغوية، التي تعكس الميزات الأسلوبية والفكرية لأدباء ذلك العصر عموماً، ولؤلؤها على وجه الخصوص، فإن لها أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية، والتاريخية، والجغرافية، والسياسية، خاصة ما تعلق منها بمصر ومجتمعها، وتاريخها، وجغرافيتها، وعلاقاتها الخارجية... فقد استطاع هذا الرجل الغريب عن المجتمع المصري أن يندمج فيه بسرعة، وأن يعلم خباياه وتفاصيله الدقيقة، وأن يصور مظاهر أفراحه التي تصل أحياناً إلى حد المجون، ومظاهر أحزانه ومآسيه، وأن يؤرخ لأحداث مهمة في تاريخه، كفيضان النيل وما كان يخلفه من دمار في الكثير من الأرجاء والبقاع، وكحلول الطاعون وما كان يحصده من أرواح، وما يتركه من أحزان، وكمجيء الغزاة وما كانوا يرتكبونه من جرائم، وما يتركونه من خراب وبكاء وعويل، وكيف كان رجال الدولة يستعدون للرد عليهم لغزو ديارهم، والثأر منهم... ولأجل ذلك، تشكل هذه المقامات في نظري مادة هامة للباحثين، خاصة المشتغلين بالأدب المملوكي، وبتاريخ وجغرافية مصر وما جاورها في تلك الفترة من الزمن، وسوف يظهر ذلك أكثر عند معرفة عناوينها ومناسبات تأليفها في هذا الجزء الأول من المقال، ولعله يظهر أكثر عند الاطلاع عليها، وقراءة محتواها، في الجزء الثاني منه إن شاء الله تعالى.

02. شهرتها :

لقد حظيت مقامات ابن أبي حجلة في مجملها بشهرة واسعة، وقوبلت بعبارات التنويه والإعجاب من قبل الكثير من رجال عصره، ولعل مما يدل على ذلك، قول صديقه أبي العباس القلقشندي في معرض ثنائه عليه: «... والصديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصوفية الذي لا عجب إن كانت له المقامات الموصوفة...»³⁴؛ وقول ابن حجر العسقلاني عند ترجمته له: «... وأنشأ مقاماتٍ أجاد فيها...»⁵.

ويظهر أن بعض هذه المقامات اشتهرت مقارنة بأخواتها، ومن ذلك مقامته «الزعرانية» التي ألفها بسبب فيضان النيل سنة 773هـ / 1371م، فقد أعجب بها القلقشندي وأدرج قسماً كبيراً منها في أواخر «صبح الأعشى»⁶؛ كما أشار ابن حجر إلى شهرتها أيضاً عند تأريخه لحوادث هذه السنة فقال: «... وفيها زاد النيل زيادة مفرطة، وثبت إلى أيام من هاتور، فاجتمع جماعة بالجامع الأزهر، وجامع عمرو، وسألوا الله تعالى في هبوطه، وكرروا ذلك، فهبط وزرع الناس، وقال في ذلك شهاب الدين بن العطار مقاطيع، وشهاب الدين بن

أبي حجلة مقامته المشهورة...»⁷؛ أما جلال الدين السيوطي، فقد نوه بها في كتابه «حسن المحاضرة»⁸، وأدرج جزءاً منها أيضاً في كتابه «كوكب الروضة»⁹.

03. أقسامها :

بداية، يجب التنبيه إلى أنه ليس من السهل تحديد الفترة الزمنية التي بدأ فيها ابن أبي حجلة كتابة مقاماته، فبعضها شرع في تأليفها في مرحلة متقدمة من عمره، أي منذ أيام نشأته بدمشق وقبل رحلته إلى القاهرة واستقراره بها، وأما بعضها الآخر، فقد ألفها في فترة اتصاله بالسلطان حسن بن قلاوون¹⁰، كما أن قسماً آخر منها كتبها بعد موت هذا السلطان، ثم واصل كتابتها حتى أواخر حياته.

واجتناباً للخلط بين مختلف هذه المقامات، رأيت أن أقسمها إلى قسمين اثنين:

القسم الأول: وهي المقامات التي أطلق عليها مؤلفها اسم «مقامات المقام»، والتي عارض بها مقامات الحريري.

القسم الثاني: وهي مقاماته الأخرى التي لم أعثر على إشارة من مؤلفها، أو من مؤلفي عصره بناء على ما اطلعت عليه من الكتب المطبوعة أو المخطوطة إلى أنها من مقامات المقام المذكورة، ولذلك خشيت أن أدرجها معها وهي ليست منها، فجعلتها في قسم مستقل، وعنوانتها باسم «مقاماته الأخرى».

وسوف أحاول أن أفصل الحديث عن كل قسم منها على النحو الآتي:

القسم الأول: مقامات المقام:

أ. الدافع إلى كتابتها:

يبدو أن أديبنا كان في أول أمره يقرأ مقامات الحريري على مسامع السلطان حسن بن قلاوون¹¹، ويسامره بها، ويسليه بحكاياتها، وربما شرح له غريبها، ويبيّن له معانيها، ثم أمره السلطان بعد ذلك بمعارضتها، والنسج على منوالها، فتلقى الأمر بصدر رحب، وعقد ذلك تشريفاً له، ودليلاً على تميزه عن أدباء عصره، قال في مقدمتها: «... وكانت مقامات الحريري مما وضع لنشاط قاريه، وبسط راويه، لا تمل أسماها، ولا تُرخي على غير بنات الأفكار أستاذها، طالما سافرت في طرق سطورها العيون، وسامر بها في غيبه البدر ابن بدرون، وكنت قد حكيت سمرها، ونثرت زهرها، بحضرة السلطان، السعيد، الشهيد: الملك الناصر، رحم الله شبابه، وجعل من الرحيق المختوم شرابه، فأمرني

بمجاراتها، وعدم التبري من مباراتها، عالما أنه لا ينسج على منوال الحريري إلا حابك الكلام، ولا يطبق سحجه إلا ذوات الأطواق من الحمام، فامتثلت أمره المطاع، ونابت شقو الحريري بهذا الرقاع...»¹².

ويظهر أيضا أنه أكملها بعد موت هذا السلطان، وذلك بأمر من أحد رجال الدولة، قال في هذا الشأن: «... فأنشأت بعضها في حياته، وبقيت كالجسم بعد وفاته، فأمرني بإتمامها بدر التمام، ومن أغار على أكمامه من زهر الكمام:

أغار إذا أنست في الحي أنه حذارا وخوفا أن تكون لجه

فأجبتة إلى ما سأل، وقابلت أمره بالقبل، فهأنا ذا أدندن حولها، وأغازل نولها، فإن أصبت فلي من الشكر والشكران نصيب، وإن أخطأت فالمجتهد يخطئ ويصيب...»¹³. ولكن يبدو أيضا أن بعض منافسيه أنكروا عليه معارضته هذه، فقد ذكر ابن حجر ذلك في ترجمته له فقال: «... وعارض المقامات فأنكروا عليه»¹⁴.

وليس بين أيدينا أسماء من أنكروا عليه ذلك، ولا سبب إنكارهم، ولكن يبدو أنهم من منافسيه وحاسديه من أدباء عصره، فقد ذكر هو نفسه أن خصومه من الأدباء والشعراء كانوا كثيرين، منهم من كان بالشام، ومنهم من كان بمصر، وكان كثيرا ما يهجوهم، ومن ذلك قوله من قصيدة:

إني بليت بقوم لا خلاق لهم
كم حاسد منهم في قلبه مرض
لما رأوني أبا الغيلان من كبر
في الشام منهم وفي مصر فذاك وذا
عليهم من ثياب اللؤم خلقان
وما لداء مريض القلب بحران
أمسوا وهم في فعل السوء غيلان
إذا ربطتهما في النير ثيران¹⁵.

ب. عددها:

صرح ابن أبي حجلة في كتابه المخطوط «منطق الطير» بأن مقاماته التي عارض بها مقامات الحريري كانت قد بلغت سنة 770هـ / 1368م سبعا وعشرين مقامة، منها سبع مقامات أنشأها باسم السلطان حسن بن قلاوون¹⁶، فقد نبه إلى ذلك عند تعدادة لمصنفاته في هذا السلطان فقال: «... ومنها سبع مصنفات تختص بالسلطان حسن رحمه الله، وسبع مقامات تختص به أيضا، من جملة سبع وعشرين مقامة أنشأتها في معنى مقامات الحريري»¹⁷.

ت. بطلها وراويها :

أسند أدينا رواية معظم «مقامات المقام» إلى الساجع بن حمام، وهو نظير «الحارث بن همام» عند الحريري، كما أسند بطولتها إلى أبي الرياش، وهو نظير «أبي زيد السروجي» في تلك المقامات؛ ولنستمع إليه وهو يعلل سبب اختياره لهاتين الشخصيتين، ويعرفنا ببعض أوصافهما، والعلاقة التي تربطهما، قال: «... وأسندتُ إلى الشيخ أبي الرياش درايتهما، وإلى الساجع بن حمام روايتهما، وذلك لما بين الساجع واليهام من الأمام، ولأن الحجل نوع من الحمام، فأبو الرياش صاحب الكيد، القائم مقام أبي زيد، والساجع بن حمام، نظير الحارث بن همام، وربما تطارحا في الأدب، وتنافسا في الرتب، فهما تارة يصطحبان، وأتوة يصطحبان، لكن أبو الرياش قائد كدرها، ومتولي كبرها، فهو صاحب الأمر المهول، المتلون كما تلون في أثوابه الغول:

قريب بعيد أبله، ذو فطانة سخي بخيل مستقيم معوج

يميل مع المال، ويستحيل في الحال، وإن كان بمصر أبو الهول فهو هول من الأهواء:

ذو فنون يريك في كل يوم خلفا من جفائه مستجدا»¹⁸.

ث. عناوينها ومناسباتها :

ليس بين أدينا من عناوين «مقامات المقام» السبع والعشرين إلا عناوين إحدى عشرة مقامة، ذكر مؤلفها عشرة كاملة منها في كتابه المخطوط «منطق الطير»، وذكر عنوانا آخر في كتابه «دفع النقرة في الصلاة على نبي الرحمة»¹⁹.

هذا، ويلاحظ أن أغلب هذه المقامات سميت بأسماء أماكن بعينها، خاصة الواقعة بإقليم مصر، ومن ذلك المقامة الإسكندرية، والجيزية، والزعفرانية، والقاهرة...

أما الأسماء الأخرى، فمنها ما ارتبط بمناسبة محددة مثل المقامة الربيعية التي ألفها بمناسبة المولد النبوي في شهر ربيع الأول؛ ومنها ما ارتبط بحادثة معينة، كمقامة العين الساهرة التي ألفها بسبب الطاعون، والمقامة الحرامية التي ألفها بسبب فيضان النيل... ومنها ما ارتبط باسم إحدى شخصياتها، مثل المقامة الزرزورية نسبة إلى اسم بغلته زرزورة...

وسوف أحاول ترتيب هذه المقامات بناء على الأقدم تأليفا منها، أما التي لم أستطع تحديد تاريخ تأليفها، فقد ذكرتها بعد أخواتها، فجاء الترتيب على النحو الآتي:

• **مقامة العين الساهرة فيمن حل بالساهرة:** كتبها سنة 761هـ / 1345م إثر الطاعون الذي ضرب بلاد الشام ومصر في تلك الفترة، وأهلك الحرث والنسل، وقد رثى فيها جملة من الأعلام الذين ماتوا به، وأدرجها كاملة في كتابه «دفع النقمة»، وقال عنها: «... وقلت أنا من جملة المقامات التي أنشأتها في معنى مقامات الحريري حين خرج الناس إلى الدعاء بقبة النصر بالقاهرة، في سنة إحدى وستين وسبعمئة، وسميتها العين الساهرة فيمن حل بالساهرة...»²⁰؛ كما أثبتها السيوطي أيضا في آخر كتابه «كشف الغمى في فضل الحمى»²¹.

• **مقامة واقعة الواقعة:** وهي التي ألفها بسبب سقوط إحدى مآذن مدرسة السلطان حسن بن قلاوون²² التي بناها قرب قلعة الجبل بالقاهرة، وكان سقوط هذه المنارة في يوم السبت السادس من ربيع الآخر سنة 762هـ / 1361م، وفيها وصف هذه الواقعة الأليمة، وذكر هلاك من كان تحتها من الأطفال اليتامى؛ وقد ذكر جزءا من هذه المقامة في كتابه المخطوط «منطق الطير»²³.

• **المقامة الزرزورية:** ويبدو أنها مقامة هزلية، جعل مدار أحداثها حول بغلته «زرزورة» التي كان السلطان الناصر حسن بن قلاوون²⁴ قد أهدها إياها، وذلك في فترة اتصاله به، أي قبل سنة 762هـ / 1361م، وهي سنة وفاة هذا السلطان؛ وقد ذكر جزءا منها أيضا في كتابه المخطوط «منطق الطير»²⁵.

• **مقامة الخيمة:** وقد ألفها في حياة السلطان المذكور أيضا، وذكر فيها خيمته العظيمة، التي قال عنها ابن إياس في السلوك عن سنة 761هـ / : وفي هذه السنة عمل السلطان خيمة غريبة الشكل في صنعتها حتى عمل فيها حمام ونصبها في خليج الزعفران، وخرج إليها الناس قاطبة يتفرجو نعليها وصاروا يتعجبون من صنعتها وفيها يقول ابن أبي حجلة :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة فأصبحت منها باهتا أتعجب

لسانى بالتقصير فيها مقصر وإن كان في أطناها باتيطنب

• ومدح فيها أيضا الوزير صاحب فخر الدين ماجد بن قروينة (ت 768هـ / 1366م)²⁶، وقد أدرج جزءا منها في كتابه المخطوط «منطق الطير»²⁷.

• **المقامة المَارِدِيَّة:** وتسمى أيضا ب «المقامة الشطرنجي» وهي التي أنشأها باسم السلطان الملك الصالح بن أرتق (ت 766هـ / 1375م) صاحب قلعة مَارْدِين²⁹، وبعثها إليه من مصر، وذلك بعد موت السلطان حسن سنة 762هـ / 1361م.

وهي مقامة وصف فيها قلعة ماردين، وأدرج فيها مصطلحات الشطرنج؛ قال في التعريف بها: «... في ذكر المقامة الشطرنجية التي أنشأها باسم السلطان الملك الصالح صاحب ماردين، وألحقها بالمقامات التي أنشأها باسم السلطان الناصر حسن، رحم الله شبابها، وجعل الرحيق المختوم شرابه...». وقد أدرجها كاملة في آخر كتابه «أنموذج القتال في نقل العوال»³⁰، وذكر جزءا منها في كتابه المخطوط «منطق الطير»³¹.

ويبدو أن طبيعة موضوع هذه المقامة جعلتها تلقى اهتماما من قبل الغربيين، فنشرت في مانشستر بإنجلترا بين سنتي 1953م و1954م في مجلة جون رايلدنز³².

• **المقامة الزعفرانية:** وهي من أشهر مقاماته، إن لم تكن الأشهر على الإطلاق، وقد أنشأها بسبب فيضان النيل سنة 773هـ / 1371م كما سبقت الإشارة، ونسبها إلى خليج الزعفران قرب المطرية بالقاهرة، وهي التي أدرج القلقشندي جزءا منها في «صبح الأعشى»³³، وكذلك فعل السيوطي في «كوكب الروضة»³⁴. وقد ذكرها ابن أبي حجلة كاملة في كتابه المخطوط «منطق الطير»³⁵.

هذا عن «مقامات المقام» التي استطعت أن أحدد فترة كتابتها، أما التي لم أستطع تحديد فترة تأليفها، والتي أدرج بعضها، أو بعض الأجزاء منها، في كتابه المخطوط «منطق الطير» فقد رتبها أبجديا على النحو الآتي:

• **المقامة الجيزية:** وفيها ذكر حادثة حفر البحر وما كان يصحبها من فسوق بمدينة الجيزة وأهرامها، وقد أدرج جزءا منها في كتابه المذكور³⁶.

• **المقامة الحرامية:** وذكر فيها فيضان النيل، وقد أدرج بعضها منها في كتابه المذكور³⁷.

• **المقامة الربيعية:** وقد ألفها بمناسبة المولد النبوي في ربيع الأول، وذكر جزءا منها في كتابه المذكور أيضا³⁸.

• **المقامة القاهرية:** وتحدث فيها عن بعض العجائب التي كانت بإقليم مصر، وأثبت جزءا منها في كتابه المذكور³⁹.

• **المقامة الكتبية:** وسماها أيضا مقامة «عود الغريب»، وذكر فيها إعادة إحياء سوق الكتب بعد خرابه، وأدرجها كاملة في كتابه المذكور⁴⁰.

القسم الثاني: مقاماته الأخرى:

ينبغي التذكير هنا إلى أنه من المحتمل أن تكون بعض المقامات التي سأذكرها في هذا القسم هي في الأصل من « مقامات المقام » السالفة الذكر، ولكن بما أنني لم أجد إشارة من مؤلفها، أو من غيره، إلى أنها من هذا القسم، فإني لم أدرجها فيه مخافة الخلط بين القسمين، وسوف أحاول ترتيب ما علمته منها بحسب أقدمها تأليفاً على النحو الآتي:

● **مقامة في وصف المنازل من دمشق إلى القاهرة:** تعتبر هذه المقامة من أوائل مقاماته، ألفها قبل رحلته من دمشق إلى القاهرة، أي حوالي سنة 752هـ / 1351م، وقد أشار إليها في كتابه « سكردان السلطان » بقوله: «... أقول: ومثل هذه الحكاية ما اتفق لي في طريق مصر وذلك أنني كنت أنشأت مقامة وأنا في دمشق سنة اثنتين وخمسين وسبعائة، وذكرت فيها المنازل من دمشق إلى الديار المصرية، ووصفت كل منزلة بما يتعلق بها، فجاء منها قولي: « فوصلنا الغراي، وقد نعقت غربانه على الجيف في تلك الروابي، فلم نشعر إلا وبنو بياضة أصبحوا بنا محدقين، كانوا يقصون الأثر خلفنا، فيا لله يا مسلمين «، ثم أي لما سافرت صحبت معي المقامة المذكورة، فلما وصلنا إلى المكان المذكور عند الصباح كما ذكرت، أصبح حولنا جماعة من بني بياضة، فلما سلم الله تعالى منهم، وكفانا شرهم، أخرجت المقامة التي كانت معي، وأوقفت عليها رفقتي في الطريق، وأعلمت أنني تخيلت وقوع مثل هذا وأنا بدمشق، فتعجبوا من غرابة هذا الاتفاق، وكان من جملة الرفقاء في الطريق القاضي كمال الدين ابن الصائغ قاضي سمرين الآن، وفي ذلك أقول:

شاهدت في الرمل أهوالاً غرائبها لا تنقضي ما بقي في الأرض ديار
من كل شيخ غداً طرطوره عجباً كأنه علم في رأسه نار»⁴¹.

● **مقامة عند إبطال عيد الشهيد:** وهو عيد للنصارى كانت ترتكب فيه الكثير من المنكرات، وكان قد أبطل ثم أعيد إحياءه، حتى إذا كانت سنة 754هـ / 1353م قام الأمير صرغتمش (ت 759هـ / 1358)⁴² بإبطاله مرة أخرى، فأنشأ ابن أبي حجلة مقامة في هذا الشأن، أشار إليها في كتابه « سكردان السلطان »، فقال عنها: «... وكان يتفق بسببه من ركوب الناس في البحر من الفساد ما لا يعبر عنه، فألهم الله تعالى من أجرى الخيرات على يديه: المقر، السيفي، صرغتمش الملكي الناصري، أمير رأس نوبة، فأخذ هذا الصندوق وأحرقه، وذلك في سنة أربع وخمسين وسبعائة... وكنت قد وضعت فيه تلك السنة مقامة جاء منها قولي: « وغرق بقلوب الظلمة الذين هم في خوضهم يلعبون » وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » فكم بها من نصراني قد كفر بالإنجيل، ويهودي قال حين أدركه الغرق: « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل »⁴³.

• **مقامة في خانكاه شيخو:** الخانكاه كلمة فارسية تعني البيت المخصص لإيواء الصوفية، وهي شبيهة بما يعرف بالزاوية التي يدرس فيها القرآن الكريم، وتلقى فيها الدروس المختلفة، وكانت منتشرة في عهد المماليك، ومن أشهرها الخانكاه التي بناها الأمير شيخو (ت 758هـ / 1357م)⁴⁴ سنة 756هـ / 1355م، ونُسبت إليه، وقد ألف ابن أبي حجلة مقامة في هذه الخانكاه أشار إليها المقرئ في عند ذكره لما نظم وكتب حولها فقال: «... وقال الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد الشهير بابن أبي حجلة المغربي، من مقامة عملها في الخانكاه المذكورة:

ومدرسة للعلم فيها مواطن فشيخوها فرد وإشاره جمع
لئن بات فيها في القلوب مهابة فواقفها لث وأشاخها سبع»⁴⁵.

• **المقامة الإسكندرية:** ألفها بمناسبة وقعة الإسكندرية التي كانت أوائل سنة 767هـ / 1365م، حيث أغار القبارصة على الإسكندرية وخربوها وقتلوا وأسروا أهلها، وكان ذلك في فترة حكم السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون (ت 776هـ / 1377م)⁴⁶، وقد أشار ابن أبي حجلة إلى هذه المقامة في كتابه المخطوط «منطق الطير»، ومن ذلك قوله: «... وقلت من المقامة الإسكندرية:

ألا في سبيل الله ما حل بالثغر على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الإفرنج سبعون مركب فصاحت بها الغربان في البر والبحر»⁴⁷.

• **المقامة الغربانية:** نسبة إلى الغربان، وهي نوع من المراكب البحرية كانت تستعمل في الغزو، وقد ألفها بعد وقعة الإسكندرية المذكورة، أي في سنة 767هـ / 1365م، وتكلم فيها عن عزم الأمير يلبغا الأتابك (ت 768هـ / 1366م)⁴⁸ على غزو القبارصة، والثأر لهذه الوقعة، وما قام به الوزير فخر الدين ماجد بن قروينة⁴⁹ من عمل جبار في إعداد الأسطول، ويظهر أنه مدح فيها المغاربة الذين كانت لهم خبرة في الجهاد البحري، وقد أشار إليها في كتابه المخطوط «منطق الطير»⁵⁰.

• **دور الزمان في طحن الجلبان:** وهي مقامة كتبها بعد قضاء السلطان الأشرف شعبان⁵¹ على المماليك الأجلاب (الجلبان) الذين كثر فسادهم، وخرجوا عليه، وأرادو خلعه، وقد كان ذلك في صفر من سنة 769هـ / 1367م⁵².

أولها: ... بينا أنا بالقاهرة أيام هرجها، واستيلاء الخوارج على دخلها وخرجها...

وآخرها: ففرح الناس، وزال لباس الباس، فأصبحت العامة سالمين غانمين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا.

والمقامة ما زالت مخطوطة، منها نسخة بدار الكتب المصرية⁵³.

• مقامات في مدح شمس الدين ابن الحوشكاش: وليس بين أيدينا ترجمة لهذا الرجل، ولكن يبدو من اسمه أن أحد أسلافه كان «حوشكاشا» للتتار، وهو الذي يقوم بتحريضهم على المسلمين، وربما كان ببغداد أو ما جاورها، وقد أشار ابن أبي حجلة إلى هذه المقامات في ديوانه الشعري المطبوع، حيث مدحه بقصيدة طويلة أولها:

وبي ظبي غرامي فيه فاشي وشى بي من دموعي فيه واشي
وأشار إلى هذه المقامات بقوله:

مقاماتي بمدحي فيك طارت ولا سيما بسجع أبي الرياش
تطير عقل حاسدها وتأوي إلى الأعشاش في روس الأعشاش⁵⁴

ويبدو أن هذه المقامات ألحقها بمقامات المقام المذكورة، فبطلها هو نفسه بطل هذه المقامات، وهو «أبو الرياش».

• مقامة في فتح مدينة سيس: ويظهر أنه مدح فيها نائب حلب الأمير إشتقمر المارديني نائب حلب (ت 791هـ / 1389م)⁵⁵، وذلك لأنه فتح مدينة سيس قرب تركيا، وأخذها من يد الأرمن النصاري في التاسع عشر من ذي القعدة من سنة 776هـ / 1375م⁵⁶، وقد أشار إلى مقامته هذه ناسخ ديوانه الشعري المطبوع، والذي كان ينقل عن نسخة بخط ابن أبي حجلة نفسه، وأدرج قصيدة سباعية له في مدح هذا النائب، قال في أولها: «وقال من مقاماته:

ما زلتُ أشكو لوعة ورسيسا حتى دهمتْ بدهم خيلك سيسا»⁵⁷.

ويظهر أن هذه المقامة من آخر ما كتبه ابن أبي حجلة، فقد توفي بعد هذه الحادثة بحوالي العشرة أيام فقط، إذ كانت وفاته بالطاعون في يوم الخميس، أول ذي الحجة من السنة المذكورة.

خاتمة :

تم التطرق في الجزء الأول من هذا المقال إلى الترجمة لشخصية ابن أبي حجلة التلمساني عموماً، والتنبيه إلى أهم محطات حياته، وكذا التعريف بمقاماته، ومحاولة جرد ما عرف من عناوينها، ومناسبات تأليفها، والإشارة إلى مضان ذكرها ووجودها، في كتبه المطبوعة والمخطوطة، وفي كتب غيره من مؤلفي عصره... أما فيما يخص الاطلاع على متن هذه المقامات، أو ما بقي منها، وتصفحها ومعرفة أساليبها وطريقة كتابتها... فسوف يكون في الجزء الثاني منه إن شاء الله تعالى.

الهوامش :

1. ينظر في ترجمته: ابن أبي حجلة، مغناطيس الدر النفيس، 19/ ظ 20 / ظ، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 1/ 329331.
2. هو: أبو المعالي، الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون، من أشهر سلاطين المماليك البحرية، عينه الوزراء بعد قتلهم لأخيه المظفر زين الدين حاجي ثم عزلوه، ثم أعادوا تعيينه بعد عزل أخيه الملك الصالح، وقد عرف بحزمه، وهيبته، وذكائه، وبأعماله الجليلة التي من أشهرها مدرسته بالقاهرة التي ما زالت حتى الآن، قتله مملوكه يلغا العمري (ينظر: المقرئ، السلوك لمعرفة دولة الملوك، 4/ 207254، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 10/ 184264).
3. القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 246.
4. القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 246.
5. ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، 1/ 329.
6. القلقشندي، المصدر السابق، 14/ 276279.
7. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، 1/ 10.
8. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 2/ 304.
9. السيوطي، كوكب الروضة، 52/ و، 52/ ظ.
10. مرت ترجمته.
11. مرت ترجمته.
12. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 73/ ظ.
13. المكان نفسه.
14. ابن حجر، إنباء الغمر، 81/ 1.

15. ابن أبي حجلة، الديوان، ص 315.
16. مرت ترجمته.
17. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 7/ و.
18. المصدر نفسه، 73/ ظ 74/ و.
19. ابن أبي حجلة، دفع النعمة في الصلاة على نبي الرحمة، 83/ و.
20. المصدر نفسه، 83/ و 83/ ظ.
21. السيوطي، كشف الغمى في فضل الحمى، 22/ ظ 24 ظ.
22. مرت ترجمته.
23. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 80/ ظ 81/ و.
24. مرت ترجمته.
25. المصدر نفسه، 77/ و 77/ ظ.
26. هو: الوزير صاحب فخر الدين ماجد بن قروينة، تولى الوزارة ونظر الخاص، وقد كان أميناً ومهاباً ولكنه عرف بتكبره، توفي تحت العقوبة (ينظر: المقرئ، المصدر السابق، 4/ 309-310).
27. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 77/ ظ 79/ و.
28. هو: شمس الدين، صالح بن نجم الدين غازي بن المظفر الأرتقي، من أعظم ملوك بني أرتق وصاحب ماردین وحاكمها لمدة أربع وخمسين سنة، عرف بحزمه وكرمه وحبه للعلم والعلماء وتقريبهم منه (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/ 202203، وابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 6/ 329330).
29. مَارْدِين: قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع، وقدّأماها رضى عظيم فيه أسواق كثيرة، وخانات، ومدارس، وربط... من أحسن وأحصن القلاع قديماً (ينظر: ياقوت الحوي، معجم البلدان، 39/ 5).
30. ابن أبي حجلة، أنموذج القتال في نقل العوال، ص 145154.
31. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 76/ و 77/ و.
32. ينظر: محمد عيسى صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 2/ 163.
33. القلقشندي، المصدر السابق، 14/ 276279.
34. السيوطي، كوكب الروضة، 52/ و، 52/ ظ.
35. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 83/ ظ 86/ ظ.
36. المصدر نفسه، 74/ ظ 75/ و.
37. المصدر نفسه، 79/ و 80/ ظ.
38. المصدر نفسه، 74/ و 74/ ظ.
39. المصدر نفسه، 75/ ظ 76/ و.
40. المصدر نفسه، 81/ و 83/ ظ.
41. ينظر: ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ص 62.

42. هو: سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري، أحد مماليك السلطان الناصر محمد، ترقى في الحكم حتى أصبح رأس نوبة كبير، وازداد نفوذه أيام السلطان الصالح بن قلاوون، حبسه السلطان حسن في سجن الإسكندرية إلى أن مات به، عرف بفضلته وعلمه إلا أنه كان فيه ظلم وجبروت، من آثاره مدرسته التي مازالت قائمة حتى الآن (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/206207، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 10/257).
43. ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ص3132.
44. هو: سيف الدين شيخو العمري الناصري، أحد مماليك السلطان الناصر محمد، ترقى في الحكم حتى أصبح مدبر المماليك الإسلامية بالديار المصرية، قتل في موكب السلطان حسن، من آثاره مسجده الذي مازال قائما حتى الآن (ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/254).
45. المقرئ، المصدر السابق، 4/220.
46. هو: زين الدين، شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون، تولى حكم مصر سنة 764هـ/1363م بعد قضاؤه علي يلبغا، عرف بلبينه وحبه للخير، واهتمامه بالعلم والعلماء، اغتاله المماليك، ودفن في قبة مدرسة أمه (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/190، والمقرئ، المصدر السابق، 4/267/5 14).
47. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 63/ظ.
48. هو: يلبغا بن عبد الله الخاصكي، كبير الأمراء في وقته، ارتقى المناصب العليا في البلاد ووصل إلى حد قتل أستاذه السلطان حسن، فأصبح الحاكم الحقيقي لدولة المماليك، قتل بأمر من السلطان الأشرف شعبان (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 4/438440).
49. مرت ترجمته.
50. كذا في الأصل.
51. مرت ترجمته.
52. ينظر: المقرئ، المصدر السابق، 312/3144.
53. فهرس دار الكتب المصرية، 4/48.
54. ابن أبي حجلة، الديوان، ص200203.
55. هو: سيف الدين، إشتقر بن عبد الله المارديني الناصري، من رجال دولة المماليك، تولى نيابة الشام وحلب عدة مرات، وفتح مدينة سيس (ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12/323324).
56. ينظر: المقرئ، المصدر السابق، 4/377.
57. ينظر: ابن أبي حجلة، الديوان، ص197.

المصادر والمراجع:

أولا : المخطوطات:

- ابن أبي حجلة، شهاب الدين، أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (ت 776هـ /) :
 01. دفع النعمة في الصلاة على نبي الرحمة، نسخة مصورة من مكتبة الإسكوريال بمدريد، رقم: 1772، في 88 ورقة، دون تاريخ نسخ ولا اسم الناسخ.
 02. مغناطيس الدر النفيس، نسخة مصورة من مكتبة جامعة ييل بنيوهافن في الولايات المتحدة الأمريكية، في 21 ورقة، كتبت سنة 1302هـ / 1885م، دون اسم الناسخ.
 03. منطق الطير، نسخة مصورة من المكتبة الملكية بالرباط، رقم: 1910، في 128 ورقة، دون تاريخ نسخ ولا اسم الناسخ.
- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ / 1505م) :
 04. كشف الغمى في فضل الحمى، نسخة مصورة من مكتبة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، في 25 ورقة، كتبت سنة 957هـ / 1548م، نسخها عيسى بن محمد بن عبد الله الحسيني السمرقندي الشافعي.
 05. كوكب الروضة، نسخة مصورة من مكتبة الدولة ببرلين بألمانيا، رقم: 1611، في 107 ورقة، 1292هـ / 1875م، نسخها علي سالم بن الشيخ محمد سالم الشافعي.

ثانيا : المطبوعات:

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ / 1469م) :
 06. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404هـ / 1984م.
 07. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1413هـ / 1992م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ / 1448م) :
 08. إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، مصر، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1389هـ / 1969م.
 09. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الهند، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، 1349هـ / 1930م.

- ابن أبي حجلة، شهاب الدين، أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (ت 776هـ/1374م):
- 10. أنموذج القتال في نقل العوال، تحقيق الشيخ عبد القادر علي، الجزائر، دار زمورة للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2011م.
- 11. ديوان ابن أبي حجلة، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، الجزائر، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2011م.
- 12. سكردان السلطان، تحقيق علي محمد عمر، الجزائر، دار زمورة للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2011م.
- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م):
- 13. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1387هـ/1967م.
- صالحية، محمد عيسى.
- 14. المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ط1، 1993م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م):
- 15. صبح الأعشى، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1338هـ/1919م.
- المقرئزي، تقي الدين، أحمد بن علي (ت 845هـ/1442م):
- 16. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ/1997م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/1229م):
- 17. معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط2، 1416هـ/1995م.

حق المجتمع الدولي في العقاب عن الجرائم الدولية على ضوء النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية

The right of the international community in impunity for international crimes in the light of the Statute of the International Criminal Court

الأستاذ: ولد يوسف مولود
باحث أكاديمي في القانون الجنائي الدولي
والقانون الدولي الإنساني
كلية الحقوق والعلوم السياسية
جامعة مولود معمري تيزي وزو

الملخص:

تعتبر المحكمة الجنائية الدولية أول محكمة مستقلة ودائمة، منشأة بموجب معاهدة دولية من أجل وضع حد للإفلات من العقاب، وممارسة اختصاصها على الأشخاص المسؤولين عن ارتكاب أشد الجرائم خطورة موضع الاهتمام الدولي، وهي: جريمة الإبادة الجماعية، الجرائم ضد الإنسانية، جرائم الحرب، جرائم العدوان.

الكلمات الدالة:

المحكمة الجنائية الدولية، الجرائم الدولية، مبدأ العقاب، جريمة الإبادة الجماعية، الجرائم ضد الإنسانية، جرائم الحرب، جرائم العدوان.

Summary:

The International Criminal Court is the first permanent and independent tribunal established under an international treaty in order to put an end to impunity, and to exercise its jurisdiction over persons responsible for committing the most serious crimes of international concern, namely genocide, crimes against humanity, war crimes and crimes of aggression.

Keywords:

International Criminal Court, international crimes, the principle of punishment, crime of genocide, crimes against humanity and war crimes, crimes of aggression.

مقدمة :

« فكما يقال، كل الطرق تؤدي إلى روما، لكن يبدو أنها لم تؤدي بالجميع إلى هنا... ومع ذلك فإنني واثق أنكم لن تخيخوا آمال البشرية في إقامة عدالة دولية عبر تأسيس محكمة جنائية دولية قوية ومستقلة...»¹.

نجح المجتمع الدولي في أن يخرج إلى الوجود أول محكمة جنائية دولية² تتمتع بسلطة محاكمة المسؤولين عن ارتكاب أشدّ الجرائم الدولية خطورة، وكان ذلك أثناء مؤتمر روما في 17 جويلية 1998³، ودخل النظام الأساسي للمحكمة حيز التنفيذ في 01 جويلية 2002⁴.

حيث أكد النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية على أن هدفه هو وضع حدّ للإفلات من العقاب، المنصوص عليه في الفقرة (4) من ديباجة النظام الأساسي بعبارة: « وإذ تؤكد أن أخطر الجرائم التي تثير قلق المجتمع الدولي بأسره يجب أن لا تمر دون عقاب...»، والفقرة (5) من الديباجة بعبارة: « وقد عقدت العزم على وضع حدّ لإفلات مرتكبي هذه الجرائم من العقاب والإسهام بالتالي في منع هذه الجرائم»⁵.

وعرّفت المادة الأولى من النظام الأساسي، المحكمة الجنائية الدولية على أنها هيئة قضائية دولية دائمة⁶ ومستقلة ومكملة للولايات القضائية الوطنية⁷، أنشئت بموجب اتفاقية دولية تمارس سلطاتها القضائية على الأشخاص الطبيعيين المسؤولين عن ارتكاب أشدّ الجرائم الدولية خطورة والمدرجة ضمن نظامها الأساسي⁸.

وعليه فيما تتمثل الجرائم الأشدّ خطورة التي تختص المحكمة الجنائية الدولية بملاحقتها ؟

للإجابة على هذه الإشكالية، سوف نحاول التعريف بالجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية وفقاً للمواد (5.6.7.8) من النظام الأساسي للمحكمة.

تختص المحكمة الجنائية الدولية بمحاكمة ومعاقبة مرتكبي عدد من الجرائم الدولية الخطيرة المحددة في المادة (1/5) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية التي تنص: «يقتصر اختصاص المحكمة على أشدّ الجرائم خطورة موضع الاهتمام الدولي بأسره وللمحكمة بموجب هذا النظام الأساسي اختصاص النظر في الجرائم التالية:

(أ) - جريمة الإبادة الجماعية.

(ب) - الجرائم ضد الإنسانية.

(ت) - جرائم الحرب.

(ث) - جرائم العدوان⁹.

حسب الباحث (Huet André) أصبحت المحكمة الجنائية الدولية «دائمة» و«مستقلة» واختصاصها يتمحور حول أربعة أنواع من الجرائم بالغة الخطورة، والتي يمكن أن تمس المجتمع الدولي⁹.

وعليه تختص المحكمة الجنائية الدولية بملاحقة المسؤولين عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب، وجرائم العدوان¹⁰.

ويمكن تعريف الجريمة الدولية التي تدخل في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية بأنها: «فعل أو امتناع ينطبق عليه وصف الجريمة الواردة في المواد 8.7.6 من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية سواء كانت أفعال إبادة أو أفعال ضد الإنسانية أو تلك التي تمثل جرائم حرب، على أن تصدر عن إرادة معتبرة قانوناً، وذلك بأن تكون في إطار دولي يتبنى الفعل ضمن سياسة دولية، من قبل منظمة غير حكومية»¹¹، ويعرفها أيضاً الأستاذ (Glasser): «بأنها كل فعل يخالف القانون الدولي، ويوصف بأنه عمل جنائي يستوجب تطبيق العقاب على فاعله كونه يضر بالمصالح الدولية التي يحميها هذا القانون في نطاق العلاقات الدولية»¹².

أولاً/ جريمة الإبادة الجماعية :

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حجم الفظائع التي ارتكبتها القادة النازيون، لدرجة عجز الأوساط القانونية عن إعطاء اسم أو وصف دقيق للمذابح التي ارتكبتها الألمان ضد الملايين من الأرواح البشرية، ففي شهر أوت من عام 1941 صرح (Winston Churchel) أثناء أحد خطابه الإذاعية: «إننا أمام جريمة لا اسم لها»¹³، وأمام هذا الإبهام والغموض قام الدكتور (Raphaël Lemkin) عام 1944 في كتابه الشهير «حكم المحور في أوروبا المحتلة»¹⁴، باستحداث مصطلح (Génocide) لوصف تلك الجرائم ويتألف هذا المصطلح من لفظين هما (Géno) وتعني الجنس، و(ceadre) وتعني القتل، وترجمة معناها باللغة العربية إبادة الجنس البشري¹⁵.

لقد أقرت اتفاقية الإبادة الجماعية¹⁶ مبدأ المسؤولية الجنائية الدولية للفرد من خلال ما نصت عليه المادة الرابعة: «يعاقب كل من يرتكب جريمة الإبادة الجماعية سواء كان جاني من الحكام أو من الموظفين أو من الأفراد»¹⁷.

كما نصت المادة السادسة من نفس الاتفاقية على: «يحاكم الأشخاص المتهمون بارتكاب الإبادة الجماعية، أو أي من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثانية أمام محكمة مختصة من محاكم الدولة التي ارتكب الفعل على أراضيها أو أمام محكمة جزاء دولية تكون ذات اختصاص إزاء من يكون من الأطراف المتعاقدة قد اعترف بولايتها»¹⁸.

1 - تعريف جريمة الإبادة الجماعية:

عرّف النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الإبادة الجماعية لجنس معين في المادة السادسة منه¹⁹، على أنه أي فعل من الأفعال التي ترتكب بقصد إهلاك جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية بصفقتها هذه إهلاكاً كلياً أو جزئياً²⁰.

2 - أركان جريمة الإبادة الجماعية:

تتمثل أركان جريمة الإبادة الجماعية في الركن المادي، والركن المعنوي والركن الدولي.

أ- الركن المادي لجريمة الإبادة الجماعية:

يتمثل الركن المادي لجريمة الإبادة الجماعية في النشاط أو السلوك الخارجي الذي ينص القانون على تجريمه ومعاقبة مرتكبيه، ويستوي في ذلك أن يكون هذا السلوك إيجابياً أو سلبياً²¹، وتتنوع الأفعال التي تشكل السلوك الإجرامي لهذه الجريمة، وهي واردة في المادة السادسة من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية²²، وهي كالآتي:

- قتل أفراد الجماعة.
- إلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم بأفراد الجماعة.
- إخضاع الجماعة عمداً لأحوال معيشية يقصد بها إهلاكها الفعلي كلياً أو جزئياً.
- فرض تدابير تستهدف منع الإنجاب داخل الجماعة.
- نقل أطفال الجماعة عنوة إلى جماعة أخرى.

ب- الركن المعنوي لجريمة الإبادة الجماعية :

يتخذ الركن المعنوي لجريمة الإبادة الجماعية صور القصد الجنائي العام الذي يتكون من عنصري العلم والإرادة مع ضرورة توفر قصد جنائي خاص لدى الجاني وهو قصد الإبادة، فإذا تخلف هذا القصد لا تقوم جريمة الإبادة الجماعية²³.

فجريمة الإبادة الجماعية تتميز عن غيرها من الجرائم الدولية الأخرى بقصدتها الخاص والمتمثل في الإهلاك، والذي ينقسم بدوره إلى إهلاك جسدي وبيولوجي وإهلاك ثقافي، ويعتبر الإهلاك الثقافي مؤشرا إلى نية ضمنية في ارتكاب إهلاك جسدي²⁴.

ج- الركن الدولي لجريمة الإبادة الجماعية :

الركن الدولي في جريمة الإبادة الجماعية هو أن ترتكب الجريمة بناء على خطة مرسومة من الدولة، يمثلها مسؤولون كبار أو بتشجيع منهم، ولا يشترط أن يكون المجني عليهم تابعين لدولة أخرى، ويمكن أن يكونوا تابعين للدولة ذاتها، وتمثل هذه الحالة الأخيرة استثناء على المفهوم الضيق للركن الدولي، وينبغي أن نشير إلى أن جريمة الإبادة الجماعية يمكن أن ترتكب في وقت السلم كما يمكن أن ارتكبتها في وقت الحرب (المادة الأولى من اتفاقية 1948)، وهي جريمة لا تسقط بالتقادم²⁵.

ثانيا / الجرائم ضد الإنسانية :

تحمل كلمة الإنسانية العديد من التفسيرات والمعاني، باختلاف الحضارات والثقافات في العالم يجعل من الصعب إيجاد تعريف شامل للإنسانية، كون أن الأفعال اللاإنسانية تختلف من بلد لآخر، لذلك فالجرائم ضد الإنسانية تقتصر على الأفعال الأساسية التي تمس بالإنسان والحياة والكرامة²⁶.

وكرّس مصطلح الجرائم ضد الإنسانية في ميثاق المحكمة العسكرية لنورمبرغ التي أنشأت لمحاكمة كبار مجرمي الحرب العالمية الثانية، حيث نصت المادة السادسة فقرة (ج) على أن أفعال (القتل وإفناء الأشخاص والاسترقاق والإقصاء عن البلد وكل عمل لا أنساني مرتكب ضد أي شعب مدني قبل الحرب وأثنائها، وكذلك الاضطهادات المبينة على أسباب سياسية أو عرقية أو دينية سواء كانت تلك الأفعال أو الاضطهادات مخالفة للقانون الداخلي للدولة المنفذة فيها أم لا، متى كانت هذه الأفعال والاضطهادات مرتكبة تبعا لجريمة ضد السلام أو جريمة حرب أو كانت ذات صلة بها)²⁷.

ومع ذلك فإنه قبل الحرب العالمية الثانية لم تعرف الجرائم ضد الإنسانية اهتماما كبيرا ما عدا بعض المحاولات الدولية منها تصريح «سان بترسبورغ» 1868 الذي أمر بتقليل استعمال بعض الأسلحة التي لها أثر ضار بالقواعد الإنسانية.

1- تعريف الجرائم ضد الإنسانية :

نصت المادة 1/7 من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية:

« يشكل أي فعل من الأفعال التالية «جريمة ضد الإنسانية» متى ارتكبت في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي موجه ضد أية مجموعة من السكان المدنيين وعن علم بالهجوم»²⁸.

اعتبر أستاذ القانون الدولي (Luigi Condorelli) هذه المادة بمثابة النص الأول ذي الطبيعة الاتفاقية والعامة التي تعرف بشكل مفصل ومستفيض قائمة الأعمال التي يمكن تكييفها كجريمة ضد الإنسانية²⁹.

يفهم من الهجوم المباشر ضد السكان المدنيين في سياق هذا العنصر بأنه يعني أي إجراء يتضمن ارتكابا متعددًا للأفعال المشار إليها في الفقرة الأولى من المادة السابعة من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية ضد أي من السكان المدنيين تأييدا للدولة أو سياسة تنظيمية بارتكاب هذا الهجوم، ولا توجب بالضرورة أن تشكل الأفعال عملا عسكريا، ومن المفهوم أن السياسة الرامية إلى القيام بهذا الهجوم تستدعي قيام الدولة أو المنظمة بتعزيز أو تشجيع نشاط للقيام بهذا الهجوم ضد السكان المدنيين³⁰.

2 - أركان الجرائم ضد الإنسانية :

يقوم البنيان القانوني للجرائم ضد الإنسانية على عدّة أركان، وهي الركن المادي والركن المعنوي والركن الدولي، وعند اكتمال هذه الأركان تصبح الجريمة ضد الإنسانية قائمة.

أ- الركن المادي للجرائم ضد الإنسانية :

يتمثل الركن المادي للجرائم ضد الإنسانية وفقا لنص المادة 1/7 من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية في عدة أفعال هي:

(أ) - القتل العمد،

(ب) - الإبادة،

(ج) - الاسترقاق،

(د) - إبعاد السكان أو النقل القسري للسكان،

(هـ) - السجن أو الحرمان الشديد على أي نحو آخر من الحرية البدنية بما يخالف القواعد الأساسية للقانون الدولي،

(و) - التعذيب،

(ز) - الاغتصاب، أو الاستعباد الجنسي، أو الإكراه على البغاء أو الحمل القسري، أو التعقيم القسري أو أي شكل آخر من أشكال العنف الجنسي على مثل هذه الدرجة من الخطورة،

(ح) - اضطهاد أية جماعة محددة أو مجموع محدد من السكان لأسباب سياسية أو عرقية أو قومية أو إثنية أو دينية، أو متعلقة بنوع الجنس على النحو المعرف في الفقرة 3، أو لأسباب أخرى من المسلم عالمياً بأن القانون الدولي لا يجيزها، وذلك في ما يتصل بأي فعل مشار إليه في هذه الفقرة أو بأية جريمة تدخل في اختصاص المحكمة،

(ط) - الاختفاء القسري للأشخاص،

(ي) - جريمة الفصل العنصري،

(ك) - الأفعال اللاإنسانية الأخرى ذات الطابع المماثل، والذي تسبب عمداً في معاناة شديدة أو في أذى خطير يلحق بالجسم أو بالصحة العقلية أو البدنية³¹.

إن الأفعال المكونة للجرائم ضد الإنسانية طبقاً لنظام روما لم تحدد على سبيل الحصر بل تم تحديدها على سبيل المثال، وهو ما يمكن استخلاصه من الفقرة الفرعية (ك) من الفقرة 1 من المادة 7 المذكورة أعلاه.

والجريمة ضد الإنسانية لها قوة إجرامية، كما تعتبر في نظر القانون الدولي الإنساني والمجتمع الدولي بصفة عامة لها جسامه كبيرة لما تحتويه من الأساليب البشعة في كيفية القتل وارتكاب هذه الجرائم³².

ب- الركن المعنوي للجرائم ضد الإنسانية:

يتمثل الركن المعنوي للجرائم ضد الإنسانية بصورة عمدية، وبذلك تتطلب قصد جنائي عام مكون من عنصري العلم والإرادة، أي أن يعلم الجاني بأن ما يأتيه من سلوك مجرم ومعاقب، بالإضافة إلى القصد الجنائي العام تتطلب قصد جنائي خاص، وهو نية القضاء على أفراد الجماعة محل الاعتداء ذات عقيدة معينة³³، فالجرائم ضد الإنسانية تعادل

جريمة التعذيب التي تحتوي على ضروب المعاملة والعقوبة القاسية طبقا للمادة الأولى من اتفاقية حظر التعذيب لعام 1984³⁴.

ج- الركن الدولي للجرائم ضد الإنسانية :

الصفة الدولية لهذه الجرائم واضحة، فأعمال الاضطهاد متى وجهت دون تمييز إلى عدد من الأفراد ينتمون إلى طائفة متميزة من البشر، ثم أن هذه الأفعال تنطوي على خطر كبير يهدد الإنسانية³⁵.

فالجرائم ضد الإنسانية جرائم دولية بطبيعتها نظرا لطبيعة الجرائم التي ترتكب جميعها ضد الإنسان³⁶، وتتميز عن الجرائم الدولية الأخرى بأنها تعتبر الأخطر، وذلك نظرا لجسامتها ووحشيتها، لأنها تستهدف القضاء على مجموعة معينة بقصد إفنائها من الوجود مثل القتل بصورة جماعية.

ولقد تم إقصاء كل قيد زمني يحدّ من النطاق العملي للمادة السابعة من النظام الأساسي للمحكمة، إذ بمجرد التحقق من العناصر الأساسية للجريمة ضد الإنسانية يمكن ترتيب المسؤولية الجنائية، فخلو المادة من كل إشارة إلى العامل الزمني ساعد على تحقيق مجال تطبيق المسؤولية الجنائية الدولية للفرد³⁷.

من الجدير بالذكر أن المحكمة الجنائية الدولية قد توسعت في مفهوم الجرائم ضد الإنسانية، بل أنها قد تركت الباب مفتوحا أمام إضافة جرائم أخرى كما يتبين في الفقرة الأولى من المادة السابعة من النظام الأساسي للمحكمة³⁸.

ثالثا/ جرائم الحرب :

الحرب التي كانت مشروعة ومباحة في الماضي، أصبحت جريمة دولية يعاقب مرتكبيها وفقا لنظام روما الأساسي، وستتناول كل من تعريف جرائم الحرب، وأركانها.

1 - تعريف جرائم الحرب :

جاء في المادة (2/8) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية بأن جرائم الحرب تعني:

(أ)- الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف المؤرخة في 12 آب/ أغسطس 1949.

(ب)- الانتهاكات الخطيرة الأخرى للقوانين والأعراف السارية على المنازعات الدولية المسلحة في النطاق الثابت للقانون الدولي.

(ج)- في حالة وقوع نزاع مسلح غير ذي طابع دولي.

(د)- تنطبق الفقرة 2(ج) على المنازعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي.

(هـ)- الانتهاكات الخطيرة الأخرى للقوانين والأعراف السارية على المنازعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي في النطاق الثابت للقانون الدولي.

(و)- تنطبق الفقرة 2(هـ) على المنازعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي³⁹.

لقد نصت المادة الثامنة من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية على صور جرائم الحرب، وقد كانت خطوة هامة وحاسمة في مجال تحديد الانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي الإنساني تحديدا تفصيليا، رغم كل الصعوبات التي واجهت واضعي مشروع نظام رما الأساسي خلال الأعمال التحضيرية من تناقضات في وجهات نظر الدول المشاركة في مؤتمر روما⁴⁰.

يقول الأستاذ (Grégory Berkovic) عن التعريف الذي أورده المادة (1/8) أنه استمد من نص المادة 20 من مشروع تقنين الجرائم الموجهة ضد السلام وأمن البشرية لسنة 1996 التي عرفت جرائم الحرب بأنها تلك الجرائم التي ترتكب بطريقة منهجية وعلى نطاق واسع⁴¹.

2 - أركان جرائم الحرب؛

تقوم جرائم الحرب على الركن المادي والركن المعنوي والركن الدولي.

أ- الركن المادي لجرائم الحرب؛

يتخذ الركن المادي لجرائم الحرب صور عديدة تختلف من جريمة إلى أخرى، وذلك على النحو الآتي:

- في جريمة الاعتداء على المدنيين أو المقاتلين العزل: يتخذ الركن المادي فيها صور قيام العدو بمهاجمة المدنيين والمواقع المدنية، وذلك بشرط ألا يكون هؤلاء المدنيين متتمين للقوات المسلحة ولا يشتركون فعلا في العمليات الحربية.

- في جريمة إساءة معاملة ضحايا الحرب من المرضى والجرحى والأسرى: يتخذ الركن المادي فيهم صور وضعهم في السجون أو معاقبتهم بلا محاكمة، أو قتلهم.

- في جريمة قتل الرهائن: وقد اتخذ الركن المادي لهذه الجريمة أبشع صورة له أثناء الحرب العالمية الثانية.

- في جرائم استعمال الغازات الخانقة: يتخذ الركن المادي فيها صورة إطلاق القوات المتحاربة لغازات تؤدي إلى موت الأشخاص خنقا أو تؤدي إلى إصابتهم بأمراض خطيرة.

- في جريمة الحرب البكتريولوجية: يأخذ الركن المادي فيها صورة قذف المحاربون ميكروبات تحمل أمراضا فتاكة.

- في جرائم استخدام المقذوفات المتفجرة أو المحشوة بمواد ملتهبة: يأخذ الركن المادي فيها ضرورة قيام المحاربون بتعهد استخدام رصاصات معينة تؤدي إلى إحداث ألم شديد في جسد الضحية⁴².

تجدر الملاحظة أنه بالرغم من إدراج المادة الثامنة من قانون روما الأساسي مجموعة من الجرائم التي ترتكب أثناء النزاعات المسلحة غير الدولية، كالتجنيد الإجباري أو الطوعي للأطفال دون سن الخامسة عشر⁴³، والهجمات ضد الأعيان الثقافية، والتي لم تكن مجرمة من قبل، إلا أن المؤسف هو عدم تجريم تعمد تجويع السكان كأسلوب من أساليب الحرب بحرماتهم من المواد التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين، بالرغم مما تقوم به الحكومات من تطويق للمناطق التي تسيطر عليها القوات المنشقة، رغم احتوائها لعدد كبير من المدنيين الذين وقعوا ضحية الخوف والإكراه من قبل هذه الجماعات، فضلا عن توجيه الهجمات ضد الأشغال الهندسية والمنشآت التي تحوي مواد خطيرة، وكذا تسبب أضرار واسعة النطاق وطويلة الأمد تضر بالبيئة الطبيعية⁴⁴.

إن أهم المشكلات التي تواجه المجتمع الدولي حاليا في تطوير مفهوم جرائم الحرب نجد قضية تطبيق القواعد الدولية المنظمة للصرعات المسلحة غير الدولية⁴⁵، وهي قضية شائكة دوليا، لذلك فهي تثير خلافات كثيرة بين الحكومات، أدت إلى غموض عدد كبير من النصوص المتعلقة بمفاهيم جرائم الحرب وأركانها⁴⁶.

ب- الركن المعنوي لجرائم الحرب:

يقصد بالركن المعنوي لجرائم الحرب القصد الجنائي العام الذي يتكون من عنصري العلم والإرادة، حيث أنه يعلم الجاني أن سلوكه هذا يتنافى وقوانين وأعراف الحرب، ولكن جرائم الحرب تتطلب توفر قصد جنائي خاص ألا وهو نية إنهاء العلاقات الودية بين الدول.

ج- الركن الدولي لجرائم الحرب:

يقصد بالركن الدولي لجرائم الحرب أن تقع جريمة الحرب بناء على تخطيط من دولة متحاربة، وبتنفيذ مواطنيها، ضد رعايا دول الأعداء، وذلك في سياق نزاع دولي مسلح، وتكون هذه الجرائم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النزاع، ومع ذلك تصبح هذه الجرائم دولية رغم وقوعها في إطار سياق نزاع مسلح غير ذي طابع دولي في الحالات التي يتم فيها انتهاكات جسيمة للمادة الثالثة المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربعة لعام 1949، وهي عبارة عن أفعال مرتكبة ضد أشخاص غير مشتركين اشتراكاً فعلياً في الأعمال الحربية بين الدول المتحاربة حتى ولو كانوا من أفراد القوات المسلحة لهذه الدول الذين تخلو عن أسلحتهم طوعية أو اختياراً⁴⁷.

في جرائم الحرب يمكن للدولة عندما تصبح طرفاً في النظام الأساسي أن تعلن عدم قبولها اختصاص المحكمة لمدة سبع سنوات من بدء سريان هذا النظام الأساسي عليها⁴⁸.

رابعاً/ جريمة العدوان:

عرّف الأستاذ (Alfaro) العدوان بأنه: « كل استخدام للقوة أو التهديد بها من قبل دولة أو مجموعة من الدول أو حكومة أو عدة حكومات ضد أقاليم شعوب الدول أو الحكومات الأخرى أياً كانت الصورة أو السبب أو الغرض المقصود من العدوان، فيما عدا حالة الدفاع الشرعي الفردي أو الجماعي ضد عدوان مرتكب من جانب قوات مسلحة أو المساهمة في أعمال القمع التي تتخذها الأمم المتحدة »⁴⁹.

وتعتبر جريمة العدوان من الجرائم الأكثر تهديداً للمجتمع الدولي، حيث وصفت أثناء محاكمات نورمبرغ بأنها أشدّ الجرائم الدولية على الإطلاق وتختلف عن باقي جرائم الحرب في أنها تشمل وحدها على مساوئ الكل⁵⁰.

1 - صعوبة تعريف جريمة العدوان:

لقد كانت جريمة العدوان أحد الأسباب الرئيسية في تأخير إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، فقد مرت بمراحل عديدة⁵¹ إلى أن تم إقرارها كجريمة حرب في إطار النظام الأساسي لمحكمة نورمبرغ تحت مسمى (الجرائم ضد السلام)، فقد كلفت لجنة القانون الدولي بدراسة المشاكل التي تعيق وضع تعريف للعدوان، فبقيت الأعمال المتعلقة بتعريفه جارية في إطار منظمة الأمم المتحدة طيلة عقدين من الزمن⁵²، حتى توصلت اللجنة

الخاصة المكلفة بإعداد تعريف العدوان إلى اعتماد صيغة نهائية لتعريفه، تبنتها الجمعية العامة بموجب القرار 3314 لسنة 1974⁵³، حيث عرّف القرار في مادته الأولى العدوان: «أنه استخدام القوة المسلحة من جانب إحدى الدول ضد سيادة أو سلامة أراضي دولة أخرى أو استقلالها السياسي، أو بأية طريقة لا تتفق مع ميثاق الأمم المتحدة»⁵⁴.

كما نص على حالات نموذجية تعد من الأعمال العدوانية في إطار مادته الثالثة كالغزو وشن هجوم على أراضي دولة أخرى ولو بصورة مؤقتة، وكذلك أعمال القصف وحصار الموانئ والسواحل والسماح باستخدام الأراضي من قبل دول أخرى لارتكاب أعمال العدوان، وإرسال قوات غير نظامية أو مرتزقة لارتكاب أعمال القوة. وأعطى قرار الجمعية العامة بموجب المادة الرابعة لمجلس الأمن صلاحية وصف أعمال أخرى غير الواردة في المادة الثالثة من قبيل الأفعال المكونة لجريمة العدوان وفقاً لأحكام الميثاق⁵⁵.

2 - تعريف جريمة العدوان في المؤتمر الاستعراضي في كومبالا:

اعتمد المؤتمر الاستعراضي قراراً⁵⁶، أدخل به تعديلاً في نظام روما الأساسي، بحيث يتضمن تعريفاً لجريمة العدوان ويضع الشروط التي بموجبها يمكن للمحكمة أن تمارس اختصاصها فيما يتعلق بالجريمة. وأن الممارسة الفعلية للولاية خاضعة للقرار الذي سيتخذ بعد الأول من كانون الثاني/يناير 2017 من قبل الأغلبية نفسها للدول الأطراف المطلوبة لاعتماد أي تعديل في النظام الأساسي.

استند المؤتمر الاستعراضي في تعريف جريمة العدوان على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (3314) المؤرخ في 14 ديسمبر 1974، وفي هذا السياق اتفق على وصف العدوان على أنها الجريمة التي ارتكبتها زعيم سياسي أو عسكري والتي بحكم خصائصها وخطورتها وحجمها تشكل انتهاكاً واضحاً لميثاق الأمم المتحدة⁵⁷.

وفيما يتعلق بممارسة المحكمة الجنائية الدولية اختصاصها، وافق المؤتمر على أن الحالة التي يكون فيها عمل من أعمال العدوان قد وقع فيمكن أن تحال القضية إلى المحكمة من قبل مجلس الأمن المتصرف بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، بغض النظر عن ما إذا كانت الدولة المعنية من الدول الأطراف أو الدول غير الأطراف⁵⁸.

وتمارس المحكمة الجنائية الدولية اختصاصها بشأن جريمة العدوان بناءً على إحالة من مجلس الأمن وفقاً للمادة 13(ب) من النظام الأساسي، بعد مرور سنة واحدة على التصديق أو القبول بالتعديلات من ثلاثين دولة طرف أو (يضاف نص مماثل للفقرة 3

من المادة 15 مكرراً) أيهما يكون تالياً. وبغض النظر عما إذا كانت الدولة المعنية قبلت اختصاص المحكمة في هذا الصدد⁵⁹.

خاتمة:

إن اختصاص النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية بجرائم الإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب، وجريمة العدوان فقط، وعدم إدراجها لنصوص تجرم أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، والإتجار غير المشروع للمخدرات، والجرائم المرتكبة أثناء النزاعات المسلحة، ومن أخطرها تعمد تجويع السكان المدنيين، والجرائم المرتكبة ضد البيئة الطبيعية، سوف يسمح لا محالة بإفلات العديد من المجرمين من العقاب، خاصة وأن المحكمة الجنائية الدولية ليس لها جهاز تنفيذي، مما يجعلها غير قادرة على تقديم المتهمين للمثول أمامها، أو وضع ما تصدره هذه الأخيرة من الأحكام موضع التنفيذ ينقص من فعاليتها.

كما أن عدم التحديد الدقيق للأركان المكونة لهذه الجرائم يؤدي إلى تفسيرات مختلفة لضمونها، ومن ثم يصعب أن يستجيب عمل المحكمة الجنائية الدولية لمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، وبالتالي إفلات العديد من المتهمين من العقاب، نظراً لصعوبة إثبات التهم ضدهم.

ولكي نضمن حق المجتمع الدولي في العقاب عن الجرائم الدولية، لا بد من أن يدخل في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية عقاب كل الجرائم، خاصة جرائم الإرهاب⁶⁰، لما يشهده عالمنا اليوم من تغيرات جذرية بظهور جماعات إسلامية متطرفة بتسميات مختلفة (القاعدة، جماعة بوكو حرام، داعش)، هذه الأخيرة التي تهدد الأمن والسلم الدوليين.

الهوامش

1. - تدخل الأمين العام للأمم المتحدة السيد «كوفي عنان» في المناقشات العامة التي جرت في الفترة من 15 إلى 18 جوان 1998 بروما، انظر:

-Alioune Tine, La cour pénale internationale- l'Afrique face au défi de l'impunité Edition Raddho, Dakar, 2000, p.32.

2. - يعود أول اقتراح لتأسيس محكمة جنائية دولية دائمة إلى عام 1872 من إعداد السويسري (غوستاف موانيه Gustave Moynier) الذي أعد آنذاك مشروعاً يتكون من 10 مواد، إلا أن فكرته لم تحظ بالتأييد اللازم وقتها، راجع: نصر الدين بوساحة، المحكمة الجنائية الدولية، شرح اتفاقية روما مادة مادة، الجزء الأول، دار هومة، الجزائر، 2008، ص 4.

-« La Cour pénale internationale est une innovation hardie... La création de la Cour pénale internationale correspond au mouvement contemporain en faveur d'une juridiction criminelle interétatique, mouvement qui... est destiné à acquérir une ampleur et une force croissante parce qu'il est conforme à l'évolution subie par le droit dans tous les groupements humains... La Cour pénale internationale est la réalisation de l'idéal d'une juridiction pénale internationale permanente, ouvrant des voies nouvelles au droit pénal international » **Luigi Condorelli**, « La Cour pénale internationale : un pas de géant pourvu qu'il soit accompli... », *Revue générale de droit international public*, Vol. 103, N°1, 1999, p. 7.

3. - انعقد بالعاصمة الإيطالية روما، مؤتمر دبلوماسي للمفوضين، هدفه مناقشة مشروع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الذي قدمته لجنة القانون الدولي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة سنة 1994، وقد شاركت فيه 160 دولة و 238 منظمة غير حكومية، و 17 منظمة حكومية، للتفصيل أكثر، راجع: بوغريال باهية، تطور القضاء الدولي الجنائي وتأثيره على حقوق الإنسان، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي لحقوق الإنسان، كلية الحقوق، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2005، ص ص 131-134.

4. - أصبحت معاهدة روما سارية المفعول في اليوم الأول من الشهر الذي عقب اليوم الستين من تاريخ إيداع صك الستين للتصديق، وهو ما تم في 01 جويلية 2002، وقد كانت السنغال أول دولة تصادق على النظام الأساسي بتاريخ 9 فيفري 1999، انظر: دريدي وفاء، المحكمة الجنائية الدولية ودورها في تنفيذ قواعد القانون الدولي الإنساني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم القانونية، تخصص قانون دولي إنساني، كلية الحقوق، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008، ص 48.

5. - انظر: ديباجة النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

6. - واجه المجتمع الدولي في مطلع التسعينات أي عقب انتهاء الحرب الباردة، حالتين استثنائيتين عجّلتا في تدخل مجلس الأمن بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة للحد من الإفلات من العقاب أمام بشاعة الجرائم المرتكبة في يوغسلافيا سابقا ورواندا، وعليه أنشئت المحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغسلافيا سابقا، بموجب قرار مجلس الأمن رقم 827 المؤرخ في 25 ماي 1993، والمحكمة الجنائية الدولية الخاصة برواندا بموجب قرار مجلس الأمن رقم 955 المؤرخ في 8 نوفمبر 1994، للتفصيل أكثر، راجع:

- UN doc.SC/RES/827/1993, 25 Mai 1993.

- UN doc.SC/RES/955/1994, 08 Novembre 1994.

7. - أكد النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية على مبدأ الاختصاص التكميلي المنصوص عليه في الفقرة (6) من ديباجة النظام الأساسي بعبارة «بأن واجب كل دولة أن تمارس ولايتها القضائية الجنائية...»، والفقرة (10) من الديباجة بعبارة: «إذ تؤكد أن المحكمة الجنائية الدولية المنشأة بموجب هذا النظام الأساسي ستكون مكتملة للولايات القضائية الجنائية الوطنية»، وبمقتضى هذا المبدأ، يمكن اعتبار المحكمة بمثابة جهاز رقابي مزود باختصاص ثانوي، يسهر من جهة على مدى التزام الدول بمتابعة مرتكبي الجرائم التي تدخل ضمن اختصاص المحكمة، ومن جهة أخرى- وبصفة عامة- على مواءمة هذه الدول لتشريعاتها الجنائية الداخلية وفق ما يقتضيه نظامها الأساسي، بمعنى أن هذا الأخير، يفرض على الدول- بطريقة غير مباشرة- إنفاذ قواعده ضمن التشريعات العقابية لهذه الدول على نحو يسمح لآلياتها القضائية بتسليط العقاب على مرتكبي الجرائم الدولية الواردة فيه، انظر:

- **Salvatore Zappalà**, La justice pénale internationale, Montchrestien, Paris, 2007, pp. 129-130.

- «Un tel modèle complémentaire, bien que souhaitable, n'a pas de précédent: ni les tribunaux militaires de Nuremberg et de Tokyo, ni les tribunaux ad hoc pour l'ex Yougoslavie et pour le Rwanda ont adopté une solution similaire», **Gabriele Della Morte**, « Les frontières de la compétence de la Cour pénale internationale : observations critiques », *Revue internationale de droit pénal*, Vol. 73, N°1, 2002, p.26.

- **Darryl Robinson**, «The Rome Statute and its Impact on National Law », in: *The International Criminal Court :Challenges to achieving justice and accountability in the 21st*

- وتجدر الإشارة إلى أنه تم إدراج مبدأ الاختصاص التكميلي لدفع الدول إلى الانضمام إلى النظام الأساسي للمحكمة وبالتالى التعاون معها، انظر:

- Flavia Lattanzi, « Compétence de la Cour pénale internationale et le consentement des Etats », *Revue générale de droit international public*, N°2, 1999, p. 442.

8. - يتضح أن المحكمة الجنائية الدولية في حد ذاتها منظمة دولية وليست مجرد جهاز تابع لمنظمة دولية مثل المحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا سابقا ورواندا، انظر: ساشا رولف لودر، « الطابع القانوني للمحكمة الجنائية الدولية ونشوء عناصر فوق وطنية في القضاء الجنائي الدولي »، *المجلة الدولية للصليب الأحمر*، مختارات من أعداد 2002، ص 157.

- تجدر الإشارة إلى أنه أثناء المناقشات التي جرت في نهاية سبتمبر من سنة 2003 أمام الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بنيويورك حول العدالة الجنائية الدولية، تم التأكيد على الصفة الدولية للمحكمة الجنائية الدولية من قبل عديد الدول، وخلالها هذه المناقشات تبين بوضوح أن غالبية الدول كانت موافقة على فكرة اللجوء إلى المحكمة بخصوص كل الحالات، التي تستوجب محاكمة المسؤولين عن الجرائم الدولية حتى خارج حدود اختصاصها، راجع:

- Salvatore Zappalà, op.cit., p.137.

9. - دهماني عبد السلام، التحديّات الراهنة للمحكمة الجنائية الدولية في ظل هيمنة مجلس الأمن الدولي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم، تخصص قانون، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012، ص 53.

10. - اعتماد هذه الجرائم ضمن اختصاص المحكمة يرجع أساسا إلى أن للمجتمع الدولي مصلحة مشتركة في مكافحتها، لكونها تمس بالإنسانية ككل وتهدد أمنها، راجع: أمحمدي بوزينة أمنة، آليات تنفيذ القانون الدولي الإنساني، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2014، ص 182.

11. - مارك نصر الدين، « التعريف بالجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية »، إسهامات جزائرية حول القانون الدولي الإنساني، الطبعة الأولى، كريكو للتصميم والطباعة، الجزائر، 2008، ص 241.

12. - بوراس عبد القادر، التدخل الدولي الإنساني وتراجع مبدأ السيادة الوطنية، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2014، ص 48.

13. - عويينة سميرة، جريمة الإبادة الجماعية في الاجتهاد القضائي الدولي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص القانون الدولي الإنساني، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012/2013، ص ص 23-24.

14. - Le terme « génocide » lui-même fut originalement introduit en 1944 par Raphaël Lemkin, un réfugié Juif polonais enseignant à l'Université de Yale aux États-Unis dans son ouvrage (*Axis Rule in Occupied Europe*), Voir: Jorge E. Viñuales, « Autour du « crime des crimes » : au-delà des affaires humaines ? », *Raisons politiques*, no 17, 2005/1, p.11, in:

<http://www.cairn.info/revue-raisons-politiques-2005-1-page-9.htm>

- انظر: بن حفاف إسماعيل، « المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا سابقا (ممارسة العدالة الدولية من خلال التصدي لجرائم القانون الدولي الإنساني) »، *المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية*، العدد 04، 2008، ص 505.

15. - لخص (Raphaël Lemkin) معنى الإبادة الجماعية فيما يلي: (إنني أعني بالإبادة الجماعية تدمير أمة أو مجموعة عرقية، وبشكل عام لا تعني الإبادة الجماعية التدمير المباشر للأمة، إلا عندما تقتصر الإبادة الجماعية بالقتل لكل أعضاء الأمة، وإنها تستند على خطة منسقة من خلال عدة أعمال مختلفة، تهدف إلى تدمير الأسس الضرورية لحياة جماعة قومية بهدف تدمير هذه الجماعة وتهدف هذه الخطة إلى تدمير المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية واللغوية، وتفتيت الشعور القومي والديني والوجود الاقتصادي للجماعات القومية، وأيضا القضاء على الأمن الشخصي والحرية، الصحة والكرامة حتى حياة الأفراد المنتمين لمثل هذه الجماعات، ويضيف أن الإبادة الجماعية توجه ضد الجماعة القومية ككيان، وأن الأعمال التي تتضمنها هذه الجريمة توجه ضد الأفراد بصفتهم أعضاء للجماعة وليس بصفتهم الفردية)، انظر:

- **Raphaël Lemkin**, Axis rule in occupied Europe, Washington D.C, Carnegie endowment for international peace, 1944 pp.77-90.

16. - Résolution AG 260 (III) B du 9 Décembre 1948.

17. - انظر: المادة 04 من اتفاقية منع وقمع جريمة إبادة الجنس البشري لسنة 1948.

18. - انظر: المادة 06 من اتفاقية منع وقمع جريمة إبادة الجنس البشري لسنة 1948.

19. - أنظر: المادة 06 من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

20. - تعريف جريمة الإبادة الجماعية وفقا للمادة السادسة من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية هو نفسه التعريف الوارد في المادة الثانية من اتفاقية منع وقمع جريمة إبادة الجنس البشري لسنة 1948 انظر:

- **William Bourdon et Emmanuelle Duverger**, La Cour pénale internationale, éd. Du Seuil, Paris, 2000, p.40.

21. - منتصر سعيد حمودة، المحكمة الجنائية الدولية، النظرية العامة للجريمة الدولية، أحكام القانون الدولي الخاص، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، 2006، ص 109.

22. - من استقرأ نص المادة 6 من نظام روما الأساسي، يتضح بأنه أورد صوراً للنشاط الإجرامي يجب أن يرتكبه الجاني مع توافر القصد الجنائي، لكي يوصف فعله بأنه إبادة، بالإضافة إلى تحقق الصفة الدولية للجريمة، راجع: ليلي بن حمودة، «الاختصاص الموضوعي للمحكمة الجنائية الدولية»، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية، العدد 04، 2008، ص 327.

23. - سلمى جهاد، جريمة إبادة الجنس البشري بين النص والتطبيق، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 58.

24. - ذكرت لجنة القانون الدولي في تعليقها على مشروع مدونة الجرائم ضد سلم وأمن البشرية ما يلي:

« لا يكفي لقيام جريمة الإبادة الجماعية، القصد العام لارتكاب أحد الأفعال المحددة، مع إدراك عام للأثار المحتملة لمثل هذا الفعل على الضحية أو الضحايا المباشرين، فتعريف هذه الجريمة يتطلب قصدا خاصا بالنسبة للأثار العامة للأفعال المحظورة، وبالتالي فإن قتل فرد واحد مع توافر هذا القصد هو جريمة إبادة جماعية، في حين أن قتل ألف شخص دون هذا القصد ليس سوى جريمة قتل»، للتفصيل أكثر، راجع: صبرينة العيفاوي، القصد الجنائي الخاص كسبب لقيام المسؤولية الجنائية الدولية في جريمة الإبادة الجماعية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في القانون، تخصص قانون جنائي، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2012، ص ص 75-76.

25. - دحماني عبد السلام، المرجع السابق، ص 55.
26. - عبد القادر البقيرات، مفهوم الجرائم ضد الإنسانية، على ضوء القانون الدولي الجنائي والقوانين الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، ص 21.
27. - عبد القادر البقيرات، المرجع السابق، ص 24.
28. - أنظر المادة (1/7) من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.
- إن نص المادة السابعة من اتفاقية روما جاء بصياغة مغايرة للنصوص السابقة المتضمنة تعريف الجرائم ضد الإنسانية، وهو يعكس تطوراً في مفهوم هذه الجرائم التي عرفت أول تجسيد فعلي لها خلال محاكمات نورمبرغ وطوكيو عقب الحرب العالمية الثانية، فقد نصت المادة 6 من لائحة نورمبرغ، والمادة 5 من النظام الأساسي لمحكمة طوكيو كجزء من الجرائم ضد السلام وجرائم الحرب لتؤكد أكثر في 11 ديسمبر 1946 من خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة (المادة 59/1) المتضمن تقييد مبادئ محاكمات نورمبرغ، حيث ألغت بموجبه لجنة القانون الدولي العلاقة التي كانت تشترط بين الجرائم ضد الإنسانية وحالة الحرب أو جرائم الحرب، وعلى العكس من جريمة الإبادة فإن الجرائم ضد الإنسانية لم تحض باتفاقية خاصة تعرفها وتحدد أحكامها، واقتصر الأمر بشأنها بعد محاكمات نورمبرغ على الجهود المبذولة على مستوى الدول بإدراج هذه الجرائم في قوانينها الداخلية، كالمواد 212 وما بعدها من قانون العقوبات الفرنسي، أو المادة 138 من قانون العقوبات لدولة كوت ديفوار، أو القانون البلجيكي الصادر بتاريخ 19 جوان 1993 المتعلق بمكافحة الانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي الإنساني، أنظر: نصر الدين بوساحة، المحكمة الجنائية الدولية، شرح اتفاقية روما مادة مادة، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 31-32.
29. - هشام قواسمية، المسؤولية الدولية الجنائية للرؤساء والقادة العسكريين، دار الفكر والقانون، المنصورة، 2013، ص 199.
30. - عبد القادر البقيرات، المرجع السابق، ص ص 38-39.
31. - همام محمد، النظام القانوني الدولي للجرائم ضد الإنسانية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في القانون، فرع القانون الدولي لحقوق الإنسان، كلية الحقوق، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2005، ص 134.
32. - أحمد بشارة موسى، المسؤولية الجنائية الدولية للفرد، دار هومة، الجزائر 2009، ص 148.
33. - منتصر سعيد حمودة، المحكمة الجنائية الدولية، المرجع السابق، ص 130.
34. - أحمد بشارة موسى، المرجع السابق، ص 148.
35. - عبد الفتاح بيومي حجازي، المحكمة الجنائية الدولية، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، 2004، ص 69.
36. - لقد تضمنت المواثيق الدولية على أن الجرائم ضد الإنسانية تشمل الأعمال اللاإنسانية ذات الطابع الخطير، والتي تنطوي على انتهاكات واسعة النطاق أو منتظمة والتي تستهدف السكان المدنيين جملة أو جزئياً، وتكمن السمات المميزة لهذه الجرائم في طبيعتها الواسعة النطاق والمنتظمة، بمعنى أنها جرائم ضد الأشخاص وليس ضد الأموال، أنظر: عبد القادر البقيرات، المرجع السابق، ص 148.
37. - أحمد بشارة موسى، المرجع السابق، ص 150.
38. - هشام قواسمية، المرجع السابق، ص 204.

39. - المادة 2/8 من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.
40. - مريم ناصري، فعالية العقاب على الانتهاكات الجسيمة لقواعد القانون الدولي الإنساني، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2011، ص 97.
41. - غضبان حمدي، إجراءات متابعة مجرمي الحرب في القوانين الداخلية والقانون الدولي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2014، ص 233.
42. - منتصر سعيد حمودة، المرجع السابق، ص ص -148 149.
43. - بتاريخ 14 مارس 2012 أصدرت المحكمة الجنائية الدولية أول حكم في تاريخها، إذ قضت الدائرة التمهيدية الأولى للمحكمة الجنائية الدولية بأن (Thomas Lubanga Dyilo) مذنب بالمشاركة في ارتكاب جرائم حرب، وذلك لقيامه بقسر وتجنيد أطفال دون سن الخامسة عشرة سنة واستخدامهم للمشاركة النشطة في أعمال حربية في الفترة من 01/09/2002 إلى 13/08/2003، وذلك في سياق نزاع داخلي مسلح وقع في مقاطعة (ايتوري) بجمهورية الكونغو الديمقراطية، بمشاركة القوات الوطنية لتحرير الكونغو بقيادة (Thomas Lubanga Dyilo)، للتفصيل أكثر، راجع:
- Le Procureur c/ Thomas Lubanga Dyilo, affaire n° ICC-01/04-01/06, Jugement rendu le 14 mars 2012, in : www.icc-cpi.int
- وبتاريخ 10 جويلية 2012 أصدرت المحكمة الجنائية الدولية حكما ضده قضى عليه بالسجن 14 عاما، انظر:
- Le Procureur c/ Thomas Lubanga Dyilo, affaire n° ICC-01/04-01/06, Jugement rendu le 10 juillet 2012, in:www.icc-cpi.int
44. -Marie-Claude Roberge, «The New Criminal Court: a preliminary assessment », in International Review of the Red Cross, N° 325, December 1998, p.693.
45. - Eve La Haye and Anne-Marie La Rosa «The first amendment to the Rome Statute : Bringing Article 8 of the Rome Statute in line with international Humanitarian Law», in :From Rome to Kampala: The first 2amendments to the Rome Statute, Edited by Gérard Dive, Benjamin Goes and Damien Vandermeersch, Bruylant Edition, Bruxelles 2012, p.68.
46. - ليلي بن حمودة، المرجع السابق، ص ص 344-345.
47. - منتصر سعيد حمودة، المرجع السابق، ص ص 150-151.
48. - المادة 241 من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.
- لأغراض هذه المادة تصدر الدولة إعلانا بعدم قبول اختصاص المحكمة لمدة سبعة سنوات فيما يتعلق بجرائم الحرب، أثناء بدء سريان هذا النظام الأساسي عليها، وذلك لمدة واحدة غير قابلة للتجديد، وفي الحالة الوحيدة التي يكون فيها المتهم من رعاياها، فإن لم تصدر الدولة ذلك الإعلان عند بدء سريان النظام الأساسي عليها، فلا يجوز لها القيام بذلك لاحقا، وإن كانت قد أصدرت الإعلان طبقا لما هو منصوص عليه، لكن المتهم ليس من رعاياها، فإن هذا الأمر لا يعطي للدولة الحق في رفض التعاون مع المحكمة، إذا وجهت إليها طلبات لذلك الغرض وفقا للباب التاسع، ويكون بوسع هذه الدولة أن تضع حدًا لذلك الإعلان بسحبه في أي وقت قبل انتهاء فترة 7 سنوات المبينة في الفقرة 1 من المادة 124، راجع: نصر الدين بوسماحة، المحكمة الجنائية الدولية، شرح اتفاقية روما مادة مادة،

الجزء الثاني، دار هومة، الجزائر، 2008، ص ص 256-257.

49. - أمحمدي بوزينة أمانة، المرجع السابق، ص 188.

50. - هشام قواسمية، المرجع السابق، ص 208.

51. - هشام مناع، جريمة العدوان في تاريخ القانون الدولي والثقافة العربية الإسلامية، محاضرة على هامش المؤتمر التأسيسي الأول للحملة العالمية ضد العدوان، الدوحة 24 فبراير 2005 في:

<http://www.hrinfo.net/mena/achr/2005/pr0224-2.shtml>.

52. - إبراهيم الدراجي، جريمة العدوان ومدى المسؤولية القانونية الدولية عنها، منشورات الحلبي الحقوقية، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص 867.

53. - Doc.off. NU.AG A/Rés.3314 (XXIX) du 14 Décembre 1974.

54. - يؤخذ على هذا التعريف أنه جاء قاصرا من حيث نصه على فعل واحد فقط تنشأ بارتكابه جريمة العدوان، وهو استخدام القوة المسلحة بالرغم من وجود حالات كثيرة يترتب على ارتكابها أضرار جسيمة تفوق ما ينتج عن استخدام القوة المسلحة، كالضغوطات والحصار الاقتصادي الذي تمارسه بعض الدول بحق بعض الدول دون وجه حق، بالإضافة إلى أن هذا التعريف لم يتعرض للمسؤولية الجنائية الفردية عن الأفعال المكونة لجريمة العدوان، انظر: هشام مناع، المرجع السابق.

55. - صلاح الدين أحمد حمدي، العدوان في ضوء القانون الدولي (-1919 1977)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص ص 29-33.

56. - Résolution RC/Rés.6, adoptée à la treizième séance plénière, le 11 juin 2010, par consensus.

57. - انظر: المادة 8 مكرر من القرار RC/Rés. 6.

58. - لا جديد يذكر حول تعريف جريمة العدوان، فتم اعتماد التعريف الوارد في المادة الأولى من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (3314) المؤرخ في 14 ديسمبر 1974، انظر:

- William A.Schabas «The Unfinished Work of Defining Aggression :How Many Times Must the Cannonballs Fly Before They Are Forever Banned? », in: The International Criminal Court :Challenges to achieving justice and accountability in the 21st century/Edited by Mark S. Ellis and Richard J. Goldstone/Edited by IDEBATE Press New York, 2008, p.230.

- انظر: المادة 10 مكرر من القرار RC/Rés. 6.

59. - انظر: المادة 10 مكرر من القرار RC/Rés. 6.

60. - وهي من دون شك مسألة شائكة ولكن مع ذلك لا يمكننا إهمالها في هذا السياق، بمعنى أنه بالإمكان تصور إنشاء غرفة خاصة لتل هذه القضايا داخل أجهزة المحاكمة، وهو اقتراح كانت قد قدمت به تركيا أثناء الأعمال التحضيرية لوضع مسودة النظام الأساسي، انظر:

-Salvatore Zappalà, op.cit., p.138

الحلي الفضية للمرأة الريفية والصحراوية إرث وهوية مجتمع

Les bijoux d'argent de la paysanne et la saharienne Héritage et identité de la communauté.

أ.فائزة طهراوي

معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

المركز الجامعي أحمد زبانة-غليزان-

الملخص :

حرصت المرأة العربية عامة والريفية والصحراوية على وجه الخصوص على تزيين نفسها بأفخر أنواع الالبسة وزينة. ولم تكتفي بذلك بل ذهبت إلى تزيين مختلف أعضاء وأجزاء الجسم بما يناسبها من أنواع الحلي الفضية. لأن ما يميز المرأة الجزائرية في المناطق الريفية والصحراوية هو تفضيلها للحلي الفضية على عكس المرأة الحضرية في المدينة التي تفضل الحلي الذهبية. ويعود ذلك لأسباب اقتصادية: غلاء معدن الذهب مقارنة بالفضة اذ يتعذر على سكان الريف والصحراء اقتناؤه. بالإضافة إلى أن هذه الحلي هي ثروة مكتنزة يستعان بثمنها عند الضرورة. كما يقول المثل «الحديد للشدايد» و«الزينة خزينة». وعقائدية: للاعتقاد السائد أن اللون الأبيض يرمز للصفاء والنقاء والراحة في حين اللون الأصفر يرمز للمرض. لذا اخترنا هذا الموضوع والخوض فيه للتعريف أكثر بخاصية الحلي الفضية من طرق صناعتها وتقنيات زخرفتها إلى ما هو خفي في أدوارها ودلالاتها الرمزية.

Le résumé:

Comme toute femme coquette la paysanne et la sahrarienne s'occuper de son look en se maquillant, en s'habillant de manière élégante, elle pense à embellir son corps avec des bijoux en argent. Cette coquetterie a des raisons économique.

En effet, les bijoux en or sont chers. Les raisons sont aussi mystiques. On pense que la jaune représente la maladie et tout ce qui est de mauvais augure, tandis que le blanc de l'argent représente la pureté, la guérison. Les bijoux sont un trésor pour cette femme que nul n'a le droit de s'accaparer. Ces bijoux ont un but économique : dans le besoin, c'est une bouée de sauvetage. Elle peut les vendre ou les laisser en gage. « Ces ornements sont légers à porter mais riches en valeur », selon un proverbe populaire « elhdaied lechdeide ». Ils ont aussi un rôle sociale. La mariée délimite ainsi sa place dans la société. Par exemple, en grande Kabylie, la femme qui accouche d'un garçon porte une fibule (abzyme) posée au niveau du front. La symbolique des bijoux fait référence à la forme.

Pour mieux le faire connaître à tous nous présentons dans cet article les techniques de fabrications des bijoux d'argent dans les régions rurales et sahariennes et le rôle de ces bijoux car ils sont de multiple fonctions magiques, symbolique, hésitive sociale et économique.

Cet objet de double importance est un véritable patrimoine.

تمهيد :

يمكن كتابة التاريخ بألف طريقة وطريقة بالسيف بالقلم بالأساطير... والتاريخ الذي تقصه علينا التحف التقليدية ليس أقل إحياء وتجسيدا له، لأن هذه التحف تكشف لمن يحسن قراءتها وسماعها عن ماضي وتاريخ شعب بتقاليده وطرق عيشه. وعليه يمكن اعتبار الحلية كتحف تقليدية أداة إثارة وشاهد تاريخي في غاية الجمال والجودة. هذه التحفة التي تجذب الناظر إليها ليس لشكلها فحسب لكن لبديع ما حفرت بها من أشكال مختلفة في غاية الروعة إذ نلمس فيها البساطة والتناسق والاتقان في آن واحد.

ولعل من بين هذه التحف تلك التي كانت تزين بها المرأة الجزائرية في القرون الماضية. فالمعروف والشائع أن المرأة عامة والجزائرية على وجه الخصوص حرصت على تزيين نفسها بأفخر أنواع الأقمشة والجلود الثمينة. ولم تكتف بذلك بل ذهبت إلى تزيين مختلف أعضاء وأجزاء الجسم بما يناسبها من أنواع المجوهرات والحلي. كحلي الرأس

العصابة والأقراط وحلي الرقبة العقود والقلائد وحلي الأيدي الأساور وحلي القدمين الخلاخل وحلي أخرى مكملة للباس كالمشابك والأحزمة.... فهذه الحلي لم تصمم في أول حياتها للبيع وإنما للزينة.

فيا ترى هل دور الحلي يكمن في الجانب التزييني للمرأة الجزائرية عامة والريفية والصحراوية خاصة أم يتعدى ذلك الاعتبار؟

و هل يمكن اعتبار الحلي وثيقة تتحدث عن الإنسان والمجتمع والتقاليد والتاريخ؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات يجدر بنا التعرف على ماهية صناعة هذه التحف بالأخص في المناطق الريفية والصحراوية. لما تتمتع به الحلي في تلك المناطق من هاجس التأصيل وإرادة التمييز، والتي تتوزع بين وعي التراث وطموح الحداثة، من جهة وتدوين للذاكرة الشعبية من جهة أخرى تتوارثها الأسر

فهي تجمع بين ما هو متأصل في الثقافة الأمازيغية من رموز وأشكال مختلفة، بقيت وظيفتها حكاية الأساطير الماضي وتقاليد عتيقة رمزية.

ماهية صناعة الحلي:

I - مواد الصناعة:

تندرج حرفة صناعة الحلي أو الصياغة ضمن الحرف الحضرية والريفية. فالحضرية منها تصنع من معدن الذهب القابل للتجديد والتأثيرات الخارجية، أما الريفية فتصنع من معدن الفضة في المناطق الريفية والصحراوية المنعزلة عن أي تيار خارجي. أين تواصلت هذه الصناعة وتوارثتها الأجيال فاستخدمت فيها المواد الأولية المتوفرة في البلاد كالفضة والميشور والنحاس واللحام ومن بين المناطق المشتهرة بهذه المواد الونشريس (مناجم الرصاص، الفضة) وكذلك جبل زكّار وبني سليمان بجرجرة (معادن الحديد). وانتشر إنتاج الفضة في مناطق الجنوب، أما المرجان فكان يستخرج من القالة.

الفضّة: هي المعدن الأول المستعمل في المناطق الريفية والصحراوية وفي هذا الشأن يقول (P.Eudel): «الأفضلية للفضّة لأنها تستجيب للذوق والعادات الريفية المعروفة في كل الجزائر، وأيضاً في المغرب، فالنساء لا يرغبن ارتداء الحليّ الذهبية¹، الفضة تعكس لون الشمس وهي من أشد المعادن بياضاً من خصائصها أن وزنها النوعي 1049 تنصهر عند درجة حرارة 960,8°، وهي أكثر صلابة من كل من الذهب والنحاس، تستخدم في الأدوات الفضيّة، والحليّ والزينة، كما تستعمل في النقود أيضاً تسبك الفضة المستخدمة في

الحليّ مع النحاس، توجد الفضة في الطبيعة نقية على شكل عروق أو ممتزجة مع المعدن والمواد الطبيعية الأخرى، فهي أكثرها مرونة بعد الذهب. تقدر كثافتها بـ 10.5 وتنصهر تحت درجة حرارة تعادل 962°C .

المিশور: هو معدن مركب من خليط الزنك والنحاس له نفس لون الفضة ورينها تقريبا. ينتشر استخدامه بكثرة في المناطق القروية خاصة منطقة القبائل الكبرى بأث علي أو حزرون قرب بني بني³. **قطع النقود:** استعملت القطع النقدية الفضية القديمة (الدورو duru) لصناعة بعض الحلي كالقلادات، والمشابك الصغيرة إدويرن (Idwiren) وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع: التي تذوّب بسهولة، التي تكوّن أساسية في الحلية حيث تمثل جسم الحلية، والتي يرسم عليها ويتم وضع الطلاء عليها، والقطع التي يمكن تحويلها إلى أنواط⁴.

بالإضافة إلى هذه المواد نجد بعض الجواهر كالعقيق ووالقطع الزجاجية.

المرجان: هو حلية أو زينة البحر كما يسميه القدماء. وهو عبارة هيكل يعيش عليه المريخ الصغير في البحار الحارة، والمريخ حيوان بحري من فصيلة المجوفات. تركيبه الكيماوي لا يختلف عن تركيب اللؤلؤ، يتكون أساسا من مادة عضوية ومن كربونات الكالسيوم وكربونات المغنيزيوم وبقايا أكسيد الحديد⁵. وهو أنواع، الشائع في الجزائر الأحمر.

العقيق: هو حجر أساسه ثاني أكسيد السيليكون. توجد بعض أنواعه في الحجارة البركانية وأخرى في الحمم البركانية القديمة. ألوانه الطبيعية الأبيض والأحمر والأصفر والبني⁶.

II - صناعة الحلي:

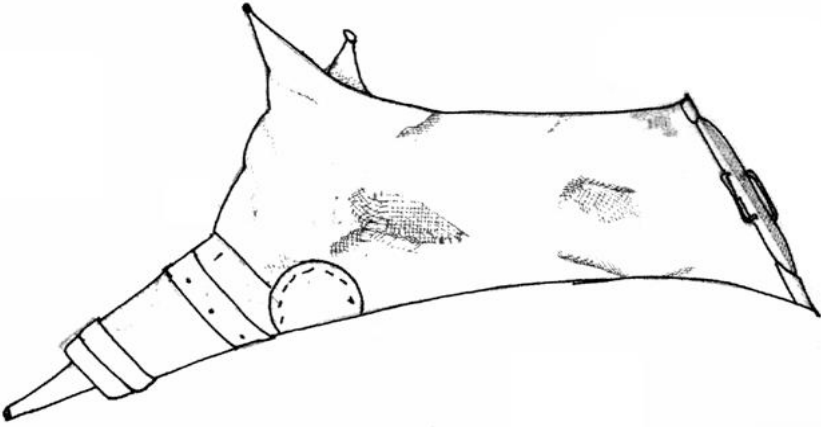


الصورة رقم 01 : ورشة صناعة الحلي

كانت تمارس هذه الحرفة في الحوانيت والورشات الصغيرة أو تحت الخيمة (أنظر الصورة رقم 01). إذ يجلس الصانع أو الحرفي في حانوته الضيق لمزاولة حرفته، محاطاً بأدواته التقليدية والبسيطة في آن واحد.

الفرن: هو عبارة عن موقد صغير مصنوع من الطين. يوجد في مركزه فتحة يوضع فيها الفحم. كما أنها تسمح بوصول أنبوب المنفاخ إلى الموقد⁷.

المنفاخ: يصنع يدويا من جلد الماعز أو الخروف بعد مروره بالدباغة. وهو عبارة عن كيس مستطيل يعرف باسم الكير أو الزابور في منطقة جبال عمور وباسم ثرافلس في منطقة القبائل، وباسم تيسهاط في منطقة الهقار. يحتوي على فتحتين الأولى كبيرة يوضع في جانبها قطعة من الخشب حتى تستقيم. أما الثانية فهي صغيرة تتصل بالأنبوب المعدني المتصل بالفرن. وتتم عملية النفخ بسحب جلد المنفاخ تماما حتى يتمدد الكيس ثم تغلق الفتحة الكبيرة ويضغط بقوة ليخرج الهواء عبر الأنبوب. وتكرر العملية حتى تضرم النار وترتفع درجة الحرارة⁸ (أنظر الشكل رقم 01).



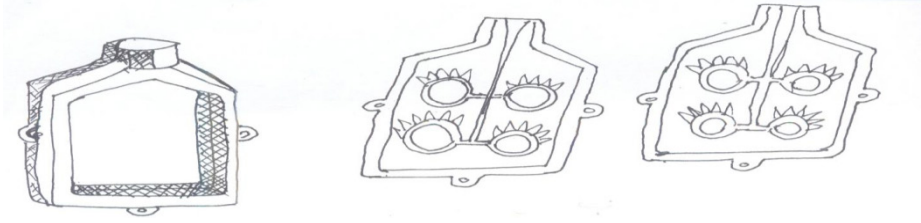
الشكل رقم 01 - المنفاخ - عن: Benfoughal

البوتقة: هي وعاء ذو شكل نصف بيضوي مصنوع من الطين أو الصلصال الممزوج بقليل من شعر الماعز أو الوبر لمنع الاتساع، يستعمل لإذابة المعدن. (أنظر الشكل رقم 02).



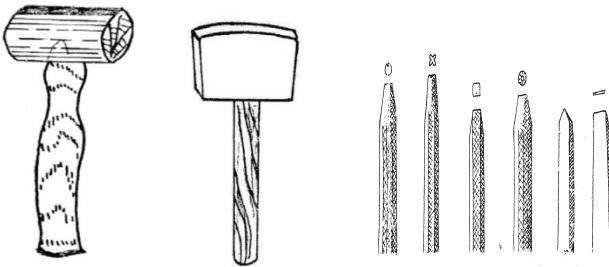
الشكل رقم 02 - البوتقة - عن: Benfouhal

ال قالب: يعتبر أيضا من الأدوات القديمة تفرغ فيه الفضّة من أجل تشكيل أشكال معينة. غالبا ما يصنع من النحاس بأشكال مختلفة (أنظر الشكل رقم 03).

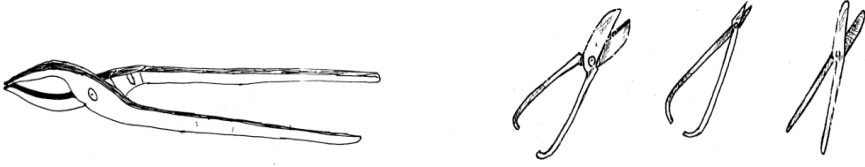


الشكل رقم 03 - القالب

بالإضافة إلى هذه الأدوات هناك أدوات مساعدة تتمثل في الأزاميل والمطرقة والمقص والملاقط. (أنظر الشكلين رقم 04 و 05)



الشكل رقم 04 - الأزاميل والمطرقة - عن: Benfouhal



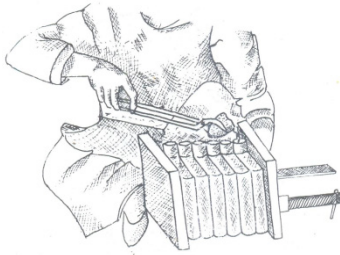
الشكل رقم 05 - المقص والملقاط - عن: Benfoughal

III - تقنيات صناعة الحلي: (أنظر الأشكال رقم 06 و 07 و 08)

يتفنن الصائغ في ورشته في مداعبة أدواته، إذ كان يقوم بتحويل المعدن الخام إلى معدن قابل للاستعمال ويستخدم في هذه المرحلة تقنيات عدة تمثلت في: الصهر والقولبة والتلحيم والتطريق والتصفيح والتقييب والتقطيع والصقل. وباستعمال هذه التقنيات حافظت على تقنياتها البسيطة وأساسياتها في طرق صناعاتها وارتباطها الوثيق بالعادات والقيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية.

الصهر: وهو عملية إذابة المعدن في البوتقة بعد تعريضها لدرجة الحرارة لمدة 30 دقيقة⁹.

القولبة: وهو عملية صب المعدن في القوالب (أنظر الشكل رقم 09).



الشكل رقم 06 - تقنية القولبة - عن: Benfoughal

التلحيم: عملية التلحيم تسمح بجمع مختلف قطع الحليّ ويقوم بشيئها في الصفيحة أو بين القطع.

التطريق والتصفيح: هما تقنيتان تتمان على السبيكة قبل أن تبرد بواسطة المطرقة، لتُحول إلى صفيحة. غالبا ما يستعملها الحرفي إذ أصبح يشتري الفضة على شكل صفائح.

التقييب: تتمثل هذه التقنية في إحداث قبيبات على صفيحة الفضة بواسطة أداة التقييب. فيضع قطعة الفضة المراد تقييبها فوق خشية بها حفر مختلفة الأحجام، وبواسطة مناقش يتم الطرق عليها للحصول على قبيبة مجوفة (أنظر الصورة رقم 02 والشكل رقم 10).

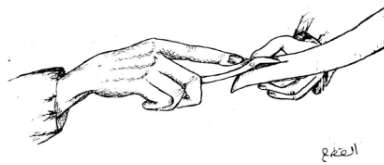


الصورة رقم 02 أداة التقييب

الشكل رقم 07 تقنية التقييب

عن: Benfoughal

التقطيع: تأتي هذه العملية بعد تخطيط مساحة القطعة المراد صنعها، وذلك باستعمال مقص خاص يتماشى وسمك المعدن (أنظر الشكل رقم 11).



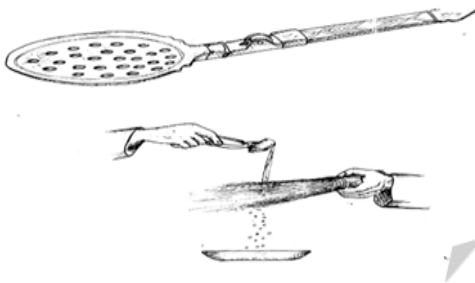
المنطق

الشكل رقم 11 - تقنية التقطيع - عن: Benfoughal

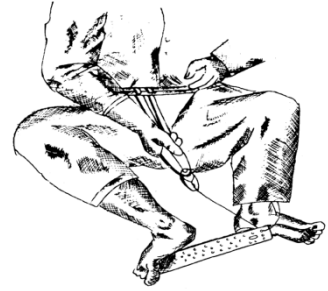
الصقل: هي آخر عملية ويتم فيها إزالة كل الشوائب وما يشوه الحلية بعد عملية التلحيم.

IV- أساليب زخرفة الحلي : (أنظر الشكل رقم 12 و 13 و 14)

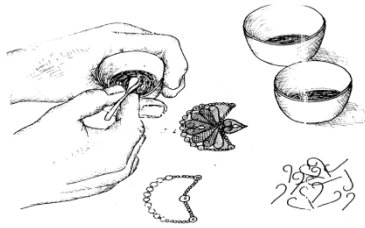
نفذ على الحلي الفضية غيرها من الفنون التطبيقية رسومات وزخارف بأساليب شتى منها الحزّ والثقيب أو التخريم والفتائل المعدنية والحبيبات الفضية. أما فيما يخص الأساليب الزخرفية التي يستخدمها الفنان والحرفي في هذه المناطق تتمثل في أسلوب الزخرفة بالفتائل المعدنية والتحبيب والتخريم بالإضافة إلى الترصيع بالمرجان والعقيق والقطع الزجاجية ذات اللونين الأحمر والأخضر كفضوص. و كان للتزيين بالسلاسل الحظ الكبير في حلي منطقة الأوراس.



الشكل رقم 13 - التحبيب -



الشكل رقم 12
- صناعة الفتائل المعدنية -



الشكل رقم 14 الترصيع
الأشكال عن : Benfoughal

من خلال تعرفنا على ماهية الحلي الفضية نستنتج أن الحلي إرث يعكس ماضي شعب انصهر وتجاوب وتلاحق مع عدّة ثقافات وحضارات مرّت على الجزائر من خلال تلك الأشكال والألوان التي وظفها الصائغ على تحفه وتفنّن في صناعتها منذ الأزل، إذ نجده

يؤثر ويتأثر وهذا ما تجلّى في منتجاته، التي جسدت لنا عبقريته في صياغة أفكاره وما يمليه عليه مجتمعه من عادات وتقاليد، وبلسماته السحرية وروح الأناقة والاحترافية، حيث خط بيده البعد التاريخي للأمازيغ وركز على التقويم المعنوي من خلال دلالات ورموز اللون والشكل والتي أصبحت معتقدات يؤمن لها من يتحلّى بالحلي الأمازيغية، فقد استطاع هذا الحرفي الأوراسي والقبائلي والترقي بصفة عامة أن يصور تاريخه في حلية بسيطة الشكل كلّها رمز ولغة من أجل تحقيق حلقة وصل بين ماضي حافل بالأصالة وحاضر قادر على تخليد ما تركه الأجداد والمحافظة عليه.

V - حلي المرأة الريفية والصحراوية :

يختلف التزين عند المرأة الجزائرية من منطقة إلى أخرى باختلاف العادات والتقاليد. فمن التزين بالحلي الذهبية والمجوهرات ذات الأحجار النفيسة والكريمة إلى التزين بالحلي الفضية. وقد فضلنا التكلم عن حلي المرأة الريفية والصحراوية لما لمسناه من أسرارها فما هو خفي تلك الأدوار التي تلعبها الحلي الفضية في جوانب عديدة من الحياة.

وقبل التطرق لهذه الجوانب الجدير بالإشارة التعرف على أهم الحلي التي ترتديها المرأة.

تأخذ المرأة الجزائرية بالمناطق الريفية والصحراوية لكل عضو من أعضائها زينة من الحلي تختص به. حيث تعددت أسماؤها وأوصافها وفقا لاستخداماتها ومكان وضعها.

تنقسم الحلي إلى خمس مجموعات حسب وظيفتها واستعمالاتها. وترتيبها يكون كالتالي:

1 - حلي الرأس: والمقصود بها تلك الحلي التي تزين الرأس وتتمثل في العصابات وحلقات الأذن وعلاقات الصدغ والزناق (أنظر الصور رقم 03 و04 و05 و06).



الصور رقم 03 - عصابة -
ثعصابت - القبائل

الصور رقم 04 - حلقات الأذن -
ثمشرت - الأوراس



الصور رقم 06 - الزناق -
أنقاب - الأوراس



الصور رقم 05 - علاقة صدغ -
لهدوب - الجنوب الجزائري

2 - حلي الرقبة : وتتمثل في العقود والقلائد. بالإضافة إلى تلك الحلي التي تزيين منطقة الصدر (أنظر الصورتين رقم 07 و08).



الصور رقم 07 - قلادة -
تيروات - الهقار

الصور رقم 08 - عقد-
السخاب- الريف الجزائري



3 - حلي الأيدي : وتمثلت في الخواتم والأساور (أنظر الصورتين رقم 09 و10).



الصور رقم 10 - سوارين-
أمقياس- الأوراس

الصور رقم 09 - خاتم-
تيساك- الهقار الجزائري

4 - حلي القدمين : هي تلك التي تركز فوق العقبين. تعرف في الجزائر بعدة تسميات منها الرديف والخلخل (أنظر الصور رقم 11 و12 و13).



الصورة رقم 11 - بریم-
الأطلس الصحراوي



الصورة رقم 13 - رديف-
الأوراس



الصورة رقم 12 - خلخال-
القبائل

5 - حلي اللباس : وهي تلك الحلي التي ترتدى مع اللباس تتمثل في المشابك والأحزمة، وعلب الحرز والرصيعات (أنظر الصور رقم 14 و15 و16 و17).



الصور رقم 14 - مشبكين-
تيزيمت- القبائل



الصور رقم 15 - حزام-
محزمة- الأوراس



الصور رقم 17 - رصيدة مفتاح-
أسارو وان أفر -الهقار



الصور رقم 16 - علبة حرز-
حرز- الأوراس

إن ما يميز المرأة الجزائرية في المناطق الريفية والصحراوية هو تفضيلها للحلي الفضية على عكس المرأة الحضرية في المدينة التي تفضل الحلي الذهبية. ويعود ذلك لأسباب عدة أهمها:

غلاء معدن الذهب مقارنة بالفضة إذ يتعذر على سكان الريف والصحراء اقتناؤه.
تفضل الفضة لتلاءم لونها وبريقها الداكن لبشرتها المتميزة بألوان طبيعية ناتجة عن ممارسة أعمالها اليومية تحت ضغط الظروف الطبيعية¹⁰.
للاعتقاد السائد أن اللون الأبيض يرمز للصفاء والنقاء والراحة في حين اللون الأصفر يرمز للمرض¹¹.
إذا كان العمل المنسوب إلى الشمس فمعدنه ذهب، وإذا كان العمل المنسوب إلى القمر فمعدنه فضة...¹²

يعتبر الحلي إرث أنثوي لا يحق لأي شخص الحصول عليه دون موافقة المرأة. والزواج يبرر جيدا بداية تشكيل هذا الإرث، حيث تفرض العادات والتقاليد على الزوج أن يجلب لعروسه بعضا من الحلي. فتلبس طاقما كاملا من الحلي يغطي كامل جسمها من رأسها إلى قدميها. هذا حسب مستواها الاجتماعي وتبعاً لعادات وتقاليد منطقتها وما يتناسب

مع لباسها. لأنّ الحلي وسيلة لإبراز المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها المرأة في مجتمعها إذ ترتفع أو تنخفض بقيمة ما ترتديه.

تسمى الحلي المتاع الذي خف حمله وغلى ثمنه. ومع هذه التسمية يرى أحد المهتمين بكتابة التراث الجزائري وهو جورج مارسيه أنّ الحلي سبائك متنقلة أكثر من ما هي جمالية فهي مدخرات صالحة للتبادل وتباع عند الحاجة¹³. أكيد أنّ الكل يوافق الرأي بدليل ما يقال «الحدايد للشدايد» و«الزينة خزينة». بمعنى أنّ هذه الثروة المكتنزة يستعان بثمنها عند الضرورة.

كما أنّ الحلي تعبر عن المستوى الاجتماعي مثاله أنّ المرأة الشاوية كانت ترتدي عقدا يتكون من سلاسل تنتهي بقطع نقدية فضية يقال أنها مهر وصادق المرأة.

عدا هذا فللحلي دور وقائي أيضا بحيث تستعمل للتداوي وعلاج الأمراض ويكون ذلك حسب المواد المستعملة فيها، فالحلي المرصعة بالمرجان أو العقيق تساهم في توقيف نزيف الدم¹⁴.

عادة ما يرتبط الرمز بشكل الحلي فمثلا النجمة الرباعية الأضلاع ترمز إلى مراحل الحياة: الولادة والنضج والشيخوخة والموت. كما ترمز إلى الاتجاهات الأربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب. أما الخماسية فترتدي كطلسم للحماية من الحسد والعين. مثلها مثل يد الخميس أو خامسة الخميس وهي مشبك مزين بيد من أصابع متفرقة تحمله المرأة الشاوية التي أنجبت ذكرا في مناسبة السُّبوع. ويوم الختان يلبسه الطفل الشاوي فيثبت في جلابته. وتشترط الأسطورة أن تصنع هذه الحلية يوم الخميس ولهذا تسمى كذلك. مثلها مثل الخمسة في الحلي الترقية التي ترتديها الترقية الحامل للحفاظ على جنينها وحمايته من السقوط¹⁵. والحال نفسه بالنسبة للقبائلية التي تهب لها حماها ادويرن عند إنجابها لذكر فتضع الكنة الأدوير على جبينها ليعلم الناس أنها أنجبت ذكرا، ويوم الختان يلبسه أيضا الطفل القبائلي فيثبت في جلابته.

وبالنسبة لشكلها تتعدد دلالاتها فشكل الثعبان الذي يتجسد في إحدى الحلي الرديف وهو عبارة عن حلقة رجل بشكل ثعبان وظيفته الحماية من الثعابين الحقيقية التي تعشش بجوانب الينابيع. وتحذير الرجال من قدوم النساء ليتركوا المكان كما تعرفه الأعراف وذلك بالصوت الذي تحدّثه عند سير النساء¹⁶.

كما اعتبرت الفتاة القبائلية رنين أساورها وخلاخيلها تبعد عنها الأرواح الشريرة عند خروجها من البيت إلى الحقول لممارسة نشاطها من جمع الحطب أو جلب الماء أو الحرث

خريفا والحصاد صيفا، كل هذه المعتقدات أعطت للحلي بعدا رمزيا يميزه ويجعله مفضلا في المجتمع القبائلي أو الريفي.

دون أن ننسى شكل المثلث المجسد في المشبك أو الإبزيم الذي ترتديه المرأة لتمسك به ملحفتها أو رداءها. فالمتزوجة من النساء القبائليات تحمل زوجا منه كعقد متصلين بسلسلة تحمل علبة مربعة في الوسط. وهذا الإبزيم ذو شكل مثلث عند اتحاد المثلثين معا يشكلان معين هذا الأخير يرمز إلى الخصوبة، المثلث يرمز إلى كل من المرأة والرجل أما المربع فيعني البيت الذي يجمعهما.

و تعتبر الحلي لسان المرأة الخفي ووسيلة اتصال مع مجتمعتها فمن العادات الشاوية إذا وضعت المرأة العصابة أو ما يعرف بالجبين أو المرفع على الرأس يعني أنها متزوجة، في حين إذا وضع على الصدر يعني أنها عزباء أو كما تعرف في المنطقة باسم ثاقيارت، فإذا راقت إحدى الفتيات لأحد شباب القرية يستدل بموضع الجبين¹⁷. كما تضع الفتيات العازبات في منطقة القبائل هذه الحلية عند توجّههن لجمع الزيتون من أجل خطبتهن بعد أن يُستدل عن موضع ثعصابت.

كما أن الزوجة لا تضع السخاب إلا في حضور زوجها لأن هذا الأخير يحل محل العطور، خاصة وأن المرأة تصنعه بنفسها.

الخاتمة :

كنتيجة ختامية يمكننا القول أن للحلي دور حضاري في بناء شخصية الإنسان، كما أنها وسيلة لدراسة الشخصية الاجتماعية والاقتصادية لأي مجتمع كان. فهي بمثابة المرأة العاكسة لمستواه الحضاري، وعليه فقيمة الحلية لا تكمن في إبراز جمال المرأة فحسب بل تتعدى ذلك إذ أنها ذات قيمة تاريخية واقتصادية واجتماعية، وتبقى في نظر المرأة كذلك دون أن تتخلّى عن وظيفتها ودلالاتها الرمزية.

كما أن الحلي تعكس الكثير من تصاميمها وتقنياتها التراثية. لأنها تمثل جانبا من تاريخ وتراث الدولة. فهي من المعتقدات الشعبية والاجتماعية السائدة. لذا يجب الاهتمام بهذا الجانب من التراث الوطني وإعادة إحيائه لأهميته الحضارية والإنسانية، ولما له من تأثير في إحياء الشخصية الجزائرية. ولاشك أنه سيكون له الدور الكبير في مجال إحياء الاقتصاد الوطني عن طريق التشغيل في مجال حرفة الصياغة والصناعات التقليدية.

- 1- Eudel P ;L'orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger,1902.P391.
- 2- Thierry E.; «argent» in Grand Encyclopédie, T3,D.S;P338
- 3- Eudel P.; Op.Cit ;392
- 4- Dhebia A. M, Art artisanat traditionnel et folklore de Kabylie, édition Mehdi, Algérie, 2008, pp 63-64.
- 5 - نجلة عزي، اللؤلؤ والأحجار الكريمة، الكتاب الثالث، قطر، ص 94.
- 6 - نفسه، ص 83
- 7- Camps F.H.,Les bijoux de la grande KabylieAlger ,1970,p 22
- 8- Eudel. P ;Op.Cit ; P. 389
- 9- About R.,Artisanat traditionnel D'AlgérieEdition SH far,2009,p56
- 10- Ghilian M., Les bijoux en Algérie, 1970,p.40.
- 11- Camps F.H., Op.Cit ,1970,p. 80
- 12 - سعد الخادم، الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 83
- 13- Marçais G.,Les bijoux musulmans de l'Afrique du nordconférence visite au musée de Stéphane Gsellimprimerie officielle,1958.p14
- 14 - نجلة عزي، المرجع السابق، ص 86
- 15- Tamzali W.,AbzimeParures et bijoux des femmes algériennesEdition alpha Alger,2007,P12
- 16 - زينب مبارك الميلي، عرائس من بلادي، الجزائر، 2007، ص 36
- 17 - نفسه، ص 40
- 16- Tatiana Benfoughal, bijoux et bijoutière de l'Aurès, édition CNRS, 1997.

المرفق العام وإشكالية إصلاح الخدمة العمومية في الجزائر

١. شرفي بن يوسف

طالب دكتوراه الحقوق بن عكنون (سعيد حمدين)

ملخص :

لا يوجد أي مؤشر في ظل الإصلاحات الجديدة للمرفق العام يفيد بتصور قانوني له، مما يطرح تساؤلا عن ماهية المرفق العام في الجزائر لدى صانعي القرار بعيدا عن أبعاده الاجتماعية كوسيلة لإشباع الحاجيات العمومية. المدلول السياسي للمرفق العام يحتل مكانا مرموقا، بفضل ارتباطه بالهدف الاجتماعي الذي يسعى لتحقيقه والذي يعتبر التصور الأقرب لمفهوم المرفق العام في الجزائر، سواء بالنسبة لرجال السياسة أو بالنسبة للمرتفقين، وهو تصور يذكر بالمرفق العمومي وفق التصور السائد في المرحلة الاشتراكية. على الصعيد المؤسسي فإن محاولة تقييم الإصلاحات التي جاءت خاصة بعد سنة 2013 تبين وجود تصور هش لمضمون هذا الإصلاح، حيث لازال هذا الأخير يحتاج إلى تخطيط على المدى الطويل، على أن تحتل الرقابة والتقييم معيارا حاسما وذا أولوية في السياسات العمومية. ليس هناك إصلاح للمرفق العام بل هناك نوع من التكتيك الإداري المحدد والدقيق.

الكلمات المفتاحية :

المدلول السياسي، تكتيك إداري، إصلاح مؤسسي.

إن التحولات الجديدة التي فرضها النظام المتبع بعد 1989 خاصة التي مست الجوانب السياسية والاقتصادية انعكس بالضرورة على الدولة ومؤسساتها، وكذا علاقاتها بالمواطن.

وباعتبار المرفق العام الوسيلة التي تستمد منها سلطة الحكام قوتها ومدلولها ومشروعيتها في ظل تزايد حاجيات المواطنين، وكذا ضرورة تلبيتها بكل فعالية ونوعية فقد شكلت مسألة إصلاحه أولوية بالنسبة للسلطات العمومية.

هذه الإصلاحات التي عرفتها حكومات عديدة وفي مراحل مختلفة تجسدت بشكل أكثر وضوحاً سنة 2013، خاصة بإنشاء وزارة متدبة مكلفة بإصلاح الخدمة العمومية، ورغم إلغائها في ظرف ستة أشهر (6) فإن موضوع الإصلاح لم يفقد أهميته فيما بعد، سواء ضمن اهتمامات السلطات العمومية أو كمجال للبحث العلمي، ويظهر ذلك جلياً خاصة من خلال التحول نحو المبادرات القطاعية وكذا إنشاء المرصد الوطني لإصلاح الخدمة العمومية في 2016 بموجب المرسوم الرئاسي 16 / 03 المؤرخ في 7 يناير 2016⁽¹⁾.

وبغض النظر عن محتوى هذه الإصلاحات، فإنه يحق للباحث أن يطرح تساؤلات عن المحتوى القانوني والدلالات السياسية لهذه الإصلاحات مقارنة بالتصورات التي تبنى عليها نظرية المرفق العام في فرنسا، مع محاولة تقييم هذه الإصلاحات في جانبها المؤسسي.

يقسم الباحث إشكاليته إلى محورين: يحاول أولاً إثارة حصر المحتوى القانوني السياسي لهذه الإصلاحات، أما في المحور الثاني فيبين إن كان هناك حقاً تصورات جديدة للإصلاح؟

وللإجابة على هذه الإشكالية يتبع الباحث الخطة التالية:

المبحث الأول: إصلاح الخدمة العمومية بين التصور القانوني والدلالات السياسية.

المطلب الأول: تجاهل المفهوم القانوني ضمن إصلاح المرفق العام.

المطلب الثاني: هيمنة المدلول السياسي للإصلاح.

المبحث الثاني: تكتيك إداري أكثر منه إصلاح مؤسسي.

المطلب الأول: محدودية مضامين الإصلاح.

المطلب الثاني: غياب إستراتيجية واضحة لإصلاح الخدمة العمومية.

المبحث الأول: إصلاح الخدمة العمومية بين التصور القانوني والأهداف السياسية:

يعكس المرفق العام التصورات الفلسفية السائدة في فترة ما وفي بلد ما، فهو يتغير بتغير الزمان والمكان، وكما هو الشأن في النظام القانوني الفرنسي يعبر المرفق العام على ثلاث مفاهيم أساسية هي: المفهوم المؤسسي، المفهوم الإيديولوجي، والمفهوم القانوني في آن واحد⁽²⁾.

وإذا كانت كل نشاطات المرفق العام في فرنسا تخضع لهذه المبادئ الأساسية، فإنه يحق لنا أن نتساءل عن مدى التزام المرفق العام الجزائري بهذه المفاهيم، وبعبارة أدق تحديد مدى التزام الإصلاحات التي شرع فيها مع بداية سنة 2013 بالتصورات المذكورة في ظل التحولات الجديدة، والتي كانت بدايتها بإنشاء وزارة منتدبة لدى الوزارة الأولى مكلفة بإصلاح الخدمة العمومية بموجب المرسوم التنفيذي 13-382 مؤرخ في 2013/11/19، يحدد تنظيم الإدارة المركزية لهذه الأخيرة.

بأي حال من الأحوال فإنه يحق للباحث أن يتساءل عن سبب وطبيعة إنشاء هذا النوع من الوزارات، على أن يأخذ بعين الاعتبار القانون الوضعي لكي يجعل منه موضوع دراسات.

وتعطي خصوصيات المرفق العام بكونه مرتبط بفكرة المصلحة العامة من جهة كميّار قانوني، وفكرة الصّالح العام في جميع المراحل التي عرفها أهمية بالغة للإصلاح، بحيث أصبح يجمع بين الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من ناحية والتي تدخل ضمن النشاط العام، وبين المفهوم القانوني من ناحية أخرى، فهو على هذا الأساس وظيفة أولا وإنجاز مهمة ثانيا.

المطلب الأول: تجاهل المفهوم القانوني ضمن إصلاح المرفق العام:

بالعودة إلى إصلاحات بداية 2013 سواء فيما يتعلق بالتعديل الحكومي⁽³⁾ الذي انبثق عنه إنشاء وزارة مكلفة بالمرفق العام وما تبعه من صدور نصوص تنظيمية⁽⁴⁾، أو فيما يتعلق بالتدابير المتخذة والتي جسدتها صدور تعليمتين للوزير الأول: تعليمة أولى مؤرخة في 22 سبتمبر 2013، وتعليمة ثانية صادرة بتاريخ 20 أكتوبر 2013، متعلقتين بإصلاح الخدمة العمومية، فإن التساؤل يطرح بشأن القيمة القانونية والإيديولوجية والمؤسسية لهذه النصوص بمعيّار المفهوم الذي يأخذه في المرفق العام الفرنسي.

الإجابة على هذا التساؤل تقتضي محاولة فهم فلسفة الوظيفة الإدارية من الناحية الفكرية.

على المستوى القانوني، فإنه بذكر إصلاح المرفق العام (الخدمة العمومية) عوض إصلاحات المرافق العامة، بمعنى الجمع عند تشكيل حكومة عبد المالك سلال، هل كان رئيس الجمهورية يقصد المفهوم القانوني وليس إصلاح الإدارات العمومية؟

إن الكلام القانوني، المصطلح القانوني ليس بمحايد، فهو يحكم تفكير الباحث رجل القانون وحتى القارئ البسيط.

على أية حال، هذا يذكرنا بإنشاء وزارة المساهمة في 26 / 12 / 1999⁽⁵⁾، وليس وزارة مساهمات الدولة، في المفرد يقصد بالمساهمة إشراك العمال في النتائج وفي فوائد المؤسسة، أما في الجمع فيتعلق الأمر بصناديق الدولة، بأسهم حصص الشركاء التي تملكها السلطة العامة في الشركة.

بتدارك الأمر على أنه بدون شك أن العبارة المستعملة في غير محلها، على أن إصلاح المرافق العامة ما هو إلا مظهر من مظاهر إصلاح الدولة.

تبين النصوص الجديدة على تبني تصور يقوم على الجوانب المادية للمرفق العام في مقابل إهمال الجانب القانوني له، إنه يميل إلى اعتباره كأسلوب لعمل الإدارة وربما هذا يفسر بآثار التوجه نحو الفكر الاشتراكي في مرحلة من المراحل.

يتميز المرفق العام بالمعنى المادي للكلمة كما يتجلى بوضوح في النصوص القانونية المذكورة أنفا بتساوي المرتفقين في التمتع بالخدمات التي توفرها لهم، وكذا باستمرارية مهمته.

إن هذا الكلام بدون شك يذكرنا بمحاولة تعريف المرفق العام سنة 1990 عند إعداد كل من قانوني البلدية والولاية، حيث أجمع محررو هذين النصين على أنه «يعد مرفقا عاما بلديا أو ولائيا كل نشاط يرمي إلى تلبية حاجيات كل أفراد المجموعة (البلدية أو الولاية)، بصفة مباشرة متواصلة ودائمة وبطريقة متساوية فيما يرجع للأعباء والتمتع والاستفادة⁽⁶⁾»، ووعيا منهم بالحدود الموضوعية لمقاربتهم للمرفق العام استرسل المحررون مضيفين، «إن المرفق العام غاية و مجموعة من الوسائل تستعملها البلدية أو الولاية، قصد تلبية حاجيات المواطنين الجماعية».

ولتفادي هذا التوجه المادي لمفهوم المرفق العام غير محررو القانون صيغتهم الأولى بإدخال عنصر حيوي بالنسبة لمفهوم المرفق العام، «المرفق العام هدف وغاية وهو يتوفر

على مجموعة من الوسائل البشرية، المالية والقانونية تمكنه من تحقيق الأهداف المحددة له»، والعودة إلى الاستقامة القانونية هي اعتراف بأن امتيازات السلطة العامة لا يمكن أن تنفصل عن المرفق العام⁽⁷⁾.

وبغض النظر عن كون المرفق العام بمعناه المادي ليس له محتوى قانوني فإن هذه العبارة الأخيرة تعتبر نسبية بالنسبة للمرفق العام الجزائري، فهو صحيح من جهة يميل إلى الجانب المادي ولكنه من جهة أخرى يراعي الجانب المؤسساتي.

وباعتباره كخيار من خيارات إصلاح الدولة، فإن هذا الترابط كان قد جسده بوضوح المرسوم الرئاسي 2000-372(8)، المؤرخ في 22/11/2000 والمتعلق بلجنة إصلاح هيكل الدولة ومهامها حيث أكد هذا المرسوم بوضوح بموجب المادة الثانية منه على أهم الصلاحيات المخولة للجنة والتي يمكن تلخيصها في دراسة مهام الإدارات المركزية للدولة ويسرها وكذا آليات التنسيق والتشاور والمراقبة، وكذا دراسة المؤسسات العمومية والهيئات التي تنهض بالخدمة العمومية ومهامها وقوانينها وترابطاتها بالإدارات العمومية المركزية والمصالح المتفرعة عنها، بالإضافة إلى نقطة مهمة تتعلق بدراسة الآثار القانونية والمؤسسية للإصلاحات التي تقترحها وتحديد عناصرها السياسية والتقنية.

إن هذا النص يشكل دليل قاطع على وجود إرتباط تقني بين إصلاح الدولة وإصلاح مرافقها، وهذه النقطة تسجل حتى قبل 2013، حيث أنه رغم تغير الأنظمة السياسية فإنه حافظ على هذا الجانب سواء بالنسبة لتصوره أو بالنسبة لطريقة معالجته نقائمه.

بالرجوع إلى التعليم رقم 298، المتعلقة بإصلاح الخدمة العمومية ومما ورد فيها أن «استحداث دائرة وزارية مكلفة بإصلاح الخدمة العمومية، ووضعها لدى الوزير الأول هو دليل على إرادة الحكومة لتكريس إصلاح حقيقي للخدمة العمومية، التي ينبغي السمو بها إلى مستوى أنسب بما يسمح بالاستجابة اللائقة لتطلعات المواطنين وانشغالهم».

إن الإصلاح الذي تعرضه السلطات العمومية لا يعكس بتاتا التغيرات التي عرفت الجزائر سواء على الصعيد الإيديولوجي أو على الصعيد الاقتصادي بتبني نظام ليبرالي يعتبر بالأساس هو الخيار المفضل لها لتجسيد نظرية المرفق العام.

إن أقصى ما يمكن أن يقال عن هذا الإصلاح أن هناك نوع من التوازن الهش، والمرتب بتطور المجتمع والطلب الاجتماعي، حيث أن سلطة الدولة وقوتها ومشروعيتها مبنية على ضرورة تلبية حاجيات المرتفقين الجماعية، وربما تعتبر العبارة الواردة في التعليم المذكورة أصدق دليل على ذلك «تخضير الهيئات والمؤسسات العمومية والأجهزة المكلفة بالخدمة

العمومية الخاضعة لوصايتهم من أجل الانصهار في ديناميكية الإصلاح هذه التي لطالما انتظرها المواطنون، والتي تركز عليها مصداقية الدولة أكثر من أي عمل آخر».

إن كان في هذا النص السالف الذكر تأكيد على أن إصلاح المرافق العامة هو من إصلاح الدولة، فإنه من جانب آخر يحمل في جوانبه تأكيد على المدلول السياسي للمرفق العام في مقابل تجاهل المدلول القانوني له، وهو بذلك يكون بعيدا عن المفهوم القانوني للمرفق العام الفرنسي، إنه بحسب تصريح الوزير الأول الفرنسي «ألان جوبيه» في تعليق له على رفض المرفق العام بمفهوم المجموعة الأوروبية «لقد كان لبروكسل هدف واحد هو القضاء على المرافق العمومية لإدخال النظام الخاص والمنافسة في جميع الميادين وكذلك هدم حضارة كانت بالأمس لصيقة بالمرفق العام»⁽⁹⁾.

ورغم الأخذ بالمييار العضوي كأساس للنزاع الإداري وفق المادة 800 من قانون الإجراءات المدنية والإدارية⁽¹⁰⁾، وما يعكسه من عدم مسايرة تطور المجتمع والقانون⁽¹¹⁾، وكذا الدسترة القوية للقضاء الإداري تنظيما وإختصاصا في الدستور الحالي⁽¹²⁾، والديناميكية القانونية والتحويلات السياسية والاجتماعية والإقتصادية التي يعرفها المجتمع⁽¹³⁾، فإنه لا يوجد ما يوحى بمراعاة هذه الجوانب في تصريحات المسؤولين مما يؤكد على هيمنة المدلول والغرض السياسي للمرفق العمومي في الجزائر وجعله كوسيلة لتبرير المشروعية وإشباع الحاجيات العمومية بعيدا عن التصور العميق للمنظور الحقيقي لنظرية المرفق العام.

وتظهر نقطة لا تقل أهمية تتعلق بالعبارات المستعملة في النصوص القانونية، حيث نجد المشرع الجزائري تارة يستعمل مصطلح المرفق العام وتارة مصطلح الخدمة العمومية وفي حالات أخرى مصطلح الإدارة العمومية، مما يطرح على التساؤل حول مدى مناسبة هذا الإستعمال خاصة عندما يتعلق الأمر بمفهوم المرفق العام الذي يرادف مفهوم الإدارة العمومية، وإرتباط تفسير وتحليل الكثير من المبادئ بمضمون المفهومين⁽¹⁴⁾.

المطلب الثاني: هيمنة المدلول السياسي على الإصلاح:

إن إنشاء مرفق عام ينتج دائما بالضرورة عن قرار من السلطات العمومية، وبالتالي تكون أهدافه وأبعاده المصلحة العامة التي هي مفهوم ذات طابع سياسي مميز، يتغير والإيديولوجية السائدة لذا يبقى المرفق العام خاضعا في نسبة معينة لهذه السلطات، هو

بحسب تعبير الفقيه (ROLLOND) «تحت القيادة السامية للحكام»، مما يسمح لهم النظر في سيره الحسن، بعبارة أخرى نجد وراء إنشاء كل مرفق عام نية سياسية⁽¹⁵⁾.

في الجزائر يؤخذ هذا الكلام بنوع من التحفظ، فيإلغاء الوزارة المنتدبة المكلفة بإصلاح الخدمة العمومية بموجب المرسوم الرئاسي 14 / 154 المتضمن تعيين أعضاء الحكومة بمناسبة تعديل حكومة سلال ستة (6) أشهر بعد ذلك⁽¹⁶⁾.

يبين هذا النوع من السلوك على أن إحداث هذه الوزارة ليس نتيجة تمعن وتفكير ملائم، إنه أحسن مثال لعمل سياسي وقانوني هش فرضته بالأساس الانتخابات الرئاسية لسنة 2014، إن هذا الإشكال طرح حتى على مستوى البرلمان عند مناقشة مخطط عمل الحكومة في مايو 2014.

المستجد الثاني للمدلول السياسي لإصلاح الخدمة العمومية، باعتبار أن المرفق العام كخيار من خيارات إصلاح الدولة فإن اللبس أو الخطأ يكمن هنا، حيث أن إصلاح الدولة مضبوط ومحدد فهو دائم، لماذا؟ لأن نجاعة وحسن سير المرافق العامة، الإدارة العمومية يضبطون ويتحكمون في نجاعة الاقتصاد التي تواجه منافسة عالمية حادة وشديدة.

من الناحية النظرية نجد هذا الرأي يتفق مع التصور السياسي للمرفق العام للفقيه (DEUGUIT) والذي جعل من المرفق العام الفكرة المحورية للنظرية العامة للدولة، وفي تفسير هذه النظرية الدولة هي عبارة عن تعاون مرافق عامة قائم على أفكار التضامنية، العدالة التوزيعية والتبادلية وكذا النقاية، أما فيما يخص النشاطات التي تشكل مرفقا عاما فيجب «دوجي» «أنه لا يمكن أن نجد جوابا ثابتا لهذا السؤال لأننا أمام شيء جد متغير وقابل للتطور بالدرجة الأولى»⁽¹⁷⁾.

وبالرجوع إلى الوراء قليلا أي إلا مرحلة ما قبل 1989 فإن الالتزام السياسي للمرفق العام كان اتجاه الاشتراكية، حيث أن الدولة والمرافق العامة هي في خدمة فكرة مشروع مجتمع، وتكافح من أجل تجسيدها وهو على هذا الأساس يقوم على فكرة القيادة والسلطة العمومية قصد تحقيق هدفه وهو بناء الاشتراكية⁽¹⁸⁾، وهذه الفكرة الأخيرة تناقض نظرية «دوجي» باعتبارها ترفض مبادئ السيادة والسلطة العامة⁽¹⁹⁾.

لقد شكل إصلاح الإدارة العمومية في ظل المرحلة الانتقالية كأحد الأهداف السياسية التي ينبغي مباشرتها، حيث مما ورد في الميثاق «تتمثل الأهداف السياسية التي ينبغي الوصول إليها على هذا الصعيد في:

* تدعيم الهياكل وإعادة الاعتبار لوظيفة الدولة بعمل في العمق يضم إصلاح الإدارة الذي يمكن من:

- ضمان القيام الفعلي بالوظائف المستمرة للدولة.
- الوصول إلى الاحترام، وفي كل الظروف لحياة الإدارة.
- إضفاء الطابع الأخلاقي على الحياة العمومية وتعزيز وظائف الدولة⁽²⁰⁾.

أما المستجد السياسي الثالث للمرفق العام فيتعلق بالبيروقراطية، فبينما يقر قرار محكمة التنازع الفرنسية بتاريخ 22 / 01 / 1921، قرار (Bac D Eloka)، على أن نظرية المرفق العام لا تركز على أي أساس أو تفسير سوسيولوجي فإننا نجد بالنسبة للجزائر عكس ذلك، حيث يشير منشور وزارة الداخلية الصادر بتاريخ 14 / 11 / 2012 والمتعلق بتحسين العلاقة بين الإدارة والمواطن وإعادة تأهيل المرافق العمومية الإدارية بتعبير رقي على أن « المسألة ليست مسألة نقاش حول القضاء على البيروقراطية، بل هي مسألة تهديد لدولة القانون وتحدي للسلطة العمومية والتي يجب استعادتها وفرضها في كل أبعادها الحقيقية من أجل التمكن من مواجهة هذا التهديد بكل حزم ومثابرة» ويضيف « إن منهجية العمل التي ستوجه هذه المبادرة ما هي في الحقيقة إلا إعادة تأهيل المرافق العمومية الإدارية واستعادتها لمهامها في إطار منظور الحداثة وفي سياق النوعية».

وسيدّهب مخطط عمل الحكومة (مايو 2014) إلى التأكيد على نفس الاتجاه في النقطة المتعلقة بتوطيد أركان دولة القانون وتعزيز الاستقرار وترقية الحوار الوطني وبالضبط في مسألة «ترقية خدمة عمومية ناجعة»، حيث أكد المخطط على أنه يتمثل هدف الحكومة في مواصلة عملية تأهيل الخدمة العمومية وتجديدها وضمان تكييفها المتواصل مع محيطها ومع تطور حاجيات المرتفقين وتطلعاتهم، الأمر الذي يسمح باستعادة الثقة وتعزيزها بين المواطن والإدارة وبالتالي استعادة مصداقية الدولة وهبتها وفي هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى أن التدابير التي سيتم اتخاذها ستفضي إلى ما يجعل عمل السلطات العمومية متطابقا مع متطلبات دولة يسودها القانون من أجل القضاء على أشكال التعسف والتجاوزات التي تعد مصدرا للفساد وتغذي الشعور بالإقصاء والإجحاف والتهميش⁽²¹⁾».

وما يمكن قوله ختاماً هنا أن المحيط السياسي الذي تعيشه البلاد حالياً أثر بشكل سلبي على تصور إصلاح حقيقي للخدمة العمومية يراعي التصور القانوني والسياسي للمرفق العام، وإذا كان هذا هو الحاصل بالنسبة لهذين المفهومين فما هو الأمر بالنسبة للتصور المؤسساتي لإصلاح المرفق العام؟

المبحث الثاني: تكتيك إداري أكثر منه إصلاح مؤسساتي:

التمعن في مضامين الإصلاحات سواء قبل 2013 أو بعدها يوحى لنا بأنه ليس هناك مخطط واضح لإصلاح الخدمة العمومية على المدى الطويل، إنه في أحسن الأحوال نوع من التكتيك الإداري المحدد والدقيق، لا يرقى لأن يكون نموذج لمشروع إصلاح المرفق العام، سواء فيما يتعلق بضعف مضامينه أو بغياب إستراتيجية واضحة له.

المطلب الأول: محدودية مضامين الإصلاح:

تحت عنوان «التحسين الدائم لنوعية الخدمات العمومية» وهو العنوان الأصلح من مصطلح «إصلاح الخدمة العمومية»، أشار المرسوم 131/88 المنظم لعلاقة الإدارة بالمواطن إلى العناصر التي يركز عليها تحسين خدمات المرفق العمومي⁽²²⁾.

إن النقطة الجوهرية التي تسجل هنا هو تشابه مضامين التعليمات المتعلقة بإصلاح الخدمة العمومية مع مضمون المرسوم 131/88 من جهة وضعف محتوى هذه الإصلاحات من جهة ثانية.

وسواء بالنسبة للمنشور الصادر سنة 2012 والمتعلق بتحسين العلاقة بين الإدارة والمواطن وإعادة تأهيل المرافق العمومية المحلية أو بالنسبة للتعليمات الصادرة سنة 2013، وكذلك المرسوم 131/88، فإننا نجد نفس عناصر الإصلاح تتكرر، ابتداء من 1988 ومرورا بمقترحات إصلاح الإدارة العمومية التي تضمنتها أرضية الوفاق الوطني، ووصولاً لسنة 2013، وهي بالمجمل تتمحور على أربع (4) عناصر وهي:

- تحسين استقبال المواطنين.
- تبسيط الإجراءات الإدارية.
- التكفل بشكاوى المواطنين.
- تحسين الإدارة الإلكترونية.

والسؤال الذي يطرح هنا هو هل يمكن أن يتصور إصلاح حقيقي للمرفق العام بالاقتصار على العناصر المذكورة فقط.

ما من شك أن إصلاح الإدارة العمومية يحتاج إلى تصور أعمق من هذا، إن النقاش يتعدى هذا الحد، ذلك أن نجاح أي إصلاح يبقى مرهوناً بتكاتف جميع الأطراف، بحيث يلعب فيها المرتفق بصفته مواطناً بالدرجة الأولى دوراً جوهرياً في عملية الإصلاح وبالخصوص إشراكه فيما يخص السياسات العمومية التي تعد وتنفذ في هذا الإطار.

على أنه يعتبر بمثابة «ميثاق التزام الإدارة العمومية» كما يصفه البعض⁽²³⁾، فقد شكل المرسوم 131/88 الذي يحمل في طياته طابع نص تشريعي وليس نص تنظيمي محور نقاش حول مكانته، وهل كنا فعلاً بحاجة إلى صدور التعليمات المذكورة سابقاً من حيث مضمونها، خاصة أن هذا الأخير أي المرسوم يحمل قوة معيارية في مواجهتها من جهة، ومن جهة أخرى غموض مصير هذا النص التشريعي الذي لم يتم إلغاؤه رغم تجاهل أحكامه عن عمد من طرف الإدارات العمومية.

أما فيما يخص الآليات المكرسة لتحسين الخدمة العمومية والتي تتمثل في الوزارة المنتدبة، والتي أنشأت بموجب المرسوم التنفيذي رقم 382/13، فيلاحظ أن الاختصاصات التي منحت لهذه الوزارة هي اختصاصات محدودة جداً، لخصتها المادة العاشرة (10) من المرسوم المذكور والتي تتمثل في تصور واقتراح القواعد العامة المتعلقة بتنظيم الخدمة العمومية وسيرها بالتشاور مع الوزارات المعنية لتكييفها مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية وكذا تلبية حاجيات مستعملي المرفق العام، بالإضافة إلى العمل على تحديث الخدمة العمومية وعصرنتها وترقية أخلاقيات المرفق العام والعلاقات مع المستعملين.

فالملاحظ على أن هذه الصلاحيات الممنوحة لهذه الآلية هي اختصاصات عامة مع افتقادها للوسائل التي بواسطتها تباشر مهامها.

لا تختلف الانتقادات الموجهة لصلاحيات الوزارة عن مهام الوزير المنتدب والذي حدد المرسوم التنفيذي 381/13 أهم اختصاصاته وهي تقتصر على مجرد اقتراح عناصر السياسة الوطنية في ميادين إصلاح الخدمة العمومية والإدارة بالتشاور مع الدوائر الوزارية المعنية.

ستدهور مكانة المرفق العام ضمن منظور الإصلاح أكثر فأكثر والذي يعبر عن غياب مخطط إستراتيجي للإصلاح من خلال أحكام المرسومين التنفيذي 193/14 والمتعلق بصلاحيات المدير العام للوظيفة العمومية، وكذا المرسوم 194/14 يتضمن تنظيم المديرية العامة للوظيفة العمومية والإصلاح الإداري⁽²⁴⁾.

وفي آخر تطور لإصلاح المرفق العام كان سنة 2016 باستحداث المرصد الوطني للمرفق العام بموجب المرسوم الرئاسي رقم 03/16، وهذا يدل على أن موضوع الإصلاح مازال يحظى بمكانة لدى السلطات العمومية، غير أن هذه الآلية المستحدثة تبقى دون المستوى المطلوب بالنظر للطابع الاستشاري المحض لها بحسب المادة الثانية

من المرسوم المذكور وكذا ضعف صلاحياته في الميدان والتي حددتها المواد من 3 إلى 7⁽²⁵⁾ يضاف إلى هذه المعالجة غير المشجعة، هناك إغفال لمحاوّر رئيسية للإصلاح، ففي الوقت الذي راعت فيه الكثير من الدول المتقدمة مسألة تقريب الخدمة من المواطن بهدف تنشيط الحياة الإدارية نجد هذه النقطة غائبة بالنسبة لمسار الإصلاح في الجزائر⁽²⁶⁾.

في فرنسا وابتداء من 1995 أنشئ ما يعرف بـ «مجمعات المرافق العمومية» والتي حدد القانون الموافق لـ 12 أبريل 2000 شروط إنشائها بموجب المادة 27 والمادة 29، من خلال تجميع بعض الإدارات التابعة للدولة أو مؤسساتها العامة أو سلطاتها المحلية والمؤسسات التابعة لها وإدارات الضمان الاجتماعي بمكان واحد لتسهيل تقديم الخدمة وتوفير الجهود والنفقات وبالتالي تسهيل وصول المواطنين إلى إدارات الدولة⁽²⁷⁾.

في مقابل هذا لا تبدو الإدارة الإلكترونية كعلاج سحري في بلد يسوده التخلف، حيث الأمية مازالت معتبرة وكذلك الإعلام الآلي لم يبلغ بعد الحد المطلوب واللازم، يبدو لنا أنها مبادرة بدون غد ومستقبل واضح.

صحيح أن كلا من القانونين 03 / 15 و 04 / 15 المؤرخين في أول (1) فبراير 2015⁽²⁸⁾، يتعلق الأول بعصرنة العدالة، في حين يحدد الثاني القواعد المتعلقة بالتوقيع والتصديق الإلكترونيين يعتبران تحولاً جديداً نحو استغلال التكنولوجيا في المرفق العام، لما له من أهمية في تحقيق السرعة والفعالية، خاصة بالنسبة للنص الأول والذي استحدث منظومة معلوماتية مركزية، بالإضافة إلى ضمان إرسال الوثائق والإجراءات بالطريق الإلكتروني، وهذا يضاف إلى التعديل الذي طرأ على قانون الحالة المدنية والذي جاء بما يعرف بالسجل الوطني الآلي للحالة المدنية⁽²⁹⁾.

فهذه النصوص من حيث المضمون جاءت لوضع إطار قانوني للتكفل بالمتطلبات القانونية والتنظيمية والتقنية والتي ستسمح بإحداث جو من الثقة المتواترة لتعميم وتطوير المبادلات الإلكترونية، وترسيخ المبادئ العامة المتعلقة بنشاط التوقيع والتصديق الإلكترونيين، وهذا سيسمح بدون شك بتقريب الخدمات العمومية من المواطن، وبضمان السرعة والفعالية في أدائها، لكن ونظراً للأسباب المذكورة سابقاً فإن هذه الفعالية تبقى نسبية نوعاً ما.

وعليه وأخذاً في الحسبان النقائص المذكورة فيما يتعلق بأسلوب الإدارة الإلكترونية، فإنه يمكن لهذه الأخيرة أن تعتبر نقطة انطلاق جوهريّة نحو مسار إصلاحية متميز عما سبق، بحيث ستساهم بشكل كبير في تحسين صورة المرفق العمومي.

ونسجل نقطة أخرى ذات أهمية بالغة وهي تتعلق بغياب المفهوم الأخلاقي للمرفق العام، حيث أنه واعتباراً بأن القوانين مهما بلغ سموها فإنها لن تبلغ غايتها في إحقاق الحق وإقامة العدل⁽³⁰⁾، إلا إذا إرتبط ذلك بقيم ومبادئ يكون فيها الضمير عاملاً حاسماً عند أداء الوظيفة العمومية المنوط بها.

لقد أكدت المادة الأولى من القانون 06 / 01 المتعلق بالوقاية من الفساد ومكافحته على الأهداف السامية التي يسعى لتحقيقها هذا القانون، حيث أكدت أنه يهدف إلى دعم التدابير الرامية للوقاية من الفساد وكذا مكافحته، وتعزيز النزاهة والشفافية في تسيير القطاعين العام والخاص⁽³¹⁾.

إن للجانب السلوكي دور فعال في تقويض الكثير من مظاهر الفساد الإداري والانحرافات السلوكية المشينة، ذلك أن إشاعة الشفافية على أوسع نطاق تسهم في تدعيم ترسيخ قيم ومبادئ سير المرفق العام⁽³²⁾.

المطلب الثاني: غياب إستراتيجية واضحة لإصلاح الخدمة العمومية:

إن الملاحظات المسجلة على الإصلاحات الجديدة تشير إلى أنها من حيث المضمون ما هو إلا استنساخ لإصلاحات قديمة أعيد إحياؤها من جديد، وبالتالي فيبقى الشكل الجوهرى لهذه الإصلاحات ما هو إلا إعادة لمضامين إصلاحات كانت قد تبتتها عدة حكومات سابقة.

إنها مجرد محاولات تفتقد إلى نسق أو إستراتيجية تسيير عليها، بحيث تكون النتائج المتوصل إليها على المدى الطويل أي إصلاحات تتميز بطابعها المستمر وليس مجرد إصلاحات ظرفية تكون بمناسبات محددة.

إن إصلاح المرفق العام ونظراً لارتباطاته العميقة بإصلاح الدولة وكأحد أهم خياراتها، يبقى يحتاج إلى إرادة سياسية لإصلاحه بالدرجة الأولى وهو العنصر المفتقد حالياً، بحيث ترتب عن إلغاء الوزارة لدى الوزير الأول المكلفة بإصلاح الخدمة العمومية التي كانت تلعب دوراً مهماً في الإصلاح تراجع ضمن العمل الحكومي.

لا يبدو أن التحول للمبادرات القطاعية لعملية الإصلاح الذي قامت به بعض الوزارات ممثلة خاصة في وزارة العدل ووزارة الداخلية كإحدى الخيارات التي يمكن

المراهنة عليها، إنها مجرد مساهمات بسيطة لم ترقى إلى الشكل المطلوب، وهو ما جعل أغلبها يفقد للنجاعة والفعالية وربما الوضعية الحالية للمرفق العمومي هي أصدق دليل على فشل هذه الإصلاحات.

إن الواقع الحالي للمرفق العمومي يؤكد أنه لا شيء مما تغير يفيد التوجه نحو مرحلة جديدة من الإصلاحات الجديدة في تقديم الخدمة العمومية، إنها في الحقيقة نتاج لتراكم إصلاحات حكومية عديدة، تتميز بكونها تفتقد للجرأة أحيانا وللفاعلية أحيانا أخرى، بالإضافة لافتقادهما لرؤية واضحة لطبيعة المشكلات التي يمر بها المرفق العام.

وبدل أن تكون الإصلاحات التي شرع فيها سنة 2013 امتدادا للإصلاحات السابقة فإننا نجد العكس، فنفس الإصلاحات نجدها في برنامج الإصلاح الذي قاده «مقداد سيفي» بين جانفي 1994 وديسمبر 1995 عند تولي «اليمين زروال» رئاسة البلاد والتي جاءت بها أرضية الوفاق الوطني كما قلنا سابقا.

يفيد هذا التحليل أنه لم تكن هناك مستجدات مميزة فيما يخص الإصلاح، إنه مجرد تحول من مرحلة تاريخية كانت تسمى بمرحلة الإصلاح الإداري إلى مرحلة جديدة تحت تسمية إصلاح الخدمة العمومية.

يمكننا بموجب مقارنة بسيطة بين التعليقات المتعلقة بإصلاح الخدمة العمومية و بين أحكام المرسوم 131/88، أن أحكام هذا الأخير أكثر استيعابا من الناحية المنطقية للتوجه الحقيقي نحو إصلاح المرفق العمومي، بالنظر لمضمونها من جهة والظروف التي جاءت فيها من جهة أخرى.

الطابع التجزيئي أو المجزأ هو إحدى عيوب الإصلاحات الجديدة، باعتبارها إصلاحات ظرفية خاصة مع التحول نحو المبادرات القطاعية، والذي نتج عنه التركيز على الإصلاحات كوسيلة وليس كهدف.

هذه الخاصية تظهر في كونها تركز على نقاط محددة دون أن تكون إصلاحات شاملة ومعقدة، وتعود هذه المقاربة في الواقع إلى منهج التقسيط المعتمد في تنزيل الإصلاحات، وهو منهج يعكس في الواقع غياب الجرأة السياسية في طرح الإصلاحات الضرورية وتحمل تبعاتها⁽³³⁾.

كان من الممكن تجاوز سلبيات هذا الإصلاح لو أنها انخرطت ضمن الاستراتيجية والتراكم، وبنيت على مشاريع كانت مطروحة، لكن جاءت منذ البداية لتكرر إصلاحات سابقة، مما أثر حتى على مقصد تحديث الإدارة العمومية وحكم عليه بالفشل.

الخاتمة :

على الصعيد السياسي والقانوني، رغم فقدانه لنظامه القانوني المميز وفق نظرية المرفق العام الفرنسي في أوج مرحلة تطورها، فإنه مع ذلك يبقى المرفق العام في الجزائر محتفظا بعناصره الثقافية كوجود معيار المصلحة العامة والخضوع لرقابة الشخص العمومي، بالإضافة إلى بقاء أساليبه التقنية.

لا يوجد أي مؤشر في ظل الإصلاحات الجديدة للمرفق العام يفيد بتصور قانوني له رغم تبني المعيار العضوي كمعيار محدد للنزاع الإداري كأصل عام⁽³⁴⁾، مما يطرح تساؤلا عن ماهية المرفق العام في الجزائر لدى صانعي القرار بعيدا عن أبعاده الاجتماعية كوسيلة لإشباع الحاجيات العمومية، والتي تعتبر التصور المهيمن.

المدلول السياسي للمرفق العام يحتل مكانا مرموقا، بفضل إرتباطه بالهدف الاجتماعي الذي يسعى لتحقيقه والذي يعتبر التصور الأقرب لمفهوم المرفق العام في الجزائر، سواء بالنسبة لرجال السياسة أو بالنسبة للمرتفقين، وهو تصور يذكر بالمرفق العمومي وفق التصور السائد في المرحلة الاشتراكية.

على الصعيد المؤسسي فإن محاولة تقييم الإصلاحات التي جاءت خاصة بعد سنة 2013 تبين وجود تصور هش للدور الأدائي للمرفق العام، حيث لازال هذا الأخير يحتاج إلى تخطيط تكون الإصلاحات المقترحة فيه تلعب دورا على المدى الطويل، على أن تحتل الرقابة والتقييم معيارا حاسما وذا أولوية في السياسات العمومية.

ليس هناك إصلاح للمرفق العام بل هناك نوع من التكتيك الإداري المحدد والدقيق، وهو ما أثر بشكل مباشر على مكانة وقيمة هذه الإصلاحات.

- 1 - مرسوم رئاسي، رقم 03 / 16، مؤرخ في 7 يناير سنة 2016، يتضمن إنشاء المرصد الوطني للمرفق العام، الجريدة الرسمية، العدد 02، ص 13.
- 2 - محمد الأمين بوسماح، المرفق العام في الجزائر، ترجمة رحال بن أحمد ورحال مولاي إدريس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 1.
- 3 - المرسوم الرئاسي 312 / 13، يتضمن تعيين أعضاء الحكومة، الجريدة الرسمية، العدد 44، مؤرخة في 11 / 09 / 2013.
- 4 - أنظر المرسوم التنفيذي رقم 382 / 13، الموافق ل 19 / 11 / 2013، يحدد تنظيم الإدارة المركزية للوزارة لدى الوزير الأول المكلفة بإصلاح الخدمة العمومية، ص 30، وكذلك المرسوم التنفيذي رقم 381 / 13، الموافق ل 19 / 11 / 2013، يحدد صلاحيات الوزير لدى الوزير الأول المكلف بإصلاح الخدمة العمومية، الجريدة الرسمية، العدد 59، مؤرخة في 20 / 11 / 2013، ص 28.
- 5 - أنظر المرسوم الرئاسي رقم 300 / 99، مؤرخ في 24 / 12 / 1999، يتضمن تعيين أعضاء الحكومة (وزير للمساهمة وتنسيق الإصلاحات)، الجريدة الرسمية، العدد، 30، ص 15.
- 6 - محمد الأمين بوسماح، المرفق العام في الجزائر، المرجع السابق، ص 57.
- 7 - أنظر المواد 219، 220 من القانون 08 / 90، يتعلق بالبلدية، الجريدة الرسمية، العدد 15، مؤرخة في 15 / 11 / 1990، ص 980.
- 8 - الجريدة الرسمية، العدد 71، مؤرخة في 26 / 01 / 2000، ص 571.
- 9 - محمد الأمين بوسماح، المرفق العام في فرنسا، سلسلة محاضرات أُلقيت على طلبة مدرسة الدكتوراه، الموسم الجامعي 2013 / 2014.
- 10 - أنظر القانون 09 / 08 يتضمن قانون الإجراءات المدنية والإدارية، الجريدة الرسمي، العدد 15 مؤرخ في 16 / 04 / 2008.
- 11 - عمور سلامي، سلطات القاضي الإداري في دعوى الإلغاء، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في فرع القانون العام، جامعة الجزائر 1، كلية الحقوق بن عكنون، 2011 / 2012، ص 251.
- 12 - أنظر المواد 143، 171، 172، من التعديل الدستوري لسنة 2016، بموجب القانون رقم 01 / 16، المؤرخ في 6 مارس 2016، الجريدة الرسمية، العدد 14، مؤرخة في 7 مارس 2016.
- 13 - عمور سلامي، سلطات القاضي الإداري في دعوى الإلغاء، المرجع السابق، ص 252.

- 14- عبد الحميد بن عيشة، العلاقة بين السياسة والإدارة العامة في الجزائر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في القانون العام، جامعة الجزائر 1، كلية الحقوق بن عكنون، 2010/2011، ص 41.
- 15- محمد الأمين بوساح، المرفق العام في فرنسا، نفس المرجع.
- 16- الجريدة الرسمية، العدد 26، مؤرخة في 07/05/2014.
- 17- محمد أمين بوساح، المرفق العام في فرنسا، المرجع السابق.
- 18- محمد أمين بوساح، المرفق العام في الجزائر، مرجع سابق، ص 100.
- 19- ANDRE DE L AUBADAERE, droit administratif, 6 édition, LGDJ, 1976, p 603615- et. GILLES-J. GUGLIEMI-GENVIEVE Koubi, 2 édition, Montchrestien, 2007, p 295.
- 20- أنظر المرسوم الرئاسي رقم 94/40، مؤرخ في 29/يناير/1994، يتعلق بنشر الأرضية المتضمنة الوفاق الوطني حول المرحلة الانتقالية، الجريدة الرسمية، العدد 06.
- 21- أنظر مخطط عمل الحكومة، مايو 2014، ص 18.
- 22- أنظر الفصل الرابع وذلك بمقتضى المواد من 21 إلى 30 وكذلك المواد من 12، 13، 14، 28، 29، من المرسوم 88/131، المنظم لعلاقة الإدارة بالمواطن، الجريدة الرسمية، العدد 27، مؤرخة في 27/02/1988.
- 23- أنظر في هذا الخصوص، يوسف كريمة، الإدارة ودولة القانون في الجزائر، مذكرة من أجل الحصول على شهادة الماجستير، كلية الحقوق بن عكنون، جامعة الجزائر 1، 2006/2007، وكذلك غزلان سليمة، علاقة الإدارة بالمواطن في القانون الجزائري، أطروحة دكتوراه في القانون العام، كلية الحقوق بن عكنون، جامعة الجزائر 1، 2009/2010.
- 24- الجريدة الرسمية، العدد 41، مؤرخة في 6/يوليو/2014.
- 25- المرسوم الرئاسي رقم 16/03، مؤرخ في 7 يناير 2016، الجريدة الرسمية، العدد 02، ص 13.
- 26- سليمة غزلان، علاقة الإدارة بالمواطن في القانون الجزائري، المرجع السابق، ص 167.
- 27- موسى مصطفى شحادة، الحق في الحصول على المعلومات في مجال البيئة حق من الحقوق الأساسية للإنسان»، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، كلية القانون، 2007 ص 164.
- 28- الجريدة الرسمية، العدد 6، مؤرخة في 10/02/2015.
- 29- أنظر القانون رقم 14/08، يعدل ويتمم الأمر رقم 70/20، المؤرخ في 19/02/2014، المتعلق بالحالة المدنية، الجريدة الرسمية، العدد 49، مؤرخة في 20 غشت 2014.
- 30- أنظر المداولة المتضمنة أخلاقيات مهنة القضاء، الجريدة الرسمية، العدد 17، مؤرخة في 14 مارس 2007، ص 16.

- 31 - مقال تحت عنوان «قراءة في مشروع الوظيفة العمومية»، منشور بالانترنت على الموقع الإلكتروني [hyt/www.mafhoum.com/press](http://www.mafhoum.com/press)، بدون مؤلف.
- 32 - ناصر لباد، الوجيز في القانون الإداري، دار المجدد للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، سنة 2010، ص 13-14.
- أنظر كذلك: رشيد خلوفي، قانون المنازعات الإدارية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 97.
- 33 - أنظر المواد 1 و 2 من القانون 01/06، المتعلق بالوقاية من الفساد ومكافحته، الجريدة الرسمية، العدد 27، مؤرخة في 15/06/2006، ص 150.
- 34 - حيث يشير موقع الجزائر ضمن التصنيف العالمي، ضمن إدراك مؤشرات الفساد الصادر عن منظمة الشفافية الدولية خلال الفترة ما بين 2004 إلى غاية 2006، إلى مراتب متدنية جدا، حيث تحتل الجزائر سنة 2004 الترتيب 97 عالميا من أصل 146 دولة في حين إحتلت المرتبة 12 عربيا من أصل 18 بمؤشر فساد بلغ 2.7 بالمئة، أما في 2005 إحتلت المرتبة 97 عالميا من أصل 169 دولة و المرتبة 13 عربيا من أصل 18 دولة بمؤشر فساد بلغ 2.8 بالمئة، ليرتفع مؤشر الفساد من جديد سنة 2006 ببلوغه عتبة 3 بالمئة و إحتلت المرتبة 84 عاميا من 163 دولة شهدها التصنيف، لتشهد من جديد سنة 2007 أكبر مؤشرات الفساد بمعدل 3.1 بالمئة وبمرتبة 92 عالميا من أصل 163 دولة (إحصائيات مؤخوذة عن مقال ل د عدنان مريزق و دحية عبد الحفيظ، تحت عنوان «الادارة العمومية في ظل التحديات المحلية والعالمية» منشور بمجلة « حوليات جامعة الجزائر » العدد 24، أكتوبر 2013، ص 82.

المداخل الاجتماعية لدراسة الصحة العامة والسلوك الصحي

د. مانع عمار

المركز الجامعي عبد الله مرسللي - تيبازة

ملخص :

في هذا المقال نحاول أن نناقش مختلف المقاربات السوسيولوجية لدراسة الصحة وإسهامات علم اجتماع التنظيم وعلم الاجتماع الطبي في دراسة الأبعاد الاجتماعية للمرض والمريض والمؤسسات الموجهة للرعاية والتكفل بهذين الطرفين وكيف تطورت وأصبحت السياسات العمومية للصحة في قلب اهتمامات البحوث السوسيولوجية للصحة والسلوك الصحي منذ الخمسينات.

الكلمات المفتاحية: المقاربات السوسيولوجية، المريض، المرض، الرعاية الصحية.

Résumé :

Dans cet article nous allons essayer d'exposer et analyser les différentes approches sociologiques qui étudient la santé et la contribution de la sociologie du travail et la sociologie médicale à l'étude de la dimension sociale de la maladie et du malade, ainsi que les structures destinées à la prise en charges des deux parties et l'orientation de la politique publique depuis les années cinquante, qui s'appuyait sur des études sur la santé et d'hygiène publique.

Mots clés : approches sociologiques, le malade, la maladie, prise en charge des malades.

مقدمة :

أصبحت نوعية الخدمات الصحية المقدمة للمواطنين من بين المظاهر التي تعبر عن المستوى الحضاري الذي بلغته المجتمعات، وإذا كانت الموارد المرصودة لترقية الصحة العمومية وبناء البنى التحتية التي توفر وتقدم مختلف الخدمات الصحية تؤرق السلطات العمومية في مختلف المجتمعات كونها تتطلب اهتماما كبيرا في جوانبها المادية والبشرية (البنى التحتية، الموارد المالية، الموارد البشرية المؤهلة)، أصبحت كذلك تستقطب اهتمام مختلف التخصصات التي تهتم بصحة الأفراد والمجتمع؛ كالطب والاقتصاد والعديد من التخصصات الأخرى التي تهتم بالنظام الصحي وتحاول تطوير الواقع المعقد لقطاع الصحة وبشكل عام؛ يمكن النظر إليها بوصفها «وضعا» أو «حالة» من الحياة اليومية والتنظيم الاجتماعي، وأن هياكل النظام الصحي الاجتماعي، والمؤسسات الصحية هي التي تحدد هوية وطبيعة «التنشئة الاجتماعية» التي تتوافق مع هذا النظام ومؤسساته الاجتماعية.

ويهتم علم الاجتماع بتفسير سلوك الفرد وفقا لما تحدده معايير هذا النظام، أو وصف التفاعل بين الفرد والنظام، ليؤدي إلى التعرف في البداية على الديناميات والعوامل والسلوكيات المرتبطة به، ثم يقوم بالتحليل وفق تفسيرات مختلفة عن الحياة الاجتماعية، مثل دراسة المحددات الاجتماعية والثقافية التي تؤثر على سلوك المريض وعلاقته بمختلف الأنظمة الصحية والكيفيات التي تبناها مختلف الأنظمة للوقاية ونشر الوعي الصحي بين أفراد المجتمع.

«فهو من ميادين البحث الجديدة نسبيا في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عموما. وفي هذا الميدان يجري استقصاء الطرق والأوجه التي يتأثر فيها الجسم أو الجسد البشري بالعوامل والمؤثرات الاجتماعية. فالجسد البشري ليس كيانا فيزيقيا ماديا يعيش في الفراغ أو خارج السياق الاجتماعي أو التجارب التي نمر بها في تفاعلاتنا غير المحدودة مع منظومة التجارب والبيئات النفسية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والطبيعية التي تكتنف وجودنا الإنساني. وقد بدأ علماء الاجتماع في الآونة الأخيرة بإدراك الأغوار العميقة لطبيعة الترابطات القائمة بين الحياة الاجتماعية والجسد، وأخذ هذا المجال يكتسب أهمية متزايدة في العلوم الاجتماعية على وجه العموم»¹

1. انتوني جدينز، علم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2005، ص:

في هذه المقال سوف نتطرق إلى البدايات الأولى لسوسيولوجيا الصحة ثم نتعرض لمختلف المقاربات السوسيولوجية والمفاهيم والنظريات التي تناولت المواضيع المتعلقة بالصحة والسلوك الصحي.

1. بعض التعاريف لسوسيولوجيا الصحة :

ينطلق تعريف علم الاجتماع الطبي من مجالات اهتمام المجتمع بالصحة والمرض في إطار السياسة الصحية وتحسين مستوى المعيشة وزيادة الوعي الصحي وتخفيض معدلات الوفيات وزيادة متوسط العمر ومقاومة الأوبئة وسواها¹

فعلم الاجتماع الطبي كفرع من فروع علم الاجتماع يساعد على تفسير وتحليل خصائص ومعطيات الوسط الاجتماعي في علاقته بالصحة والمرض، حيث يتيح آلية منهجية للتعرف على المعطيات الاجتماعية الأكثر ما تكون صلة بالصحة والمرض كالفقر والغنى والتخلف والتقدم والنمو السكاني وتعاطي وإدمان المخدرات وغيرها.

فالسوسيولوجيا باعتبارها علماً يدرس بطريقة منهجية بناء المجتمع ونظمه ووظائفه في علاقتها بظاهرتي الصحة والمرض ويركز بالخصوص على فهم الظروف الاجتماعية المعيشية للأفراد المرتبطة بالسكن والدخل وسلامة البيئة والغذاء والكساء والثقافة والطرق والأساليب الشعبية للعلاج والتنمية الاجتماعية والسياسة الصحية وغيرها.

كما ينظر إليه البعض على أنه العلم الذي يهتم بالأطر الاجتماعية لصحة المجتمع، وهو على رأي "ساشمان" Suchman «يمثل توجهاً اجتماعياً وطبيعاً جديداً للعناية بالصحة العامة في إطار المعطيات الاجتماعية والظروف والمستجدات على الساحة الاجتماعية في ارتباطها بصحة المجتمع والصحة العامة»¹

وفي نفس السياق يشير «عبد السلام الدويبي» في تعريفه لعلم الاجتماع الطبي إلى أن هذا العلم هو من «العلوم التي تُعنى بالدراسة والتحليل بالأبعاد الاجتماعية لصحة المجتمع وبالكيفية التي تتوزع وتتنظم بها الخدمات الطبية في المجتمع كما يركز على فهم العوامل المختلفة التي تؤثر في توفير وتوزيع هذه الخدمات وفرص الاستفادة منها ودرجة ملاءمتها وجدواها وفعاليتها»²، فهو يقوم كذلك «بدراسة المظاهر الاجتماعية

1. Suchman, E.A., Sociology and the Field of Public health. 1989, Russel sage, foundation, New York.

نقلا عن: عبد السلام الدويبي، علم الاجتماع الطبي، دار الشروق، عمان، الأردن، 2006، ص: 14.
2. عبد السلام الدويبي، نحو تطوير مفهوم اجتماعي لظاهرتي الصحة والمرض، مجلة البحوث العربية للعلوم

للمرض، والاتجاهات المختلفة نحوه، وتوزيع الأمراض وعلاقتها بنظام المجتمع. كما يتضمن دراسة البناء التنظيمي لدور العلاج والأدوار الاجتماعية للمرضى ولمن يعالجون المرضى (الأطباء والممرضات... الخ)¹

تُظهر هذه التعاريف أن هناك تداخل بين علم الاجتماع الطبي والصحي وهناك من لا يفصلون بشكل واضح بينهما ولعل بُعد الصحة في هذا العلم أصبح أكثر تداولاً كونه ذو بعد أوسع ويشمل كل ما يرتبط بصحة الفرد في المجتمع، لأن الوضع الصحي للفرد تتحكم فيه مجموعة من المتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

2. البدايات الأولى لسوسيولوجيا الصحة :

تظهر الصحة وبطريقة أكثر إلحاحاً، باعتبارها واحدة من المتطلبات الوظيفية لأي نظام اجتماعي. فمستوى عال من انتشار المرض، ومستوى متدن للصحة يمثل خلافاً وظيفياً بالنسبة لوظائف النظام. إن المرض يعيقنا في المقام الأول من الوفاء بالأدوار الاجتماعية المنوطة بنا. بهذه الجمل التي كتبها «تالكوت بارسونز» سنة 1951، فتح مجالاً جديداً في سوسيولوجيا الواقع الصحي وهو الميدان الذي أهمله الرواد الأوائل في علم الاجتماع، ويعتبر هذا النص المؤسس لما يعرف بعلم الاجتماع المرضي والطبي. لأن تحليل بارسونز لم يقف عند حد الاعتراف بالبعد الاجتماعي للمرض: بل يدعونا لدراسة المكانة المركزية التي يحتلها الطب في المجتمعات الحديثة بعيداً عن الوظائف التقنية التي يضطلع بها الطب، وكذلك تحليل دوره في التنظيم الاجتماعي²

البدايات الأولى إذن ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية حيث برز مجال علم الاجتماع الطبي وبدأت تتبلور ملامحه في سنوات الخمسينات.

ففي بداية القرن العشرين حاول الأطباء إيجاد علاقة مع علماء الاجتماع وجرهم للاهتمام بميدان الطب؛ أطباء ومختصون في العلوم الاجتماعية ارتبطوا بعلاقات وثيقة في الجامعات، والمثال المعروف الطبيب «هندرسون» (L.G.Henderson)، الذي أسس مخبراً لدراسة ظاهرة «الإجهاد» بجامعة هارفارد، حيث تكوّن في العلوم الاجتماعية وأصبح ينشط لقاء أسماه «لقاء باريتو» (Séminaire Pareto) حيث كان يرتاده «بارسونز»

الاجتماعية التطبيقية، المعهد العالي للعلوم الاجتماعية التطبيقية العدد الأول، 1991، ص 199-206.

1. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1993، ص 402.
2. Claudine HAROCHE, Sociologie de la santé, de la maladie et de la médecine, in : Dictionnaire de sociologie, sous la direction d'André AKOUN, et Pierre ANSART, Ed. LE ROBERT/SEUIL, 1999 p p. 469-470.

و«مرتون» وكان تأثير «هندرسون واضحا على «بارسونز» حيث دفعه لإنجاز التحقيق الامبريقي الأول والوحيد حول «الممارسات الطبية» في مستشفى ماساشوسات بيوسطن.¹

أما في فرنسا فقد بدأت البوادر الأولى لدراسة الجسد والموت خاصة مع «مارسيل موس» سنة 1926 حول فكرة الموت وتصوراتها عند قبائل استراليا وزيلنده الجديدة وفي سنة 1936 تكلم عما سماه «تقنية الجسد» (Les techniques du corps) حيث اعتمد على ملاحظة مختلف المواقف في الحياة اليومية من الولادة، الرشد، النوم، النشاط، العناية بالجسد.

غير أن «كونغلهم» (Canguilhem) الفيلسوف الفرنسي كان أول من درس سنة 1943 في أطروحة الدكتوراه في الطب من خلال اهتمامه بالصحة كمفهوم معياري وضرورة البحث في معناه ومختلف أبعاده خاصة في مجال العلاقات الاجتماعية للأفراد: «يجب النظر خارج الجسد لكي نستطيع تقدير ما هو طبيعي وما هو مرضي للجسم» ومن هنا فتح المجال للعلوم الإنسانية والاجتماعية لاقتحام المجال الطبي والمساهمة في تفسير الأسباب الاجتماعية للمرض.

ومع تطور وتوسع مجال السوسيولوجيا واستقلالها خاصة في الجامعات عن باقي العلوم الاجتماعية والإنسانية، فكانت أهم المجالات الرئيسية التي استقطبت اهتمام علم الاجتماع ميادين العمل خاصة منها الصناعي، الجريمة، الدين، عالم الريف، الترفيه، أما مجال الطب فلم يكن يعتبر مؤسسة اجتماعية جديرة بالاهتمام وأيضا مجال الصحة وذلك لكونها قضية تتعلق بالفرد والطبقة. وليس واقعا يتطلب تفسيراً سوسيولوجيا.

لكن عرف هذا المجال مزيدا من الزخم بعد قيام بعض المؤسسات الخاصة بتمويل أبحاث إمبريكية حول الطب كمؤسسة اجتماعية من طرف «بارسونز وهيوكس» (Persons and Hughes) في سنة 1955 أو ميرتون وزملاؤه سنة 1957.

كما أنه لا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى الدراسات التاريخية الفلسفية التي قام بها «ميشال فوكو بين سنة 1961 و1963» حول «الجنون، بمستشفى الطب الإكلينيكي» والذي تنبه لهذه المشكلة من خلال ربطه لظاهرة الجنون وممارسات الطب الإكلينيكي.

1. - Herzlich Claudine et Pierret Janine, « Au croisement de plusieurs mondes : la constitution de la sociologie de la santé en France (1950-1985) », Revue française de sociologie, 2010/1 Vol. 51, p.121-148.

ولعل مساهمة عالم النفس الاجتماعي الفرنسي «جان ستوتزل» (J.Stoetzel) في دراسته بعنوان «الفرنسي وأطبائه» من خلال تحقيق ميداني رسم ملامح حقل الأبحاث في علم النفس الاجتماعي وبين رؤيته من خلال مقال نشره في مجلة «الديمغرافيا» سنة 1960 حيث بدأ بملاحظة تعقد مفهوم المرض ثم قام بتحليل التنوع الثقافي لمفهوم المرض وأسبابه وارتباطه بمفاهيم أخلاقية، وأخذ كثيرا من مفهوم «بارسونز» لدور «المريض» ودور «الطبيب» وهو ما سوف نتعرض له لاحقا بشيء من التفصيل باعتباره أول محاولة علمية في التراث السوسيولوجي الحديث لميدان الصحة.¹

ومع تطور المساهمات في هذا الحقل انصبت الاهتمامات حول المواضيع التي تهتم بتنظيم المستشفى، تقسيم العمل به، الأدوار والاستعمالات الاجتماعية له، التمثيلات الاجتماعية للعلاقة بين الجسد والصحة والمرض، وكذا المرضى، العملاء، وأخيرا الاقتصاد الجزئي وتكاليف المرض والنظام الصحي.

ولم تتضح معالم سوسيولوجيا الصحة إلا في سنوات الثمانينات حيث أصبحت تمثل مجالا بحثيا وأكاديميا مستقلا مثله مثل سوسيولوجيا العمل وسوسيولوجيا التربية.

3. أهم المقاربات السوسيولوجية لدراسة الصحة

تهتم بالنماذج التفسيرية الطبية، حيث تركز على آليات الأمراض العضوية. إن التفسير الاجتماعي يعيد توجيه الاهتمام إلى العلاقات الاجتماعية بوصفها المحددات القوية للتجربة الصحية المتغيرة. وبالاعتماد على المعرفة بعلم الأمراض المعدية (الوبائية) وبتقنية الكشف عن التوزيع الاجتماعي للمميز للشروط المحددة تحديدا طبيا في مجموعة ما من السكان- فإن الانتباه يتركز على متغيرات مثل الجنس الاجتماعي، والطبقة، بوصفها مؤثرات مباشرة في عمليات التعرف على مسببات الأمراض.

ويتصل بهذا الاهتمام تطوير مفاهيم جديدة عن الصحة، واعتلال الصحة من زوايا غير طبية. وفي تحليل للتجربة الفردية فإن مفهوم حلول المرض يتمثل في سلسلة معقدة من التفاعلات بين العوامل الفسيولوجية والنفسية الاجتماعية وتظهر المتغيرات الاجتماعية إما على هيئة آليات وسيطة تحكم قدرة الفرد على تحمل مناقشة أحداث الحياة المتأزمة مثل الفجعة في عزيز، أو الطلاق، أو البطالة، وهي الأحداث التي تعتبر أسبابا مسبقة لحلول المرض، أو تكون محل اعتراف بكونها ذات دور سببي مستقل.

1. - Op.cit. p p.121-148.

ويتداخل موضوع سوسيولوجيا الصحة مع سوسيولوجيا الطب، وعلم الاجتماع الطبي، وعلم مسببات الأمراض الوبائية¹

وفي الواقع لا يمكن فصل المقاربات السوسيولوجية التي تدرس ميدان الصحة عن المداخل السوسيولوجية الكبرى التي طورها رواد علم الاجتماع، وقد جسد هذه المقاربة مجموعة من علماء الاجتماع المحدثين، وتصنف هذه الاتجاهات إلى نوعين:

أولاً: الاتجاهات الكلاسيكية في دراسة التنظيمات الطبية وإسهامات علم اجتماع التنظيم.

ارتبطت دراسة التنظيمات الطبية في بداياتها الأولى بتطور سوسيولوجيا العمل والتنظيم وكانت المنطلق للرؤى الأولى لدراسة المنظمات الطبية باستعمال نفس المناهج والأدوات وكان المرفق الصحي التنظيم الذي تناولته البحوث في بداياتها الأولى وفي هذا الصدد نجد «المونت لدنساي» سنة 1962، (Almont Lindsey) تحدث عن تنظيم وإدارة خدمات المستشفى، ودور السلطات الصحية المحلية، وأطباء العائلة وأدوارهم المهنية الجديدة، والضرورة الصحية للسياسة الطارئة وغيرها. «أيضاً المحاولة التي قام بها «هوارد إي. فريمان وآخرون 1963، (Howard E. Freeman & Others) عندما قاموا بتحليل تنظيمات العمل الطبي، خاصة فيما يتعلق بالتماسك في السلطة المهنية، وتجزئ المسؤولية الطبية، ونمو مشكلات التعاون بين الهيئات الطبية والإدارية في المستشفى، والعمل البيروقراطي فيها، وشكل العمل الذي يشبع حاجات المرضى فيها ويشبع حاجات الأطباء الوظيفية... وغيرها» ومحاولة «ريتشارد م. ماجرو» و«دانيال ب. ماجرو» (Magraw Richard M. & Magraw Daniel B.) في تحليل المستشفى ودوره في التعاون الطبي، ودور الطبيب ودور المريض والمهنة الطبية وتدعيم الأعمال الفنية المطلوبة للمستشفى وغيرها» وأخيراً نسجل رؤية «آن كارتريت» (Anne Cartwright 1967) للعلاقة بين الأطباء والمرضى، رؤية المرضى للمستشفى ووسائل الاتصال بين الأطباء والمرضى، وبنية الخدمة الصحية المجانية والخاصة²

وما لوحظ عن هذه الدراسات بالرغم من تركيزها على التنظيمات الطبية إلا أنها لم تتحرر من تأثيرات وسيطرة البعد المرتبط بعلم اجتماع العمل والتنظيمات، حيث

1. - ميشال مان وآخرون، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة: عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص ص 301-302.

2. - محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الطبي، الطبعة الأولى، دار المسيرة للنشر، عمان، 2009، ص ص 28-29.

نجدها تختار متغير من المتغيرات باعتباره صفة مميزة للتنظيم كالتغير التكنولوجي، بناء السلطة ونوعية الوظائف، وعلاقة التنظيم بالبيئة الخارجية، والتنظيمات والجماعات الرسمية والغير الرسمية.

ثانياً: إسهامات علم الاجتماع الطبي:

أ- المدخل الوظيفي:

يعتبر "بارسونز" كما ذكرنا سابقاً أحد أقطاب هذا البارديغم، حيث "ينظر أصحاب هذا الاتجاه للتنظيم كنسق اجتماعي يتكون من مجموعة أنساق فرعية، وهو نفسه يعتبر نسقاً فرعياً لنسق أكبر هو المجتمع، ويرون أن استمراره يلزمه مجموعة متطلبات وظيفية منها المواءمة وتحقيق الهدف، والتدعيم، والتكامل والكمون. وينظرون حديثاً للتنظيمات الطبية كنسق صحي يتميز بنظام لتقسيم العمل يختلف عن غيره من التنظيمات الأخرى. هذا التقسيم هو ما يجعل الإنجاز والفعالية التنظيمية أيضاً يتسمان بنفس سمات التميز."

ب- المدخل النفسي الاجتماعي:

وهو الذي انتقل من دراسة المريض كحالة فردية إلى العلاقة بين الفرد والتنظيم الصحي والتركيز على الانتماء الطبقي للمريض فأصحاب هذا المدخل ينظرون "للتنظيم الاجتماعي عبر حاجات ودوافع أعضاء التنظيم الشخصية، فكلاهما يؤثر على سلوكيات الأفراد، وقد يشكل مناطق للصراع بين الفرد والتنظيم، ويؤثر على إنجاز التنظيم لمهامه الأساسية، وقد يخلق تنظيمات غير رسمية فيه. أما عن هذه الحاجات والدوافع الشخصية لأعضاء ومرضى التنظيمات الطبية فقد بحثها علماء الاجتماع الطبي في بحوثهم الحديثة عبر استجابة المرضى للرعاية الطبية، وعلاقة المرضى بأفراد هيئة التمريض، والعلاقة بين تكلفة الخدمة الطبية والمكانة (الاجتماعية - الاقتصادية للمرضى) ."

ج- مدخل النسق الفني والتنظيم الطبي :

"ينظر أصحاب اتجاه النسق الفني للتنظيم بوصفه نسقاً اجتماعياً ترتبط فيه التكنولوجيا بعواطف الأفراد، وكلاهما يرتبط بالبيئة المحيطة بهذا التنظيم. لهذا فالتكنولوجيا والبناء الرسمي يحددان درجة إشباع الأفراد داخل وخارج هذا التنظيم، ويحددان شكل العلاقات المتبادلة بين الجوانب الرسمية والغير الرسمية فيه، وأخيراً يحددان شكل العلاقة بين التنظيم والبيئة. أما عن نظرية التنظيم الطبي

فلم تختلف كثيرا عن سابقتها، فالتغيرات التكنولوجية والعلاقة مع البيئة المحيطة مازالا العاملين المهمين في نظرهم لها. إضافة لذلك فالجوانب الاقتصادية للتنظيم يعتبرها أصحاب هذا الاتجاه من العوامل المهمة في تشكيل درجة إشباع الأفراد من الخدمة الطبية التي يقدمها.

د- المدخل الثقافي في دراسة التنظيمات الطبية:

مازال أصحاب الاتجاه الوظيفي في الأثروبولوجيا الطبية والاجتماع الطبي يهتمون في دراساتهم الحديثة بالعلاقة بين الثقافة والصحة والمرض خاصة فيما يتعلق بالتداوي الشعبي والمعالجين التقليديين، والطب الشعبي، والقائمين عليه، والبناء الثقافي الصحي الذي يقوم عليه، والصراع بين الطب الرسمي والشعبي، وتأثير ذلك على أنماط العلاقة بين الأطباء والمرضى. وقد حاولت هذه الدراسات الحديثة الاستفادة من أدوات علم اجتماع التنظيم في فهم تلك الموضوعات والانتقال منها لموضوعات تخص التنظيمات الطبية المختلفة.

هـ- المدخل الإداري :

ساهمت العلوم الإدارية بشكل فعال "في دراسة التنظيمات المختلفة ومنها التنظيمات الطبية، وهناك مساهمات بحثية عديدة حول إدارة التنظيمات الصحية، والبنية التنظيمية الطبية، والهياكل الإدارية للتنظيمات الطبية، وغيرها من المحاور التي استفاد بها علم اجتماع الإدارة وعلم الاجتماع الطبي في دراسة التنظيمات الطبية." وقد اهتم هذا الاتجاه بالصراع بين الهيئة الإدارية والطبية في المستشفى، والعلاقات التفاعلية بين أفراد الهيئة الإدارية والطبية.

و- مدخل التنظيمات الطبية الصغرى والمتخصصة:

"لم تعد دراسات التنظيمات الطبية ترى في تميز تنظيمات المستشفى عن غيرها من التنظيمات الأخرى ما يكفي لتحليل الرعاية التي تقدمها، ففي داخلها مالا يميز كل قسم منها رغم السمات المشتركة فيها مع بقية الأقسام الأخرى. هذا التميز لا يسمح لها بالانضمام تحت نفس السلطة والصراع والهيكلية الوظيفية، مما جعلها تستقل عن المستشفى. أكثر هذه الأقسام النفسية والعصبية، والأقسام الخاصة بالنساء والتوليد، صار لكل منهما مستشفى الخاص وإدارته وهيئاته الطبية المميزة له"¹

1. محمد الجوهري وآخرون، مرجع سابق، ص ص: 28 - 69.

4. المرض، المريض والمحيط في التيارات السوسولوجية :

أولاً: المرض :

كان المرض في السابق يفسر بعدة تفسيرات عضوية أو غيبية ميتافيزيقية، غير أن مع ظهور وتطور الدراسات الحقلية للعلوم الاجتماعية بدأ الاهتمام بالبعد الاجتماعي للمرض، حيث أصبح للمرض "بعدين أساسيين؛ أحدهما شخصي والآخر عام واجتماعي.

إن إصابة أحدنا بالمرض لا تلحق به مجرد الإحساس الفردي بالألم والخوف والنكد والحيرة والارتباك، بل إنها تؤثر في الآخرين حوله. كما أن الناس الذين حولنا أو نتعامل معهم يواجهون حالتنا المرضية بالتعاطف أو بمد يد المساعدة أو تقديم الرعاية والمساندة. وهم يبذلون الجهد لفهم مشاعر المريض ويحاولون استيعاب هذه المشاعر وترتيب آثارها على حياتهم. كما أن ردود الفعل التي تصدر تجاه المريض من الذين يتعاملون أو يتفاعلون معه تسهم في التأثير على تصور الفرد لنفسه ولأهميته بالنسبة إلى الآخرين.¹

ثانياً : المريض :

وقد برز في الفكر السوسولوجي تياران متميزان ومؤثران لفهم تجربة المرض. التيار الأول ارتبط بالمدرسة الوظيفية يضع بعض المعايير والقواعد السلوكية التي يعتقد أن الأفراد ينتهجونها في حالة المرض. أما التيار الثاني الذي يطرحه التفاعليون الرمزيون فيمثل محاولة أوسع لتقديم المبررات والتفسيرات التي توافق حالة المرض، والكيفية التي تؤثر فيها هذه المعاني على أفعال الناس وأنماط سلوكهم.

طرح زعيم المدرسة الوظيفية "تالكوت بارسونز" فكرة "دور المريض" لتفسير أنماط السلوك التي يسلكها المريض لتخفيف الآثار الضارة المربكة التي يخلفها المرض. ويرى الوظيفيون عموماً أن المجتمع في العادة بطريقة سلسلة وشبه اجتماعية، ومن هنا فإن المرض يمثل نوعاً من الخلل الذي يؤدي إلى اضطراب انسياب هذه الحالة الاجتماعية الاعتيادية. فالمريض على سبيل المثال، قد لا يستطيع أن يؤدي أدواره/أدوارها المتوقعة، أو ربما لا يكون أدائه على ما عهد فيه من كفاءة. ونظراً لأن المرضى لا يستطيعون القيام بأدوارهم المعتادة، فإن حياة من حولهم من الناس يعثر بها الاضطراب والارتباك: فمهمات العمل خارج البيت تظل تبحث عنم يؤديها والواجبات

1. انتوني غيدنز، مرجع سابق، ص ص: - 240 242.

والمسؤوليات داخل المنزل تظل ناقصة غير مكتملة. ويرى بارسونز أن الناس يتعلمون دور المريض خلال تنشئتهم الاجتماعية الأولى، ثم يمارسونه بمساعدة الآخرين عندما يصيبهم المرض. وهناك ثلاثة عناصر أساسية لهذا الدور:

- إن الفرد المريض ليس مسؤولاً بصفة شخصية عن حالة المرض التي يعانيها. فالمرض وفق هذا المفهوم إنما هو نتيجة لأسباب بدنية فوق طاقته، ولا علاقة بين بدايات المرض وسلوك الإنسان وأفعاله الشخصية.

- إن للشخص المريض حقوقاً وامتيازات معينة، من بينها حقه في التخلي عن مسؤولياته الاعتيادية. وهو/ هي بالتالي يستحق الإعفاء من واجبات أو أدوار أو أنماط سلوك معينة. فالمريض على سبيل المثال قد يُعفى من بعض الواجبات التي كان يقوم بها في العادة داخل المنزل. وأيضاً قد يتسامح معه الآخرون في تصرفات مستهجنة أو غير مقبولة في الأحوال العادية، كما أنه يكتسب الحق في أن يلتزم الفراش أو أن يتغيب عن العمل بسبب- أو بدعوى المرض.

- ينبغي على المريض أن يعمل على استعادة صحته باستشارة خبير طبي، وأن يقبل بأن يتحول إلى مريض. ودور المريض دور مؤقت ومشروط بسعي المريض إلى الشفاء واستعادة العافية، وينبغي عليه على هذا الأساس أن يعطي مرضه طابع الشرعية بشهادة أو تقرير يعطيه له خبير طبي مهني بعد الكشف عليه. ويجب على المريض في هذه الحالة أن يبدي التعاون مع الطبيب باتباع ما يحدده الأخير له من تعليمات ووصفات للمعالجة والدواء. أما المريض الذي يرفض استشارة الطبيب أو لا يخضع لسلطته الطبية، فإنه يقوض الأساس الذي يقوم عليه دور المريض.

وقد أسهم عدد من علماء الاجتماع في تطوير وتعديل نظرية بارسونز عن دور المريض. ويرى واحد من هؤلاء (Freidson 1970) أن هناك ثلاثة أنواع من المرض يرافق كل منها دور متميز:

الأول هو الدور الشرطي الذي ينطبق على أفراد يعانون أمراضاً وعللاً مؤقتة سرعان ما يستعيدون عافيتهم بعدها. ويتوقع من المريض في هذه الحالة أن يكتسب حقوقاً وامتيازات تتناسب وحده مرضه.

أما الدور الشرعي اللامشروط فيؤديه المرضى المصابون بالأمراض المستعصية كالسرطان أو مرض «الباركنسون» أو «الزهايمر» التي لا يستطيع المرضى بأنفسهم بذل أية محاولة لتلافيها أو معالجتها ولهم، في هذه الحالة، الحق في أن يمارسوا أو يتخلوا عن أي دور متوقع منهم بحسب مشيئتهم.

أما دور المريض الأخير فهو غير الشرعي الذي يكتسبه المرء عند إصابته بمرض معين «موصوم» اجتماعياً (والوصم هو فصل الفرد أو عزل فئة عن بقية المجتمع وإلصاق خصائص وصفات -حقيقية أو موهومة بهم- مما يجعل فئات أو قطاعات أخرى من المجتمع تنظر إلى هؤلاء «الموصومين» نظرة الشك أو العداء). وعلى هذا الأساس، فإن جانباً من المجتمع على الأقل، يعتبر أن المريض هو المسؤول الأول عما أصابه.

ويصدق ذلك على أكثرية المرضى بنقص المناعة المكتسبة (الإيدز) الذين لا يمنحون في أغلب الأحيان، الحقوق والامتيازات التي ينطوي عليها دور المريض العادي. كما يصدق ذلك، مع اختلاف الأسباب، على من كانوا يصابون بالجذام في أوروبا في العصور الوسطى.

ثالثاً: المرض باعتباره وضع يعيشه الفرد؛

يُعنى التفاعليون الرمزيون بصورة عامة بالسبل التي يفسر بها الناس عالمهم الاجتماعي وما يسبغون عليه من معان وإيحاءات. وقد طبق بعض علماء الاجتماع هؤلاء هذه المقاربة على ميادين الصحة والمرض، في محاولة لفهم تجربة الناس للمرض وطريقة إدراكهم له، سواء أصابهم أم أصاب الآخرين. ومن بعض الأسئلة المطروحة في هذا السياق: ما هو دور الفعل واستجابة الناس عند سماعهم عن مرض خطير؟ وكيف يؤدي المرض إلى تشكيل حياة الناس اليومية؟ وما هو الأثر الذي يتركه العيش مع مرض مزمن على هوية الفرد الذاتية؟

لقد «بدأت أنماط المرض بالتغير في المجتمعات الحديثة، وقد شغل كثير من علماء الاجتماع أنفسهم بالأساليب التي يتكيف بها المرضى المزمّنين مع ما تنطوي عليه حالتهم من اعتبارات عملية وعاطفية. فبعض الأمراض تتطلب معالجات ومتابعات منتظمة قد تؤثر على الروتين اليومي لحياة الناس حولهم، ويتبدى ذلك في حالات غسل الكلى، وتعاطي الأنسولين، والحقن والأدوية. كما أن هناك أمراضاً أخرى قد تكون بعض آثارها مفاجئة وغير متوقعة، أو تكون أعراضها الظاهرية والسلوكية مثيرة للحرص لدى المحيطين بالمريض، وربما لدى المريض نفسه، مما يتطلب من أهل المريض أو من يقومون برعايته اتخاذ خطط واستراتيجيات معينة لمواجهة مثل هذه المواقف من جهة أو إعادة هيكلة حياتهم اليومية من جهة أخرى (Kelly, 1992)، ومن ناحية أخرى، استقصى بعض علماء الاجتماع الكيفية التي يتمكن بها المرضى المزمّنون من «إدارة» مرضهم أو التعامل معه في سياق حياتهم الشخصية والاجتماعية

(Jobling,1988 ;Williams,1993)¹ ولعل هذا الواقع الجديد للمرض والمرضى من هذا النوع قد وضع المجتمعات أمام تحديات جديدة تفرض مقاربات جديدة تأخذ بعين الاعتبار التحولات والتغيرات الاجتماعية العميقة.

5. الأبعاد البيئية والاجتماعية والثقافية لمختلف المقاربات لدراسة الصحة والسلوك الصحي :

إن السوسيولوجيا تهتم بالطب، الرعاية الصحية وممارسات الرعاية الصحية، ولكن تهتم أيضا بالمرضى ومهنيي الصحة، والمؤسسات التي تقدم خدمات الرعاية الصحية... الخ، وفي كل الحالات تعمل السوسيولوجيا على تحليل وتفسير الخصائص والإشكاليات الخاصة بعلاقة الفرد بالمجتمع، الجماعات والمجتمع، في سياق صحي معين.

إن " لكل مجتمع نظريته ومفهومه للصحة لأن الإفراز الطبيعي للمجتمع لابد أن يكون ضمن ثقافة المجتمع وضمن البيئة الطبيعية والاجتماعية للمجتمع لأن أي بيئة تجد فيها المسببات للأمراض لابد أن تجد العلاجات لهذه الأمراض ولما كانت الأسرة هي نواة المجتمع التي ترفده بأفراده فلا بد أن تختلف النظرة إلى المجتمع من فرد إلى آخر لاختلاف التنشئة الأسرية في تكوين وتهيئة أفرادها للمجتمع مما يجعل من الصعب توحيد الفكر والنظرة والهدف وتلقائيا الأسلوب الذي يتعامل الأفراد بواسطته مع المجتمع"²

وما فتئت الأنثروبولوجيا تذكرنا بأن المرض ليس ذو طبيعة بيولوجية أو فردية إنما أيضا حدث سيكولوجي واجتماعي. يمكن القول إذن أن البحث العلمي الاجتماعي في مجال الطب استطاع أن يتوصل إلى أي مدى يمكن اعتبار الظروف الاجتماعية والثقافية أسبابا أصلية أو مساعدة للإصابة ببعض الأمراض، وأثبتت الدراسات في مجال الاجتماع الطبي أهمية الاستفادة من مفهوم التغير الاجتماعي والدراسات الوفيرة عن التغير الاجتماعي في حقل علم الاجتماع العام، وقد أمكن في النهاية من الاستعانة ببعض المفاهيم السوسيولوجية العامة في تشخيص المرض كمشكلة اجتماعية ثقافية من داخل نظريات معينة وذلك مثل الاستعانة بنظرية الأنيميا (فقدان المعايير) ونظرية الإحساس بالأمان، ومفهوم العزلة الاجتماعية.³

1. انتوني غدنز، مرجع سابق، ص ص: 240-242.

2. قدرى الشيخ علي وآخرون، علم الاجتماع الطبي، مكتبة المجتمع العربي، عمان، الأردن، 2011، ص: 16.

3. محمد الجوهري، علم الاجتماع التطبيقي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1998، ص - ص: 341-342.

إن البيئة والمحيط كفضاء ومجال مادي واجتماعي أصبح من بين المتغيرات الأساسية التي دفعت إلى مراجعة جذرية للمقاربات السوسيولوجية الكلاسيكية للصحة وتوجهها إلى تبني البعد الشمولي والمقاربة المتكاملة لدراسة مسألة الصحة. حيث ظهرت مقاربات حديثة مثل تنظيمات الرعاية الاجتماعية لـ (دافيد تاكيت) والمتطلبات الصحية للمجتمعات المحلية لـ (جون أ. دنتون) وسوسيولوجيا الوظائف الصحية داخل التنظيمات الطبية لـ (أي جارتلي جاكو).

خاتمة :

من خلال هذا العرض نستنتج إذن، أن التطور الذي عرفه مجال البحث في الصحة كان من نتائجه أن فتح للعلوم الاجتماعية الباب لدراسة الواقع الجديد، واقع المرض والجسد، الألم وطرق التعامل معه وعلاجه والتكفل به؛ أي أصبحوا مواضيع للدراسة السوسيولوجية حيث لم يعودوا حكرًا على ميدان الطب وعلوم الحياة.

لقد حاولنا أن نبين كيف تطورت مواضيع دراسة هذا التخصص، كما يمكن أن نقول أن العوامل التي ساعدت على هذا التطور منها: تطور السوسيولوجيا في حد ذاتها والذي لعب دورا مهما؛ غير أن هناك عناصر أخرى مهمة ساهمت في تطور هذا التخصص منها التحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفتتها المجتمعات حيث أصبح لزاما أن تتغير نظرة المجتمع للطب والصحة، لكي تدخل في مجال الدراسات السوسيولوجية، إضافة إلى وجود إرادة سياسية للدول المتقدمة لتوجيه البحث ودعمه ماديا للاهتمام بهذه الميادين، ولعل أهم العوامل يكمن في الاهتمام الذي أبدته ميادين الطب بالعلوم الاجتماعية بعيدا عن الفكر الطبي المهيمن على العلاقة بين ما هو طبي واجتماعي.

فالمقاربات السوسيولوجية الكلاسيكية ارتبطت بمفاهيم ونظريات التنظيم من خلال التركيز على متغير أو أكثر لتفسير تطور التنظيمات الصحية كالمستشفى والمرافق الصحية المختلفة، تقسيم العمل بهذه المؤسسات، في حين انتقلت المقاربات السوسيولوجية الحديثة إلى تبني التفسير السوسيولوجي المتعدد الأبعاد من خلال التركيز على المرض والمريض والمرفق الصحي والمحيط، وكذلك التمثلات الاجتماعية للعلاقة بين الجسد والصحة والمرض، وأخيرا النظام الصحي.

وهذا ما يحيلنا إلى الأبعاد البيئية والثقافية للصحة - وكان الأنثروبولوجيين قد قدموا إسهامات مهمة في هذا المجال - هذه الأبعاد هي التي قدمت إضافات هامة للتعريف بمشكلة الصحة كظاهرة اجتماعية كلية تستمد شرعيتها الاستمولوجية من التحقيقات والدراسات الحقلية التي تمثل تراثا سوسيولوجيا ساهم بشكل واضح في تطور وازدهار هذا التخصص.

المراجع

- 1 - انتوني جدينز، علم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2005.
- 2 - د. عبد السلام بشير الدويبي، علم الاجتماع الطبي، دار الشروق، عمان، الأردن، 2006.
- 3 - د. عبد السلام بشير الدويبي، نحو تطوير مفهوم اجتماعي لظاهري الصحة والمرض، مجلة البحوث العربية للعلوم الاجتماعية التطبيقية، العدد الأول، 1991، المعهد العالي للعلوم الاجتماعية التطبيقية.
- 4 - أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1993.
- 5 - ميشال مان وآخرون، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة: عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999.
- 6 - محمد الجوهرى وآخرون، علم الاجتماع الطبي، الطبعة الأولى، 2009، دار المسيرة للنشر، عمان.
- 7 - محمد الجوهرى، علم الاجتماع التطبيقي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1998.
- 8 - قدرى الشيخ علي وآخرون، علم الاجتماع الطبي، مكتبة المجتمع العربي، عمان، الأردن، 2011.
- 9 - ديفيد أرنولد وآخرون، الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي، سلسلة كتب عالم المعرفة، رقم 236، 1998، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.
- 10 - جان شارل سورنيا، تاريخ الطب، من فن المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة د. ابراهيم البجلاتي، سلسلة كتب عالم المعرفة رقم 281، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، 2002.
- 11 - د. فيليب عطية، أمراض الفقر، المشكلات الصحية في العالم الثالث، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، 1992.
- 12- Suchman, E.A., 1989, Sociology and the Field of Public health. Russelsage, foundotion, New york.
- 13- Claudine Haroche, Sociologie de la santé, de la maladie et de la médecine, in : Dictionnaire de sociologie, sous la direction d'André AKOUN, et Pierre ANSART, Ed. LE ROBERT/ SEUIL . 1999.
- 14- Herzlich Claudine et Pierret Janine, « Au croisement de plusieurs mondes : la constitution de la sociologie de la santé en France (1950-1985) », Revue française de sociologie, 2010/1 Vol. 51.

Récente évolution du droit Algérien

Adaptation des droits d'auteur et du domaine de la santé aux TIC¹

Mme LERARI NAWAL

Maitre assistante à l'Institut de Droit et des Sciences Politiques
Université de Tipaza Algérie.

Résumé :

Il est visible aujourd'hui qu'il existe une grande volonté politique en Algérie pour la mise en place d'une stratégie afin d'adapter le droit Algérien aux Technologie de l'Information et de Communication. Cela s'est traduit par bon nombres d'efforts du gouvernement algérien pour accommoder beaucoup de ses lois avec cette nouvelle donne.

Parmi ces lois on peut citer les droits d'auteur, le code pénal, celui du commerce, de la santé, les télécommunications et la sécurité...etc

Avec cette première étude, nous avons voulu, souligner et analyser les derniers amendements qui ont touché des domaines importants et extrêmement délicats : le domaine des droits d'auteur et celui de la santé, et démontrer si elles sont adéquates et suffisantes ?

Mots clé :

droit d'auteur, technologie de l'information et de la communication, droit de la santé, évolution du droit. Algérie.

1. Les technologies de l'information et de la communication.

Introduction :

Consciente du rôle que peuvent jouer les Technologies de l'Information et de la Communication (TIC) dans son développement socio-économique, l'Algérie a dès l'année 2000 pris l'engagement d'œuvrer pour l'intégration des TIC dans les différents secteurs d'activité, afin de pouvoir tirer parti de toutes les opportunités qu'offrent ces technologies pour stimuler et favoriser le développement économique du pays, et d'entrer dans la dynamique mondiale d'édification de la Société de l'Information et du Savoir². C'est dans ce sens que le législateur Algérien a dû adapter beaucoup de ses lois avec cette nouvelle donne, parmi ces lois on peut citer les droits d'auteur, le code pénal, celui du commerce, de la santé, les télécommunications et la sécurité³.

Nous avons voulu avec cette première étude souligner et analyser les derniers amendements qui ont touché le domaine des droits d'auteur et celui de la santé.

Concernant la protection des droits d'auteurs en Algérie⁴ elle est assurée et régie actuellement, par l'ordonnance n°03-05 du 19 juillet 2003 relative aux droits d'auteur et droits voisins qui a abrogé l'ancienne ordonnance n°97-10 du 6 mars 1997. Elle est conférée à toute création littéraire et artistique qui revêt un caractère original et englobe toutes les catégories d'œuvres citées dans l'article 2 de la convention de Berne pour la protection des œuvres littéraires et artistiques⁵. Parmi les principaux amendements qu'a connus cette loi c'est l'extension par le législateur Algérien du domaine et de l'application du droit d'auteur à l'environnement numérique.

Le domaine de la santé a également connu d'importants changements. Les deux volets véritablement touchés par les TIC dans ce domaine sont : la carte électronique de l'assuré social « chifa » et le projet du dossier électronique du patient comme nous allons le voir dans la seconde partie de notre étude.

2. Boudjer hadjira, Orientations de la Politique Pénale de Prévention et de lutte Contre la Criminalité liée aux TIC en Algérie, CERIST, Algérie

3. Pièce jointe n° 1

4. L'environnement législatif algérien en matière de propriété intellectuelle présente de nombreuses similitudes avec le régime français.

5. L'Algérie est partie à la Convention de Berne (Acte de Paris, 1971), à la Convention de Rome et à la Convention OMPI

I. Dans le domaine de la propriété intellectuelle :

Les deux parties réellement concernées par les TIC dans ce domaine sont les droits d'auteur et les noms de domaine.

A. LA PROTECTION DES DROITS D'AUTEUR :

La protection des droits d'auteurs en Algérie⁶ est régie, actuellement, par l'ordonnance n°03-05 du 19 juillet 2003 relative aux droits d'auteur et droits voisins qui a abrogé l'ancienne ordonnance n°97-10 du 6 mars 1997. Elle est conférée à toute création littéraire et artistique qui revêt un caractère original. Elle englobe toutes les catégories d'œuvres citées dans l'article 2 de la convention de Berne pour la protection des œuvres littéraires et artistiques⁷.

Selon l'article 27 de la déclaration universelle des droits de l'homme, chaque personne a le droit à la protection de ses intérêts incorporels et matériels sur sa production scientifique. Ce grand principe a été également introduit dans la loi algérienne par cette nouvelle ordonnance dans son article 3, qui dispose que « toute création d'œuvre littéraire ou artistique, qui revêt un caractère original, confère à son auteur les droits prévus par la présente ordonnance. ». Après une lecture creusée de cette nouvelle loi, notre premier et principal constat et l'extension par le législateur Algérien de l'application du droit d'auteur à l'environnement numérique. Cela s'est traduit dans un bon nombre d'articles, qui se sent néanmoins surtout concentrés sur les **programmes d'ordinateur**, qui ont rafiés la part du lion dans cet amendement par rapport aux autres œuvres numérique avec un total de 06 articles⁸.

La consécration de la protection juridique des programmes d'ordinateurs a été accompli avec l'article 04⁹, qui a omis toute fois de donner une quelque conque définition du programme d'ordinateurs, et qui aurai du aussi utiliser le terme « logiciels »- terme plus étendu- au lieu de « programmes d'ordinateur » dans la version française du texte. Chose qui constitue une des lacunes de cette loi.

Cette ordonnance a ensuite traité de la location commerciale des programmes

6. L'environnement législatif algérien en matière de propriété intellectuelle présente de nombreuses similitudes avec le régime français.

7. L'Algérie est partie à la Convention de Berne (Acte de Paris, 1971), à la Convention de Rome et à la Convention OMPI

8. article 04, 2752 ,45 ,41 ,3/27 ,2-2/ et 53 ord 0305/

9. (article 04 ord 9710/ puis 0305/)

d'ordinateurs (article 27/2), en la qualifiant de mise en circulation de l'œuvre dans le public, ce qui fait d'elle une façon de « communication des œuvres de l'esprit au public », et la soumis à ses règles. Le législateur Algérien a reconnu ainsi à l'auteur du logiciel **un droit exclusif**, qui est celui d'autoursier ou d'interdire la location commercial du programme d'ordinateur. Il a rajouté au 3eme paragraphe du même article, que ces droits de location ne seront pas accordés, si l'objet principal de la location n'est pas le logiciel lui-même. L'auteur peut ainsi interdire toute reproduction en vue de la location si celle-ci n'est pas autorisée à l'avance. On remarque que c'est exactement les dispositions de l'article 11 de TRIPS (ADPIC), qui sont reformulées dans le texte Algérien. Et on voit cela plutôt comme un signe de bonne volonté envoyé par du législateur Algérien pour parvenir à l'adhésion tant espérer de l'Algérie à l'OMC.

L'auteur du logiciel jouis —également— comme l'auteur de chaque ouvre de l'esprit des droits moreaux¹⁰ et de droit patrimoniaux¹¹. Nul ne peut donc utiliser, exploiter, reproduire, adapter ou communiquer au public un logiciel sans l'autorisation de son auteur. La loi reconnaît toute fois quelques exceptions parfois nécessaires, on parle du **droit d'adaptation du logiciel**¹², et de la **copie de sauvegarde**¹³.

la copie de sauvegarde» constitue une exception très importante à nos yeux dans ce domaine, puisqu'elle est dictée par la nature fragile et facilement détériora le du logiciel, notamment en compagnie de facteurs comme le temps et l'utilisation répétée. Grace à cette exception essentielle, il devint possible pour chaque propriétaire légitime d'un logiciel en Algérie, et sans se soucier de l'autorisation de l'auteur, de faire une copie, afin de pouvoir le remplacer en cas de perte ou de détérioration.

La copie privée quant à elle, qui est généralement destinée à un usage personnel ou dans le cadre familial, a été explicitement écarté par l'article 41 de l'ordonnance 03/05, ainsi que par bon nombres de législations dans le monde¹⁴, vu qu'elle constitue un véritable problème et danger à l'industrie du logiciel.¹⁵L'article 45,

10. Droit de paternité, de divulgation, de respect de l'œuvre et le droit de repentir.

11. Droit de l'exploitation du programme d'ordinateur, sa communication au public, sa reproduction, son adaptation...etc.

12. Art 52 ord 0305/.

13. Art 52 ord 0305/.

14. Suisse, Espagne, Arabie saoudite, Emirat AU, ...etc

15. Très difficile d'application (impossibilité de contrôle)

vas d'ailleurs encore plus loin, en interdisant aux bibliothèques et centre d'archives toute reproduction des logiciels pour leurs adhérent. Cela démontre encore une fois la spécificité du logiciel par rapport aux autres œuvres de l'esprit. Un autre point, montre clairement que les logiciels sont certes considérés comme des œuvres de l'esprit protégeables par le droits d'auteur, mais avec comme même quelques spécificités due à leur nature un peu spécial, cela concerne la durée de protection.

Nous savons que la durée normale de protection d'une œuvre de l'esprit, couvre toute la vie de l'auteur et une certaine période après sa mort. Cette période qui varie en fonction de la conception de chaque législateur. En Algérie, cette période a été déterminée de cinquante (50) ans après la mort de l'auteur¹⁶. Mais la question qu'on se pose ici est: est ce que cette durée convient à la vie commerciale d'un logiciel? Autrement dit, si la durée moyenne de la vie d'un logiciel est de sept ans en règle générale, quel intérêt y aura-t-il à le protéger pendant une durée aussi longue que celle prévue pour les autres œuvres de l'esprit? On juge que la durée normale de protection des œuvres de l'esprit ne convient vraiment pas à la nature technique et changeante des logiciels, la plupart des logiciels perdent toute valeur commerciale après la période de sept ans. Cela mérite donc une réflexion de la part de notre législateur.

On doit également faire remarquer que l'ordonnance 2003 a aussi incriminée tout acte de contrefaçon portant sur les logiciels, réaffirmant ainsi la position du texte 97/10 concernant la protection des œuvres TIC (via des supports numériques) contre la diffusion illégale. L'article 152 parle en effet de : « tout système de traitement informatique ». Le législateur a à cet effet reconnu de lourdes sanctions contre ces infractions: La prison de 06 mois à 03 ans. Et une amende allant de 500000 à 1 000000 DA.

L'auteur peut avoir également recours à l'action civile pour demander réparation¹⁷ ainsi qu'aux mesures conservatoires s'il désire stopper l'atteinte aux droits et la saisies des logiciels contrefaits.¹⁸

Pour ce qui est des autres œuvres numériques, on remarque cependant qu'il n'y a pas beaucoup d'ancrage qui a coulé dans ce texte. L'article 05 de l'ordonnance parle des bases de données, sans pour autant la définir au préalable, mais tout

16. article 54 ord 0305/.

17. article 143 ord 0305/

18. article 144, 146, 147 ord 0305/

simplement en la considérant comme étant des œuvres dérivées, et protégées donc par le droit d'auteur sur cette base¹⁹.

Les bases de données ne sont donc pas des œuvres à part entière dans la loi Algérienne, et doivent en plus toujours en tenir compte des droits des auteurs œuvres originales. On peut en déduire que ne constituent pas des bases de données : les œuvres audiovisuelles, littéraires et artistiques ou encore musicales, multimédia ou logicielles qui sont des œuvres en elles-mêmes. Ne sont donc inclus dans la nouvelle protection que les éléments nécessaires au fonctionnement ou à la consultation des bases de données (par exemple les thésaurus et les systèmes d'indexation).

Le second et dernier article qui parle des bases de données, l'article 41, s'est contenté d'écarter les bases de données numériques de l'exception de la copie privée, comme il l'a fait pour les programmes d'ordinateur, et pour les mêmes raisons d'ailleurs. Le texte ne parle pas par contre de beaucoup de choses importantes sur les bases de données : la protection de l'investissement (par le droit sui generis), la titularité des droits (le cas de l'auteur salarié), et de l'étendu de la protection (La loi ne prévoit pas si le producteur de bases de données a le droit d'interdire l'extraction ou la réutilisation par la mise à la disposition du public de la totalité ou d'une partie qualitativement ou quantitativement substantielle du contenu de sa base. peut il également interdire l'extraction ou la réutilisation répétée et systématique de parties non substantielles ?

Ce qu'il nous semble important de relever, c'est que ce texte enfin de compte présente beaucoup de lacune, et n'as pas été finalement plus riche que sont précédent (97/10). Le législateur Algérien est un peu derrière quant à la prise en considération de l'évolution technologique²⁰.

Au terme de cette analyse, il s'avère opportun d'appuyer le choix du législateur Algérien

selon lequel les programmes d'ordinateurs son protégé sur la base des droits d'auteurs et non avec les brevets d'invention ou autre. On approuve parfaitement ce choix car on considère que le programme d'ordinateur a parfaitement sa place comme étant une œuvre littéraire et artistique. Il est vrai que la nature spécifique des logiciels nécessite un traitement particulier quelque fois, comme nous l'avons

19. A condition que ça soit des créations originales (par sa forme ou la disposition des matières)

20. Il ne parle même pas des œuvres multimédias.

souligné plus haut²¹, mais toujours au sein de la législation sur le droit d'auteur et non pas en dehors de ce cadre.

Il serra bon par contre de prévoir en plus – selon le souhait de beaucoup d'informaticiens et de juristes²² – un système d'enregistrement des logiciels, afin de diminuer sinon supprimer, les conflits relatifs à la preuve de la paternité des logiciels en raison de l'évolution rapide de cette matière.

Même avec son nouvel apport, on ne pourra pas dire que la législation Algérienne offre une protection suffisante et capable de lutter à elle seule efficacement contre le piratage.

C'est ce qui a conduit l'office national des droits d'auteur et droits voisins (ONDA) à signer un protocole d'accord avec Microsoft Algérie en juin 2014, dans le cadre de la lutte contre le piratage informatique et la lutte contre la contrefaçon de logiciels. Les deux parties sont toutes les deux concernées par le phénomène du hacking. Ainsi, si l'ONDA a pour mission principale de protéger les œuvres et de faire face à toute violation des droits de la propriété intellectuelle, Microsoft Algérie aspire à lutter contre les différentes formes de piratage des logiciels avec la mise en place une stratégie efficace qui s'appuie sur la sensibilisation de la société civile, la formation des agents de contrôle ainsi que la répression des infractions et délits commis en matière d'atteintes aux droits d'auteurs.

Dans le même contexte, et afin de protéger les vidéos algériennes sur YouTube du piratage informatique et de la violation des droits de la propriété intellectuelle, Google s'est associé à l'Office nationale des droits d'auteurs, dans une démarche visant en premier lieu à sensibiliser l'opinion publique sur le danger du piratage informatique.

Google a ainsi signé le 12 juin 2014 un protocole d'accord visant à préserver les droits d'auteurs de chaque vidéo algérienne sur YouTube.

Maintenant, qu'il s'agisse d'un clip musical, d'un sketch ou même d'un long métrage, YouTube devra recevoir une autorisation officielle de l'ONDA, pour l'exploitation de toutes les vidéos algériennes qu'il voudra publier.

En plus, la société Google aura à payer en retour des redevances émanant

21. pour la durée de protection par exemple

22. Mohamed-Hossam Lotfi, sur la protection juridique des logiciels, bulletin du droit d'auteur' n04- 1989.

des recettes publicitaires. les opérateurs de téléphonie mobile en Algérie sont désormais aussi contraints de signer des conventions pour l'exploitation des vidéos et des œuvres des artistes sur leurs plateformes.

B. LA PROTECTION DES NOMS DE DOMAINE EN ALGERIE :

Les noms de domaine en Algérie sont régis par la Charte de nommage du .DZ de Janvier 2012²³. Sans aucun texte législatif qui l'accompagne²⁴. Cette charte a pour objectif de définir les règles d'enregistrement d'un nom de domaine Internet sous le domaine DZ et de déterminer les modalités pour le déroulement de la procédure d'enregistrement ainsi que les opérations de la maintenance des noms de domaines enregistrés.

Le NIC-DZ est l'instance d'enregistrement Algérienne, organe agréé par l'IANA (Internet Assigned Numbers Authority) depuis 1995, pour gérer les noms de domaine Internet sous le domaine national DZ. Le NIC.DZ peut déléguer ce travail également à des registrars, qui transmettent par la suite les demandes au NIC-DZ et gère les noms de domaines pour le compte du demandeur.

Ce qu'on peut retenir après une lecture creusée de la charte, et que cette dernière consacre d'une façon implicite le Principe du « premier arrivé, premier servi », puisque le N.D est attribué au demandeur éligible ayant le premier fait parvenir sa demande.

Cette charte fait également obligation de fourniture de justificatifs ²⁵(art 09). Et là on s'interroge sur cette position que maintient toujours l'Algérie, qui est le seul pays exigeant toujours des justificatifs, alors que la direction mondiale tant –au contraire- vers la libéralisation de l'enregistrement des noms de domaine, afin d'encourager et d'attirer le plus de personnes à enregistrer sous son N.D.

Concernant le contrôle et la recherche d'antériorité du nom de domaine, en d'autres termes la vérification du droit légitime sur le radical sollicité, on considère que les formulaires exigés par l'article 09, dont on a déjà parlé, constituent justement une sorte de pré-recherche même si, par ailleurs, le NIC-DZ se dégage de toute responsabilité concernant la vérification des droits liés à

23. http://www.nic.dz/images/pdf_nic/charte.pdf

24. Comme c'est le cas de la France, Belgique, Tunisie, Maroc...etc.

25. Exigence de formulaire tel que la copie du registre de commerce ou du dépôt de marque à l'INAPI ou à l'OMPI, ou même la copie du décret officiel de création de l'entité.

un nom en dehors de cette opération. (art 11 de la charte)

Pour ce qui est du caractère monnayable ou pas des noms de domaine en Algérie, La charte .dz n'a rien cité à ce sujet. On n'en déduit que cela est donc possible du moment que rien ne l'interdit, selon le principe général de droit : tout ce qui n'est pas interdit est permis! Cela est fort regrettable, car on trouve les positions de cette charte un peu contradictoire, tantôt une protection très renforcée des noms de domaines et d'autre part l'inverse. D'autant plus que la non interdiction de revente de non de domaine est la cause directe du cyber squattage.

Un autre point très important sur le quel on n'a pas le droit de passer outre en analysant les règles et principes de cette charte, concerne la gratuité de l'enregistrement des noms de domaine, selon l'article 19 de la charte. On se demande pourquoi l'Algérie est le seul pays où l'enregistrement des N.D est gratuit ? alors que s'est sensé être un fort moyen lucratif.

D'autant plus qu'on a constaté qu'en pratique, cette gratuité de service n'a pas d'avantage poussé les personnes à enregistrer leurs noms de domaines sous .dz. ; Qui reste toujours un défavorisés. On pense sincèrement qu'il faudrait se pencher vers d'autres solutions pour sauver le .dz.

La charte.dz traite également du règlement des litiges entre noms de domaine et marques commerciales. Elle stipule que la médiation n'est pas obligatoire(art 13), et parle de commission de règlement des litiges. On s'interroge également sur cette commission, à qui on ne trouve aucune manifestation? Existe-t-elle réellement? D'ailleurs toute institution d'arbitrage et de médiation possède normalement son propre règlement de procédure, sans le quel, elle ne saurait fonctionner. Ou est dans ce cas celui de commission .dz?

Le constat est là:

Alors que tous les régimes concernant les noms de domaine dans le monde vont dans la même direction, qui est de facilité au maximum et de plus en plus les procédures d'attribution des noms de domaine, l'Algérie va à contre courant ! Jusqu'à quand ? On espère que cela ne durera pas plus longtemps. Il faudrait qu'on comprenne en Algérie que les noms de domaine constituent un véritable marché juteux, apportant beaucoup à l'économie nationale, et qu'on fasse tout, désormais, pour attirer le plus grand nombre de personnes à enregistrer leurs noms de domaine sous les TLD qu'on propose. Beaucoup de pays croyaient autrefois qu'une sécurité très renforcée, cadrée par une loi

étatiques rigides été la solution (ex: France et Belgique) Mais en examinant de plus près l'évolution historique de ces lois, on a constaté que finalement, toutes on changé radicalement de position. L'Algérie devra en prendre exemple. La charte.dz doit²⁶ faciliter l'enregistrement des noms de domaine et laisser les institutions judiciaire ou extrajudiciaires faire leurs travaille en cas de conflit, au cas par cas, comme cela se fait dans les autres pays avancés. Il est aussi impératif d'instituer une commission d'arbitrage, réel et effective, pour une gestion rapide, facile et experte des conflits marque- noms de domaine. Chose qui fera régner un environnement sûr pour les noms de domaine en Algérie, car en sachant à l'avance - pour celui qui veut enregistrer son nom de domaine – qu' en cas de conflit, ce dernier sera vite régler, d'une manière très équitable et par une main experte, c'est un élément attrayant et donc vraiment motivant pour enregistrer sous .dz.

Donc et pour crée un environnement Algérien sain et propice aux noms de domaine, nous devrions remédier au plutôt aux lacunes de cette charte, pour cela on propose :

- La légifération du domaine par un décret donnant uniquement les grands principes et ordonnant :

- L'instauration effective d'une institution extrajudiciaire pour une gestion des conflits rapide et experte (avec obligation de publier les décisions en ligne)

- L'élaboration d'un Règlement pour la Procédure alternative de résolution de litiges (ex Maroc) (délai pour porter plainte, définir la « mauvaise foi »...etc)

- L'obligation (par la loi) de concertation et de coopération entre institution d'enregistrements des marques (INAPI) et institutions d'attributions de noms de domaines (CERIST/REGISTRARS). Et de rédiger une convention de coopération en la matière.

- L'Amendement de la charte de nommage sous dz, avec plus de précisions.

- La révision de la composition de nic-dz (représentants des pouvoirs publics+utilisateurs + prestataires de services Internet (bureaux d'enregistrement).

- La reconnaissance et l'encouragement (par la loi) des accords de non opposition et de délimitation de noms de domaine. (évoqué par l'OMPI parmi les mesures techniques visant à la coexistence de noms de domaine similaires, accords destinés à utiliser un même nom identique ou proche. Comme pour ce qui concerne les marques.

26. pour une meilleure gérance des noms de domaines en Algérie

- l'encouragement des sous-domaines .

- L'institution d'un recueil accessible par tous pour de la jurisprudence Algérienne, qui est une source importante de droit notamment pour les domaines qui évolues très vite, comme c'est le cas en matière de technologie de l'information et de la communication.

Enfin, on ne manquera pas de rappeler avec grande certitude que pour l'Algérie, la solution réside justement non pas en renforçant les règles de gestion des noms de domaine avec plus de conditions et de restriction, mais en laissant la brèche grande ouverte pour la jurisprudence Algérienne, qui se devra de jouer un rôle clé dans ce domaine...Car rappelons le, c'est la jurisprudence qui a permis l'élaboration d'un nouveau droit, souple et applicable aux différents et nombreux aspects de l'Internet, avec des règles claires et précises en apportant à chaque fois des solutions équitables aux litiges, et a fait de l'internet un espace juridique sécurisé.

II. Dans le domaine de la Santé :

Les deux volets véritablement touchées par les TIC dans le domaine de la santé sont :

- 1. la carte électronique de l'assuré social« chifa »**
- et**
- 2. le projet du dossier électronique du patient.**

- Concernant la carte chifa, c'est la loi 08-01 du 23-01-2008 complétant la loi n°83-11 du 02-07-1983 relative aux assurances sociales, ainsi que Décret exécutif n° 10-116 du 18 avril 2010 fixant le contenu et les conditions de délivrance, d'utilisation et de renouvellement de la carte électronique de l'assuré social et des clés électroniques des structures de soins et des professionnels de la santé, qui ont bouleversés le domaine de l'assurance médicale en Algérie, avec le lancement de la carte électronique, qui permet l'identification de l'assuré ainsi que ses ayants droit pour faire valoir leurs droits aux prestations de Sécurité sociale. Elle comporte des informations personnelles sur l'assuré²⁷ (état de santé, suivi médical, remboursement des médicaments et examens médicaux).

Il suffit que l'assuré social ou l'un de ses ayants droit présentera carte Chifa

27. Art 02 du décret exécutif n° 10116- du 18 avril 2010 fixant le contenu et les conditions de délivrance, d'utilisation et de renouvellement de la carte électronique de l'assuré social et des clés électroniques

auprès des pharmacies, des médecin sou des opticiens lunetiers conventionnés et aussi lors de toute démarche auprès des centres de paiement.

Le système CHIFA constitue l'une des principales réformes entreprises dans le cadre de la modernisation du secteur de la sécurité sociale. Il se définit en termes de gestion moderne alliant à la fois électronique et informatique en intégrant des technologies de pointe formant ainsi un trait d'union entre l'organisme de sécurité sociale, le professionnel de santé et l'assuré social. Le système CHIFA s'est réalisé sur deux (02) étapes :

La première étape : elle s'est étalée de 2007 à 2012 avec la mise en place d'une infrastructure de base, dotée de moyens matériels nécessaires au bon fonctionnement du système laquelle a permis la création d'un réseau informatique et différentes applications métiers .

La deuxième étape: lancée à compter du 03 février 2013, c'est la phase ultime, celle de l'extension de l'utilisation de la carte CHIFA à l'échelle nationale. Ceci permettra aux assurés sociaux de bénéficier des médicaments auprès de toutes les officines pharmaceutiques conventionnées se trouvant sur le territoire national.

Un second centre de personnalisation : le site de secours de Laghouat
En début de l'année 2013, la wilaya de Laghouat s'est dotée d'un site de secours (site backup) afin de garantir la continuité du service en cas de panne ou d'imprévu pouvant survenir au centre de Ben Aknoun. Ce site est constitué d'une station de traitement de contrôle des formulaires transmis par les agences et ce en synchronisation avec le centre de personnalisation principal, permettant ainsi de sécuriser la base des données qui est un réseau informatique renforcé en fibres optiques.

la loi 08-01 a également reconnu de nouvelles infractions liées aux TIC dans le domaine de l'assurance médicale, ces infractions sont :

- 1. L'usage illégal de la carte électronique de l'assuré social²⁸ ;**
- 2. La modification ou suppression frauduleuse de données insérées dans cette carte.²⁹**
- 3. L'élaboration, la modification et la reproduction de manière illicite**

28. Art 04 de la loi 0801- du 232008-01- complétant la loi n°8311- du 021983-07- relative aux assurances sociales : art 93 bis2

29. Art 04 de la loi 0801- du 232008-01- complétant la loi n°8311- du 021983-07- relative aux assurances sociales : art 93 bis3

les logiciels³⁰ permettant d'accéder ou d'utiliser les données contenues dans la carte.

4. La reproduction, la fabrique ou la mise en circulation, d'une manière illicite la carte électronique de l'assuré social.³¹

Elles sont assorties de lourdes sanctions : emprisonnement de deux (2) à cinq (5) ans et d'une amende de 100.000 à 200.000 DA.

Par contre, le problème du secret professionnel reste entier. La loi a complètement omis cette question. Pourtant elle a été soulevée par des parlementaires, médecins notamment. Car Si dans les officines et les cabinets médicaux privés, la responsabilité du secret professionnel incombe au seul praticien, il n'en est pas de même dans les services publics. Dans ces derniers, cette responsabilité n'est pas clairement définie. Elle est diluée entre le(s) médecin(s), les auxiliaires (personnel paramédical, secrétariat...) et l'administration. Il faudra bien en tenir compte.

S'il est aisé d'introduire des données médicales, à des fins de fraude, et c'est là un des principaux soucis exprimé et sévèrement puni par ce texte de loi, il est naturellement aussi aisé de violer le secret des données contenues dans la carte électronique. De ce risque, il n'en a pas été question dans ce texte.

- Concernant l'avant projet de la nouvelle loi sur la santé (amendement de la loi 85/05 prévu pour 2014/2015), qui arbore le dossier médical électronique en Algérie, constitue le second élément clés permettant enfin une entrée remarquable des TIC dans le domaine de la santé.

C'est un projet de coopération entre l'Algérie et l'Union européenne sur le développement de la gestion de l'information sanitaire. Ce projet pilote, dont la première phase a été lancée en 2013, vise à former une base de données comportant des informations médicales globales, depuis l'admission du malade à l'hôpital jusqu'à sa sortie.

le dossier médical électronique vise l'amélioration des prestations de soins, par la réduction des délais de rendez-vous et une meilleure gestion des dossiers

30. la loi 0801- du 232008-01- complétant la loi n°8311- du 021983-07- relative aux assurances sociales

31. la loi 0801- du 232008-01- complétant la loi n°8311- du 021983-07- relative aux assurances sociales

des malades.

- la carte magnétique qui comporte le dossier médicale électronique, est obligatoire et doit être exigée avant chaque consultation médicale. (art 20 p. loi santé)


Mais on voudrait toute fois attirai l'attention du législateur sur l'importance de la formation du personnel médical à l'utilisation de l'informatique, pour éviter les erreurs dans la manipulation des dossiers.

Conclusion :

Aujourd'hui, il est clair qu'il existe une forte volonté politique de mise en place d'une stratégie pour l'adaptation du droit Algérien aux Technologie de l'Information et de Communication en Algérie. C'est ce que traduisent les efforts déployés par le gouvernement algérien, que nous venons de passer en revue à travers le présent papier.


Ces efforts qui seront certainement renforcés au cours des années à venir, suivant le rythme d'expansion de ce phénomène dans la société algérienne d'une part, et surtout le degré de sa maîtrise par toutes les parties concernées d'une autre. Cette démarche n'est, sans doute, pas propre à l'Algérie, puisque même les pays les plus avancés dans le domaine, ont dues traiter le phénomène de façon progressive.

Pièce jointe n=01

AXES	REGLEMENTATION ALGERIENNE QUI TOUCHE AUX TIC		
	LA LOI	L'ARTICLE	ANALYSE ET INTERPRÉTATION
PENAL (Cybercriminalité)	<u>I. Lois pénales</u> 1. Loi n° 01-09 du 26 juin 2001 modifiant et complétant l'ordonnance n° 66-156 du 8 juin 1966 portant code pénal. 2. – Loi n° 04-14 du 10 novembre 2004 modifiant et complétant l'ordonnance n° 66-155 3. Loi n° 06-23 du 20 décembre 2006 modifiant et complétant l'ordonnance n°66-156		<div>  <p>–Le législateur algérien à été influencé par la convention de Budapest (2001) sur la cybercriminalité</p> <p>–Traitement progressive de la question de la cybercriminalité par le législateur Algérien.</p> <p>–Introduction dans le code pénal d'articles prévoyant une protection des systèmes informatiques en incriminant les actions malveillantes dirigées contre les systèmes de traitement automatisé des données.</p> </div> <p>–la loi 09/04 sur la cybercriminalité comprend 19 articles répartis en 6 chapitres :</p>

	<p>4. Loi n°09-04 du 05 aout 2009 portant règles particulières relatives à la prévention et à la lutte contre les infractions liées aux technologies de l'information et de la communication</p>	<p>– le premier définit l'objet, la terminologie et le champs d'application de la loi, souligne « le respect du principe du secret des correspondances et des communications » sauf dans des cas exceptionnels et la collecte et l'enregistrement en temps réel de leur contenu ainsi que des perquisitions et des saisies dans un système Informatique.</p> <p>–Le deuxième chapitre porte sur la surveillance des communications électroniques à des fins préventives en tenant compte de la gravité des menaces potentielles et de l'importance des intérêts à protéger. Sur cette base, les opérations de surveillance électronique ne peuvent être effectuées que sur autorisation de l'autorité judiciaire compétente. La surveillance des communications électroniques est autorisée dans quatre cas(pour prévenir les infractions qualifiées d'actes terroristes ou subversifs et les infractions contre la sûreté de l'Etat, (dans ce cas l'autorisation est délivrée aux officiers de police judiciaire par le procureur général près la Cour d'Alger.</p> <p>–Le 3ème chapitre du projet comprend les règles de procédure relatives à la perquisition et à la saisie en matière d'infractions liées aux technologies de</p>
--	--	--

		<p>l'information et de la communication.</p> <p>–Quant au 4ème chapitre il fixe les obligations qui incombent aux opérateurs en communications électroniques, notamment l'obligation de conserver les données relatives au trafic qui est à même de faciliter la détection des infractions et l'identification de leurs auteurs.</p> <p>–Dans son 5ème chapitre, la loi prévoit la création d'un organe national ayant une fonction de coordination en matière de prévention et de lutte contre la criminalité liée aux technologies de l'information et de la communication, de dynamisation et de coordination des opérations de prévention contre la cybercriminalité, outre l'assistance des autorités judiciaires et des services de police judiciaire dans les enquêtes qu'elles effectuent au sujet de ces crimes. Outre la collecte des informations et les expertises judiciaires, cet organe sera chargé, en vertu de ce projet, de l'échange</p>
	articles 144 bis, 144bis1 et 2et 146	<p>d'information avec ses interfaces à l'étranger afin de lutter contre ce dangereux type de criminalité.</p> <p>–Quant au 6ème chapitre, il définit les règles juridictionnelles et la coopération internationale à travers l'élargissement de la compétence des cours pénales</p>

	<p><u>II. Loi</u> <u>procédures</u> <u>pénales</u></p> <p>– Loi n° 04-14 du 10 novembre 2004 modifiant et complétant l’ordonnance n° 66-155 du 8 juin 1966 portant code de procédure pénale.</p> <p>– Loi n° 06-22 du 20 décembre</p>	<p>notamment pour ce qui est des infractions liées aux technologies de l’information et de la communication notamment quand ces infractions sont commises par des ressortissants et ayant pour cible les intérêts stratégiques de l’Algérie.</p> <p>Concernant la coopération internationale, la loi prévoit une série de principes généraux relatifs notamment à l’assistance et à l’échange d’informations sur la base de la réciprocité.</p> <p style="text-align: center;"></p> <p>– Première consécration <u>explicite</u> dans la loi algérienne pour la prévention et à la lutte contre les infractions liées aux technologies de l’information et de la communication</p> <p>– Définition de la loi des infractions liées aux TIC.</p> <p>– Implication des fournisseurs de services dans le processus de prévention de la cybercriminalité :</p> <p>a– Obligations des fournisseurs de services (conservation des données relatives au trafic).</p> <p>b– obligations par la loi des fournisseurs</p>
--	--	---

	<p>2006 modifiant et complétant l'ordonnance n° 66-155 du 8 juin 1966 portant code de procédure pénale.</p>	<p>d'accès internet de mettre en place des dispositifs techniques afin de limiter l'accessibilité au contenu contraire à l'ordre public ou aux bonnes mœurs).</p> <ul style="list-style-type: none"> – Création de l'organe national de prévention et de lutte contre la cybercriminalité. – Constat d'une réelle et forte volonté politique de mise en place d'une stratégie pour la prévention et la lutte contre la criminalité liée au TIC en Algérie. – Sur la question du risque d'atteinte aux libertés individuelles, à travers la surveillance prévue dans cette loi, en remarque que cette dernière a tenu compte de l'équilibre entre l'ordre public et les libertés individuelles. En cas d'oppositions, la priorité sera accordée à la sécurité générale, car l'intérêt général est au dessus de l'intérêt personnel. – la loi Algérienne offre un cadre juridique plus approprié et plus adapté au contexte particulier de la lutte contre la cybercriminalité grâce à la combinaison des règles de procédure venant compléter le
--	---	---

			<p>code de procédure pénale à des règles préventives dont le but est de permettre une détection précoce des attaques probables et une intervention rapide pour localiser leurs origines et identifier leurs auteurs.</p> <p>– A par la procédure d’interception de correspondances, des sonorisations et des fixations d’images, les révisions de 2004 et 2006 du code p.p ne visent que les infractions d’atteinte aux STAD contrairement aux règles procédurales de la loi 09-04 :</p> <p>(surveillance judiciaire des communications électroniques en cas d’enquêtes judiciaires, perquisition des systèmes informatiques, saisie de données informatiques, coopération internationales...etc).</p> <p>– Consolidation de la coopération et de l’entraide judiciaire internationales.</p>
COMMERCIAL	Loi n°05-02 du 6 février 2005 modifiant et complétant l'ordonnance n°75-59 du 26	–Art 414 de la loi 05/02.	<p>– Le paiement électronique est reconnu dans la législation Algérienne depuis l’amendement du code du commerce en 2005, et cela dans ces trois cas :</p>

	septembre 1975 portant code de commerce.	-Art 502 de la loi 05/02 -Art 543 bis 23 de la loi 05/02	-1. La lettre de change (qui peut s'effectuer par tout moyen d'échange électronique.) -2. Le chèque (qui peut s'effectuer également par tout moyen d'échange électronique selon l'article 502) -3. La reconnaissance de la carte de paiement et de retrait électronique (art 543 bis 23)
CIVIL la Signature électronique (droit de la preuve)	Loi n° 05-10 du 20 juin 2005 modifiant et complétant l'ordonnance n° 75-58 du 26 septembre 1975, modifiée et complétée, portant code civil.	Art 323 bis/ Art 323 ter Art 324 bis2 Art 327	-Reconnaissance document et signature électronique : - Reconnaissance de l'écrit électronique comme preuve authentique. -Reconnaissance juridique tacite de la signature électronique. - Absence de définition de la signature électronique dans la loi Algérienne. - le plus grand regret c'est que la législation Algérienne ne donne aucune solution ou alternative en cas de conflit de preuve (classique /c électronique).
Propriété intellectuelle	- l'ordonnance n° 97-10 du 06-03-1997 relative aux	Art 04 (protect	- La protection des droits d'auteurs en Algérie est régie, actuellement, par

		<p>Avec l’incrimination de tout acte de contrefaçon portant sur ces types d’œuvres de l’esprit et la réaffirmation de la position du texte 97/10, concernant la protection des œuvres TIC, et contre la diffusion quel que soit d’œuvres protégées via des supports numériques.</p> <p>= Art 152 (délict de contrefaçon pour celui qui communique–sans droit– via tout système de traitement informatique)</p> <p>ONDA /MICROSOFT</p> <p>L’Office Nationale des Droits d’Auteurs et Droits</p> <p>voisins a signer un protocole d’accord avec Microsoft Algérie,(juin 2014) , Dans le cadre de la lutte contre le piratage informatique et la lutte contre la contrefaçon de logiciels. Les deux parties sont toutes les deux concernées par le phénomène du hacking. Ainsi, si l’ONDA a pour mission principale de protéger les oeuvres et de faire face à toute violation des droits de la propriété intellectuelle, Microsoft Algérie aspire à lutter contre les différentes formes de piratage des logiciels. (mise en place une stratégie efficace qui s’appuie sur la sensibilisation de la société civile, la formation des agents</p>
--	--	---

<p>(DROIT D'AUTEUR)</p> <p>L'Algérie est partie à la Convention de Berne (Acte de Paris, 1971), à la Convention de Rome et à la Convention OMPI.</p>	<p>droits d'auteurs et aux droits voisins.</p> <p>(Journal Officiel n°13 du 12 mars 1997).</p> <p>– Ordonnance n° 03-05 du 19 juillet 2003 relative aux droits d'auteur et aux droits voisins</p> <p>(Journal Officiel n°44 du 23 juillet 2003)</p>	<p>ion des programmes d'ordinateur)</p> <p>52/53 (la copie de sauvegarde d'un programme d'ordinateur)</p> <p>Art 152 ord 03-05</p>	<p>l'ordonnance n°03-05 du 19 juillet 2003 relative aux droits d'auteur et droits voisins qui a abrogé l'ancienne ordonnance n°97-10 du 6 mars 1997. Elle est conférée à toute création littéraire et artistique qui revêt un caractère original. Elle englobe toutes les catégories d'œuvres citées dans l'article 2 de la convention de Berne pour la protection des œuvres littéraires et artistiques.</p> <p>Selon l'article 27 de la déclaration universelle des droits de l'homme, chaque personne a le droit à la protection de ses intérêts incorporels et matériels sur sa production scientifique. Ce grand principe a été introduit dans la loi algérienne par cette nouvelle ordonnance dans son article 3, qui dispose que « toute création d'œuvre littéraire ou artistique, qui revêt un caractère original, confère à son auteur les droits prévus par la présente ordonnance. On constate l'extension de l'application du droit d'auteur à l'environnement numérique également, par la consécration de la protection des programmes d'ordinateur, bases de données numériques, et toute création du moment où elle est originale, qu'elle quelle soit la manière de sa représentation (sous forme numérique on – line ou off–line).</p>
---	---	--	--

		<p>de contrôle ainsi que la répression des infractions et délits commis en matière d'atteintes aux droits d'auteurs.</p> <p>ONDA/GOOGLE :</p> <p>Afin de protéger les vidéos algériennes sur YouTube du piratage informatique et de la violation des droits de la propriété intellectuelle, Google s'est associé à l'Office nationale des droits d'auteurs.</p> <p>Dans une démarche visant en premier lieu à sensibiliser l'opinion publique sur le danger du piratage informatique, Google a signé le 12 juin 2014 un protocole d'accord visant à préserver les droits d'auteurs de chaque vidéo algérienne sur YouTube.</p> <p>Ainsi, qu'il s'agisse d'un clip musical, d'un sketch ou même d'un long métrage, YouTube recevra de l'ONDA une autorisation officielle pour l'exploitation de toutes les vidéos algériennes qu'il publie.</p> <p>Par ailleurs, la société Google devra payer en retour des redevances émanant des recettes publicitaires. les opérateurs de téléphonie mobile en Algérie sont désormais contraints de signer des conventions pour l'exploitation des vidéos et des oeuvres des artistes sur leurs plateformes.</p>
--	--	--

<p>Santé</p>	<p>-La loi 08-01 du 23-01-2008 complétant la loi n°83-11 du 02-07-1983 relative aux assurances sociales</p> <p>- Décret exécutif n° 10-116 du 18 avril 2010 fixant le contenu et les conditions de délivrance, d'utilisation et de renouvellement de la carte Électronique de l'assuré social et des clés électroniques des structures de soins et des professionnels de la santé.</p> <p>- Avant projet concernant la nouvelle loi sur la</p>	<p>- Art 20 du projet de loi.</p>	<p>- Reconnaissance de nouvelles infractions liées aux TIC dans le domaine de l'assurance médicale :</p> <p>- 1. L'usage illégal de la carte électronique de l'assuré social ;</p> <p>-2. La modification ou suppression frauduleuse de données insérées dans cette carte.</p> <p>- le dossier médical électronique : (projet de coopération entre l'Algérie et l'Union européenne sur le développement de la gestion de l'information sanitaire)</p> <p>-Ce projet pilote, dont la première phase a été lancée en 2013, vise à former une base de données comportant des informations médicales globales, depuis l'admission du malade à l'hôpital jusqu'à sa sortie.</p> <p>- le dossier médical électronique vise</p>
---------------------	--	-----------------------------------	--

	santé (amendement de la loi 85/05)		l'amélioration des prestations de soins, par la réduction des délais de rendez-vous et une meilleure gestion des dossiers des malades. – la carte magnétique qui comporte le dossier médicale électronique, est obligatoire et doit être exigée avant chaque consultation médicale. (art 20 p. loi santé) – On voudrait attirer l'attention du législateur sur l'importance de la formation du personnel médical à l'utilisation de l'informatique pour éviter les erreurs dans la manipulation des dossiers.
Sécurité	– Décret exécutif n°09-410 du 10 décembre 2009 fixant les règles de sécurité applicables aux activités portant sur les équipements sensibles. (Logiciel d'encryptions) – Arrêté interministériel du 13 octobre 2011	– Art 02 décret exécutif 09/410 – Art 04 –10 décret exécutif	– Qualification des équipements et des logiciels d'encryption d'équipements sensibles – régime unique pour l'ensemble des équipements et logiciels d'encryptions, sans distinction aucune (qu'ils soient destinés à l'identification et l'intégrité ou à la confidentialité) – Exigence d'un agrément préalable délivré par le ministère de l'intérieur

	fixant les conditions et les modalités d'acquisition, de détention, d'exploitation, d'utilisation et de cession des équipements sensibles	09/410 – Art 17 du décret exécutif 09/410	(agrément des opérateurs) pour l'exercice des activités de commercialisation et de prestation de services des équipements sensibles : <ul style="list-style-type: none"> - Importation/exportation - Fabrication - Vente - Installation - Maintenance et réparation – Soumission des activités d'acquisition pour exploitation d'équipements et logiciels d'encryptions à l'autorisation préalable de l'ARPT.
--	---	--	--

Bibliographie :

- Stratégie e-Algérie 2013. A consulter sur le site officiel du Ministère des Postes et Technologies de l'Information et de la Communication : <http://www.mptic.dz/fr/?e-Algerie-2013>
- Ordonnance n° 03-05 du 19 juillet 2003 relative aux droits d'auteur et aux droits voisins (Journal Officiel n°44 du 23 juillet 2003)
- l'ordonnance n° 97-10 du 06-03-1997 relative aux droits d'auteurs et aux droits voisins.
(Journal Officiel n°13 du 12 mars 1997).
- Charte de nommage du .DZ (Janvier 2012) régissant les noms de domaine en Algérie.
- Loi 08-01 du 23-01-2008 complétant la loi n°83-11 du 02-07-1983 relative aux assurances sociales.

- Décret exécutif n° 10-116 du 18 avril 2010 fixant le contenu et les conditions de délivrance, d'utilisation et de renouvellement de la carte électronique de l'assuré social et des clés électroniques des structures de soins et des professionnels de la santé.

- Avant projet concernant la nouvelle loi sur la santé (amendement de la loi 85/05).

L'efficacité du traitement familial dans le redressement des relations et son impact sur le comportement agité chez l'enfant handicapé.

Touhami Soufiane

Maitre assistant à l'université de Saida

Houti Souaad

Doctorante à l'université de Tlemcen

Résumé:

Le choix de ce sujet a été basé sur des observations d'une pratique clinique, parmi ces observations la difficulté de l'enfant handicapé à s'adapter avec sa famille et son environnement. Ce qui était remarquable c'est la volonté de la famille et en particulier la maman à aider son enfant handicapé qui se comporte d'une façon normale. Durant notre travail avec ce type de famille nous avons remarqué qu'un problème relationnel peut avoir un impact sur le psychisme de l'enfant handicapé et pour cette raison la sensibilisation de la famille est très importante.

Les mots clés:

L'handicap-la psychothérapie familiale systémique -le retard mental.

Introduction:

Pour réaliser cette étude qui se base sur l'application de la psychothérapie systémique et familiale nous posons la suivante problématique :

A quel point la psychothérapie systémique -familiale peut servir à améliorer la relation entre l'enfant handicapé et sa famille ?

Et pour étudier cette problématique, nous avons appliqué un programme thérapeutique sur un enfant atteint d'une déficience mentale légère. Mais avant de présenter l'étude de cas, nous chercherons à clarifier les concepts et les variables qui sont basés dans notre étude, à savoir: la déficience mentale et le handicap, la famille de l'enfant souffrant d'un handicap mental, l'efficacité de la thérapie familiale.

1- l'enfant et L'handicap :

L'enfant handicapé s'est celui qui commence sa vie avec un déficit ou acquies un retard durant sa croissance, on compare avec d'autres enfants qui ont le même âge. Selon l'OMS il comprend 3 dimensions qui révèlent autant de composantes du handicap. Ces concepts sont les suivants : déficience, incapacité et désavantage

- Déficience : « Dans le domaine de la santé, la déficience correspond à toute perte de substance ou altération d'une fonction ou d'une structure psychologique, physiologique ou anatomique.» - Incapacité : « Dans le domaine de la santé, une incapacité correspond à toute réduction (résultant d'une déficience) partielle ou totale de la capacité d'accomplir une activité d'une façon normale ou dans les limites considérées comme normales, pour un être humain.»

- Désavantage : « Dans le domaine de la santé, le désavantage social d'un individu est le préjudice qui résulte de sa déficience ou de son incapacité et qui limite ou interdit l'accomplissement d'un rôle considéré comme normal, compte tenu de l'âge, du sexe et des facteurs socioculturels » (Guidetti, M., Turrette, C, 1999, p 58).

2- le retard mental chez l'enfant :

Les termes utilisés pour définir les personnes présentant un retard mental ont beaucoup évolué au cours du temps. Au XIX^e siècle, les personnes ayant un retard moyen ou grave étaient qualifiées d'*idiots* ou *débiles*, alors que celles qui

présentaient un retard léger étaient appelées *imbéciles* ou *débiles légers*. Le terme *mongolien*, en lien avec les caractéristiques physiques associées à la trisomie 21, a également été utilisé jusqu'à une période récente ; il est tout à fait familier et dépréciatif. Le terme oligophrénie s'utilisait pour un retard mental grave. Il n'y a toujours pas de consensus clair sur le (ou les) terme(s) à utiliser, à ceux de « retard mental » et de « handicap mental » s'ajoutent par exemple les termes d'« arriération mentale » ou de « déficience intellectuelle », ce dernier étant notamment répandue au Québec Collectif, « Lignes directrices pour l'évaluation du retard mental »(Ordre des psychologues du Québec, Octobre 2007, p6)

L'Organisation mondiale de la santé (OMS), dans sa Classification internationale des maladies (CIM-10), définit le retard mental ou (*mental retardation*) comme un « arrêt du développement mental ou un développement mental incomplet, caractérisé par une insuffisance des facultés et du niveau global d'intelligence, notamment au niveau des fonctions cognitives, du langage, de la motricité et des performances sociales »(la Classification Internationale des maladies sur le site de l'Université Rennes 1).

Le retard mental peut être divisé en trois types, le premier est le retard mental profond avec un QI entre 0-20 degrés, qui a un taux d'environ 5% du total des retardés, et un niveau mental ne dépasse pas les 03 ans et sont caractérisés par l'absence de la langue et l'incapacité à faire de base de leurs besoins, de lui créer subordination complète à la mère.

Le second est le retard mental moyen représente environ 20% du total des retardés le QI entre 25-45 / 70 degrés et l'âge mental entre 07 et 08 ans, ils peuvent apprendre la langue et de pratiquer des comportements simple ils n'ont pas la compatibilité sociale.

Le troisième type est un retard mental léger, qui a un taux de 75%, et un QI entre 50-70 / 75 degrés, âge mental entre 08 et 10 ans, la caractéristique la plus importante dans ce type est la capacité à lire et à écrire et d'étudier et de suivi leur arrivée jusqu'à la fin de l'école primaire, mais sous une éducation spécialisée selon leurs capacités mentales (Mimouni 2005 p197).

Malgré les multiples et différentes types de retard mental, mais les caractéristiques des enfants handicapés restent fréquentes, indépendamment de QI, et puisque notre étude a porté sur l'efficacité du traitement systémique à améliorer la communication au sein de la famille de benfant qui a un handicap mental, nous avons remarqué grâce à notre engagement avec cette proportion

sur le niveau psychologique et social, que les enfants souffrant de :

- * changement de l'humeur et l'incompatibilité émotionnelle.

- * Incapacité à contrôler les émotions, ce qui peut parfois les amener à l'irritabilité et agressivité.

- * difficulté dans la compatibilité et l'interaction sociale avec un désordre du concept de soi.

3- l'impact de l'handicap mental chez l'enfant sur la famille :

La famille vit dans une structure interne qui se compose d'un ensemble de relations et des liens qui se partage parmi ses membres, mais ce système comme les autres systèmes peuvent être exposés à un trouble qui pourrait conduire à une mauvaise communication entre les membres. Un exemple d'un trouble qui imprègne la famille, la présence d'un enfant handicapé à l'intérieur de la famille est l'un des obstacles qui abordent le processus de la famille car elle nécessite l'adaptation, cet ajustement est un processus interactif qui change le système de la famille (**Aimard, P., et Morgon, A., 1985, p70**).

Le fait d'avoir un bébé normal augmente l'estime de soi des parents, en revanche l'enfant handicapé peut causer une blessure narcissique, cela a été confirmé par Mannoni (**Mannoni, M 1964, p26**).

Scelles confirme que la naissance d'un enfant avec un handicap mental est toujours une blessure narcissique pour les parents et quelle que soit le degré de l'handicap, Les parents se sentent coupables, Soit de leurs incapacité à avoir un enfant normal ou envers l'incapacité à le protéger (**Satir.V,1982,p 62**)

Le vécu psychique de l'enfant handicapé est une chose étrange pour les parents ordinaires, ils sont incapables d'imaginer ce que ressentie l'enfant, donc il ne peut pas l'aider dans ce qu'il ressent et de l'exprimer. Les besoins de l'enfant, provoquant la frustration pour les parents d'une part en raison de leur incapacité à lui plaire, et pour l'enfant puisque il sent l'incompréhension de l'autre (**Scelle. R, 1997,p29**).

L'handicap affecte même les frères où il provoque un manque de compréhension de la situation envers l'enfant, et les interventions multiples des parents pour protéger l'enfant peuvent empêcher toute les relations entre les frères (**Scelles. R, opcit,p109**) .

C'est pour cette raison qu'on peut dire que l'enfant qui a un retard mental est besoin toujours à l'autre surtout si l'indépendance était inexistante. Donc la présence permanente d'un membre de la famille à coté de l'enfant est nécessaire, ce qui provoque une négligence surtout chez la mère envers d'autres occupations.

L'accompagnement de l'enfant handicapé nécessite une concentration des autres sur lui, car l'handicap de l'enfant limite les relations avec le monde extérieur, soit par honte ou par la protection de l'enfant des différents frustrations. Certaines familles préfèrent l'isolement pour éviter toute personne étranger.

4- l'efficacité de la psychothérapie familiale systémique :

Les psychothérapies familiales systémiques sont considérées comme le résultat d'une série de mouvements qui ont émergé dans le domaine de la psychologie clinique et la psychopathologie d'un coté et en conséquence des pratiques traditionnelles sur la famille (médicale et comportementale) d'un autre coté. Tout cela est pour le traitement de la maladie mentale et surtout le travail qui a été élaboré par Bateson et l'équipe de Palo Alto sur la communication (surtout chez les schizophrènes) étant donné que certains membres de ce groupe s'est concentré sur le contact des patients atteints d'une schizophrénie et la contradiction des liens (doubles contraintes) qui existent entre les patients et leurs mères (1950) et par des observations de divers aspects de la communication au sein de la famille, ils ont été convaincu que le patient fait partie d'un système et les symptômes sont des manifestations fonctionnels au sein de la famille (**Serge Ginger et Michel Mignant psychothérapie, p13**)

Ce type de psychothérapie est basé sur des tentatives pour modifier et organiser les interactions entre les membres de la famille et les mettre comme une structure qui respecte la fonction de chaque individu (**Silke Schauder, 2012, p14**).

La thérapie familiale systémique repose sur l'idée qu'il y a des événements spécifiques dans la famille à travers les générations peut affecter la vie des individus, Afin d'explorer ce processus dynamique on devrait fonctionner sur l'application des stratégies de traitement familiale systémique et ses techniques. Et tout ça pour réaliser les buts suivantes :

- * Parvenir à une meilleure compréhension de chaque membre de la famille et pour le reste de membres de la famille

- * Résoudre des problèmes communs entre eux.

- * Ignorer le stress émotionnel dans la famille
- * Résoudre les conflits et l'anxiété qui existe entre les membres de la famille.
- * La Protection de la famille contre la probabilité de troubles psychologiques.
- * La réalisation de la santé mentale dans la famille en tant que groupe et en tant qu'individus.
- * Réduire la différence et assurer la compatibilité entre les sexes entre les différentes générations (parents et enfants) dans la famille.

Et pour atteindre les objectifs de la psychothérapie familiale et garantir l'efficacité de ce traitement, le psychothérapeute doit construire une alliance thérapeutique avec la famille de l'enfant handicapé. Et pendant les premiers entretiens, le psychothérapeute essaie d'atteindre avec la famille à un consensus clair sur les objectifs les plus importantes et les principes centraux sur toute action commune.

A cet égard, Robert Jay Green propose le terme de compatibilité ce qui signifie: «la négociation d'un accord clair ou implicite sur le sujet du problème et les objectifs. Tout cela se fait au cours des séances et le considère comme approprié au cours de la thérapie». En plus, il faut traiter le problème d'une façon indirect pour faciliter la tâche à l'équipe thérapeutique pour affronter la résistance de la famille. Car toute tentative de forcer la famille produit un dysfonctionnement dans le système et réduire la possibilité pour le changement.

Le psychothérapeute est le principal vecteur pour les individus à changer, pour cette raison, il est nécessaire d'envisager dès le départ dans la base de la relation thérapeutique et le partage des thérapeutes (**Gérard Salem ,2000,p150**).

La Théorie systémique attache une grande importance au psychothérapeute et affirme que l'efficacité de la thérapie familiale apparaît que par la capacité du psychothérapeute pour contrôler la relation thérapeutique.

Parmi les chercheurs qui se sont intéressés au rôle de thérapeute, Balint et Scheinder ils ont étudié la relation entre le patient –médecin, Murray Bowen a également utilisé le terme «coach» plutôt que thérapeute, selon lui on peut assimiler la relation thérapeutique à un coaching ; c'est comme un entraîneur dont le rôle est d'améliorer la performance des athlètes à la limite et pour les aider à découvrir le vrai chemin.

5- étude de cas :

* présentation de l'enfant :

- âge : 7 ans
- sexe : masculin
- position de l'enfant : 2ème
- motif de consultation : mauvaise résultats à l'école.

* présentation de la mère :

- âge : 39 ans
- profession : femme au foyer
- niveau scolaire : secondaire
- fratrie : 3, 2 garçons et 1 fille
- grossesse : normal
- accouchement : difficile
- relation avec l'enfant handicapé : mère protectrice

* entretiens :

La mère est venue pour une consultation psychologique avec son enfant qui a présenté de mauvais résultats à l'école, ainsi que des comportements bizarres.

La mère a été coopérative au cours des entretiens avec, nous avons demandé un examen médical approfondi sur l'état du Fils, et nous avons essayé de contacter le professeur à l'école pour la rédaction d'un rapport sur la situation afin d'identifier l'état psychologique et mentale pour de l'enfant.

Le psychologue a appliqué le test de Wechsler afin de déterminer la proportion d'intelligence qui était à 60 degrés, et après avoir une lecture sur le dossier nous avons posé un diagnostic d'un retard mental de type léger.

Au début la mère n'a pas accepté l'état de son fils, c'est pour ça qu'elle a demandé un autre examen ce qui nous a poussé à convaincre d'abord la maman. L'absence du père a également été l'un des motifs d'insatisfaction de la mère en raison de ses conditions de travail il est souvent absent de la maison dont la mère porte une grande responsabilité et que l'état de l'enfant handicapé exige une protection particulière.

Il a également remarqué après l'information des parents sur l'état de leur fils que la relation avec son mari a été troublée, surtout que la situation a besoin de soutien et d'assistance entre le couple, ce qui nous a fait suggérer un

programme thérapeutique de la famille, en essayant à travers lequel d'améliorer la communication au sein de la famille, surtout que cette atmosphère perturbée a un impact sur les enfants et surtout l'enfant handicapé.

La psychothérapie :

Nous avons adopté dans le processus thérapeutique le programme structurel de **Minuchin**, qui est basée sur le concept de la structure familiale, il considère que la base du traitement systémique dans la famille est la communication circulaire avec des feed back et des réactions doublées.

On peut dire que les imputs qui se produisent dans le réseau de communication produisent parfois un effet cumulatif et parfois un effet distinctif et ceci selon la structure du réseau. En outre, les communications contradictoires génèrent une situation critique dans la famille qui apparaît à travers l'offre, qui est une solution au problème de la relation.

Nous avons également mis un contrat thérapeutique avec les membres de la famille à une alliance thérapeutique, ce contrat contient:

- * Déterminer la direction de la famille pour le thérapeute (individu / famille).
- * accepté les points de confidentialité.
- * Établir des objectifs et des processus concrets en peu de temps et qui comprennent l'amélioration de la communication au sein de la famille et de leur faire prendre conscience du problème de leur enfant handicapé et de les aider à accepter le handicap avec la façon pour une bonne prise en charge aux enfants handicapés.
- * Définir le cadre des rencontres.

Sans oublier le rôle actif du thérapeute qui a appliqué le traitement famille structurale pour travailler principalement sur la construction de la frontière existante entre les membres de la disposition générale, et de clarifier la frontière floue, et d'ouvrir la frontière rigide, afin de développer le système et arrivé avec la famille à un niveau d'équilibre, le changement se produit à travers le degré d'appartenance du thérapeute à la famille avec un schéma thérapeutique, il essaye de modifier la structure de la famille pour les modèles interactifs où il y a un dysfonctionnement, et tout cela par rapport au type du thérapeute et le système de la famille.

Au cours de l'application du programme thérapeutique on a passé par trois phases essentielles :

La première phase : on a essayé de présenter le programme thérapeutique, les objectifs, et cela était dans la première et la deuxième séance.

Deuxième phase : comporte les étapes d'application et les techniques du programme thérapeutique structurel avec les membres de la famille, et cela est au cours de plusieurs séances.

La troisième phase: est la dernière étape, son but est de résumer les objectifs thérapeutiques et préparer la famille pour terminer le traitement avec une révision de toutes les étapes du traitement.

Résultats du programme thérapeutique :

Après notre étude de la qualité et le niveau de trouble au sein de la famille, nous sommes concentrés sur la façon de les traiter et qui se représente dans une tentative pour apporter des changements dans le niveau de communication au sein de la famille et d'améliorer l'air troublé de la famille qui affecte les enfants, et particulièrement l'enfant handicapés. et pendant les entretiens avec la famille nous avons découvert la flexibilité, ça veut dire l'acceptation des membres de la famille le changement. Les Familles se varient d'un système à un autre dans le degré de flexibilité, elle est directement liée avec la maturité affective des parents, et leur estime de soi la confiance en soi et de l'autre joue un rôle très important dans l'ouverture et la fermeture du système sur le monde extérieur. Le travail pratique nous permet de distinguer les différents niveaux de la flexibilité :

1- **Initiative:** à ce niveau les individus sont caractérisés par la vigilance et la précision dans l'observation des troubles mentaux ou relationnelle, faisant ont suffisamment conscience de la nécessité du changement.

2- **l'acceptation:** accepter les opinions des autres, le psychothérapeute fonctionne pour attirer l'attention, à propos de la nécessité du changement.

3- **l'hésitation:** Il accepte l'opinion de l'autre sans l'admettre, avec Défense de l'opinion par peur de compromettre l'estime de soi et le statut de l'autre. Le psychothérapeute fonctionne dans ce cas de mettre de côté le cas de la culpabilité individuelle, avant de commencer à les convaincre de la nécessité de changer et de renforcer leur confiance pour les encourager à saisir les changements.

4- **déni:** est un état de la résistance au changement avec l'insistance sur les positions habituelles. Le psychothérapeute travaille avec ces cas de l'étudier plus profondément pour gagner la confiance des individus et de les convaincre de changer, car il est parfois conseillé de l'essayer avec chaque individu séparément.

5- **le rejet:** un cas d'opposition de l'autre opinion et de jeter le doute sur son état de santé, à l'exclusion de la nécessité du changement et de son potentiel. Le psychothérapeute a besoin d'étudier l'histoire des deux parents et les types de l'éducation reçue par chacun d'eux, afin d'explorer des moyens efficaces de persuader le besoin de changement.

6- **l'évasion:** un manque de désir dans la confrontation, et d'éviter la situation thérapeutique, et ces cas Le psychothérapeute ne peuvent faire rien parce que les individus préfèrent la poursuite de la souffrance qui a convaincu un nouvel avis ou appeler au changement.

Conclusion:

Les résultats de cette recherche soulignent l'importance de l'état de la famille afin d'aider les individus à atteindre la santé mentale et révèle que le champ de la thérapie familiale a encore besoin de l'investissement et des chercheurs privés dans la société algérienne Afin d'établir une culture spéciale de la famille algérienne et approprié pour le traitement de troubles et de problèmes rencontrés par des méthodes scientifiques, et cela pourrait contribuer à l'enrichissement de travail thérapeutique en général.

Les références:

- 1- AIMARD .P et MORGAN.A.(1985), *L'enfant sourd*, Paris, Ed PUF.
- 2- GERARD SALEM. (2009), *L'approche thérapeutique de la famille*, 5ème édition, Paris, Ed Masson.
- 3- GUIDETTI. M. et TOURETTE.C. (1999), *Handicaps et développement psychologique de l'enfant*, Paris, Edition Armand colin.
- 4- La classification internationale des maladies sur le site de l'université de Rennes 01.
- 5- MANNONI.M.(1964), *L'enfant arriéré et sa mère*, Paris, Edition Seuil.
- 6- MIMOUNI.B.M.(2005), *Les troubles mentaux de l'enfant et l'adolescent*, 2ème Edition, Algérie, Ed OPU.
- 7- Ordre des psychologues du Québec, Octobre,2007.
- 8- SATIR.V.(1982), *Thérapie du couple et de la famille*, Edition EPI.
- 9- SCHELLES.R.(1997), *fratrie et handicap*, Paris, Edition L'harmattan.
- 10- SILKE.S.(2012), *L'étude de cas en psychologie clinique, 4approches théoriques*, Paris, Edition Dunod.
- 11- TAN NGUYEN.(2005), *Pourquoi La psychothérapie ? fondements, méthodes, applications*, Paris, Edition Dunod.